الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسُّنة

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

الجزء الأول

سورة الفاتحة - البقرة

سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي

مخطوطة

السلام علیکم و رحمة الله و برکاته

نامه شریف همراه با دو جلد تفسیر شریف فرقان زیارت
و پس از سالها مفارقت و انقطاع اخبار مژده سلامتی
و موفقیت جنابعالی را دریافت داشتم حمد خدای را آوردم
و امیدوارم که پیوسته قرین عافیت و موفقیت بوده
و با الطاف و عنایات خداوندی عز اسمه مؤید و مسدد
باشید.

تفسیر شریف فرقان که زیارت شد کتابی است که موجب
روشنی چشم و مایه افتخار است انشاء الله با قوام قوی
مساعی خود را در این رشته تفسیر یعنی تفسیر قرآن کریم که
مبذول داشته در خدمت معارف قرآنی و پرده
برداری از روی دقایق این کتاب مکنون آسمانی خجسته
و مقبول نمایید توفیق و تأیید جنابعالی را از خداوند متعال
عز اسمه خواستارم.

والسلام علیکم و رحمة الله و برکاته
محمد حسین طباطبائی

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

تعريف تفسير «الفرقان في تفسير القرآن»:

إن الاسم الكامل لهذا التفسير هو «الفرقان...» حيث يتضمن تفسير جميع آيات وسور القرآن الكريم ،بدءاً وخَتْماً. وفقاً للمنهج التجزيئي (أي المنهج الذي يُفسّر القرآن آية بآية وهو مقابل التفسير الموضوعي الذي يُركّز على الجانب الخاص من موضوعات كتاب الله).

ويُعتبر هذا التفسير من حيث المحتوى والمضمون واحداً من أهم التفاسير الإمامية البديعة، فهو يقدّم للقارىء مفاهيم وشروحات جديدة وحديثة بعيدة عن الركاكة يسهل فهمها واستيعابها من قبل الجميع، من خلال جوٍّ منفتح يتنفس ويتغذى من كافة الموضوعات الجديدة والحديثة بشكل لم يلحظه أحدٌ من المفسرين القدامى.

أسلوب التفسير:

يُستدرك من العنوان الكبير لهذا التفسير، بأن المفسِّر اتخذ منهج «تفسير القرآن بالقرآن» و«تفسير القرآن بالسُّنة» مع العلم أنه صرّح في المقدمة أن منهج تفسير «القرآن بالقرآن»؛ هو الأفضل. لأن هذا الأسلوب - بحسب

رؤيته – هو أسلوب النبيّ الكريم ومنهج الأئمة الشيعة عليهم السلام، وعلينا جميعاً أن نلتزم بهذا المنهج القويم في تفسير كلِّ الآيات الكريمة.

يُصرّح الكاتب (رحمه الله) في تفسيره في مورد آخر بأن تفسير كتاب الله الكريم، يكون إما من باب «تفسير القرآن بالقرآن» وإما من باب «تفسير الرأي» والثاني غير مقبول لدى الجميع.

يؤكد مؤلف هذا التفسير في دراساته التحليلية والتفسيرية لهذا المنهج، بأن القرآن بذاته وفي ذاته نورٌ وبرهانٌ وبيانٌ وهدايةٌ؛ فمن الطبيعي إذاً أن يُبينه لنفسه قبل أن يكون مبيناً لغيره. لذا فإن النتيجة المتوخاة من هذا المنهج هو الحصول على المفاهيم والمعارف الأولية والأصلية التي تكمن في الدلالة المطابقية لمفهوم الآية، في حين أن الروايات التفسيرية جلَّ همّها هو إبراز الجوانب الخفية والمبطونة فيها.

يشير الدكتور آية الله الصادقي في مقدمة تفسير الفرقان، بأن هناك أربع مراتب للتفسير وهي:

«تفسير العبارة، والإشارة، واللطائف وأخيرها الحقائق».

والنماذج العملية في التفسير هي: أن المفسر في تفسير المأثور والنقلي، يفكّر في الأكثر على التناسب والتعاطي للمعاني المختلفة للآيات والكشف عن المفاهيم الجديدة المتناسقة معها.

وهذا الأسلوب في الواقع هو أسلوب «تفسير القرآن بالقرآن» الذي نحن بصدد اعتماده مع الاستفادة ضمناً من السُّنة والنقل. وبالتالي فإن هذا ما يجعلنا نؤكّد بأن هذا التفسير (تفسير الفرقان) يدخل في الخانة التحليلية والاجتهادية، والتربوية والاجتماعية التي نزل القرآن لأجلها.

المميزات الخاصة لهذا التفسير:

١ - الأسلوب والمنهج الكتابي.

أسلوب الكتابة فيها:

استفاد مؤلف هذا التفسير من صناعة التضمين والتسجيع ومن أسلوب المصادر الصناعي والجعلي؛ حيث اتخذ منهجاً جديداً في التفسير، لم يرد سابقاً في التفاسير الموجودة.

وهذا الأسلوب البديع يجعل القارىء، في البداية في وضعٍ يصعب عليه فهم الآيات، وعند مواجهته يشعر بالتكلف والتصنع والتعقيد ولكن بعد احتكاكه وتمعنه به وارتياحه له، سيشعر بطمأنينة وخاصة بعد اطلاعه على تلك التعابير القيمة والسلسة والتي ستساعده على فهم كافة المعاني والمفاهيم التفسيرية الواردة في هذا التفسير. خاصة وأن هذا التفسير جمع بين الأسلوب العلمي والمنهج الأدبي والفني السائد والجاري في الثقافة الدارجة بين اللبنانيين والصحف اللبنانية؛ حيث عاش المفسّر مدة هنا متأثراً بهذه الثقافة الرسمية.

٢ - الاستيحاء والتعاطي من وسعة (ظرفية) المفاهيم وانفتاحها:

ومن الخصائص البارزة لهذا التفسير، هو الإلهام والاستيحاء من وسعه وانفتاح المفاهيم والمفردات التي لا تحدّد من ناحية الطبيعة المعرفية والمفهومية لظروفها الضيقة والخاصة (في مورد النطق والنزول - مثلاً) بل هي قابلة للانطباق على المصاديق المتعددة في المستقبل - ولاسيّما بالنسبة لمفاهيم القرآن نتيجة لانفتاحه على كلِّ عصرٍ ونسلٍ ولذلك حمّل وأوّل كثيراً «المفاهيم القرآنية» على طول الزمن لغير الموارد التي وردت الآية فيها؛ أو طرحت في التفاسير التي تُحدِّد «المفاهيم على المصاديق الضيقة من موارد

خاصة..» كما هو الأمر في الجري والتطبيق. وإن كان هذا الأسلوب (حمل على الجري والتطبيق) وبالعودة إلى كتاب تفسير الميزان القيّم، للعلامة الطباطبائي؛ نشير إلى نموذجٍ ورد في الآية ٣ من سورة النساء: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ حيث اعتبر المفسر بأن العدالة في هذه الآية ليست العدالة الفردية فقط، بل تشمل العدالة الاجتماعية أيضاً، ولذلك لو كان عدد الرجال والنساء مساوياً في المجتمع فلا يسمح للرجل بزواج ثانٍ لأن ذلك يُخالف العدالة ويُسبِّب الظلم[1].

ومثل هذه النماذج موجودة حتماً في تفسير الفرقان حيث استفاد المؤلف من الإطلاق وطبيعة المفهوم اللغوي واللفظي؛ حيث لم تعدُ طبيعة المفاهيم القرآنية محصورة في مورد خاص لناحية نزول الآية وعدم تحديدها لفهم أفراد وقراءات خاصة منها! وهذا وحده سبب كافٍ لجعل الآيات متشابهة وهو في الوقت ذاته مخالف للقرآن[2].

٣ - استعمال الكلمات المشتركة في معانٍ متعددة:

من إحدى خصوصيات التفسير، هو أنه يحمل «المفاهيم المشتركة في القرآن» على المعاني والمفاهيم المتعددة والمتنوعة طولاً وعرضاً لمصاديق هذه المفاهيم؛ وهو حتماً في هذا السياق يوافق القواعد العلمية والأدبية وحتى إرادة المفاهيم المتخالفة ((؟)) بينما التفاسير الأخرى اتخذت معنى واحداً للمفهوم وتركت المفاهيم الأخرى، وقد أشار الكاتب إليها في تفسيره كذلك «لو كانت الآية الواحدة تحمل معانٍ واسعة (وهي غير متضادة للسياق والمنهج القرآني العام) فإن هذه المعاني سيصعب على القارىء فهمها، الأمر الذي سوف يوّلد التباساً وخلطاً للبعض مما يعسِّر عملية توضيح أو فهم

(١) تفسير الفرقان ج٦ ص١٧٢.
(٢) الفرقان ج ١ص٥٠.

المفاهيم المشتركة لمعان ذي مراتب متعددة مثل كلمة «العلم» التي تشمل «علمه تعالى سبحانه» و«علم الإنسان العادي». . . «وهذا يدل على فصاحة القرآن وبلاغته وشموليته للمعاني وللدلالات الكثيرة على طول الزمن. . . »[1].

٤ - شأن النزول في الآيات:

قدّم المؤلف في مقدمة تفسيره آراءه حول شأن النزول في الآيات بوضوح وشفافية قائلاً: «. . . مع أن شأن النزول في الآيات يساعد المفسر في فهم الآيات ولكن لا يمكن أن نجعل هذا ملاكاً لمعرفة الآيات كلها؛ لأن فهم الآيات يُستفاد من نفس الألفاظ في الدلالات القرآنية مستقلاً. . . »[2].

إن إذعان المفسر في مورد شأن النزول الآيات، لفهم الآيات وتبيينها، مع أنه مبتنٍ على تمحور تفسير القرآن بالقرآن، ولكن في الوقت نفسه هو يستند في فهم الآيات إلى موردين وعنصرين: الأول هو تعارض الروايات في شأن النزول، والثاني كونها تطبيقية، حيث يضعّف هذان العنصران دور شأن النزول في فهم الآيات[3].

معرفة النسخ - وسير تدوين التفسير بدءاً وختماً:

دُوّن هذا التفسير من خلال محاضرات تدريسية لطلبة العلوم الدينية في حوزة النجف وقم حيث بلغ عدد صفحاتها بحدود ١٧٠٠٠ صفحة من القطع الوزيري، وقد تم نشره في العراق ولبنان والحجاز وإيران، واستمرت كتابة

(١) الفرقان ج ١ ص٣٢.
(٢) الفرقان ج ١ص٥٠.
(٣) تفسير الفرقان، ج ٩، ص٢٧.

هذا التأليف حتى عام ١٣٩٧ق، والبداية كانت في بيروت عبر مؤسسة (الأعلمي ١٣٩٥)، ومؤسسة الوفاء عام ١٤٠٧ق ومن ثم نُشِر وطُبع في قم بواسطة انتشارات «فرهنگ إسلامي وأيضاً بالقطع الوزيري».

٣ - تاريخ قصص الأنبياء والإسرائيليات فيها:

بالنسبة للتاريخ والقصص التي ترتبط بسيرة الأنبياء والرسل، فإن المفسر لم يأخذ بصحتها وذلك لورودها عبر روايات عديدة، بينما الأصح هو أن يكون عبر كتاب الله الكريم. «فلنسكت عما سكت الله» ولا ندخل في التفاصيل والجزئيات... فما ورد في بعض الروايات، لا اعتبار لها ولا يمكن الأخذ بها وحتى أن بعضها تُحسب من الروايات الإسرائيلية[(١)].

إن هذا التفسير مخالف حتماً لناحية إدخال الروايات الإسرائيلية في تفسير القرآن، لأن فيها أبعاداً سلبية حتى ولو كانت أسنادها صحيحة ومعتبرة ولذلك اختار المؤلف في تفسيره أسلوب «تفسير القرآن بالقرآن» متجنباً الوقوع في مثل هذه المزالق[(٢)].

٤ - المباحث الاجتماعية:

يهتم هذا التفسير اهتماماً كبيراً بالنسبة للموضوعات الاجتماعية. فيطرح إلى مواضيع عديدة ما بين اقتصادية وحقوقية، ويتناول بشكل دقيق دور المرأة وقضية تعدد الزوجات إضافة إلى الأنظمة الاجتماعية ومسألة الشورى والوحدة وغيرها. فيطرح الملاحظات الكثيرة حول المفاهيم والآراء نقداً وتأييداً[(٣)]..

(١) الفرقان، ج١ ص ٣٥.
(٢) الفرقان ج١ ص٢٠-٢١.
(٣) الفرقان ج ٤ ص١٦٣.

٥ - الاتجاه الشيعي في التفسير:

إن هذا التفسير؛ تفسير شيعي إمامي بحت، حيث يتوجه ناحية المذهب الشيعي[(١)] ولكن في الوقت نفسه يتخذ المؤلّف موقفاً محايداً تجاه المذاهب والآراء التفسيرية والفقهية والكلامية وغيرها. فهو يرتئي بأن التعصب والتقليد، ليس تفسيراً ومذهباً قرآنياً، بل هو رأي شخصي. فهو عند اعتماده أسلوب تفسير القرآن بالقرآن والروايات الموافقة لها لم يفرق بين الروايات المنقولة من الشيعة أو السُّنة. بل على العكس في ذلك فهو يجمع بين آراء الاثنين، محاولاً انتقادها بأسلوب سلسٍ ومرن.

النظرة الكلية والعامة للمصنف:

١ - نسخ القرآن:

تتضمن عملية النسخ نوعين:

نسخ القرآن بالقرآن

ونسخ القرآن بالسُّنة

فالمفسر يقبل النسخ في المورد الأول، في موارد خاصة كحكم النجوى وحدّ الزنا وكيفية الحرب مع الكفار، في حين أن مؤلف تفسير الفرقان، يرفض النسخ بالسّنة. لأن حكم الناسخ يبطل حكم المنسوخ والقرآن غير قابل للبطلان[(٢)].

إن هذا الإذعان من شأنه أن يوسع دائرة البحث في الردّ والنقد حول النسخ والروايات المعارضة (حتى الروايات المنصوصة) فيها مع عموم القرآن وخاصها.

(١) الفرقان ج ٣٠ ص١٥.
(٢) الفرقان، ج١ ص٣٩.

٢ - ظهر القرآن وبطنه:

يعترف مفسر الفرقان كسائر المفسرين بأن للقرآن ظهر وبطن. لأن الروايات التي وردت فيها متواترة. مع أن خلود القرآن وإعجازه يقتضي أن يكون للقرآن بطون، فالمفسر هنا يقدّم أو بالأحرى يستحدث تعريفاً بديعاً وجديداً حول «البطن والظهر».

إن مؤلّف كتاب الفرقان، ومن خلال استفادته من رواية رُويت عن الإمام علي عليه السلام يشير إلى أن لبيان القرآن سطوح ومراتب؛ إحداها ظاهرة والثلاث الباقية ترتبط ببطن القرآن (الإشارات، واللطائف والحقائق)، والدرجة الأخيرة هي التأويل التي يختص فهمها للوحي[(١)].

أما المرتبتان الأخيرتان، فلهما درجات وشؤون من المعاني نعرفها بعنوان بطون القرآن - كما وردت في الروايات - وهدفها كشف معاني القرآن ورفع الإبهام عند القارىء (أرجو الدقة).

إن كتاب الفرقان يكتب: «..»[(٢)].

٣ - المحكم والمتشابه في القرآن:

إن مفسر الفرقان رحمه الله يذهب في تفسيره، بأن «المتشابه» ليس من مقولة الدلالة. مستفيداً بذلك من رواية عن الرضا عليه السلام حيث يقول: «المتشابه ما اشتبه علمه على جاهله» ولذا لا يكون لمفردات القرآن قصور أو تقصير في دلالاتها على المقصود. فالآيات ومفرداتها، تدل على المراد بكلِّ وضوح، كما يؤكّد ويركز في هذا التفسير عليها[(٣)].

(١) الفرقان ج١ص٥١.
(٢) الفرقان ج١ ص٥٤.
(٣) الفرقان ج ٢٧ ص١١٨ وج ٣٠ ص٣٠.

٤ - التأمل في التعابير والتدبُّر في الكلمات:

يهتم مفسرنا كثيراً باستخدام المفردات والكلمات وكيفية الاستفادة منها وخاصة في نوعية طرحها للهداية (كما هو هدف القرآن). لأن هذا هو المفتاح الوحيد لفهم الآيات وتفسيرها. ونذكر مثالاً لفهم هذا الموضوع: إننا عندما نقرأ ونوجّه الخطاب القرآني بكلمة «يا أيها» كما هو الأمر في سورة البقرة في الآية ٢١ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى﴾ نرى أن كلمتي ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ و﴿ٱلنَّاسُ﴾ تتضمن معنى ظريفاً بأن ﴿ٱلنَّاسُ﴾ هم البعيدون عن الله قبل عبادته (سبحانه) ونفهم هذا من كلمة (يا) التي وضعت للنداء البعيد - كما هو واضح في علوم العربية[(١)].

٥ - جعل القرآن ملاكاً لفهم غرض الآيات لا آراء المفسرين:

هناك ظاهرة أخرى لمنهج تفسير الفرقان، ألا وهي عدم الاعتماد على آراء المفسرين في موضوع فهم القرآن وخاصة إذا كانت بعيدة عن القرآن نفسه. فالمفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من خلال التدبُّر في مفردات القرآن وتركيبات كلماتها، تجده يفسر الآية مباشرة وبمساعدة آيات أخرى؛ أو بالاستعانة بالروايات الصحيحة فيها. نعم فهو ينقل في بعض الأحيان بعض الآراء أو ينتقدها في مجاله ولكن بأسلوبه هو، أي الإلهام من كتاب الله لناحية فهمه وعدم الالتفات لآراء المفسرين.. حيث يؤكد المفسر في مكان ما من تفسيره، بأن آراء المفسرين، هي آراء شخصية بحيث يتم التفسير كلٌّ بحسب رأيه الخاص به[(٢)].

بالرغم من أسلوب تفسير القرآن بالقرآن الذي اعتمده المؤلف فإن هذا

(١) الفرقان ج١ ص٢١٤.
(٢) الفرقان ج ١ ص ٣٠٩ وج٣٠ ص ٦.

الأمر لا يُلغي حتماً صحة الاستفادة من الروايات خاصة تلك التي تتضمن تفسيراً روائياً فقد يستشهد المفسر ببعض الروايات لتوضيح بعض المفاهيم في الآيات وكذلك أبعاد معانيها الواسعة التي لا تنحصر بزمان دون آخر. ولا ننسى أيضاً في هذا السياق استفادة المفسر من الروايات في شأن النزول أيضاً[(١)].

إن المعيار والميزان في فهم الآية يعتمد على الآية نفسها ودور الرواية فيها وهو تأييد المنطوق والمفهوم فيها لتوسعة دائرة دلالة المفاهيم. وهذا هو تفسير القرآن بالقرآن، مع الأخذ أيضاً من الروايات للاستيحاء من محتويات القرآن المنفتحة والملهمة الثرية. وهذه نقطة إيجابية أخرى لهذا التفسير.

٦ - بحث فقهي استدلالي:

هناك تفاسير أخرى مثل تفسير القرطبي، يطرح المباحث الفقهية ولكن الفرقان؛ برغم طرحه للمباحث نفسها من آيات الأحكام، إلّا أنه يركز على «فقه القرآن» فهو يهتم كثيراً بالمباحث الفقهية الاستدلالية فيركز على الأسلوب والمنهج الاجتهادي من خلال التتبع والتدبر في المفاهيم والتعابير واستنطاقها حسب قواعد اللغة الأدبية والبلاغية، لفهم حُكْمٍ شرعي من خلال مفردات الآيات وكذلك ينقّح الروايات جرحاً وتعديلاً، سنداً ودلالة ليستخرج منها حُكماً إلهياً، وفق منهج فقه القرآن بالقرآن، وبنتيجة هذا المنهج اكتسب تفسير الفرقان مركزاً مهماً في الفقه القرآني.

يشير المفسر في مقدمة التفسير إلى أهمية هذا المنهج، بمعنى أنه لو لم يطرح الفقه القرآني من خلال المباحث القرآنية، لبقيت الآيات الفقهية في

(١) راجع الفرقان ج ٥ ص٢٧٥ ج ٣٠ ص٢١ و٢٥.

كتاب الله غير واضحة. ولذا عمد مفسر الفرقان؛ إلى إدخال وإدراج مباحث وروايات جديدة في الفقه القرآني.

٧ - تعدد المصادر في هذا التفسير:

من مميزات هذا التفسير هو التنوع والتعدد في منابعه ومصادره التي يستفيد منها المفسر. فمن خلال تتبعنا لذلك، حصلنا على النتائج التالية:

ألف - بلغت المنابع والمصادر الحديثية المعتمدة في هذا التفسير بحدود ٨٠ مأخذاً بما فيها من الصحاح ومسانيد أهل السنة وأدعية أهل البيت عليهم السلام إضافة لصلتها الوثيقة بفهم القرآن الكريم. فمن خلال تركيز المفسر على الأحاديث المعتبرة والتي لم تخالف القرآن؛ لم يهتم بالجانب السندي (التركيز على كونها موثوقة الصدور، لا أنه يصدر من الثقة - حسب المصطلح الموجود في علم الحديث والدراية) لا بل استفاد المفسر في بعض الأحيان من بعض المصادر التي لا استحكام فيها من حيث السند.

ب - المصادر التفسيرية:

بلغت المصادر التفسيرية التي اعتمد عليها المؤلف في تفسير الفرقان حوالي ٢٥ تفسيراً؛ حيث تم استخدامها في نقد آراء المفسرين الآخرين ومن بين هذه التفاسير: الثقلين، والدر المنثور، وتفسير القمي، والبرهان الذي يعتمد في القرآن على الروايات. وأما تفسير الفخر الرازي، والمنار، وصدر المتألهين، والميزان، وطنطاوي فهي من التفاسير التي اهتم مفسرنا في الفرقان بنقل المطالب أو نقدها منها مثل ج ٦ ص ٣٦٧.

ج - المصادر اللغوية: هناك مجموعة من كتب اللغة استعان بها المفسر في تفسيره ألا وهي: لسان العرب، القاموس، المصباح، تاج العروس، مفردات الراغب، ونهاية ابن الأثير.

نذكر هنا بأن مفسر الفرقان يدرّس اللغة في مباحثه اللغوية بصورة عامة

وغير مقيدة ومستندة إلى منابع معينة، كما أنه لا يذكر مصادر هذه الكتب غالباً.

د - المنابع المتفرقة:

وصل عدد هذه المنابع والمصادر إلى أكثر من ٦٠ مصدراً من الكتب والمقالات والدراسات في الموضوعات المختلفة حيث تجد فيها الكتب العلمية والتاريخية والموسعية (دائرة المعارف) وبعض المجلات والصحف ذُكرت أغلبها لتأييد نظرية تفسيرية وفي بعض الأحيان نُقلت لنقد الكتَّاب ومستنداتهم في ظلال الآيات والمفاهيم القرآنية.

٨ - الاستفادة والاستعانة بكتاب العهدين باللغة العبرية:

من إحدى مميزات تفسير الفرقان، والتي لا نظير لها هي الاستفادة من المتون العبرية في كتاب العهدين. والهدف من نقل هذه المطالب هو أولاً التأييد للمفاهيم القرآنية وصحة حقائقها وإخبارها من البشارات حول النبي محمد ﷺ [(١)] وثانياً الاستناد إلى التناقضات والتحريفات التي وقعت في كتاب العهدين[(٢)].

٩ - الإبداع والتحديث

إن تفسير الفرقان، وصل في دراساته إلى إبداعات ونظريات جديدة ومبتكرة ولاسيّما في دراسات فقه الأحكام، سواء كانت هذه النظريات صحيحة أو لا. لأن المهم هو فتحُ آفاق جديدة أمام القارىء من نظريات واحتمالات. ولتوضيح هذا المثال نشير إلى نموذج بأن المفسر يذكر جميع الآيات التي وردت حول «العلم» في نسبتها إلى الله في مجرى الزمان؛ مثل

(١) الفرقان ج١ص ٣٦١.
(٢) الفرقان ج ١، ص٣٤٣.

«علم الله» و«يعلم الله» وغيرها، فلم يذهب (لم يقبل) مؤلف الفرقان، بأن معنى «العلم» هنا هو «المعرفة». بل هي من مصدر «العلامة»[(١)].

وفي مبحث وموضوع العصمة (عصمة الأنبياء) فللمؤلف نظرية ثالثة في قبال نظريتي العصمة وعدم العصمة. فهو يذهب في دراسته إلى أن النبوة بعنوان عهد ومسؤولية ربانية لأنبياء أولي العزم، وهذا يستلزم حتماً العصمة وأما في أنبياء آخرين مثل آدم عليه السلام فلا ضرورة للعصمة[(٢)].

فالمفسر في مسألة «الخلق والأمر والمادة والتجرد» يعتقد بأن المجرد الواقعي هو الله وحده[(٣)].

وكذلك في مسألة مُبطلات الصوم، فإن له نظرية في أن شرب الدخانيات لا تبطل الصوم[(٤)].

فمن خلال قراءتنا لهذا التفسير نواجه مثل هذه الآراء النادرة، أو الشاذة غير مسبوقة في نظريات الآخرين من المفسرين. ولا شكّ في أنها تحتاج إلى النقد والإشكال.

١٠ - المواصفات والمشخصات المشتركة لهذا التفسير مع التفاسير الأخرى:

نشير في هذا القسم من الدراسة ومن خلال ما تقدم إلى بعض خصائص ومناهج تخص هذا التفسير ومن بينها:

١ - السياق والتناسب

لم يهتم مفسر الفرقان، بسياق الآيات كثيراً، وخاصة أنه لا يستفيد منها

---

(١) الفرقان ج ٢٧ ص ١٢٩.
(٢) الفرقان ج١ ص٣٢٤.
(٣) الفرقان ج ١ص ٢٩.
(٤) الفرقان ج ٣ ص ٦٩-٧٠.

لتفسير الآيات عادة. فهو عندما يتطرق إلى آية أو مجموعة منها، لا يركز بالاستدلال أو الابتناء لنظرية تفسيرية من خلال ترابط الآيات وتناسبها. إلّا أن يكون الارتباط والتنسيق بين القبل والبعد شديداً جداً فهو ربما يستفيد منها لناحية المفهوم التفسيري إلى جانب مبادئه الأصلية في المنهج التفسيري.

إن المفسر في تفسيره (الفرقان) يعتبر بأن «ترتيب الآيات» في القرآن وحيانية وتوقيفية؛ مثل تنزيلها فهي ترتبط بالله تعالى وليس بأشخاص وجهات وحتى النبي ﷺ[1]..

فهو يحدّد ترتيب السور في القرآن من الله تعالى كما هو الأمر كذلك في التنزيل. فلذلك فإن التنسيق بين الآيات أو السور أمر طبيعي وغير مردود ولكن فهم هذا الترابط والتنسيق فيها لا يُستوعب غالباً مع أنا لا يمكننا أن ننكر أنه في بعض الأحيان يمكن أن نصل بالتدبر والتدقيق إلى دلائل هذا الترابط؛ لأن ترتيب هذا الكتاب وتبويبه لا يكون جزافياً أيضاً.

٢ - القراءات

فيما يتعلق بموضوع القراءات نلاحظ بأن مفسرنا يعتقد بتواتر القراءة الموجودة في القرآن - الذي هو بين أيدينا - غير آبهٍ بتعدد القراءات. فحينما يطرح المفسر آراءه لنقد مذاهب المعتقدين بتعدد القراءات، فإن مرّد ذلك يعود إلى أن تلك الآراء وتلك الروايات تشير إلى قراءات مختلفة وهي غير متواترة وغير مرسومة لدى المسلمين عامة[2]. إلّا أن المفسر يقبل قراءة «آل ياسين» (في سورة الصافات)، محتجاً بأن القراءة المتواترة هي قراءة «آل ياسين»، مع أنه حسب تأييد الروايات لصحة قراءة الهمزة الممدودة يؤيد هذه القراءة أيضاً مع وجود اختلاف في المعنى والمفهوم بين القراءتين.

(١) الفرقان ج١ص ١٥١-٢٢٩.
(٢) الفرقان ج١ ص٩٨.

رسالة من صاحب تفسير «الميزان»

تعريفاً بتفسير الفرقان

من عشرات الرسائل التي وصلتنا تعريفاً بتفسير الفرقان من مختلف رجالات العلم وعباقرة الفضل والتفكير وأصحاب التفسير في شتّى أنحاء العالم رسالة صاحب «الميزان» الإمام الأعظم سماحة الحجة السيد محمد حسين الطباطبائي دام ظله الوارف على رؤوس المسلمين، وإليكم ترجمتها الحرفية:

فضيلة شيخنا الشيخ الدكتور محمد الصادقي المحترم دامت إفاضاته.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

زرنا مجلدين من تفسيركم الشريف (الفرقان) مع كتابكم الكريم، فبعد فراق طويل بيننا بأعوام عدة، وانقطاع أخباركم عنا بزمن بعيد، يسرني أن وصلني نبأ صحتكم وتوفيق سماحتكم، فحمدت ربي، وأرجو منه سبحانه أن يقرنكم دائماً بالعافية والتوفيق، وأن يسدّد خطاكم، ويؤيدكم بألطافه وعناياته الخاصة.

إن تفسير «الفرقان» الشريف الذي زرته، إنه لكتاب يقرُّ عيوننا، وهو سند عزّنا وأصلٌ من مفاخرنا - نحن المفسرين - إن شاء الله تعالى تكرس كافة طاقاتك وإمكانياتك وتبذل جميع مساعيك في مواصلة هذا الأسلوب الفريد من التفسير - أعني: تفسير القرآن بالقرآن - فلا تملَّ ولا تكسل ولا تفشل في هذا المشروع العظيم، خدمة للمعارف القرآنية، وكشفاً للقناع عن

ذخائر هذا الكتاب المكنون السماوي، وأرجو من الله عزّ اسمه لكم التوفيق وأن يؤيد سماحتكم في هذه السبيل، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محمد حسين الطباطبائي

المدخل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً. قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً.

تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً وهادياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

وصلواته التامات الزاكيات على من أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً!.

اللّهم صلِّ وسلّم وزد وبارك على محمد عبدك ورسولك ونبيّك ونجيّك وصفوتك وصفيك وخير خيرتك نبي الأمة وإمام الرحمة، وعلى آله الطاهرين المعصومين الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً.

رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً.

رب وفقني لتقواك واجعل لي من أمري يسراً وكفّر عني سيئاتي وأعظم لي أجراً. واجعل لي مخرجاً و«فرقاناً» إنك كنت بنا بصيراً.

رب اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي وكفى بك هادياً ونصيراً.

إن القرآن «نور وبرهان»: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا

مُّبِينًا﴾[١]. و«بـــيــــان»: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٢]. و«مــبــيــن»: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾[٣]. ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[٤]. وتبيان: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[٥].

وهذا النور البرهان - المبين البيان التبيان: قرآن عربي لا عوج له في كونه وكيانه، في بيانه وبرهانه، مفصحاً بليغاً بأعلى القمم لأعلى القيم في تبيانه، وترى النور بحاجة إلى نور، والبرهان يحتاج إلى برهان؟! وهو نور الأنوار ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[٦]!.

فـ«إن هذا القرآن هو النور المبين، والحبل المتين، والعروة الوثقى، والدرجة العليا، والشفاء الأشفى، والفضيلة الكبرى، والسعادة العظمى، من استضاء به نوّره ومن عقد به أموره عصمه الله، ومن تمسك به أنقذه الله، ومن لم يفارق أحكامه رفعه الله، ومن استشفى به شفاه الله، ومن آثره على سواه هداه الله، ومن طلب الهدى في غيره أضله الله، ومن جعله شعاره ودثاره أسعده الله، ومن جعله إمامه الذي يقتدي به، ومعوّله الذي ينتهي إليه أداه الله إلى جنات النعيم والعيش السليم»[٧].

فـ«إنه هدًى من الضلالة، وتبيان من العمى، واستقالة من العثرة، ونور من الظلمة، وضياء من الأحداث وعصمة من الهلكة، ورشد من الغواية، وبيان من الفتن، وبلاغ من الدنيا إلى الآخرة، وفيه كمال دينكم، وما عدل أحد عن القرآن إلّا إلى النار»[٨].

(١) سورة النساء، الآية: ١٧٤.
(٢) سورة آل عمران: ١٣٨.
(٣) سورة يوسف، الآية: ١.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٢٨.
(٥) سورة النحل، الآية: ٨٩.
(٦) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٧) تفسير الإمام الحسن العسكري عن أبيه عن آبائه عن النبي ﷺ.
(٨) أصول الكافي ٢: ٦٠٠ - أبو علي الأشعري عن بعض أصحابه عن الخشاب رفعه قال قال أبو عبد الله عليه السلام: والله لا يرجع الأمر والخلافة إلى أبي بكر وعمر أبداً ولا إلى بني أمية =

«فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنه شافع مشفَّع وماحل مصدَّق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل، وهو الفصل وليس بالهزل... ظاهره أنيق، وباطنه عميق، له نجوم (تخوم) وعلى نجومه (تخومه) نجوم (تخوم) «لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى، ومنار الحكمة، ودليل المعرفة لمن عرف الصفة فليجلُ جالٍ بصره وليبلغ الصفة نظره ينج من عطب ويتخلص من نشب فإن التفكر حياة قلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور فعليكم بحسن التخلص وقلة التربص»[(١)].

«نورٌ لا تطفأ مصابيحه، وسراج لا يخبؤ توقُّده، وبحر لا يدرك قعره، ومنهاج لا يضل نهجه، وشعاع لا يظلم ضوءه، وفرقان لا يخمد برهانه، وتبيان لا تهدم أركانه، وشفاء لا تخشى أسقامه، وعزّ لا تهزم أنصاره، وحق لا تخذل أعوانه، فهو معدن الإيمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافي الإسلام وبنيانه، وأودية الحق وغيطانه، وبحر لا ينزفه المنتزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يفيضها الواردون، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام لا يجوز عنها القاصدون، جعله الله ريّاً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاجّاً لطرق الصلحاء، ودواء ليس بعده داء، ونوراً ليس معه ظلمة، وحبلاً وثيقاً عروته، ومعقلاً منيعاً ذروته، وعزاً لمن تولاه، وسلماً لمن دخله، وهدىً لمن ائتم به، وعذراً لمن انتحله، وبرهاناً

= أبداً ولا في ولد طلحة والزبير أبداً وذلك أنهم نبذوا القرآن وأبطلوا السنن وعطلوا الأحكام وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ...

(١) أصول الكافي ٢: ٥٩٨ علي بن إبراهيم عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ...

لمن تكلم به، وشاهداً لمن خاصم به، وفلجاً لمن حاجَّ به، وحاملاً لمن حمله، ومطيّة لمن أعمله، وآية لمن توسم، وجنّة لمن استلأم، وعلماً لمن وعى، وحديثاً لمن روى، وحكماً لمن قضى»[(١)].

وهو «بيان ما قبلكم من خبر، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من وَلِيه من جبار فعمل بغيره قصمه الله، ومن التمس الهدى في غيره أضلّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم. لا تزيغه الأهوية، ولا تلبسه الأقضية، ولا يخلق على الرد، ولا ينقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، هو الذي لم تلبث الجن إذ سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ۝٢﴾[(٢)] من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن اعتصم به فقد هدي إلى صراط مستقيم، هو الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد[(٣)].

إنه «بقية استخلفها عليكم كتاب الله الناطق والقرآن الصادق والنور الساطع، والضياء اللامع، بينة بصائره منكشفة سرائره، متجلية ظواهره، مغتبط به أشياعه، قائد إلى الرضوان اتّباعه مؤدّ إلى النجاة استماعه، به تنال حجج الله المنورة، وعزائمه المفسّرة، ومحارمه المخذّرة، وبيناته الجالية، وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة»[(٤)].

(١) مما يروى عن علي أمير المؤمنين من غزير كلامه حول القرآن (نهج البلاغة). الخطبة ١٩٣ ص ٢٢ - عبده.
(٢) سورة الجن، الآيتان: ١، ٢.
(٣) تفسير العياشي بإسناده عن الحارث الأعور قال دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام فقلت: يا أمير المؤمنين! إنا إذا كنا عندك سمعنا الذي نسد به ديننا وإذا خرجنا من عندك سمعنا أشياء مختلفة مغموسة ولا ندري ما هي - قال: أو قد فعلوها؟ قال: قلت: نعم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: آتاني جبرئيل فقال يا محمد صلى الله عليه وآله! ستكون في أمتك فتنة - قلت: فما المخرج منها؟ فقال: كتاب الله فيه..
(٤) من خطبة الصديقة الطاهرة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وآله حينما غصب حقها.

وقد سئل علي عليه السلام هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيء من الوحي؟ قال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلّا أن يعطي عبداً فهماً في كتابه[١] تدليلاً على أن القرآن هو الوحي الأصيل، والضابطة بلا بديل، ووحي السنة هامشي ليس يوصّل إلّا فهماً لوحي القرآن وتفصيلاً.

فلنخضع للقرآن كما لله فإنه خير كلام لله، وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من قرأ القرآن ولم يخضع له ولم يرقّ عليه ولم يغش حزناً أو وجلاً في سرّه فقد استهان بعظم شأن الله وخسر خسراناً مبيناً، فقارئ القرآن يحتاج إلى ثلاثة أشياء: قلب خاشع وبدن فارغ وموضع خال، فإذا خشع لله قلبه فرّ منه الشيطان الرجيم، وإذا تفرغ نفسه من الأسباب تجرد قلبه للقراءة فلا يعترضه عارض فيحرمه نور القرآن وفوائده، وإذا اتخذ مجلساً خالياً واعتزل من الخلق بعد إن أتى بالخصلتين الأوليين استأنس روحه وسرّه بالله، ووجد حلاوة مخاطبات الله عباده الصالحين، وعلم لطفه بهم، ومقام اختصاصه لهم، بقبول كراماته، وبدائع إشاراته فإذا شرب كأساً من هذا المشرب فحينئذ لا يختار على ذلك الحال حالاً وعلى ذلك الوقت وقتاً بل يؤثره على كلِّ طاعة وعبادة لأن فيه المناجاة مع الرب بلا واسطة فانظر كيف تقرأ كتاب ربك ومنشور ولايتك، وكيف تجيب أوامره ونواهيه، وكيف تمتثل حدوده فإنه كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فرتله ترتيلاً، وقف عند وعده ووعيده، وتفكر في أمثاله ومواعظه واحذر أن تقع من إقامتك حروفه في إضاعة حدوده»[٢].

فالأصل في كلِّ شارد ووارد هو القرآن، يُردّ إليه غير الضروري من

(١) عن مصباح الشريعة المنسوب إلى الإمام الصادق عليه السلام.
(٢) المصدر السابق نفسه.

الدين، ليعرف به المارد عن الوارد، ويميّز به الغث عن السمين والخائن عن الأمين.

وإذا كان القرآن هو المعوَّل والمرجع لسواه، فبأن يكون مرجعاً لنفسه أحرى حيث التمسك بالقرآن في الأمور المشتبهة إصلاح لها، ووصول للرشد فيها، فهو أحق أن يمسَّك في تفسيره بنفسه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾[1]! فالذين لا يمسكون بالكتاب أو يمسّكون في تفسير الكتاب بغير الكتاب هم من المفسدين، حيث المرجع الوحيد في المختلف فيه هو الله، ولا يمثل الحكم فيه إلّا كتاب الله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2] ثم وموقف السنة المحمدية هو موقف الهامش الشارح لكتاب الله، ما ثبت أنها من سنته، ولا يعرف إلّا بموافقته لكتاب الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[3]. - فـ«اردد إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ويشتبه عليك من الأمور، والرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه، والرد إلى الرسول ﷺ الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة»[4].

ثم و﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ هم حملة السنة المحمدية السليمة، كما أمر الله بطاعتهم المطلقة بعده وبعد رسوله: فطاعة أولي الأمر هي طاعة الرسول ﷺ حيث لا يصدرون إلّا عن الرسول، فمثنى الذيل في الآية ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ هو مثلث الصدر فيها ﴿. . . وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ فإنهم لا يحملون إلّا سنة الرسول ﷺ.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٠.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١٠.
(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩.
(٤) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.

ففي هذا المثلث البارع من الطاعة المطلقة طاعة الله هي القاعدة الرصينة وطاعة الرسول بعدها هي الزاوية الأولى حيث يصدر عن الله، و﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ هم الزاوية الأخيرة حيث يصدرون عن رسول الله، ولا سبيل للتعرف إلى واقع السنة التي ترويها الرواة إلّا موافقتها لكتاب الله و﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾: مأخذاً ومآلاً.

فـ«القرآن يفسر بعضه بعضاً وينطق بعضه على بعض»[(١)] وآيات العرض وأحاديثه المتواترة تفرض على المستفسرين عن آي الذكر الحكيم أن يبدؤوا بالتدبر في القرآن نفسه كما يجب، ثم عرض الأحاديث المفسّرة للقرآن على القرآن فيستفسر الموافق له ويرفض المخالف، لكي يحصل على معاني متلائمة، غير متضاربة: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[(٢)].

ولا يعني تفسير القرآن بالقرآن ضرب بعضه ببعض دون رعاية لمناسبات الآيات، وأن تُنثر آياته نثر الدقل دون تأمل في رباطاتها «و قد رأى رسول الله ﷺ قوماً يتدارؤون فقال: «هلك من كان قبلكم، بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً فلا تكذبوا بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوا وما جهلتم فكلوه إلى عالمه»[(٣)].

وخرج على قوم يتراجعون القرآن وهو مغضب فقال: «بهذا ضلت الأمم باختلافهم على أنبيائهم وضرب الكتاب بعضه ببعض»[(٤)].

فعلى المفسر التدبّر التام في آي الذكر الحكيم، متحللاً عما أثبته هو أو

(١) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٣) الدر المنثور - أخرج أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه عنه ﷺ.
(٤) الدر المنثور - أخرج ابن سعد وابن الضريس في فضائله وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه عنه ﷺ.

أثبتته الطرق العلمية أو العقلية أمّاهيه، مستنطقاً كل آية بنظائرها في المغزى، فيستفسر عنها أشباهها ونظائرها، متثبتاً عن الأحاديث الموافقة الملائمة لها.

فاختلاف الروايات في تفسير الآيات، واختلاف المفسرين من جرائه، ومن اختلاف أفهامهم وأساليبهم، هذه الاختلافات ترد إلى القرآن نفسه، فلا يصدَّق عليه إلّا ما يصدقه.

إذاً فمسالك التفسير كلّها هباء وخواء إلّا تفسير القرآن بالقرآن، كما وأن الرسول والأئمة من آل الرسول سلكوا هذا المسلك القويم في تفسير آي الذكر الحكيم، وعلى المفسرين أن يتعلموا هذه الطريقة المثلى من هولاء المعلمين المعصومين. رجوعاً إلى أساليبهم السليمة في تمسكهم بالكتاب، تفسيراً للآيات بالآيات، ثم سلوكاً في صراطهم المستقيم على طول الخط ومرّ الزمن.

فالتفسير بين حق وباطل، تفسير بالقرآن وتفسير بالرأي «ومن فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» «أخطأ أو أصاب كان مصيره إلى النار» ولا يعني التفسير بالرأي إلّا أن تحمل معك رأياً لك أو لغيرك من قولة أو رواية غير ثابتة، ثم تحمّله على آية لا تتحمّله، أو لا توافقه أو تخالفه، وليس الكثير من اختلافات المفسرين في تفسير الآيات إلّا لتفرقهم أيادي سبأ عن تفسيره بنفسه، أو عدم المؤهلات لمن حاول تفسيره بنفسه، فإن له شروطاً جمة[1].

(١) روى أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن جعفر النعماني في تفسيره بإسناده عن إسماعيل بن جابر قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وآله فختم به الأنبياء فلا نبي بعده وأنزل عليه كتاباً فختم به الكتب فلا كتاب بعده أحلّ فيه حلالاً وحرّم فيه حراماً فحلاله حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة فيه شرعكم وخبر من قبلكم وبعدكم وجعله النبي صلى الله عليه وآله علماً باقياً في أوصيائه فتركهم الناس وهم الشهداء على أهل كل زمان وعدلوا عنهم ثم قتلوهم واتبعوا غيرهم وأخلصوا لهم الطاعة حتى عاندوا من أظهر=

فالمحدث يفسره بما يجده من أحاديث تناقلتها الرواة، ناظراً إلى أسانيدها، غضاً عن متونها، فإذا قيل: إسناده صحيح، صحّح به تفسير القرآن وافقه أم خالفه، رغم وجود الكثير من وثنيات وإسرائيليات ومسيحيات وأضرابها من خرافات تسربت إلى أحاديث الإسلام فترسبت في كتب الحديث، مهما صحت أسنادٌ منها أو ضعفت.

كما يروى من طريق السُّنة «إن النبي ﷺ سُحر» مسّاً من كرامة النبوة، والقرآن يقول عن هواء المختلقين إنهم ظالمون: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾(١) (٢).

ويروى من طريق الشيعة في تفسير دابة الأرض أنها علي عليه السلام! مسّاً جاهلاً أو متجاهلاً من كرامة الخلافة الإسلامية المنصوصة المنصوبة.

= ولاية ولاة الأمر وطلب علومهم قال الله سبحانه: ﴿وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [المائدة: ١٣] وذلك أنهم ضربوا بعض القرآن ببعض واحتجوا بالمنسوخ وهم يظنون أنه الناسخ واحتجوا بالمتشابه وهم يرون أنه المحكم واحتجوا بالخاص وهم يقدّرون أنه العام واحتجوا بأوّل الآية وتركوا السبب في تأويلها ولم ينظروا إلى ما يفتح الكلام والى ما يختمه ولم يعرفوا موارده ومصادره إذ لم يأخذوا عن أهله فضلّوا وأضلّوا، واعلموا رحمكم الله من لم يعرف من كتاب الله عزّ وجلّ الناسخ من المنسوخ والخاص من العام والمحكم من المتشابه والرخص من العزائم والمكي والمدني وأسباب التنزيل والمبهم من القرآن في ألفاظه المنقطعة والمؤلفة وما فيه من علم القضاء والقدر والتقديم والتأخير والمبين والعميق والباطن والابتداء من الانتهاء والسؤال والجواب والقطع والوصل والمستثنى منه والجار فيه والصفة لما قبل مما يدل على ما بعد والمؤكد منه والمفصل وعزائمه ورخصه ومواضع فرائضه وأحكامه ومعنى حلاله وحرامه الذي هلك فيه الملحدون والموصول من الألفاظ والمحمول على ما قبله وعلى ما بعده - فليس بعالم بالقرآن ولا هو من أهله ومتى ادعى معرفة هذه الأقسام بغير دليل فهو كاذب مرتاب مفتر على الله الكذب ورسوله و﴿وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ١٦٢].

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٧.

(٢) راجع ج ٣٠ ص ٥٣٩ حول آية النفاثات في العقد، وج ١٥ حول آيته وكذلك الفرقان الآية ٨.

وكثير أمثال هذه الخرافات الزور التي تناقلتها الرواة والمفسرون من الفريقين دون رعاية لصريح القرآن أو ظاهره حيث يمجّه وينافيه.

فهذا ليس تفسيراً للقرآن بالسنة، وإنما بالرواية التي يعتبرها رواتها سنة ويتقبلها المفسر بالسنة كسنة، وما هي سنة، فإنها ليست إلّا قول الرسول أو فعله وتقريره، ولا سبيل إليها قويماً إلّا موافقتها للقرآن حيث لا يتبع الرسول في كلّ ما يفعل أو يقول إلّا وحي القرآن: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾[1] فلا يصدّق على الرسول ما يكذبه القرآن وإن صحت أسناده، وقد يصدّق عليه ما يصدقه القرآن وإن ضعفت أسناده، فلا يسند الحديث صحيحاً إلّا متنه الموافق للقرآن دون سنده، ولا نحتاج إلى صحة السند في متن صحيح إلّا لإتقان النسبة إلى الرسول ﷺ فإن المتن الصحيح لا يختص بالرسول، ثم لا تفيدنا صحة السند في متن لا يلائم القرآن، فإن الباطل لا يصدر عن الرسول[2].

وقد تواتر عنه ﷺ قوله: «لقد كثرت عليّ الكذّابة وستكثر فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار فإذا أتاكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله وسنتي فما وافق كتاب الله وسنتي فخذوا به وما خالف كتاب الله وسنتي فلا تأخذوا به»[3].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.

(٢) حالات الحديث اربع: ١ - صحيح السند والمتن ٢ - ضعيف السند والمتن ٣ - صحيح السند ضعيف المتن ٤ - ضعيف السند صحيح المتن - فالأول يسند إلى الرسول والأئمة من آل الرسول - والثاني يضرب عرض الحائط وكذلك الثالث إذا لم يتحمل التأويل، والرابع يصدق ولكن لا يسند إلى الرسول - والأصل في صحة المتن موافقته لكتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ الثابتة، ولا دور للسند إلّا صحة الإسناد إلى المسند إليه إذا كان المتن صحيحاً - فصحة السند لا تصحح المتن، وإنما هي من أسباب صحة النسبة على هامش صحة المتن.

(٣) رواه الطبرسي في الاحتجاج بالإسناد إلى أبي جعفر الجواد عليه السلام عند احتجاجه على يحيى بن أكثم - ورواه مثله الكافي ١: ٦٩ عن محمد بن إسماعيل عن الفضل بن شاذان عن ابن أبي عمير عن هشام بن الحكم وغيره عن أبي عبد الله وفي محاسن البرقي عن أبي أيوب المدائني عن ابن أبي عمير عن الهشامين جميعاً وغيرهما عنه عليه السلام وفي المستدرك =

أو «ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله»[(١)] حيث السنة، وهي الشارحة الموافقة لكتاب الله - تندغم في كتاب الله دون أن تكون فيها محادة لكتاب الله، وإنما هي كظل وهامش يوضّح منه ما خفي على القاصرين.

ثم لا يفرق في هذا العرض حديث البرّ عن الفاجر، كما في الصادقي عليه السلام: «ما جاءك في رواية من برٍّ أو فاجر يوافق القرآن فخذوا به وما جاءك في رواية من برٍّ أو فاجر يخالف القرآن فلا تأخذ به»[(٢)].

«... فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا وسنة نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم فإنا إذا حدثنا قلنا قال الله عزّ وجلّ وقال رسول الله»[(٣)] كما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليس له

= (٣: ١٨٦) محمد بن مسعود العياشي في تفسيره عن هشام بن الحكم عن أبي عبد الله - إلّا أنّها بحذف سنتي، وإنما «كتاب الله».

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المستدرك (٣: ١٨٣) عن محمد بن مسلم قال قال أبو عبد الله عليه السلام: يا محمد ومثله ما في الصادقي عليه السلام أيضاً سئل عن اختلاف الحديث يرويه من نثق به ومنهم من لا نثق به قال: إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإلّا فالذي جاءكم به أولى، وفي الكافي ١: ٦٩ محمد بن يحيى عن عبد الله بن محمد عن علي بن الحكم عن أبان بن عثمان عن عبد الله بن أبي يعفور قال: وحدثني الحسين بن أبي العلاء أنه حضر ابن أبي يعفور في هذا المجلس قال سألت أبا عبد الله عليه السلام ورواه في المحاسن (٢٢٥) مثله.

(٣) رجال الكشي (١٤٦) حدثني محمد بن قولويه والحسين بن الحسن البندار القمي قالا حدثنا سعد بن عبد الله قال حدثني محمد بن عيسى بن عبيد عن يونس بن عبد الرحمن أن بعض أصحابه سأله وأنا حاضر فقال له: يا محمد! ما أشدك في الحديث وأكثر إنكارك لما يرويه أصحابنا فما الذي يحملك على رد الأحاديث؟ فقال حدثني هشام بن الحكم أنه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: لا تقبلوا علينا حديثاً إلّا ما وافق القرآن والسنة أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة فإن المغيرة بن شعبة لعنه الله دسّ في كتب أصحابي أحاديث لم يحدث بها أبي فاتقوا الله.

قالٌ إلّا قال الله، بلفظ القرآن أم سواه - فـ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾[1] وكيف يناقض أو يضاد وحيُ الله وحيَه!.

فالقرآن هو النور الذي يصوِّب الصواب ويخطئ الخطأ وكما يروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «إن على كلّ حق حقيقة وعلى كلّ صواب نورٌ فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه»[2].

وفي الباقري عليه السلام: «انظروا أمرنا وما جاءكم عنا فإن وجدتموه للقرآن موافقاً فخذوا به وإن لم تجدوه موافقاً فردوه وإن اشتبه الأمر عليكم فقفوا عنده وردوه إلينا حتى نشرح لكم ما شرح لنا»[3].

وفي الصادقي عليه السلام: «ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف»[4].

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.

(٢) أصول الكافي ١: ٦٩ علي بن إبراهيم عن أبيه عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي أمالي الصدوق قال: حدثنا أحمد بن علي عن إبراهيم بن هاشم قال: حدثنا أبي عن أبيه إبراهيم بن هاشم عن الحسين بن يزيد النوفلي عن إسماعيل بن مسلم الكوفي عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام عن أبيه عن جدِّه قال قال علي عليه السلام قال صلى الله عليه وآله وسلم وذكر مثله وفي المحاسن (٢٢٦) للبرقي عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عن علي عليه السلام مثله عنه صلى الله عليه وآله وسلم إلّا أنه قال: فخذوا به وفي الوسائل ٣: ٣٨٢ سعيد بن هبة الله الراوندي عن محمد وعلي ابني علي بن عبد الصمد عن أبيهما عن أبي البركات علي بن الحسين عن أبي جعفر بن بابويه عن أبيه عن سعد بن عبد الله عن يعقوب بن يزيد عن محمد بن أبي عمير عن جميل بن دراج عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة وذكر مثله وفي المستدرك ٣: ١٨٦ محمد بن مسعود العياشي في تفسيره عن إسماعيل بن أبي زياد عن جعفر عن أبيه عن علي عليه السلام أنه قال في حديث وذكر مثل ما في المحاسن.

(٣) الوسائل ٣: ٣٨٣ الحسن بن محمد الطوسي في الأمالي عن أبيه عن المفيد عن جعفر بن محمد عن محمد بن يعقوب عن علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن يونس عن عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام.

(٤) فهناك كثير من الأحاديث هي ظنية بين مشكوكة الصدور وظنيته، ومتحملة التقية أم تغيير النص إلى غيره، أم منسوخة أماهيه ولكن القرآن لا يتطرق فيه شيء منها.

وهكذا نجد مستفيضاً من الأحاديث أن ما لا يوافق كتاب الله أو يخالفه فهو زخرف أو فاضربوه عرض الحائط، وكفى بما أوردناه نماذج وأن كان يكفينا كتاب الله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1] ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾[2] وما أجمله توافقاً بين الكتاب: المتن، والسنة: الهامش، في وجوب عرض الحديث على القرآن!.

وهنا فوائد هامة:

١ - آيات العرض وأحاديثه شاهدة على أن ظهور الكتاب - فضلاً عن صريحه - حجة، وإلّا فكيف يقاس الحديث على كتاب غير مفهوم، أم لا حجة في دلالاته؟ وما قولة القائل: «القرآن قطعي السند ظني الدلالة والحديث ظني السند قطعي الدلالة» إلّا خرافة جارفة ومسّاً من كرامة القرآن الذي بيانه أفصح بيان وأبلغ تبيان[3] وما تفسير السنة للكتاب إلّا إيضاحاً لما أجمل على القاصرين لا لقصور في دلالات الكتاب، فإنها بينات حتى في المتشابهات، وإنما الغامض هو المعاني العالية المطلّة على الأفهام، دون الألفاظ التي هي في أعلى قمم الفصاحة والبلاغة والرواية القائلة إن القرآن لا يفسّر إلّا بالأثر الصحيح عن النبي ﷺ أو عن الأئمة عليهم السلام تؤول إلى الحظر عن تفسيره بالرأي، ويا ترى إن تفسير القرآن بالقرآن محظور، ثم وإذا فسرته بالحديث فلا محظور! رغم أن القرآن تبيان لكل شيء وبيان للناس بلسان عربي مبين، فكيف يكون بياناً للناس ولا يفهم من ظاهره شيء، إن ذلك وصف له باللغز والمعمّى! وقد مدح الله الممسكين به: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾[4] إنهم هم

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١٠.
(٣) مر تخريجها في الحاشية رقم (٤) في الصفحة السابقة.
(٤) سورة الأعراف، الآية ١٧٠.

مصلحون، ومدح المستنبطين: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[١] وذم غير المتدبرين في القرآن: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[٢] ثم وأحاديث العرض والثقلين تحملنا على الرجوع إليه كأصل، وكيف نراجع ما لا حجة في ظاهره، وكيف نعرض على ما لا يفهم شيء من ظاهره، إن هذا إلّا هراءً جارفة تمس من كرامة هذا الكتاب المبين الذي فيه تبيان كل شيء!

٢ - أدلة العرض تحثّنا على التدبر في القرآن كما يصح ويجب، قدر ما يمكن أن يعرض عليه الحديث، فيعرف الغث عن السمين والخائن عن الأمين، وما الأحاديث المروية إلّا كهوامش مختلفة على متن الكتاب، ما تلائم منها المتن تقبل له شارحة، وما لا تلائم تضرب عرض الحائط، وما يشك فيه يرد إلى قائله أو راويه.

فليس للمفسر أن يعتمد على حديث ما لم يعرضه على القرآن، ولا له أن يعرضه ما لم يتدبر حقه في آيته، تأملاً في جملاتها، ولغاتها مستفسراً للحصول على معناها من الآيات النظيرة لها، لا أن يفسر آية بتفسير آية أخرى بضرب القرآن بعضه ببعض ونثره نثر الدقل، وإنما بسرد الآيات المتماثلة المغزى، المتشابهة المعنى، ونضدها تدبراً: أن يجعل كلًّا دَبر الأخرى كما يقتضيه ترتيب المعنى.. ناظراً إلى الآية نفسها ثم ما تحتفُّ بها، ومن ثم نظائرها في سائر القرآن، ثم يراجع الأحاديث الواردة في تفسيرها ناظراً إليها من زاويتين: نظرة التثبت من صدورها بموافقتها للآية، ثم نظرة الاستيضاح لما استخفى منها من إشاراتها ولطائفها وحقائقها إن لم يكن هو من أهلها، أو يستزيد منها عن أهليها الذين هم من أهل بيت القرآن، فأهل البيت أدرى بما في البيت.

---

(١) سورة النساء، الآية ٨٣.
(٢) سورة محمد، الآية: ٢٤.

فأقل ما يجب التحري فيه هو فهم العبارة من الآية، وهي المعنى المطابق الظاهر، ثم يتبناه لسائر الزوايا في مربع التفسير حيث هو على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق[١]، كما يتبناه في عرض الحديث على القرآن إذا كان يعني تفسير العبارة، كما يتبنى الثلاثة الأخرى فيما الحديث يعني تفسيرها.

٣ - مما تدل عليه آيات العرض وأحاديثه أن هذا القرآن المعروض عليه هو النازل على النبي ﷺ كلمات وآيات وترتيبات دون نقائص أو مزيدات، وإلّا فكيف يحتل المركز الأصيل الوحيد المعروض عليه للأحاديث كل الأحاديث. إذاً فكل ما ورد في تحريف القرآن بزيادة أو نقصان هي مما اختلقته أيدي الزور والبهتان فإنها مخالفة للقرآن، وإن كان الخلاف في نقطة أو إعراب أو ترتيب أو تركيب تخالف القرآن المتواجد عند المسلمين، المتواتر مرّ الزمن، ومن لطيف الأمر أن الأحاديث الحاملة لكلمات أو آيات يدّعى أنها محرفة بزيادة أو نقصان، هي بذواتها تشهد أنها أكاذيب زور اختلقتها أيادٍ أثيمة إسرائيلية أو مسيحية وتسربت إلى جهال يحسبونهم علماء![٢].

والقرآن جملةً وتفصيلاً دليل على براءته من زيادة أو نقصان، فما هي هذه الزيادة التي اختلطت بآي القرآن وما تميزت حتى الآن عند الخبراء باللسان، ونرى كلام الرسول وعلي عليهما السلام - وهما أبلغ البلغاء - لا يخلطان بالقرآن إلّا وهو لائح حتى عند السوقيين العرب وغيرهم.

(١) يرويه الإمام الحسين عليه السلام عن أبيه علي أمير المؤمنين عليه السلام كما يأتي بكامله (سفينة البحار تحت الحرف ك).

(٢) لقد جمع الميرزا حسين النوري في فصل خطابه ستة عشر موضعاً - بعد كدّ مديد - مما يحتج به على وجود التحريف بالنقيصة، أكثرها تنحو نحو حذف اسم الإمام علي عليه السلام وهو هو المحذوف لم يشر أبداً إلى هذا الحذف! المظلوم اليتيم!.

وكيف يجرؤ أحد أن ينال من القرآن بزيادة أو نقصان حتى في حرف منه أو إعراب وقد ضمن الله حفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾(١) ﴿. . . وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾(٢).

إن مدعي التحريف إنما يهرف بما لا يعرف جهلاً، أو ما يعرف تجاهلاً، ولا نجد لهم حجة إلّا عليهم، وسوف يمرّ عليكم قول فصل حول صيانة القرآن عن التحريف على ضوء آية الحفظ والعزة وأضرابهما والله من وراء القصد.

٤ - ومما تشهد عليه أدلة العرض أن الرسول ﷺ والأئمة من آل الرسول عليهم السلام لا يفسرون القرآن إلّا بحجة الدلالات القرآنية، دون خلاف على معاني اللغات أو سرد الجملات أدبياً أم ماذا؟ وإنما القرآن والقرآن فقط هو حجتهم على ما يقولون، وكما كانوا يأمرون أصحابهم أن يتساءلوهم فيما يفتون، أين ذلك من كتاب الله؟ حتى يروضوا في حياتهم العلمية على دلالات القرآن، دون أن تأخذهم الآراء والأهواء أيادي سبأ!.

وإذا كان تفسير القرآن بالحديث - دون نظر في متنه وعرض على القرآن - تفسيراً بالرأي، فتفسيره بآراء المفسرين، متفردين أو مكثرين أو مجمعين، أو تفسيره بالآراء العلمية في مختلف الحقول، إن ذلك لأحرى أن يسمى تفسيراً بالرأي، فإنه يجمعه تفسيره بغير حجة من كتاب أو سنة قطعية، تفسيراً فيه تحميل على القرآن ما لا يتحمله أو لا يلائمه.

فعطف القرآن على الرأي كعطف الهدى على الهوى يعطفان بالإنسان إلى الهاوية والردى وقد يروى عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام في

(١) سورة الحجر، الآية ٩.
(٢) سورة فصلت، الآيتان: ٤١، ٤٢.

إصلاحات المهدي القائم عليه السلام أنه «يعطف الهوى على الهدى إذا عطفوا الهدى على الهوى ويعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي»[(١)].

فالذي يفسر القرآن جاهلاً بموازينه، أو تجاهلاً عما يجب في تفسيره، أنه في ضلال مبين، مهما أتى بعبارات براقة، فلسفية أو عرفانية أماهيه؟ فإن هذا الأسلوب الجاهل أو المتجاهل أو المبتدع المغرض يجعل من النور ظلاماً، ومن الهدى ضلالاً: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[(٢)].

مثل ما يهرأه الهارعون المفرطون أن العبادة إنما هي لغرض اليقين والوصول إلى المعبود. فإذا أتاك اليقين فلا عبادة، مستندين إلى الآية: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[(٣)] رغم أن اليقين درجات يتنقل العابد دوماً بين هذه الدرجات، كما وأن المعرفة درجات، ولا نهاية لهذه أو تلك وحتى لرسول الله وهو أوّل العابدين فضلاً عن هواء المدعين، فـ ﴿حَتَّىٰ﴾ هنا لا موقف له منتهى حتى تنتهي عنده العبادة، وقد عبد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ربه وقام في عبادته حتى تورمت قدماه فنزلت: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾[(٤)] فهل إنه بعد لم يكن أوّل العابدين واصلاً إلى درجة من اليقين التي وصلها هؤلاء المدعون! وهو هو المخاطب في ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ دون هؤلاء الأغباش الذين هم لم يصلوا بعد إلى درجة من الإيمان فضلاً عن اليقين!.

أو ما يتقوله بعض الفلاسفة أن لله عالمين: عالم الأمر وهو إحداث

---

(١) نهج البلاغة في كلام له عليه السلام حول الإمام المهدي عليه السلام.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٩٩.
(٤) سورة طه، الآيتان: ١، ٢.

المجردات، وعالم الخلق وهو إحداث الماديات مستندين إلى الآية: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[١] والآية: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[٢].

فالروح من عالم الأمر المجرد عن المادة دون الخلق المادة! رغم أن الأمر في الأولى هو مجموع الخلق والتقدير، وفي الثانية الخلق هو الخلق والأمر هو التدبير إذ ليس ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ إلّا بعد عرض الكون خلقاً وتقديراً: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣] فـ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ تنبيه أن له أمر التدبير والتسخير في السماوات والأرض كما له خلقهما، دون أن يكون هو الخالق، والمدبر سواه، أو هو المدبر والخالق سواه، بل إنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[٤] في الخلق والتدبير سواء، ثم وخلق السماوات والأرض يعني خلق الكون أجمع فلا وجود لمخلوق مجرد عن المادة حتى يختص به الأمر، بل الأمر يشمل كلّ الخلق، ومن المستحيل قرآنياً وعقلياً أن يكون كائن مجرد عن المادة أو الطاقة المادية سوى الله[٥].

أو ما يحمله على القرآن بعض من يتسمى فقيهاً، من رأي اتخذه تقليدياً، كحرمة حلائل الأبناء من الرضاعة التي تنفيها الآية: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾[٦] متقولاً أن قيد الأصلاب إنما هو لإخراج الأدعياء، رغم أن أبناء الأصلاب نص في حرمة حلائلهم فقط وفي حلية

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٤) سورة الصافات، الآية: ٣٥.
(٥) راجع كتابنا «حوار بين الإلهيين والماديين» وكذلك بطيّات آيات الخلق والأمر في الفرقان.
(٦) سورة النساء، الآية: ٢٣.

حلائل الأبناء من الرضاعة مع الأدعياء، ولو كان المقصود ما يهرفونه لكان النص «غير أدعيائكم» ومن ذلك كثير نأتي عليه في طيات آياتها.

ومن متفرنج أدهشته العلوم العصرية لحدٍّ كأنها هي الأصل والقرآن من فروعها كالشيخ الطنطاوي في جواهره! حيث يعتبر فرضية انفصال الأرض عن الشمس لمفترضيها الأوروبيين قانوناً علمياً ثم يختلق لها تفسيراً لبعض الآيات كالتي في سورة الأنبياء: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾[1] متقولاً عليها أن السماوات هنا تعني الشمس والأرض هي هذه الأرض حيث فتقها الله عن الشمس بعد رتقهما و﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ الماضي تعني هذا المستقبل الزاهر أن العلماء الكفار الغربيين يرون انفصال الأرض من الشمس!.

وفي ذلك تحميل على الآية ما لا تتحمله من تحويل ماضيها إلى مستقبلها، وتفسير سماواتها إلى شمسها التي هي ذرة صغيرة من أدنى الجزر السماوية الأولى إلينا، ومن ثم ففتقهما، لا فتق الأرض من السماوات: الشمس!.

ثم الآيات في فصّلت تفصّل إن خرافة هكذا فصل باطلة حيث تقول بعد عرض خلق الأرض وكمالها: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا... فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾[2] وشمسنا هذه هي من مصابيح السماء الدنيا المخلوقة في السبع بعد دخان السماء، إذاً فالشمس متأخرة عن الأرض بمرحلتين!.

ومن ذلك كثير عند المتفرنجين من المفسرين الذين غرقوا في العلوم

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.
(٢) سورة فصلت، الآيتان: ١١، ١٢.

والنظريات الجديدة، ونسوا أن القرآن هو علم الله فلن يتبدل، والعلم دوماً في تبدل وتحوّل من خطأ إلى صواب ومن صواب إلى أصوب!..

فتفسير القرآن بفرضية العلم أو رأيه، أو برأي العقل غير الضروري، منك أمَّن سواك من مفسرين أو علماء آخرين، أو أحاديث غير ثابتة ولا ملائمة للآيات أو أياً كان من تفسير للقرآن بغير القرآن أوما يصدقه، كل ذلك تفسير له بالرأي، دون علم أو إثارة من علم أو كتاب منير.

فلا تغتر بالتحقيقات الفلسفية والتلطيفات العرفانية، والتدقيقات العلمية! التي تحول دون استنباط القرآن كقرآن، تحميلاً عليه ما لا يتحمله.

وتحلّل - حين ما تروم تفسير القرآن - عن كلِّ شارد ووارد حتى وعن مذهبك فضلاً عن رأيك أو آراء الآخرين، تحلل عن كلِّ ذلك وعش الآية التي تعني تفسيرها، بمفرداتها وجملها، بموقفها مما قبلها وما بعدها، وبنظائرها التي تعني معناها، عشها كذلك محقّقاً صافي القلب خالي الذهن إلّا عما تستمد به في تفهمها بمفهومها أو مصاديقها، سناداً إلى عقل رائع وعلم بارع دون تحميل على الآية ما لا تتحمله نصاً أو ظاهراً، أو لا تخالفه ولا توافقه حيث لا تمتُّ بصلة دلالية أو معنوية بما تحمله عليها، والله من وراء القصد.

فالذي يفسر القرآن برأيه أو برأي مذهبه أو تقليده أو أياً كان من آراء إنما يفسر نفسه أو مذهبه عبر القرآن بهواه، دون أن يهتدي بهداه، تفسيراً لنفسه دون تفسير القرآن نفسه، فلذلك «كان مصيره إلى النار» «وليتبوأ مقعده من النار».

ولأن الأهوية والآراء تختلف، والمذاهب تتخالف، والنظريات تتضارب فمعاني الآيات لمن يحمل هذه وتلك تتهافت، ويصبح القرآن مجال القيل والقال ومعترك الآراء والأقوال.

وأما إذا صدر المفسرون عن مصدر واحد، وساروا في مسير واحد، مفسرين للقرآن بالقرآن، على ضوء السنة القطعية الملائمة للقرآن، اغتربت خلافاتهم، واقتربت أفكارهم، وإذا جعلوا أمرهم شورى بينهم قلَّ قليلهم وصح عليلهم، واستشرفوا إلى ينبوع الوحي وإن كانوا في ذلك درجات.

صحيح أن القرآن بيان للناس، إلّا أن بيانه درجات كما الناس درجات، وكما يروي الإمام الحسين عن أبيه علي أمير المؤمنين عليه السلام : «إن كتاب الله على أربعة أشياء، على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق، فالعبارة للعوام والإشارة للخواص واللطائف للأولياء والحقائق للأنبياء» وهذه الأشياء المراحل هي متلائمة رغم درجاتها.

فالعبارة - وهي ما يعبَّر عنه اللفظ - هي التفسير الظاهر، والإشارة هي التحقيق على هامش الظاهر، واللطائف هي البطون، والحقايق هي التأويل[(١)] فالذي لا يعرف التفسير الظاهر هو أدنى من العوام-[(٢)] ويُروى عن ابن عباس «إنّ للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن»[(٣)].

والمتشابه على حدّ قول الإمام الرضا عليه السلام : «ما اشتبه علمه على جاهله» فالتشابه في آياته ليس من مقولة الدلالة اللفظية، أن تكون الآية قاصرة الدلالة، وإنما هو لعلو المدلول على وضوح الدلالة، وكما الأفهام درجات في مفاهيم الآيات، كذلك الآيات درجات في محكمات

(١) سوف نبحث عن التأويل والمعاني الباطنية على ضوء آية التأويل ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] إن شاء الله تعالى.

(٢) بما أن الإشارة بعد المعنى الظاهر فليست العبارة هنا إلّا التعبير عن الظاهر، وكثير هؤلاء الذين يدرسون عشرات من السنين في الحوزات العلمية ولم يصلوا بعد إلى درجة العوام في تقسيم الإمام عليه السلام .

(٣) والمقصود تقدم العلم والعقل على مرّ الزمن، فليس هناك آيات متشابهات لإبهام دلالي، وإنما لعلوّ مدلولي عقلياً أو علمياً فالتقدم العقلي والعلمي يفسر هذه التشابهات على قدره.

ومتشابهات، رب محكمة من جهة متشابهة من أخرى، ورب محكمة عندك متشابهة عند الآخر، فلا توجد إذاً آيات معدودات هي بعينها متشابهات وأخر محكمات، وإنما هي حسب درجات الأفهام، فالتشابه والإحكام أمران نسبيان، وإن كانت بعض الآيات محكمات لكل من يعرف اللغة[١] وبعضها متشابهات كالحروف المقطعة في أوائل بعض السور.

فليس للمفسر الخوض في آيات الله، قائلاً بغير علم أو إثارة من علم فليعلم أنها نازلة بعلم الله، قدر ما يحتاجه العقلاء طول الزمن إلى انقراض العالم، فليأخذ كلٌّ نصيبه من الفهم، متثبتاً متدبراً في تفهمه، فتقدم العقول والعلوم يكشف جديدات وجديدات من معارف القرآن، متشابهات عقلية أو علمية تصبح محكمات على ضوء تقدم العقل والعلم، فلا يستعجلوا فيما يخفى عليهم زاعمين أن لهم تفسير كل آية، أو كل زاوية من زواياها.

وعلى المفسر العارف أن يفسر الآيات - كما تهديه - بعضها ببعض، دون اتكالية على آراء المفسرين، فليسبر في كلِّ آية غورها، دون تحويل إلى كتب أو مقالات أخرى، فلا يحوِّل البحث والتنقير عن آيات الأحكام إلى الفقه أو إلى ما ألف في آيات الأحكام، حيث الفقه كما نراه لا يعتمد كما يجب على الآيات في الأحكام اللهم إلّا أحياناً وهامشياً محولاً إلى التفسير أو الكتب المؤلفة في آيات الأحكام فتصبح آياتها غير مفسرة لا في التفسير ولا في الفقه، ولذلك نرى فتاوى تخالف كتاب الله من فقهاء الإسلام شيعة وسنة[٢] ولا قيمة لفتوى لا تعتمد على القرآن وإن اعتمدت على أحاديث أو شهرات أم وإجماعات. حيث القرآن هو المصدر الأصيل.

---

(١) سوف نسبر غور البحث عن المحكم والمتشابه في آية التقسيم من آل عمران.

(٢) تجد هذه الخلافات في طيات آيات الأحكام، وإن ساعدني التوفيق لإكمال الفقه على ضوء القرآن تجد فيه مجموعة من الفتاوى المخالفة للقرآن أو غير الموافقة للقرآن. وحرمة وحي الله أحرى بالرعاية من حرمات الفقهاء.

ولعمر الله لقد كانت تنحية القرآن عن القيادة المستقيمة، وإخراجه عن الحوزات العلمية حدثاً هائلاً في تاريخ الإسلام ونكبة قاصمة في حوزات الإسلام لم يعرف لها التاريخ مثيلاً في كل ما ألمّ المسلمين من نكبات، فلا نجد كتاباً ظلم ولا نبياً أكثر من القرآن ونبي القرآن!

لقد كان القرآن يقود المسلمين بعدما فسدت الأرض وتعفنت الحياة والقيادات، وذاقت البشرية الويلات من القيادات العفنة، ولكنّما الاستعمار من ناحية، وجهل المسلمين من أخرى، تعاونا في تنحية القرآن عن المجتمع الإسلامي وعن الحوزات العلمية بوجه خاص، لحدّ لا يعتبر مدرس التفسير ومتعلمه من طلاب الحوزات وعلمائها، بل ويعتبر أحياناً من مخربيها وناقضي سنتها!

نرى الطالب في حوزة علمية يدرس عشرات من السنين، ثم يتخرج وليست له معرفة بمعارف القرآن، والمسلمون بحاجة ماسة إليها وقد «ضعف الطالب والمطلوب»!.

نرى القيل والقال في كلّ مجال من بحوث أدبية - أُصولية - منطقية أم ماذا؟ نراها متأصّلة متعرّقة في متون الحوزات، في حين أن القرآن لا مجال له ولا هامشياً، وهذا ما يريده الاستعمار ويغتنمه إذ يرى بُغيته - وهي تنحيته القرآن عن أهله - حاصلة دونما صعوبة أو محاولة مستمرة.

ذلك! ورغم أن الاحتكام إلى الله، المتمثل في كتاب الله ليس نافلة وتطوعاً نراه نافلة ضئيلة في حياتنا وكقرائه فقط، رغم أن هذه البشرية - وهي من صنع الله - لا تفتح مغاليق عقليتها وفطرتها إلّا بمفاتيح أُخرى من صنع الله وهي هي القرآن لا سواه! ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[(١)] فلا أقوم

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.

منه ولا قيّم ولا أقيم، ثم ولا يسامى أو يوازى بكتاب سواه ولا ما بين يديه من وحي الكتاب فضلاً عن سائر الكتاب.

لقد تسلم القرآن القيادة الخالدة روحياً وزمنياً منذ بزوغه حتى يوم القيام، ولكنما المسلمون قبل من سواهم تحللوا عن قيادته الزمنية إلى الطواغيت، وعن قيادته الروحية إلى اجتهادات متخلفة مختلفة، ولو أنهم تبنّوا فيها القرآن كرأس الزاوية، وهندسوا بنيان الإسلام على هذه الزاوية لقلّت خلافاتهم، وذلت أعداؤهم.

ومن المضحك المبكي أن المسلمين ككل أو جُل لا يبالون بالقرآن مبالاتهم بروايات ونظرات، وهم مصدقون كمبدأ إيماني أنه هو أصل الإسلام وأثافيّه، وحجة رسوله في رسالته ودعوته، فأصبح مَثَله عندهم كمثل الموت على حدِّ تعبير الإمام الرضا عليه السلام «ما خلق الله تعالى يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت».

فالقرآن - وهو يقين لا شك فيه - أصبح شكاً لا يقين فيه، لحدٍّ لا يقتنع طالب العلم بآيته قبل روايته، وهو مقتنع بروايته قبل آيته! ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1]! فحيّا إلى القرآن، علم الله النازل، كتاب الزمن، الوحي الأخير الذي يجمع مجامع الوحي في تاريخ الرسالات وزيادات.

ولسوف ترون لو أن القرآن دخل في الميدان في حوزاتنا العلمية كركيزة متينة أصيلة، ومن جرائها دخل المجتمع الإنساني، لشملت علومه ومعارفه العالم، وحلّقت على كافة العقول وفي كافة الحقول: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

(١) سورة يونس، الآية: ٣٥.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.

ولا يعني الحديث عن الإمام المهدي عليه السلام: يأتي بكتاب جديد... إلّا أن أهل القرآن قبله تركوه وراءهم ظهرياً فنسوا أو تناسوا معارفه وأحكامه، ولقد جرّبت مراراً هذه التجربة المرة في بعض الحوزات العلمية أنني لما أستشهد بآية قرآنية في مسألة خلافية فقهية أم سواها، تقوم قيامتهم عليّ، وبأي حديث تستدل وأي قائل من العلماء يصدقك، لا تكفي الآية بمفردها..! في حين يستندون - أحياناً - بأحاديث أحاد لا توافق القرآن، أم إلى فتاوى لا شاهد لها من كتاب أو سنة.

فهل أن حوزة كهذه إسلامية وقرآنية بعد:؟! ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؟!.

وهكذا ابتلي جمع من إخواننا السُّنّة أنهم يفتون بما في مسانيدهم دون رعاية للعرض على القرآن، وهذا الذي كان يزعج جمعاً منهم في مكة المكرمة والمدينة المنورة، إذ أنا أقول قال الله وهم يقولون: قال فلان وفلان، وأنهم يفضلون صحيح البخاري - عملياً - على كتاب الله، وقليل هؤلاء الذين يعتمدون على القرآن، رفضاً لما لا يلائم القرآن، من شيعة أو سُنّة، وكثير هؤلاء الذين يفضلون الحديث على القرآن من سُنّة(١) وشيعة(٢)،

(١) كما يفتون بحرمة المتعتين خلاف الآيتين ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: ٢٤] ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦] ويفرضون الشاهدين في النكاح دون الطلاق معاكسين نصوص القرآن حيث الطلاق بحاجة إلى شاهدين: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] دون النكاح حيث لا دلالة عليه في القرآن، ويجوزون الطلقات الثلاث دون رجعات خلافاً للنص: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ... فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٢٩، ٢٣٠] ومحللين ذبائح أهل الكتاب وإن لم يذكروا عليها اسم الله، وآيات تنص عليه ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١] ورادّين نصف الميراث إلى غير البنت الواحدة من عمٍّ أو خال أو ابن لهما والنص: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] وترى أنهم أولى من البنت التي هي أقرب إلى المورث منهم.

(٢) كما نرى الكثير من فقهاء الشيعة يفتون بحلية نكاح الزانيات وإنكاح الزناة على كراهية =

وإن كان إخواننا السُّنّة أكثر خلافاً على القرآن، كما تعرفه في هذا التفسير، وإنما الطريقة المثلى هو اتباع القرآن كأصل، واتباع الحديث على ضوء القرآن، دون إفراط من يقول: حسبنا كتاب الله ويترك السُّنة، أو تفريط من يقول: حسبنا السُّنّة أو الحديث ولا يفهم كتاب الله إلّا بدلالة الحديث كأنما القرآن لغز غير مفهوم! فكيف أصبح حجة على الأولين والآخرين لإثبات رسالة الرسول، وقبل أن يصدقوه وأهليه المعصومين.

وحقيق على حوزة تريد أن تتسم بسمة إسلامية أن تؤصِّل القرآن في كافة حقولها، وتفرِّع عليه كافة علومها وعقولها، تعوُّداً على مراجعة القرآن كأصل لا ريب فيه. في كل أصل أو فرع عقائدي أو فقهي أو فلسفي أم ماذا، نابع من ينابيع سوى القرآن أيّاً كان ومن أي كان وأيّان، لكي تكون الحوزة صادرة عن القرآن واردة موارده، وإلّا فهي ماردة غادرة، ضالة ناكبة شاردة.

ولقد ضاع القرآن بين حالة منعزلة عن الحياة، بهالة قدسية لا تنالها الأفهام عند من يبررون موقفهم السلبي وجاه القرآن، قدسية خيالية خاوية تعزلها عن الحياة الإسلامية، وكأنه كتاب ورد ودعاء تكفينا قراءته في حلّ المشاكل، ويكفي شفاءً للمرضى وشفاعة ورحمة للموتى! رغم أنه حياة مستقيمة لمن شاءها: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾[1] ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2]!

= والنص يحصر الحلية بالمحصنات: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ٥] ويحرم مناكحة الزانيات: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣] ويحرمون حلائل الأبناء من الرضاعة كما من الأصلاب والنص يخص التحريم بالأصلاب: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]..

ويفرضون الأضحية للحاج في الأضحى وإن هدرت لحومها التي هي حق الفقراء والنص: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟﴾ [الحج: ٣٦] البائس الفقير وأمثالها غير قليل.

(١) سورة التكوير، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

(٢) سورة يس، الآية: ٧٠.

وبين حالة بسيطة يناله كل من يعرف من لغته شيئاً، ثم وليس وراء ما يفهمه البسطاء إشارات ولطائف وحقائق، فلذلك لا حاجة إلى دراسته ومدارسته!

والقرآن بيان للناس وفيه تبيان كلّ شيء: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[(١)]!.

ولسوف ترون أن القرآن برهان قاطع وبيان ساطع لا مرد له لإثبات المبدأ والمعاد وما بينهما، ولإثبات كل ما يحويه ويبديه من أحكام عقلية أم ماذا؟ فإنه برهان بنفسه لمن أنزله وعلى من أنزل ولماذا أنزل؟: كتاب تدوين يحلّق على التشريع والتكوين ببرهان يقين!

في هذا المدخل نقدّم تنبيهات على أمور كثرت فيها الأقاويل فخلقت القال والقيل في الوسط الإسلامي وسواه من أوساط، كالنسخ والتحريف والتفسير بالمأثور وشأن النزول وبطون معاني القرآن.

كلام حول النسخ:

القرآن - في جملة واحدة - ناسخ لسواه وليس منسوخاً بسواه، قبله أو معه أو بعده، وإن كان فيه بعض التناسخ لنفسه في أحكام مؤقتة امتحانية كحكم النجوى والزنى وعدد الكفاح في قتال الكفار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[(٢)].

ولأن الحكم الناسخ يبطل الحكم المنسوخ، فعزة القرآن وغلبته تجعله بحيث لا يبطل ولا ينسخ جملةً أو تفصيلاً، كلاًّ أو بعضاً ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ من

(١) سورة محمد، الآية: ٢٤.
(٢) سورة فصلت، الآيتان: ٤١، ٤٢.

كتابات السماء حيث تؤيده ولا تبطله، ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ حاضراً لديه كوحي السنة، أو آتياً بعده كفتاوى الخلفاء والأئمة، فلو أن حكماً من الأحكام زمن الوحي أو بعده ينسخ حكماً من أحكامه فقد أتاه الباطل، الذي يبطله ويحوّله. والقرآن هو نفسه يحيل للرسول ملتحداً سواه: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾[1] فإنه الوحي الخالد الأم الذي يتبنى شريعة الإسلام طول الزمن، ومهما كان وحي السُّنّة أيضاً وحياً ولكنه شارح له هامشي، لا يمكن أن يختلف عنه وينسخه، وقد أمر الرسول أن يتبعه، فيعيش متابعة وحي القرآن طوال الرسالة: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾[2]: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[3].

وقد حصر الرسول حياته الرسالية باتباع ما يوحى اليه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى...﴾[4] ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[5].

وما مرت على الرسول ولا مرة يتيمة أن يخالف وحي القرآن ولو نسخاً لحكم من أحكامه. إلّا ما اختلقته أيدي الزور والغرور أنه نسخ حكم المتعتين، وليبرّروا بدعة فلان التي يسمونها بدعة حسنة!.

ولأن القرآن هو الوحي الأصيل الخالد حجة على العالمين. لم يكن الله ليوحي إلى رسوله وحياً في سنة تنسخ وحي القرآن، فالأحاديث التي تتحدث عن نسخ الكتاب بالسنة تضرب عرض الحائط، لأنها تخالف الكتاب جملة

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٧.
(٢) سورة يونس، الآية: ١٠٩.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٠٩.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٣.
(٥) سورة الأحقاف، الآية: ٩.

وتفصيلاً، كما وأن آيات العرض وأحاديثه المتواترة تضربها عرض الجدار، مهما كثر محدثوها ومفتوها.

وإذا الرسول ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾ فما لغير الرسول يسمح لنفسه أن ينسخ القرآن ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ. . . هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ. . . هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[1].

فنسخ القرآن كفر وظلم وفسق بل وأظلم منها وأنكى، فإن ثالوث الكفر والظلم والفسق هو لمن لم يحكم بما أنزل الله، فما هي حال من حكم بخلاف ما أنزل الله؟

فالسُّنّة إذاً لا تنسخ القرآن، كما ولا تنسخ نفسها، حيث السُّنّة المنسوخة إن كانت خلاف القرآن فهي باطلة منذ كونها وليست سُنّة حتى تنسخ، وإن كانت وفاق القرآن فنسخها إذاً نسخ للقرآن ولن يكون!، اللهم إلّا في سُنّة لا توافق القرآن ولا تخالفه إذ لم يأت وحيها بعد في القرآن فقد يكون تناسخ بينها قبل قرآنها.

وأما نسخ القرآن للسُّنّة فقد يكون، حيث الرسول كان - قبل أن يوحى إليه القرآن - مستناً بسنة من قبله من رسول، أو سنته الخاصة الناسخة لما قبله، ووحي القرآن يتدرج طوال الرسالة، فقد كان ينسخ ما عنده وقد كان يقرّه.

إذاً ففي مثلث النسخ المدّعى لا نجد إلّا نسخ القرآن للسنة في نجومه النازلة هنا وهناك، أو تناسخ السُّنّة أحياناً.

ثم النسخ - خلاف ما قد يزعم - ليس إلّا في الأحكام التكليفية أو الوضعية، وأما الأحكام العقلية، والإخبارات الكونية، فليس التناسخ فيها إلّا تكاذباً، كذباً فيهما أو أحدهما، وحاشا عن ذلك وحي القرآن والسنة.

---

(١) سورة المائدة، الآيات: ٤٤، ٤٥ و٤٧.

وكما أن نسخ القرآن بالسُّنّة لا يصدّق في إزالة حكم من أحكامه، كذلك في تقييد إطلاقاته أو عموماته التي هي نص في الإطلاق أو العموم[(١)] أو في حمل ظاهر مستقر إلى غير ظاهره، فإنه أظهر من ظاهر الحديث أو ونصه، أو في إطلاق آية مقيدة أو تعميم آية خاصة أو تخصيص آية عامة، أو تقييد آية مطلقة، اللّهم إلّا في عام أو خاص قرآني ليسا في مقام البيان فيصح تخصيص عامه وتقييد مطلقة بما ثبت من السُّنّة، وسوف تجد تفاصيلها في هذا التفسير.

صيانة القرآن عن التحريف:

لو لم تكن شنشنة أعرفها من جاهل أو متجاهلين، الذين يخرفون فيهرفون بما لا يعرفون عن القرآن، هرفاً في التحريف، لما كتبت عنه شيئاً، لأن القرآن فوق هذه الأقاويل الزور، والتي تسربت إلى أحاديث الإسلام فترسّبت عند من غرب عقله فلذلك أجمل البحث عنه كما أجمله شيخ الطائفة وأضرابه[(٢)].

(١) فقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾ - بعد - ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣] - أنه نص في إطلاق الأمهات حيث هن أعم من أمهات النساء المدخول بهن وغير المدخول بهن - لمقابلته الربائب من النساء المدخول بهن إذ لو كانت الأمهات مقيدات لذكر قيدهن كما ذكر قيد أمهات الربائب.
لذلك يطرح الحديثان المقيدان لأمهات النساء رغم صحة سندهما، ويقبل الحديث العلوي - على ضعف سنده - القائل، لأنهن مرسلات وأمهات الربائب مقيدات.
ومن النص في العموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٠] وليس المحال شيئاً حتى يستثنى تعلق القدرة به، وكذلك العمومات والإطلاقات الظاهرة في العموم أو الإطلاق، إلّا أن تكون سنة ثابتة تخصّص أو تقيّد.

(٢) قال في مقدمة تفسيره «التبيان: وأما الكلام في زيادته ونقصانه فمما لا يليق به أيضاً لأن الزيادة مجمع على بطلانها والنقصان منه فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا وهو الذي نصره المرتضى وهو الظاهر في الروايات غير أنّه =

وجملة القول ممن تقوّل في هذا المضمار: أن القرآن محرف بنقصان فقط وفي التأليف(١) وأما الزيادة فمجمع على بطلانها، ولا ريب أن الآيات الموجودة كلّها قرآن، ومنها ما تصرّح بعدم التحريف أياً كان، فقولة التحريف إذاً تناقض القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾(٢) والذكر هنا هو القرآن، فإنه منزّل، وليس الرسول وهو الذكر المنزل: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ . . .﴾(٣) فالرسالة دفعية منزلة، وليست تدريجية منزّلة، ثم الذكر قبل آيته هو القرآن: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾(٤) وحفظ قرآنه حفظاً لبرهانه الرسالي الخالد يخفّف عنه وطأة تهمة الجنون، فليس إلّا حفظاً له ككلّ وفي أيّة ناحية كقرآن، طوال الرسالة الإسلامية، وبمتناول أيدي الناس، لا حفظاً في صدره هو وصدور المعصومين من خلفائه - فحسب، فإنه لا يحافظ على كيان الرسالة إلّا عند أهليها، والآية في مقام

= رويت روايات كثيرة من جهة الخاصة والعامة بنقصان كثير من آي القرآن ونقل شيء منه من موضع إلى موضع طريقها الآحاد التي لا توجب علماً ولا عملاً والأولى الإعراض عنها وترك التشاغل بها لأنه يمكن تأويلها ولو صحت لما كان ذلك طعناً على ما هو موجود بين الدفتين فإن ذلك معلوم صحته لا يعترضه أحد من الأمة ولا يدفعه.

ورواياتنا متناصرة بالحث على قراءته والتمسك بما فيه وردّ ما يرد من اختلاف الأخبار في الفروع إليه وقد روي عن النبي ﷺ رواية لا يدفعها أحد أنه قال: إني مخلف فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض - وهذا يدل على أنه موجود في كل عصر لأنه لا يجوز أن يأمر بالتمسك بما لا نقدر على التمسك به. . وإذا كان الموجود بيننا مجمعاً على صحته فينبغي أن نتشاغل بتفسيره وبيان معانيه ونترك ما سواه».

(١) راجع ج ٢٩ ص ٢٨١ - ٢٨٤ على ضوء الآية: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧].

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩.

(٣) سورة الطلاق، الآيتان: ١٠، ١١.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٦.

الامتنان، وماذا يجديه حفظه عنده إذا كان ضايعاً عند الأمة، فهل نزل هذا الذكر إلّا للأمة: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١).

ولا نجد آية كآية الحفظ - في أية مهمة إسلامية - فيها هذه التأكيدات العديدة: ١ - إنّ. ٢ - نا. - ٣ - نحن. ٤ - نا. ٥ - إنّ. ٦ - نا. ٧ - له. ٨ - لحا ٩ - فظون.

فهل نسي الله أم عجز أو بخل عن حفظه وصيانته في تأليفه؟ أو عن زيادته أو نقصانه إذ غلب على أمره؟ والله غالب على أمره! وهو القائل العزيز: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾(٢): لا يأتيه الباطل من أي تهريف أو تحريف، رغم ما يأتيه المبطلون - لا يأتيه من بين يديه من وحي سابق يكذبه ويبطله، أو لا حق أو معاصر كذلك، فضلاً عن غير الوحي من دس المبطلين، لأنه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾!: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾(٣).

إنه محفوظ جملة وتفصيلاً، نزولاً وتنزيلاً، تأليفاً وترتيباً، حتى في حروفه ونقطه وإعرابه، فضلاً عن جمله وآياته، وكما يشهد بذلك القرآن نفسه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾(٤) وقد يروى عن الرسول ﷺ عدد كلمات القرآن وحروفه.

ثم وحديث الثقلين، وآيات العرض وأحاديثه، شهود صدق على صيانته عن التحريف، فكيف يكون القرآن المحرف معروضاً عليه لكل حادث

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.
(٢) سورة فصلت، الآيتان: ٤١، ٤٢.
(٣) سورة البروج، الآيتان: ٢١، ٢٢.
(٤) سورة النساء، الآية: ٨٢.

وحديث؟ أو يكون الثقل الأكبر بعد الرسول ﷺ مع أصغره حتى يردا عليه الحوض؟.

وما خرافة تحريف القرآن إلّا اختلاقاً إسرائيلياً وجد له سبيلاً إلى غَفلَة جاهلين أو طائفيين من سنة وشيعة، كلٌّ يصدق اختلاقاً حول التحريف ليثبت مذهبه تغافلاً عن كيان القرآن وهو أساس الإسلام.

فالسُّنّي يهرف بنقصان آية الرجم: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» ما يعرفه كل سوقي عربي أنه لا يشبه الوحي القرآني.

والشيعي يخرف بنقصان اسم الإمام علي وآله في مواضع هي غاية الكدّ والكدح في باطله من أخبار آحاد[(١)].

(١) كما فعله الميرزا حسين النوري في «فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب» كالتالي:
١ - فبدل الذين ظلموا آل محمد حقهم قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا آل محمد حقهم رجزاً من السماء! - والذين ظلموا هنا هم جماعة من اليهود حيث ظلموا أنفسهم ونبيهم فبدلوا قول الحق ﴿حِطَّةٌ﴾ بقولهم «حنطة»، استهزاء، فأين ظلمهم بآل محمد أو محمد ﷺ نفسه في حنطتهم؟
٢ - «بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله في علي» وهم إنما كفروا بما عرفوه من النبوة المحمدية ولما يصل الأمر بعد إلى علي!
٣ - «و لتكن منكم أئمة كنتم خير أئمة» والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يختصان بالأئمة وإنما هما واجب الأمة على شروطهما.
٤ - «يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم في ولاية علي وإن تكفروا بولايته فإن له ما في السماوات والأرض» وكأنما الرسول جاء بالحق فقط في ولاية علي قبل أن تثبت ولايته ﷺ أم ماذا؟.
٥ - «يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما أنزلنا في علي نوراً مبيناً» والآية ﴿بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾.
والكتابي المنكر للرسالة الإسلامية - وهي الأصل - كيف يوجّه إلى فرعها وهو ولاية علي عليه السلام؟ ثم لا أدري كيف يتصل قوله: ﴿نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]. بـ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤١]...»؟ =

. . . .

= ٦ - «أوفوا بالعقود التي عقدت عليكم لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب» ويا ليت شعري ما هي المناسبة بين عقد الولاية وبعدها: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١] اللهم إلّا أن مختلق هذا الحديث هو من بهيمة الأنعام!.

٧ - «بلغ ما أنزل إليك في علي» وقد وردت في روايات أن «في علي» تفسير لمورد الآية وليست من الآية.

٨ - «والله ربنا ما كنا مشركين بولاية علي بن أبي طالب» وناكر الولاية وحتى النبوة لا يسمى مشركاً، وإنما هو المشرك بالله، ثم وهذه مقالة أصاب الجحيم ونائر ولاية علي عليه السلام لا يستحق بذلك النار.

٩ - «إنما أنت منذر وعلي لكل قوم هاد» وليس علي هادياً للأقوام السابقين كما محمد لم يكن، وإنما هو هاد منذ خلافته، كما محمد منذر منذ رسالته.

١٠ - «رب اغفر لي ولولدي إسماعيل وإسحاق - أو - إسحاق ويعقوب - أو - الحسن والحسين» وليت شعري كيف أقحم إسحاق مع إسماعيل ولمّا يولد، فضلاً عن: إسحاق ويعقوب، وأخيراً: الحسن والحسين! وأبوهما وجدهما أحرى بالدعاء لو أن إبراهيم يريد الدعاء لمن يأتي.

١١ - «إن هذا صراط عليّ مستقيم» وهنا غفل المفتري عن أن «مستقيم» وصفاً لـ«صراط» المعرف بالإضافة إلى علي - كما زعم - يجب تعريفه «المستقيم».

١٢ - «أن تكون أئمة هي أزكى من أئمتكم»!...

١٣ - «ولقد عهدنا إلى آدم من قبل في محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ذريتهم» ولم يكن العهد المنسي إلّا الطاعة المطلقة لله وعدم طاعة الشيطان، وأما في محمد وآله عليهم السلام فالآيات تلمح والروايات تصرح أنه كان عارفاً بهم مؤمناً.

١٤ - «يا ليتني اتخذت مع الرسول علياً ولياً».

١٥ - «يا محمد يا علي ألقيا في جهنم كل كفار عنيد» وليسا هما من الزبانية!

١٦ - ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ والمودّة لا تقتل وإنما الموءودة هي التي كانت تقتل!

١٧ - «وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُو الشَّياطِينُ بولاية الشياطين عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ» وهنا يبدو الاختلاق الإسرائيلي واضحاً حيث يفتري على سليمان - وفقاً لما في التوراة - أن ملكه كان بولاية الشياطين - وقد غفل المفتري عن ذيل الآية ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٢] ومن هؤلاء الشياطين مختلقو هذه الفرية على سليمان في التوراة وفي الآية المزعومة القرآنية!.

١٨ - «متاعاً إلى الحول غير إخراج مخرجات» وليته يشعر ماذا تفيده «مخرجات» إلّا تناقضاً=

ولكنما القرآن يقول كلُّه تلميحاً، وتقول بعض آياته تصريحاً، إنه لم يحرف ولن، ولكنما الحرفة الطائفية ليست لتسمح الرجوع في ذلك إلى القرآن نفسه، لحدّ يستدل قائله بآية مشوهة حيث لم يجد فرصة للرجوع إلى القرآن، إذ كان يسبر أغوار الأحاديث من عشرات وعشرات مؤلفات تضمها(١).

وقد يعني [البعض من أحاديث التحريف - غير الصريحة في نقص أو زيادة لفظية - تعني] تحريف المعنى، إمالة لمعاني آيات إلى غير معانيها، وهذا مما نعانيه منذ نزول القرآن: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾(٢) - ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ...﴾(٣).

= في الحكم - حيث المعنى: متعوا المتوفى عنهن أزواجهن إلى الحول دون إخراج لهن حال كونهن مخرجات!

١٩ - «لقد جاءكم رسول من أنفسنا عزيز عليه ما عنتنا حريص علينا بالمؤمنين رؤوف رحيم» ومعلوم أن «كم» هم المرسل إليهم و«نا» هو المرسل، فهل هناك جمع من الآلهة بعثوا واحداً منهم رسولاً إلى الناس؟ أو أن الله عبر عن نفسه بصيغة الجمع عناية إلى جمعية الصفات، ثم الرسول هو من ذاته تعالى!

هذه زبانيتهم التسعة عشر التي أضرموها ليحرقوا بها القرآن ولكنهم مفضوحون! وأكثرها من هرطقات بعض المتظاهرين أنهم شيعة، وليسوا إلّا شنيعة، يروون أو يصدقون روايات إسرائيلية تنوّه كأنما القرآن نزل - فقط - ليثبت فضل آل محمد، وأما محمد فليس إلّا رسولاً ليبلغ إلى الناس هامة الولاية لآله فقط!

إن المحاولة الإسرائيلية المسيحية وجدت بين جهال من المسلمين من يستجيب لهم، كخدمات مذهبية: شيعية أو سنية، ليشوهوا سمعة القرآن كما كانت كتبهم ولكن ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

(١) ينقل المحدث حسين النوري آية الذكر في كتابه المخطوط بيده: «إنا أنزلنا الذكر وإنا له حافظون» ثم يقول: الإنزال لا يدل على أنه الكتاب بل استعمل الإنزال للرسول في قوله: «أنزلنا إليكم ذكراً رسولاً» هذا! رغم أن آية الحفظ تقول «نزلنا» وهو ينقلها «أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ» فلم ينظر إلى آية الذكر حتى يعرف أنه ذكر منزّل وليس منزلاً، ولا إلى ما قبلها ليعرف أنّه القرآن! فيا له مراماً ما أبعده وذكراً ما أغفله!

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٤٦.

وكما تشهد له رسالة الإمام الباقر عليه السلام إلى سعد الخير: (وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه وحرفوا حدوده، فهم يروونه ولا يرعونه، والجهال يعجبهم حفظهم للرواية، والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية)[١] كما وإن التأويل المصطلح للآيات - وهو تفسيرها بخلاف ظواهرها المستقرة - هو أيضاً تحريف وتفسير بالرأي.

فالتحريف لغوياً هو الإمالة للشيء عن وجهه إلى غير وجهه، فيشمل وجه اللفظ إلى لفظ آخر، ووجه المعنى - وهو ظاهره - إلى معنى آخر، ووجه التركيب إلى تركيب آخر وما إلى ذلك من وجوه التحريف في الآيات، ونحن لا نصدق إلّا واقع التحريف في وجوه المعاني الصريحة أو الظاهرة إلى غيرها، المندّد به في القرآن والحديث، دون غيره حيث يكذبه القرآن والحديث.

ثم وفي صيانة القرآن عن التحريف صيانة للسنة المحمدية عن التجديف وصيانة لسائر كتب السماء عما تدخل فيها من وحي الأرض، حيث يهيمن على ما قبله من كتاب، وعلى حدّ ما يروى عن رسول القرآن وأهل بيته الكرام عليهم السلام فإنه الثقل الأكبر بعد الرسول، حيث يستمر به الثقل الأصغر، إذ تعرض رواياتهم عليه فيعرف الخائن المفترى من الأمين والغث من السمين.

وفي تحريف القرآن - وهو كتاب الزمن - ضياع لكافة الرسالات الإلهية ورسالة القرآن، وزوال للحجة البالغة الإلهية عن العالمين.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٢] ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ

(١) أصول الكافي.
(٢) سورة النحل، الآية: ٦٤.

كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴿١٦﴾﴾[(١)].

وهذا القرآن فيه من التواتر العام طوال القرون الإسلامية لحد أصبح كالشمس في رائعة النهار، وما تهريف التحريف إلّا كذباب أو ذُباب تحاول كسف الشمس بجناحها وذبها.

فكل أمر يُرجع إلى القرآن لفظاً ومعنىً وترتيباً وقراءة، إذ لا نصدق أية قراءة لا توافقها المتواترة المتداولة، المخطوطة والمطبوعة، فذة أو في التفاسير، ولا سيما القراءات التي تغير المعاني.

وسوف ترى في هذا التفسير أن وصمة التحريف تهريف هراءٌ من بعض الجهال أو المعاندين، وتجديف في أحاديثنا من إسرائيليات ومسيحيات تعني تشويه القرآن كما شوهت سائر كتابات السماء، وأن القرآن بنفسه يذود عن نفسه هذه الوصمة الجاهلة، بألفاظه ومعانيه، كما هو يثبت كونه وكيانه أنه إلهي واصب كالشمس في رايعة النهار، فهو هو دليل لكل دليل ومدلول، ولا يحتاج بنفسه إلى دليل، اللهم إلّا لمن لم يعش القرآن قلبه، أو يعشو قلبه عن نوره المبين وتبيانه المتين، فلينبّه لذكراه، ليهتدي إلى هداه.

ومن آياته أن تسمت جملاته بالآيات، حيث اتسمت بأنها دالات بكونها بذواتها إلهيات، فكما أن معجزات الرسالات آيات كذلك القرآن كله آيات ولكنها خالدات.

التفسير المأثور:

نجد الكثير من أحاديث التفسير لا تعني تفسير المفاهيم، وإنما

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.

المصاديق الجلية أو الخفية أو المختلف فيها، دون أن تحصر الآيات بنفسها إذ لا تتحملها.

فتفسير النبأ العظيم والصراط المستقيم بعلي أمير المؤمنين عليه السلام هو من قبيل الجري والتطبيق، وبيان مصداق مختلف فيه، ولو كان هو - فقط - الصراط المستقيم لأصبح النبي طالباً في صلواته ليل نهار صراط علي كأنه عليه السلام أعلى منه صلى الله عليه وآله وسلم!

وتفسير الرزق في ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1] بـ(مما علمناهم يبثون) بيان لمصداق خفي من مفهوم الرزق - الواسع، وأحرى أن يشمل علم الدين الذي هو رزق الروح.

فهذه تنبيهات ممن نزل في بيوتهم القرآن، أن الاقتصار على المفاهيم المحدودة عند الناس خلاف ما يعنيه القرآن وهذه المحدودية الفكرية تجعل آيات متشابهات، ولكن كلما اتسع الفهم زال على مداه تشابه الآيات، ولنكرر قول الإمام الرضا عليه السلام في معنى المتشابه: «المتشابه ما اشتبه علمه على جاهله».

شؤون النزول:

إن شؤون نزول الآيات وإن كانت تساعد على تفهّم معانيها أحياناً ولكنّها ليست شرطاً في التعرّف إلى معاني آيها، ولا أنها تحدّد معاني الآيات بمواردها، فلو أن الآية ماتت بموت الشأن الذي نزلت فيه، إذاً لماتت الآيات كلها، وإنما شؤون النزول مبرّرات وقتية لنزولها، تماشياً مع كلّ حادث وحديث في نزولها، فالآيات مستقلة في دلالاتها على معانيها،

(١) سورة البقرة، الآية: ٣.

عرفت شؤونها أم لا، وإنما تكمّل دلالاتها رعاية قرائنها القرنية لها قبل أو بعد أو مع، أم البعيدة عنها من نظائرها، وأما شؤون نزولها فلا شأن لها أصيلاً في تفسيرها، وإنما الشأن الأصيل هو شأن الآيات أنفسها دون شؤون سواها.

«ولو أن الآية إذا نزلت في قوم ثم مات أولئك القوم ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء ولكن القرآن يجري أوّله على آخره ما دامت السماوات والأرض ولكل قوم آية يتلونها هم منها من خير أو شرّ»[(١)].

الظاهر والباطن:

ظاهر القرآن هو اللائح من المعنى المطابقي حسب قانون الأدب اللفظي، نصّاً أو ظاهراً مستقراً، والباطن هو الإشارة واللطيفة والحقيقة، وهذه مراحل أربع وكما يرويه الإمام الحسين عن أبيه علي أمير المؤمنين: «كتاب الله على أربعة أشياء على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق فالعبارة للعوام والإشارة للخواص واللطائف للأولياء والحقايق للأنبياء» ولعلّ الحقائق هي التأويلات: المآخذ والنتائج كما يأتي حول آية التأويل.

فالعبارة هي المعبّرة عن المعنى الظاهر دون مجرد اللفظ بلا عبارة له عن المعنى ولو كانت هي اللفظ لكان ثانيه المعنى دون الإشارة، وقد ثنّاه بالإشارة التي هي بَعد المعنى، ثم هذه العبارة المعنى تشير للخواص إلى لطائف، وهذه اللطائف قد تشير إلى الحقايق وهي خاصة بأهل الوحي: أهل بيت الرسالة المحمدية ﷺ.

(١) تفسير البرهان ١ : ٢١ عن محمد بن خالد الحجاج الكرخي عن بعض أصحابه رفعه إلى خثيمة قال قال أبو جعفر عليه السلام: . . .

إذاً فالمعاني الباطنية هي سلسلة إشارات فلطائف ثم حقائق تنبع من المعاني الظاهرية لمن شرح الله صدره بالقرآن، عاش قلبه القرآن فعاش القرآن قلبه فأصبح عشيراً للوحي القرآني[(١)].

فليست الإشارات إلّا من مشيرات المعاني الواسعة لمن شرح الله صدره، ولا اللطائف إلّا من هذه الإشارات، درجات تلو بعض لمن يتدرج إليها بمدارج التدبير ولطيف التفكير وواسع الصدر، دون فوضى ادّعاء لكل من يهوى ما يهواه فيسميه إشارة أو لطيفة أو حقيقة!.

فليتجنب المفسر عن استعمال القياس في القرآن - فـ«من نصب نفسه للقياس لم يزل دهره في التباس ومن دان الله بالرأي لم يزل دهره في ارتماس»[(٢)] - «مائلاً عن المنهاج، طاعناً في الاعوجاج، ضالاً عن السبيل، قائلاً غير الجميل»[(٣)].

(١) قال المغفور له الفيض الكاشاني في المقدمة الخامسة من تفسيره: إن من زعم أن لا معنى للقرآن إلّا ما يترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حدّ نفسه ولكنه مخطئ في الحكم برد الخلق كافة إلى درجته التي هي حده ومقامه، بل القرآن والأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن لأرباب الفهم متسعاً بالغاً ومجالاً رحباً قال الله تعالى:
﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤] وقال: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] وقال النبي ﷺ: «القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن الوجوه».
ثم قال: فالصواب أن يقال: من أخلص الانقياد لله ولرسوله وأهل البيت عليهم السلام وأخذ علمه منهم وتتبع آثارهم واطلع على جملة من أسرارهم بحيث حصل له الرسوخ في العلم والطمأنينة في المعرفة وانفتح عيناً قلبه وهجم به العلم على حقائق الأمور وباشر روح اليقين واستلان ما استوعره المترفون، وأنس بما استوحش منه الجاهلون وصحب الدنيا ببدن روحه معلقة بالمحل الأعلى، فله أن يستفيد من القرآن بعض غرائبه ويستنبط منه نبذاً من عجائبه، ليس ذلك من كرم الله تعالى بغريب ولا من جوده بعجيب، فليست السعادة وقفاً على قوم دون آخرين وقد عدوا جماعة من أصحابهم المتصفين بهذه الصفات من أنفسهم قالوا: سلمان منا أهل البيت.

(٢) قرب الإسناد حدثني هارون بن مسلم قال وحدثني مسعدة بن صدقة قال حدثني جعفر بن محمد عن أبيه أن علياً عليه السلام قال: . . .

(٣) المستدرك عن الإمام الحسين عليه السلام.

وفي الصادقي عليه السلام: «إن للقرآن بطناً وللبطن ظهراً وليس شيء أبعد من عقول الرجال منه، إن الآية لتنزل أولها في شيء وأوسطها في شيء وآخرها في شيء وهو كلام متصل ينصرف على وجوه»[(١)].

وفي النبوي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن للقرآن ظهراً وبطناً ولبطنه بطناً إلى سبعة أبطن» وهذه السبعة - كما في الصادقي عليه السلام هي أدنى ما للإمام أن يفتي على سبعة وجوه - ثم قال: «هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب».[(٢)].

وفي الباقري عليه السلام: «إن للقرآن بطناً وللبطن بطناً وظهراً وللظهر ظهراً»[(٣)].

وهكذا يشار إلى مراتب البطون، إن الظهر الأول ظهر لأولى البطون وهذا البطن ظهر للبطن الثاني والثاني ظهر للثالث، فكل بطن ظهر لما بعده وبطن لما قبله سلسلة تنبؤات وخواطر متدرجة تنبع من منبع النص والظاهر القرآني.

وفي العلوي عليه السلام: إن الله جل ذكره لسعة رحمته ورأفته بخلقه وعلمه بما يحدثه المبطلون من تغيير كلامه قسم كلامه ثلاثة أقسام، فجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل، وقسماً لا يعرفه إلّا من صفى ذهنه ولطف حسُّه وصحَّ تمييزه ممن شرح الله صدره للإسلام، وقسماً لا يعرفه إلّا الله وأنبياءه والراسخون في العلم، وإنما فعل ذلك لئلا يدعي أهل الباطل من المستولين على ميراث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من علم الكتاب ما لم يجعله الله لهم، ويقودهم الاضطرار إلى الايتمار لمن ولاه أمرهم...[(٤)].

---

(١) العياشي عن جابر قال قال أبو عبد الله عليه السلام يا جابر:..

(٢) العياشي عن حماد بن عثمان قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن الأحاديث تختلف عنكم؟ قال فقال عليه السلام: إن القرآن نزل على سبعة أحرف...

(٣) تفسير البرهان ونور الثقلين.

(٤) تفسير البرهان ونور الثقلين.

فتجريد الآية عن مضيقٍ من شأن نزولها هو من البطن الأوّل[١] فإذ يقول الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾[٢] لا يحمل الآية فقط على ﴿ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ بل يجريها وبأحرى - على: «الذين حملوا القرآن ثم لم يحملوها» فمثلهم إذاً ليس فقط - كمثل الحمار، بل أضل سبيلاً كما أن حمل القرآن أثقل فإنه أقوم قيلاً.

إذاً فنحن المسلمين المحمَّلين القرآن كلّ على حدِّه المستطاع، كثير منا مثله كأضل سبيلاً من الحمار، من تارك حمله في علومه ومعارفه، ومن تارك تطبيقه بعد معرفته ومن...!.

ثم وتحريرها عما تستأنسه الأفهام العامة من معاني محدودة هو من البطن الثاني، وتزويدها سعةً وعمقاً وإيضاحاً بنظائرها من آيات هو من البطن الثالث، وتحريرها عما قبلها وما بعدها من قرائن ومتعلقات غير أصيلة من البطن الرابع، وهكذا إلى بطون أخرى، رعاية لأصل الدلالة اللفظية كمنطلق، وحجج ودلالات قرانية أخرى كوسائل للتحرير والتوسعة، معتمدين في كلِّ ذلك على حجة من علم الكتاب أو أثارة من علم، متجنبين عما نهواه من أهواء علمية أمّاهيه، لكي نبتعد عن تفسير القرآن بالرأي، وإنما القرآن بالقرآن، وعلى ضوء السنة والله هو الموفق لهداه.

والقول إن القرآن هدى للناس وهو بيّن لهم كلهم ومبين فلا حاجة إلى التأمل الزائد في تفهّم معانيه أو بطون له؟ إنه غير متين، كما مضت في هذه

(١) ومن البطن الأوّل هم الذين عملوا بمثل أعمال من نزلت الآية فيهم كما يروى عن الإمام الباقر عليه السلام: «ظهر القرآن الذين نزل فيهم وبطنه الذي عملوا بمثل أعمالهم» (البرهان ١: ٢٠ عن حمران بن أعين عنه عليه السلام).

(٢) سورة الجمعة، الآية: ٥.

الروايات وصرحت به آيات التفقه[١] والتدبر[٢] والتفكر[٣] والتعقل[٤] والتذكر[٥] والعلم[٦] والشعور[٧].

أجل إن القرآن بيان وتبيان وهدى للناس إذا تفقهوا وتدبروا وتفكروا وعقلوا وتذكروا وعلموا وشعروا، وأما أن يتقنوا فقط اللغة ثم يحيطوا علماً بكل معاني القرآن فلا! حيث الفرق بين الترجمة والتفسير أم ماذا؟

---

(١) ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥] ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨].

(٢) ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

(٣) ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩] ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦] ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤] ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣] ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩] ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

(٤) ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢] ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨] ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١].

(٥) ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧] ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ١] ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٢].

(٦) ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩]. ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

(٧) آيات تحمل تنديدات كثيرة بالذين لا يشعرون ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢] ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩]. ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦] ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

الترجمة والتفسير والتأويل:

فقد يترجم القرآن من لغته إلى أخرى تحويلاً للمعنى المفهوم منه - كما يفهمه العربي الساذج - إلى لغات أخرى.

أو يفسّر كشفاً للقناع عن المفهوم منه حيث المفاهيم القرآنية درجات فوق بعض ولا يفهمها كل عارف باللغة العربية، أم كشفاً للقناع عن الإجمال المقصود حيث لا يراد التفصيل فلتفسّر الآية بآية أو آيات أخرى تعني تفصيل ما أجمل فيها[(١)].

وأما أن يفسر كشفاً عن قناع في المعنى الذي لا سبيل إلى تفهمه، أم قناع في اللفظ قصوراً[(٢)] أو تقصيراً[(٣)]، فساحة القرآن بريئة عن هذا المثلث فإنه بيان للناس لا قصور في دلالته ولا تقصير، ولا غموض في معانيه لحدّ لا يمكن تفهمه.

والتأويل راجع إلى المعنى المفهوم من القرآن إرجاعاً إلى مأخذه أو نتيجته، ولم يأت التأويل في سائر القرآن إلّا بهما، خلاف ما يهرف أنه تفسير بخلاف النص أو الظاهر لدلالة عقلية أو علمية أو حسية أم ماذا!.

فالترجمة راجعة إلى اللفظ والتأويل يخص المعنى والتفسير يشملهما، معنى عالياً بعيداً عن تفهم الناس إلّا من كان عالياً في التفهم، أم لفظاً لا يعني فيما يعني هنا ما تطلبه من تفصيل، ففي خماسيّة المحتملات للمعنى من التفسير لا يصح إلّا هذان دون الثلاثة الأخرى.

---

(١) فمثل قوله تعالى: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧٢] لا يدل على تعدادها وأوقاتها، وإنما المتكفل لهذا البيان آياتها المفصلة حيث تفسّر أعداد الصلاة وأوقاتها.

(٢) قصور الدلالة فيما يقصر المتكلم عن بيان مراده ولا قصور في ساحة الألوهية.

(٣) التقصير في الدلالة فيما يقصر المتكلم في بيان مراده على إمكانية البيان كما في بعض العبارات المغلقة الغامضة رغم وضوح المفهوم لو كانت الدلالة ظاهرة.

سُورَةُ الفَاتِحَة

سُورَةُ الفَاتِحَة

مكية - وآياتها سبع

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ① ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ② ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ③ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ⑦﴾

«سورة الفاتحة» التي افتتح بها الكتاب تأليفاً كما افتتح تنزيلاً - هي صورة مصغّرة عن «تفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين» أفرد الله بها الامتنان على الرسول العظيم ﷺ إذ جعلها ردفاً للقرآن العظيم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾[(١)] [(٢)].

نجد فيها تجاوباً رائعاً بين كتابي التدوين والتكوين عدّة وعدّة، فآياتها

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٧.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام بإسناده إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام مسلسلاً عن أبيه عن آبائه عن علي عليهم السلام قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله عزّ وجلّ قال: يا محمد! ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم، فأفرد الامتنان علي بفاتحة الكتاب وجعلها بإزاء القرآن العظيم وإن فاتحة الكتاب أشرف ما في كنوز العرش، وإن الله عزّ وجلّ خصّ محمداً ﷺ وشرّفه بها ولم يشرك معه فيها أحداً من أنبيائه ما خلا سليمان فإنه أعطاه منها ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (١: ٣٠١ والبحار ٩٢: ٢٢٧) وفي الدر المنثور ١: ٢ - أخرج الواحدي في أسباب النزول والثعلبي في تفسيره عن علي عليه السلام قال: نزلت الفاتحة بمكة من كنز من كنوز العرش.

سبع، وأسماؤها سبعة، كما السماوات سبع، والأرضون سبع، وأيام الأسبوع سبعة، والطواف بالبيت والسعي سبعة أشواط، ثم وتغلق بسبعها أبواب الجحيم السبع(١) كما نرمي الشياطين بجمرات سبع حيث الشيطنات هي السبع(٢): كما وتفتح بها أبواب الجنة الثمان(٣).

١ – «فهي فاتحة الكتاب»(٤):

لافتتاحه بها تنزيلاً وتأليفاً براعة بارعة لاستهلاله، حيث تنير علينا دروباً من علوم الكتاب جملةً كما يفتح الكتاب تفصيلاً، فتفتح بها أبواب خزائن أسرار الكتاب لأنها مفتاح كنور لطائف الخطاب.

٢ – ٣ – «وهي أم القرآن وأم الكتاب»(٥):

أمَّا لتفصيل الكتاب بآياته المحكمات والمتشابهات، كما المحكمات

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١: ١٧٥ روي أن جبرئيل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يا محمد! كنت أخشى العذاب على أمتك فلما نزلت الفاتحة أمنت، قال صلى الله عليه وآله وسلم: لِمَ يا جبرئيل! قال: لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: ٤٣-٤٤] وآياتها سبع فمن قرأها صارت كل آية طبقاً على باب من أبواب جهنم فتمر أمتك عليها سالمين.

(٢) وهي: الشيطان – البقر – النمر، ثم كل جمع بين اثنين منها ثم مجموع الثلاثة فهي سبع.

(٣) وعلّها باب المعرفة بما تكبر الله في صلاتك و – ٢ – باب الذكر بالبسملة و – ٣ – باب الشكر بالحمد له و – ٤ – باب الرجاء بالرحمتين الرحمانية والرحيمية و – ٥ – باب الخوف يوم القيامة و – ٦ – باب الإخلاص في العبودية والاستعانة الناتجة عن معرفة الربوبية و – ٧ – باب الدعاء والضراعة في طلب الهداية و – ٨ – باب الاهتداء إلى صراط أهل النعمة.

(٤) وقد تواترت الأحاديث لهذا الاسم.

(٥) الدر المنثور عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنها أم القرآن وأم الكتاب وفيه أخرج البخاري والدارمي في سننه وأبو داود والترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه في تفاسيرهم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني – ومن طريق أهل البيت عليهم السلام روى العياشي ١: ١٩ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: =

هن أم الكتاب، فكما المحكمات هن أم للأطفال المتشابهات، كذلك آيات الكتاب كله هي أطفال الأمّ السيدة.

فكل أصل وكل مجتمع وكل مأوى ومحور أمّ، والقرآن المفصّل يضم مربع الربوبية والنبوة والمعاد وما بين المبدأ والمعاد بتفاصيلها، وأم القرآن يضمها محكمة مختصرة، حكيمة محتصرة.

ومن ثم الأم تأتي بمعنى الراية للعسكر والفاتحة راية لعساكر السور بآياتها وهيبة لجنودها، فحقاً هي راية القرآن إذ تقدمه وتعرّفه وتعنيه!.

٤ - «وهي أساس القرآن»:

إذ أسست تفاصيله فيها مجملة جميلة وضّاءة[(١)] والقرآن المفصل يتبنّى الأساس أساساً لتفاصيله.

٥ - «وهي الكافية»:

تجزي ما لا تجزي شيء من القرآن حيث «تكفي من سواها ولا تكفي عنها سواها»[(٢)] في أولى السورتين من الأوليين لفظياً حيث تكفي من سائر

= اسم الله الأعظم مقطّع في أم الكتاب، وعن عبد الملك بن عمر عنه عليه السلام إن إبليس رنّ أربع رنّات.. وحين نزل أم الكتاب، وفي دعوات الراوندي عن موسى بن جعفر عليهما السلام قال: سمع بعض آبائي رجلاً يقرأ أم القرآن فقال: شكر وأجر (البحار ٩٢: ٢٦١) ورواه مثله محمد بن أحمد بن يحيى بسند عن جعفر بن محمد عليه السلام عن أبيه عليه السلام (تهذيب الأحكام ٨: ١٩٠) وروى الشيخ الطوسي في تبيانه ١: ٢٢، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه سمّاها أم القرآن وأخرجه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن عن الترمذي عن أبيّ بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن.

(١) الدر المنثور ١: ٢ أخرج الثعلبي عن الشعبي أن رجلاً شكا إليه وجع الخاصرة فقال: عليك بأساس القرآن قال: وما أساس القرآن؟ قال: فاتحة الكتاب.

(٢) المصدر أخرج الثعلبي عن عفيف بن سالم قال: سألت عبد الله بن يحيى بن أبي كثير عن قراءة فاتحة الكتاب خلف الإمام فقال: عن الكافية تسأل؟ قلت: وما الكافية؟ =

القرآن في الركعتين ولا يكفي سائره عنها فيهما، ومعنوياً فإنها على اختصارها تحمل متناً حاصراً من غزيرة الوحي الهاطل، وخطاباً لربنا في معراج الصلاة إذ تكفي عن كافة التفاصيل المسرودة في الذكر الحكيم حيث تناسب ذلك الخطاب.

٦ - «وهي الحمد»:

حيث تحمل أحمد حمد لرب العالمين، وخير ما يحمده به الحامدون، حمد غائب «الحمد لله..» ومن ثم حاضر «إياك نعبد...» فإنها بشطريها حمد مهما اختلف الموقف والتعبير وكله عبير، ثم وهي بادئة بالحمد، فلذلك كله سميت - فيما سميت - بسورة الحمد.

٧ - «وهي السبع المثاني»(١):

لأنها حسب القرآن العظيم سبع من المثاني ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي

= قال: الفاتحة، أما تعلم أنها تكفي عن سواها ولا تكفي عنها سواها؟
وأخرج أبو نعيم والديلمي عن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ: فاتحة الكتاب تجزي ما لا يجزي شيء من القرآن وأخرج الدارقطني والحاكم عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله ﷺ: أم القرآن عوض عن غيرها وليس غيرها عوضاً عنها.

(١) الدر المنثور ٤: ١٠٥ - أخرج الدارمي وابن مردويه عن أبيّ بن كعب قال قال رسول الله ﷺ: فاتحة الكتاب هي السبع المثاني.
وفيه ١: ٣ - أخرج الدارقطني وصححه والبيهقي في السنن عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: إذا قرأتم الحمد فاقرؤوا: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم - إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني و﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إحدى آياتها وأخرج ما في معناه عن رسول الله ﷺ البخاري والدارمي في مسنده وأبو داود والترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأحمد في مسنده وابن جرير والطبراني في الأوسط والبيهقي والبخاري والنسائي وابن حبان وأبو عبيد وابن خزيمة وأبو ذر الهروي وعبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند وابن الضريس في فضائل القرآن - أخرجه هؤلاء الحفاظ في مسانيدهم كما رواه علي أمير المؤمنين عليه السلام وعمر أيضاً عن رسول الله ﷺ - فما يروى عن ابن عباس في بعض رواياته=

﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾[(١)] ومهما كان القرآن كله مثاني: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ...﴾[(٢)] ولكن ﴿سَبْعًا﴾ ومن ثم ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ تخصها بهذه المثاني بما لها من مثنيات ومعاني، فهي تحمل ازدواجية المثاني.

ثم «المثاني» جمع المثنية أو المثنى وهو الذي يثنى، فأقلها ثلاث مثنيات ولكننا نجد لها سبعاً من المثاني:

١ - مثنى نزولاً في عهدي المكي والمدني، أوّل ما نزلت بمكة، وحين حولت القبلة في المدنية، ولا مثنى هكذا إلّا هيه!.

٢ - مثنى في أوّليتها في التأليف كما في التنزيل ولا مثنى هكذا إلّا هيه!.

٣ - مثنى في الصلوات مفروضات ومسنونات[(٣)] إذ تثنى في أوّلييها إلّا في وتر الليل.

= وسعيد بن جبير دون نسبة إلى رسول الله ﷺ أنها السبع الطوال: البقرة - آل عمران - النساء - المائدة - الأنعام - الأعراف - يونس - أنها لا تصدّق لمخالفتها المتواتر عن الرسول ﷺ أنها الفاتحة، وأنها نزلت قبل السبع الطوال وسواها من مدنيات ومكيات، وأنها ليست مثاني بأي معنى من معاني المثاني اللهم إلّا كما القرآن كله مثاني «كتاباً مثاني» ولا يخص السبع. ومن طريق أهل البيت عليهم السلام عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الآية فقال: فاتحة الكتاب يثنيّ فيها القول (العياشي ١: ٢٢) ورواه مثله عن يونس بن عبد الرحمن عمن رفعه قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية قال: هي سورة الحمد، ورواه مثله عن محمد بن مسلم وعن السدي عمن سمع علياً عليه السلام يقول مثله.

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٧.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٣) الدر المنثور ٦: ١٠٤ - أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في الآية قال: هي أم القرآن تثنى في كلِّ صلاة وأخرج ابن جرير وابن الضريس عن قتادة في الآية قال: فاتحة الكتاب تثنى في كلِّ ركعة مكتوبة وتطوع وأخرجه ابن الضريس عن أبي صالح مثله.
وفي تفسير العياشي ١: ١٩، عن يونس بن عبد الرحمن رفعه قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية قال: هي سورة الحمد، وإنما سميت المثاني لأنها تثنى في الركعتين وعن محمد ابن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام هي فاتحة الكتاب يثنى فيه القول.

٤ - مثنى إذ تثنّى بغيرها في الصلوات كلها إلّا في وتيرة العشاء.

٥ - مثنى في ثنائية التأويل حيث تعني القرآن جملة ويعنيها القرآن بالتفصيل.

٦ - مثنى في المعنى الاتجاه فنصفها ثناء الله ونصفها عطاء الله.

٧ - ومثنى بثنائية الآيات حيث تتبنى في كلّ من السبع أمرين اثنين فـ:

١ - ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ٢ - ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ٣ - ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. ٤ - ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾. ٥ - ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. ٦ - ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾. ٧ - ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾!.

مثانٍ سبعة في السبع المثاني في أمِّ كتاب التدوين تتجاوب مع سبع التكوين، سبع الزمان وسبعي المكان: سماوات وأرضين، وسبعي الطواف حول البيت وبين الصفا والمروة، كما ومراتب خلقة الإنسان سبع: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾[(١)].

كذلك ومراتبه الباطنة سبع: الروح - الفطرة - العقل - الصدر - القلب - اللب والفؤاد، وكما الصلاة أعمالها الظاهرة الملموسة سبعة حيث النية فعل القلب، وهي: القيام - الركوع - الانتصاب منه - السجدتان - والانتصاب جلوساً بينهما - والقعود تشهداً وسلاماً، والسبع المثاني لهذه السبع كالروح في الجسد، كما هي روح للإنسان.

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ١٢ - ١٤.

وكما الشيطنات والشياطين وأبواب الجحيم سبع وهي تغلق بالسبع المثاني!.

«والذي نفس محمد بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها»(١): فـ«من قرأ فاتحة الكتاب فكأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان»(٢).

لذلك «رنّ إبليس أربعاً حين نزلت فاتحة الكتاب وحين لعن وحين هبط إلى الأرض وحين بعث محمد ﷺ»(٣) فقد جعلت عدلاً للرسول كما هي عدل القرآن، حيث الرسول ﷺ هو القرآن والقرآن هو الرسول ﷺ وهي تمثلهما جملة كما هما يمثلانها تفصيلاً.

إنها أوّل ما نزلت على الرسول ﷺ فإنها فاتحة الكتاب وأصل الكتاب المنزل ثم الكتاب المؤلف، ولا تحمل الخمس الأول من العلق النازلة قبل الفاتحة إلّا البسملة(٤).

فقد توحي ﴿ٱقْرَأْ﴾ أنه ما كان قارئاً قبله، ثم ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ يعلمه بماذا يبدأ قراءة الوحي، ولأن أفضل أسمائه هو الله، فباسم ربك هو «بسم الله» ثم ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ هو «الرحمن» حيث الخلق هو أعم الرحمات ولا أعم من «الرحمن».

---

(١) الدر المنثور ١: ٤ - أخرج جماعة أن رسول الله ﷺ خرج على أبيّ بن كعب فقال: يا أبي! وهو يصلي - فالتفت أبي فلم يجبه فصلى أبي فخفف ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: كيف تقرأ في الصلاة؟ فقرأ بأم القرآن فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده...

(٢) المصدر ١: ٥ - أخرج أبو عبيد في فضائله عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ..

(٣) المصدر أخرج وكيع في تفسيره وابن الأنباري في المصاحف وأبو الشيخ في العظمة وأبو نعيم في الحلية عن مجاهد قال: رن إبليس أربع رنات ومن طريق أهل البيت عليهم السلام في تفسير البرهان ١: ٤١ عن أبي عبد الله عليه السلام مثله ورواه مثله العياشي ١: ٢٠.

(٤) القمي في تفسيره في قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١].. قال قال: اقرأ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، وفي أسباب النزول للواحدي النيسابوري عن ابن عباس أنه قال: أوّل ما نزل به جبرئيل عن النبي ﷺ قال يا محمد استعذ ثم قل: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ.

ومن ثم ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾[١] هو الرحيم، فإنه رحمة خاصة، ثم الأخص منه ﴿ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾[٢] ثم ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[٣] رحيم في أخصه حيث يعم سائر الوحي على سائر رجالات الوحي.

فبداية الوحي تلميحه كتصريحه بأفضل آية من كتاب الله ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ حيث هي تقرأ قبل كل أمر ذي بال والقرآن يفوق كل أمر ذي بال! وقد صلى الرسول ﷺ مع علي وخديجة لما رجع من بازغة الوحي، وبطبيعة الحال قرأ الحمد، إذ «لا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب»[٤].

ورواية نزولها في المدينة تعني نزولها الثاني عند تحول القبلة، وهي نازلة قبلها في مكة، وآية السبع المثاني المكية ليست لتعني سورة مدنية لولا نزولها بداية في مكة.

وكما القرآن المحكم نزل على قلب الرسول ﷺ في ليلة مباركة هي ليلة القدر بعد زهاء خمسين ليلة من بداية الوحي، ثم القرآن المفصل بعد الحمد إلى المائدة، تفصيلاً للمحكم النازل ليلة القدر.

---

(١) سورة العلق، الآية: ٢.

(٢) سورة العلق، الآيات: ٣، ٤ و٥.

(٣) سورة العلق، الآية: ٥.

(٤) الدر المنثور ١ : ٢ - أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في دلائل النبوة والواحدي و الثعلبي عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء فقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً فقالت: معاذ الله ما كان الله ليفعل بك فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم وتصدق الحديث - إلى أن قال -: سمعت نداء خلفي يا محمد يا محمد فأنطلق هارباً في الأرض فقال ورقة: لا تفعل إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتني فأخبرني فلما خلا ناداه يا محمد! قل: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ الحمد لله رب العالمين - حتى بلغ - ولا الضالين - فأتى ورقة فذكر له ذلك فقال ورقة: ابشر ابشر فإني أشهد أنك الذي بشر به ابن مريم وأنك على مثل ناموس موسى وأنك نبي مرسل.

فالحمد لله الذي جعل لنا نصيباً من القرآن المحكم كما خص رسوله بنصيبه ليلة القدر، وأين محكم من محكم؟

ثم البسملة هي أفضل آيات السبع المثاني، كما السبع أفضل القرآن العظيم، مهما كانت الأقوال حول: هل هي آية من الحمد وسائر القرآن إلّا البراءة عشرة كاملة[(١)].

إلا أن تسعة منها ناقصة مناقضة لحجة الكتاب والسنة.

فكونها آية من النمل دون خلاف يود كونها آية قرآنية أينما حلت، فجملة واحدة كيف تكون هنا آية وفي سواها ليست آية وليست هي إلّا هيه؟!

وكون السورة سبعاً من المثاني بشهادة القرآن والرواية المتواترة تجعلها آية منها، وإلّا فهي ست من المثاني، وقد رقمت بواحدة مهما لم ترقم في سواها، فما أمرها إلّا واحدة لأنها آية واحدة.

وكونها فصلاً بين السور لا تجعلها غير آية، ولا تفتتح بها البراءة وهي سورة فذة، ولا غرو أن تفصل بين السور بآية مكررة كما يعرف بها ختام سورة وبداية أخرى.

وكيف يقحم في القرآن ما ليس منه مهما كان لفصل وسواه، إذ يحصل الفصل بسواه، أفإقحاماً في القرآن جملة كآية لكل سورة إلّا البراءة؟

وقد أمر الرسول ﷺ في بازغ الوحي أن يقرأه بالبسملة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ

(١) وهي - ١ - ليست آية من أيّة سورة! - ٢ - آية من كلّ سورة سوى البراءة - ٣ - آية من الفاتحة دون غيرها - ٤ - بعض آية من الفاتحة فقط - ٥ - آية مستقلة أنزلت لبيان رؤوس السور تيمناً وللفصل بينها - ٦ - يجوز جعلها آية من الحمد وغير آية لتكرر نزولها بالوصفين - ٧ - بعض آية من جميع السور - ٨ - آية من الفاتحة وجزء آية من سائر السور إلّا البراءة - ٩ - جزء آية من الفاتحة وآية من السور إلّا البراءة - ١٠ - أنها آيات مستقلة حيثما كانت، وترى أن ما سوى القول الأوّل من هذه العشر متفقة على كونها آية وإن اختلفت في جهات أخرى ولا حجة في القول الأول كما لا حجة في كونها بعض آية - تأمل:

رَبِّكَ . . . ﴾[١] كما أمر دائباً مستمراً بقراءتها في الصلاة ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾[٢] والصلاة بلا تكبيرة أو بسملة دخول في الدار دون استئناس واستئذان من صاحب الدار[٣].

ثم وفي كل القرآن ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾[٤] - أفليست هي بعدُ آية من القرآن، وهي أفضل آية من القرآن حيث تعني أمّ القرآن إجمالاً كما هي تعنيه إجمالاً وهما تعنيانها تفصيلاً مهما بان تفصيل عن تفصيل.

ولأن البسملة أفضل آية في الذكر الحكيم[٥] فلتذكر في أفضل عبادة هي

(١) سورة العلق، الآية: ١.
(٢) سورة الأعلى، الآية: ١٥.
(٣) الدر المنثور ١ : ٧ - أخرج ابن أبي حاتم والطبراني والدارقطني والبيهقي في سننه عن بريدة قال قال رسول الله ﷺ : لا أخرج من المسجد حتى أخبرك بآية - أو سورة - لم تنزل على نبي بعد سليمان غيري قال: فمشى فتبعته حتى انتهى إلى باب المسجد فأخرج إحدى رجليه من اسكفة المسجد وبقيت الأخرى في المسجد فقلت بيني وبين نفسي ذلك فأقبل عليّ بوجهه فقال: بأي شيء تفتتح القرآن إذا فتحت الصلاة؟ قلت: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم - قال ﷺ : هي هي ثم خرج، وأخرج الدارقطني عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: كان جبرئيل إذا جاء بالوحي أوّل ما يلقي عليّ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.
(٤) سورة المزمل، الآية: ٨.
(٥) تفسير البرهان عن تفسير العياشي عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سرقوا أكرم آية في كتاب الله: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم، وعن الحسن بن خرزاد وروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا أمَّ الرجل القوم جاء الشيطان الذي هو قريب الإمام فيقول: هل ذكر الله؟ يعني: هل قرأ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم؟ فإن قال: نعم هرب منه، وإن قال: لا ركب عنق الإمام ودلّى رجليه في صدره فلم يزل الشيطان إمام القوم حتى يفرغوا من صلاتهم. وعن عيسى بن عبد الله عن أبيه عن جدّه عن علي عليه السلام قال: بلغه أن أناساً ينزعون بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم. قال: هي آية من كتاب الله أنساهم إياها الشيطان، وعن إسماعيل بن مهران قال قال أبو الحسن الرضا عليه السلام إن بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم أقرب إلى اسم الله الأعظم من سواد العين إلى بياضها، أقول وسواد عين البسملة هو الله حيث توسط بياضها، وعن خالد بن المختار قال سمعت جعفر بن محمد عليه السلام يقول: ما لهم قاتلهم الله عمدوا إلى أعظم آية في كتاب الله فزعموا أنها بدعة إذا أظهروها وهي بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم.

الصلاة وليكن عبد الله بسملة لله في مجراه ومرساه، فابتداء أقواله وأفكاره وأعماله «بسم الله» وانتهائها «بسم الله» إذا قام «بسم الله» وإذا نام «بسم الله» إذا عقد النطفة «بسم الله» وإذا حضر الموقف «بسم الله» وليكن هو بتمامه اسماً لله، يدل بكله على الله، إعلاناً - بالثناء على الله، وإذاعة لذكر الله، كما وإن الكون كله اسم الله.

فما لهم تركوا أفضل آية من كتاب الله، أخفتوا بها ثم تركوها، والكتاب القاطع والسُّنّة القاطعة حجتان لا مرد لهما أنها آية(١) يجهر بها في

(١) في تفسير الثعلبي روى الشافعي عن مسلم بن جريح عن ابن أبي مليكة عن أم سلمة أنها قالت: قرأ رسول الله ﷺ فاتحة الكتاب فعد ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ آية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ آية ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ آية ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ آية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ آية ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ آية ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آية وفي الدر المنثور ١: ٣ - أخرج الدارقطني وصححه والبيهقي في السنن عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ إذا قرأتم الحمد فاقرأوا ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني و﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إحدى آياتها، وفيه أخرج الدارقطني والبيهقي في السنن بسند صحيح عن عبد خير قال: سئل علي عليه السلام عن السبع المثاني فقال: الحمد لله رب العالمين فقيل له: إنما هي ست آيات؟ فقال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ آية، وفيه أخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه في تفسيره والبيهقي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ الحمد لله رب العالمين سبع آيات ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إحداهن وهي السبع المثاني والقرآن العظيم وهي فاتحة الكتاب، أقول: ومن أمثاله نتبيّن أن ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تعبيراً عن السورة لا يعني استثناء البسملة عنها، بل هو تعريف بأول آية غير مشترك فيها ولأنها سورة الحمد.

وأخرج الدارقطني، والبيهقي، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا قرأ وهو يؤم الناس افتتح بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم، وأخرج أبو عبيد وابن سعد في الطبقات وابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود وابن خزيمة وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه والخطيب وابن عبد البر كلاهما في كتاب المسألة عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان يقرأ «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ..» قطعها آية آية وعددها عدّ الإعراب وعد بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم ولم يعد عليهم، وأخرج الثعلبي عن أبي هريرة قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد إذ دخل رجل يصلي=

الجهرية فرضاً وفي الإخفاتية نفلاً. فمن تركها فلا صلاة له كما استفاضت بها السُّنّة مهما اختلف المتخلفون عنها فيها.

فعلى كل من يؤمن بالقرآن وأنه لم يحرف بزيادة ولا نقصان، الإيمان بأنها آية من القرآن.

وعلى كلّ من يؤمن بالسنة المحمدية ﷺ أن يتابع أثر الرسول فيما كان يفعل ويقول، وكما أجمع عليه أئمة أهل البيت عليهم السلام والخلفاء الثلاثة في أصلها، والشافعي في الجهر بها، وأحمد أنها آية منها، وأبو حنيفة في أصل قراءتها وجماعة آخرون من الصحابة والتابعين[1] في أنها آية جهراً أو إخفاتاً[2].

= فافتتح الصلاة وتعوذ ثم قال: الحمد لله رب العالمين - فسمع النبي ﷺ فقال: يا رجل أقطعت على نفسك الصلاة؟ أما علمت أن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ من الحمد فمن تركها فقد ترك آية ومن ترك آية فقد أفسد عليه صلاته وأخرجه الثعلبي عن طلحة بن عبيد الله مثله، وأخرج الشافعي في الأم والدارقطني والحاكم وصححه والبيهقي عن معاوية أنه قدم المدينة فصلى بهم ولم يقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ولم يكبر إذا خفض وإذا رفع فناداه المهاجرون والأنصار حين سلم يا معاوية! أسرقت صلاتك؟ أين ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ وأين التكبير؟ فلما صلى بعد ذلك قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ لأم القرآن وللسورة التي بعدها وكبر حين يهوي ساجداً، وأخرج البيهقي عن الزهري قال: سنة الصلاة أن يقرأ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ وإن أوّل من أسرّ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ عمرو ابن سعيد بن العاص بالمدينة وكان رجلاً حَيِيّاً!

(١) كابن عباس وعمار وإسحاق وأبي ثور وأبي عبيد وأبي هريرة وابن عمر وعايشة وأم سلمة والنعمان بن بشير والحكم بن عمير وأنس وبريدة وجميع من رووا حديثها عن رسول الله ﷺ وعن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

(٢) رواه عن النبي ﷺ فيمن رواه علي بن أبي طالب عليه السلام وعمار وأبو هريرة وأنس وابن عمر أنه صلى خلف النبي ﷺ وأبو بكر وعمر فكانوا - يجهرون بـ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ والنعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال: أتى جبرئيل فجهر بها، والحَكم بن عمير أنه ﷺ جهر بها في المكتوبة والنافلة، وعن عائشة أنه ﷺ كان يجهر بها، وأخرج الدارقطني عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: علمني جبرئيل الصلاة فقام فكبّر لنا ثم قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فيما يجهر به في كلّ ركعة، وأخرج الثعلبي عن علي بن زيد بن =

فحتى ولو لم تكن آية فلتقرأ قبل كل تلاوة لا سيما القرآن، فكل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ فهو أقطع أو أبتر أو أجذم كما في مستفيض السُّنّة فهلّا تكون الفاتحة أمراً ذا بال وفي الصلاة وهي خير موضوع، وهذه عمود الدين وتلك عمود القرآن، إذاً فالصلاة دون بسملة مقطوعة بتراء والله منها براء.

وكما أن الفاتحة هي فاتحة الكتاب، فأولى بالبسملة لأنها فاتحة لكلّ كتاب من قرآن وسواه.

فكيف لا يجهر بها أو تترك من أصلها وهي إعلان ثناء على الله وكما يعلن بالثناء على غير الله: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾(١) أشد نداء في الجهر به، وأشد ذكراً في إكثاره، وأشد تبركاً في الافتتاح به وأشد معرفياً في عبوديته:

ولأن القرآن هو كتاب من الله إلى الناس ليحيدوا عن أخلاق النسناس نرى كتاب الله يبدأ باسم الله ويختم بالناس، إيحاء بأنه يحمل جميع رحمات الله، عامة رحمانية، وخاصة رحيمية للجنة والناس وللعالمين أجمعين.

= جدعان أن العبادلة كانوا يستفتحون القراءة بـ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ يجهرون بها وهم: عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير، وأخرج البزار والدارقطني والبيهقي في شعب الإيمان من طريق أبي الطفيل قال: سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام وعماراً يقولان: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يجهر في المكتوبات ببسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب، وأخرج الطبراني والدارقطني والبيهقي في شعب الإيمان من طريق أبي الطفيل والدارقطني والحاكم عن أنس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجهر بـ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، وأخرج الدارقطني عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجهر بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ في السورتين جميعاً، وأخرج عن ابن عمر قال: صليت خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وعمر فكانوا يجهرون بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، وأخرج عن النعمان بن بشير قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أمّني جبرئيل عليه السلام عند الكعبة فجهر بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٠.

وكما التنزيل بازغ باسم الله كذلك التأليف، فهو البداية وهو النهاية، وهو المبدأ وهو الغاية.

ولكي نقرأ القرآن سوراً أم آيات فلنبدأ بالاستعاذة ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[1] فقل: أعوذ بالله - أو - أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

يردّد المسلم هذه السورة قليلة الآيات، كثيرة الطويّات والمحتويات في الصلاة مرات ومرات، حين يقف بين يدي ربه مبتهلاً، فارضاً أو متنفلاً، ولا تقوم صلاة إلّا بها وكما استفاض عنه ﷺ: لا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب.

وفيها من كليات التصورات الأصلية والعقيدة الإسلامية، والمشاعر السلمية السليمة، ما توحي بطرف من حكم اختيارها مناجاة في معراج الصلاة، فكل صلاة دونها باطلة، وكل صِلات من دونها عاطلة، كما وكل صراط غيرها مائلة قاحلة.

إن الصلاة وهي خير موضوع، وقد وضعت الحمد قبلها كخير موضوع في خير موضع، إنها تتبنى أركاناً معنوية هي الركينة فيها وقد تتبناها أركانها بسائر فروضها الظاهرية.

فلتعرف يا عارجاً معراج ربك من أنت؟ وأمام من واقف أنت؟ وماذا تعني فيما تفعله وتقوله أنت؟:

أنت اللّاشيء حقاً، مهما كنت شيئاً بما هباك الله، فكلّ شيئك أمام ربك لا شيء، فإنه الواهب كل شيء لكل شيء!

وهو كل شيء إذ خلق الشيء الذي منه كل شيء لا من شيء!

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٨.

أنت الفقير في غناك فكيف لا تكون فقيراً في فقرك، وهو الغني. .

اعرف من أنت، وأمام من واقف أنت، وماذا تقول أو تعني بما تفعله أنت، ولتكن في صلاتك قطعاً بصلاتك عما سوى الله، وصلة كُلُّك بالله، ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾:

لأنها تحوي ما تحويه الحمد كما حوت هي القرآن كله، فالبسملة إذاً هي القرآن كله، فعلينا التدبر فيها بكل أناقة وعملاقة لكي نحصل - لأقل تقدير - على الأصول الثلاثة، المستفادة من خماسية الكلمات في البسملة.

فالباء هي مثلثة المعاني مصاحبة واستعانة وابتداء، والاسم مسبّعة المصاديق والحاصل واحد وعشرون أكثرها معنية بالبسملة، و«بسم» تتعلق بالمعاني الثلاثة: أبتدىء وأصاحب وأستعين باسم الله الرحمن الرحيم.

وهل الاسم من الوسم: العلامة؟ أو السّمو: الرفعة؟ ظاهر الأدب لفظياً والمناسبة معنوياً يساعد الوسم، قلباً للواو إلى الألف خلاف السّمو، وأن الاسم علامة لمسماه وليس يعلوه مرتفعاً عليه.

إلّا أن وصليَّة الألف حذفاً لها عند الوصل، دليل لعدم أصالة الألف بديلة عن الواو، ثم تصغيره على سُميّ وجمعه الأسماء دليل حذف الواو عن آخره، وإلّا فلا سميّ ولا أسماء ولا حذف للألف عند الوصل لو كانت من الأصل.

إذاً فالاسم من السُّمو الرفعة، رفعة العلامة على المعلم، في الدلالة دون الرتبة حيث الاسم يتقدم المسمى معرفة مهما كان المسمى يتقدمه مرتبة ورفعة.

وعلّه مشتق من الوسم والسمو معاً باعتبار المعنيين واللفظ للسمو، فهو

- إذاً - علامة للشيء تعلوه لتدل عليه، علوّ التدليل دون التعالي لديه، مهما كان أدنى منه أو يساويه أم ويعلو عليه.

ثم الاسم منه لفظي هو الأدنى علامة فإنه بالوضع، ومنه عيني وهو أعلى منه حيث الدلالة ذاتية دون وضع، ثم الاسم العيني لله تبارك وتعالى منه ذاتي كصفات ذاته الثلاث: الحياة والعلم والقدرة، أم فعلي كصفات الفعل المشتقة من صفات الذات، أم خلقي كسائر الخلق، فإنه مثل لله يدل عليه بما يفتقر في ذاته إليه.

١ - فمن أسمائه اللفظية: «الله - الرحمن - الرحيم» إمّا هيه.

٢ - وأسمائه الذاتية هي واقع الحياة والعلم والقدرة.

٣ - وأسمائه الفعلية هي واقع صفاته الفعلية.

٤ - ومن أسمائه الخلقية كلّ الخليقة.

٥ - ثم الخاص منها أنت الواقف أمامه.

٦ - ثم الأخص منها العبادة فإنها سمة من سماته.

٧ - ثم أخص الخواص هم أنبياء الله وأفضلهم خاتمهم وأئمة أهل بيته المعصومين عليهم السلام.

ففي اسمه اللفظي تأتي الابتداء والمصاحبة كما يروى عن الإمام علي عليه السلام: «إن العبد إذا أراد أن يقرأ أو يعمل عملاً فيقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ - أي: بهذا الاسم أعمل هذا العمل، فكل عمل يعمل يبدأ فيه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فإنه مبارك له فيه»[1] ثم لا استعانة بهذا الاسم إلّا بضرب من التأويل.

(١) تفسير البرهان نقلاً عن تفسير الإمام العسكري عليه السلام عن الإمام علي عليه السلام وعن محمد بن جرير الطبري بإسناده عن ابن عباس قال: إن أوّل ما نزل به جبرئيل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال: يا محمد قل أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قال: قل: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم، قال قال له جبرئيل: قل بسم الله يا محمد! يقول: اقرأ بذكر الله ربك وقم واقعد بذكر الله.

وفي أسماء الذاتية والفعلية تأتي الاستعانة كما عن الإمام علي الهادي عليه السلام: «أستعين على أموري كلها بالله الذي لا تحق العبادة إلّا له»[١] وأما الابتداء فضلاً عن المصاحبة فلا يناسبان هذه الأسماء، مهما صاحبنا الله بصفاته الفعلية أم والذاتية بضرب من التأويل، و«الاسم صفة لموصوف»[٢] ونحن لا نصاحب صفات الله أو نبتدئ بها، فإن صفاته تعالى تصاحبه ذاتية أم فعلية، ونحن نستعين بها فيما نروم من مرضاته.

وفي أسمائه الخلقية بوجه عام لا مصاحبة ولا استعانة ولا ابتداء إلّا في مثلث الخواص، اللّهم إلّا مصاحبة في عبادة الله والسجود لله فـ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم. . .﴾[٣] واستعانة بهم فيما يصح سلوكاً إلى الله.

وفي ذاتك كاسم من أسمائه الخلقية تأتي مثلث معاني الباء، مصاحبة واستعانة وابتداء، أصاحب نفسي في عبادة الله وسواها فلأجرّدها عن الهوى حيث النفس آية من آيات الله فلتصاحب نفسها كآية تدل على الله.

وأبتدىء بنفسي في العبادة وسواها مما يرضاه الله، حيث البداية في الخير بازغة بنفسك ثم من سواك: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[٤].

ثم ابتداءً بعبادة الله وبكل فعل يرضاه الله تقديماً لمرضاته على سواه، ومصاحبة لها على أية حال، واستعانة بها في كل حلٍّ وترحال: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[٥] وكما عن الإمام الرضا عليه السلام:

---

(١) تفسير الإمام العسكري عن الإمام علي عليه السلام.
(٢) ابن بابويه بسنده عن ابن سنان قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن الاسم، ما هو؟ قال: صفة لموصوف.
(٣) سورة الرعد، الآية: ١٥.
(٤) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

أسِمُ على نفسي سمة من سمات الله وهي العبادة والسّمة هي العلامة[(١)].

ثم ابتداءً - في عبادة الله - برسول الله ﷺ وأهل بيت الرسالة كدلالة للطريق فهم السبل إلى الله والأدلّاء على الله.

واستعانة بهم في سلوكنا إلى الله، ومصاحبة لهم، فما صحبة الرسول هي ملازمته في حياته الجسدية الدنيوية، بل هي صحبته في رسالته الإلهية، استناناً بسنته واتباعاً لشرعته واستجابة لدعوته، فهم القائلون «نحن أسماء الله الحسنى» ويصدقهم قول الله. ﴿. . . وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[(٢)] فإنهم الذوات القدسية من أهل بيت الرسالة المحمدية عليهم السلام كما ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾[(٣)] يدل عليه حيث «هم» وهو لذوي العقول لا تعني إلّا إياهم!

فنحن في مثلث الاستعانة المصاحبة الابتداء للسبعة أسماء الله، إلّا ما لا يناسب ساحته وسماحته، فابتداء كل أمر ذي بال ببسم الله توحيد لله، وتركه إلحادٌ في الله، وإشراك غيره في الابتداء به ابتداع وإشراك بالله، وكل ذلك - لأقل تقدير - في لفظة القول، وعلى الموحد أن يوحد الله قالاً وحالاً وافعالاً.

ولأن الاسم في ﴿بِسْمِ﴾ جنسه لا شخصه، فقد تعني كلّ هذه الأسماء، حيث تتبنّاها «اللهِ - الرَّحْمنِ - الرَّحِيمِ».

فالله هو ذاته بصفاته الذاتية والفعلية كما هو اسمه اللفظي، والرحمن صفاته الفعلية العامة، والرحيم هي الخاصة، وهما تعمان المنفصلة وسواها وهكذا تعني البسملة ما تعنيه السبع المثاني والقرآن العظيم جملةً وتفصيلاً!

---

(١) تفسير البرهان ١: ٤٤ عن ابن بابويه القمي في توحيده بإسناده إلى علي بن الحسن الفضال عن أبيه قال سألت الرضا عليه السلام عن بسم الله قال. . .

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣١.

ثم «اللهِ - الرَّحْمنِ - الرَّحِيمِ» أسماء ثلاثة تكفي عن سائر الأسماء ولا تكفي عنها سائر الأسماء.

فـ«الله» هو اسم للذات المقدسة لا يسمى به سواه ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[١] كلّا يا الله! وهو الاسم الأعظم الظاهر، كما «هو» هو الأعظم الباطن، وقد اشتقت منه كلمة التوحيد: «لا إِلهَ إِلَّا اللهُ» حيث ألّفت من حروفه الثلاثة، وكذلك «هو» في وجه[٢].

وفيما يروى عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ «الله أعظم الأسماء من أسماء الله وهو الاسم الذي لا ينبغي أن يسمى به غير الله لم يتسم به مخلوق».

فطالما المشركون يسمون أصنامهم وطواغيتهم آلهة، ولكنهم لم يسموها «الله» إذ كانوا يرونه الأصل في الألوهية فحادوا عن تسميتها باسم «الله».

فكما الله واحد في ذاته وأفعاله وصفاته كذلك في اسمه «الله» وقد ذكر في الذكر الحكيم مرة وهي أكثر بكثير من سائر أسمائه وأسماء مَن سواه اهتماماً زائداً به إلى مسماه، وأنه اسم للذات المقدسة المستجمعة لجميع صفات الكمال جمالاً وجلالاً.

ثم ﴿ٱللَّهِ﴾ علم للذات المقدسة، سواء - أكان أصله «الإله»، معرفاً فعلم باختصاص أم علماً في الأصل عربياً كان أم عبرياً أو سريانياً، جامداً أو مشتقاً، كما اختلف فيه علماء اللغة والأدب واحتاروا فيه كما احتار الفلاسفة والعرفاء في ذاته المقدسة وصفاته ذاتية وفعلية.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٦٥.

(٢) من لطيف الأمر في ميّزات اسم الجلالة «الله» بين أسمائه الحسنى أنك كلما حذفت منها حرفاً تبقى الدلالة على الذات المقدسة بحاله ومحفوظة عن شريك فـ«الله» تجده محذوف الألف في «الله» ومحذوف اللّام أيضاً في «إله» ثم محذوف اللام الثاني في «هو» حيث الواو ليست فيه متناً يبقى كما وتحذف في «هم - هما» فـ«اللّه» و«هو» اسمان مختصان بالذات المقدسة.

وعلى أية حال فالألف واللّام فيه أصليان لا تسقطان ولا الألف، بخلافهما في التعريف والوصل، فالهمزة أصل وليست وصلاً سواءً أكان أصلها غيرها وهي بديلها أم هي هيه، وحتى إذا كان للتعريف فهو الآن لا يحتاج إلى تعريف فمنسلخ - هو - إذاً عن التعريف.

أو علّه ليس مشتقاً من شيء كما لا يشتق منه شيء، فلا يقال اللّهي أو الّاها أمّا هي.

ولأن «الله» في العبرانية في الأصل «يهواه» وعلى الهامش «الِوَه» فقد نحتمل أنه معرب «الِوَه» أم وله أصل في العربية أيضاً بين «إلّه» و«ولاه» هما من «الِوَه» -.

ولكن «إلوهيم» جمع «الِوَه» قد يجعل الأصل العبراني سواه، فإن الله لا يجمع وقد لا ينافيه كما يجمع الإله أيضاً بالآلهة وإن كان الله ليس ليجمع.

إذاً فـ«إلوه» هو «إلّه» يجمع بـ«إلوهيم» في العبرية وبـ«آلهة» في العربية ولكن «الله» لا يجمع بشيء.

ثم الأصل العبراني لـ«الله» علّه كما أنه «إلوه»: «إلّه» كذلك هو وبأحرى معنوياً «يهواه».

و«الله» كاسم ظاهر لله هو أقرب أسمائه إلى الاسم الباطن «هو» وعلّه مشتق من «هو» كما هو مشتق من «إله» وقد تشهد له آياته الـ«٨٠».

ثم الأصل المشتق منه فعلاً في العربية في نظره لغوية أو سمع مما قدمناه بين «وَلَه - اَلَهَ - اَلِهَ» وتناسبه كلها في معناه، وأصل هذه الثلاث «إلّه».

فهو من «اَلَه» يعني عبد، والله هو المعبود الحق وسائر الآلهة باطلة، أم من ألَهت إلى فلان أي سكنت ولجأت حيث يُطمئن ويسكن إليه ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1].

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

أم من الوَلَه وهو ذهاب العقل والحيرة الكاملة التائهة، وهو واقع لا مردّ له بالنسبة للسالكين في سبيل المعرفة فقد تاهت العقول عن كنه معرفته.

أم من «لاه»: ارتفع - لأنه المرتفع المترفع عن سائر الكون ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً وعن أن تطير إليه طائرات العقول.

أم من «أَلِه فيه يألَه ألهاً» إذا تحير، إذ حارت العقول عن كنه معرفته.

أم من «لاه يلوه» إذا احتجت حيث احتجب بكنه ألوهيته، فلا يرتفع حجاب ذاته للسالكين إليه وحتى لأوّل العابدين محمد ﷺ فضلاً عن سواه:

يا من هو اختفى لفرط نوره الظاهر الباطن في ظهوره

أم من «أَلِه» الفصيل إذا ولع بأمه، حيث العباد يولعون به ويتضرعون إليه.

أم من أَلِه الرجل يألَه إذا فزع حيث الخلائق يفزعون إليه ويستجيرون به.

ثمانية معان عدد أبواب الجنة الثمان كلها واردة بحق الله تبارك وتعالى فإنه: ١ - المعبود - ٢ - المسكون إليه - ٣ - المؤله فيه - ٤ - المرتفع عن خلقه - ٥ - المتحيّر فيه - ٦ - المحتجب عن خلقه - ٧ - المولَع به - ٨ - المفزوع إليه، وهي كلها منصوصة في روايات عدة متظافرة.

ثم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ هي في الدرجة الثانية من صفاته وأسمائه الحسنى، فإنها الرحمة العامة بجميع خلقه، ولا تعم صفات ذاته فضلاً عن ذاته، فـ ﴿ٱللَّهِ﴾ تعني الذات المقدسة بنوعي الصفات، و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ تخص صفات الفعل المتشعبة عن صفات الذات: «العلم والقدرة والحياة» فإنها صادرة عن هذه الثلاث، كما هي والذات واحدة وحدة الذات وصفات الذات، دون زيادة صفات على ذات ولا تعطيل للصفات.

ثم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ هي الثالثة حيث تخص خاصة الرحمات ولا تعم عامتها، وهي والرحمن مبالغتان في الرحمة، ولكنما الرحمن أبلغ من الرحيم لزيادة المبنى وتوسّع المعنى، والرحيم أرق وأدق لأقلية المعنى كمّاً والمبنى، مهما كان كيفها أعمق وأشفق:

تُذكر ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ في سائر القرآن (٥٧) مرة وحدها، أم مع الرحيم التي تقابلها، أم عامة الرحمات التي تفسرها، في حين لا نجد ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ في سائر القرآن الـ(٥٩) مرة، لا نجدها وحدها إلّا قرينة بخاصة من الرحمات تدليلاً على أنها أخص من الرحمن.

والرحمة الرحمانية المطلقة ليست إلّا الخلق والهداية. ﴿... ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1] وهي الهداية العامة التي تعم كلّ شيء.

ومن ثم سائر الرحمات كلها رحيمية قياساً لها، مهما كانت بالنسبة لبعض البعض، رحمانية ورحيمية مع بعض.

فـ﴿رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[2] رحمانية مطلقة، و﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾[3] رحيمية بالنسبة لمطلق الخلق، ولكنها رحمانية أمام ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[4] ثم وهذه الرحيمية رحمانية بالنسبة لرحمة الإيمان في الإنسان المعلّم ما لم يعلم.

وفيما يروى عن الرسول ﷺ وأئمة أهل بيته عليهم السلام تجاوب لطيف حفيف مع الآيات كما هي دأبهم دائبين مشياً على ضوء القرآن الكريم!

(١) سورة طه، الآية: ٥٠.
(٢) سورة العلق، الآية: ١.
(٣) سورة العلق، الآية: ٢.
(٤) سورة العلق، الآيات: ٣ - ٥.

«فالرحمن اسم خاص بصفة عامة والرحيم اسم عام بصفة خاصة»[١] ومن خاص الرحمن اختصاصها تسمية ومعنى بالله إذ لا يسمى بها سواه، وكما لا رحمة عامة لسواه، والرحيم يسمى بها سواه كما الرحمة الخاصة كما هي له تكون لسواه، مهما بان البون بين الرحمتين على أية حال.

كما والرحمن خاصة بالأولى لعموم الخلق والهداية فيها، دون الأخرى حيث المُعادُ في المَعاد هم المكلفون فقط لا سواهم، والمرحومون بينهم هم المؤمنون لا سواهم، والرحيم تعم النشأتين «فالرحيم أرق من الرحمن وكلاهما رفيقان»[٢].

وقد تعم الرحمن الآخرة كما الأولى نسبياً فـ ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾[٣] فهو «رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما»[٤] حيث المكلفون كلهم يحشرون برحمة رحمانية كما خلقوا أوّل مرة ثم المؤمنون منهم يرحمون برحمة رحيمية.

ولأن الرحمة العامة أوفق بالأولى من الأخرى، كما الخاصة أوفق بالأخرى من الأولى، إذاً فـ «الرحمن رحمن الدنيا والرحيم رحيم الآخرة»[٥]. ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[٦] فالرحمة

---

(١) نور الثقلين عن الإمام الصادق عليه السلام.

(٢) الدر المنثور ١ : ٩ - أخرج البيهقي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث تقسيم الحمد، بين الله وعبده فإذا قال العبد ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله: عبدي دعاني باسمين رفيقين أحدهما أرق من الآخر فالرحيم أرق من الرحمن وكلاهما رفيقان.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٢٦.

(٤) المصدر - أخرج ابن أبي شيبة عن عبد الرحمن بن سابط قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو بهؤلاء الكلمات ويعلمه: اللهم فارج الهمّ وكاشف الكرب ومجيب المضطر ورحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك.

(٥) مجمع البيان للطبرسي عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: . .

(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

الواسعة هي الرحمانية حيث تسع كل شيء، والمكتوبة هي الرحيمية التي تخص المؤمنين المتقين.

وما «الرحمن بجميع خلق والرحيم بالمؤمنين خاصة»[١] إلّا بياناً لمصداق خاص للرحيم بين مختلف مصاديقها، فإنها تعمّ الكافر الذي هو في سبيل الهدى كما تصرح لها آيات وتلمح لها أخرى، كما تعم السابقين والمقربين المخلصين، وبينهما متوسطون، وهم المؤمنون فعلاً بدرجاتهم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

ثم الرحمة وهي في الخلق رقة، ليست في الخالق كما هيه، فإنه «رحيم لا يوصف بالرقة»[٣] فـ«إن الرحمة ما يحدث لنا منها شفقة، ومنها وجود، وإن رحمة الله ثوابه لخلقه، والرحمة من العباد شيئان أحدهما يحدث في القلب الرأفة والرقة لما يرى بالمرحوم من الضر والحاجة وضروب البلاء، والآخر ما يحدث منا بعد الرأفة واللطف على المرحوم، والمعرفة بما نزل به، وقد يقول القائل: انظر إلى رحمة فلان، وإنما يريد الفعل الذي حدث عن الرقة التي في قلب فلان، وإنما يضاف إلى الله عز وجل من فعل ما حدث عنا من هذه الأشياء، وأما المعنى الذي في القلب فهو منفي عن الله كما وصف عن نفسه، فهو «رحيم لا رحمة رقة»[٤].

فالرحمن والرحيم هما من الصفات المتشابهة: كالسميع والبصير وأضرابهما يجب أن تجرد لله عن صفات الحدوث، مشاركة في الألفاظ ومباينة في المعاني، فإنه تعالى وتقدس «باين عن خلقه وخلقه باين عنه»

(١) تفسير البرهان ١: ٤٤ محمد بن يعقوب بإسناده عن عبد الله بن سنان قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن تفسير بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ فقال...

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٣) نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

(٤) في كتاب الإهليلجية عن الإمام الصادق عليه السلام.

و«لا يتغير بانغيار المخلوقين كما لا يتّحد بتحديد المحدودين» فإنما رحمته تعالى رحمانية ورحيمية هي معاملة الرحمة دون رقة في قلب أو سواه، إذ ليس له انفعال وانغيار أو رقة في قلب أو سواه، فصفات الله تعالى تفسّر كما يناسب ساحة الذات ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ١٦٠﴾[١].

وإذا كان البدء باسم الله يمثّل ما يعيشه المسلم من الكلية الأولى من توحيد الله، فإن استغراق الرحمة لحالاتها ومجالاتها رحمانية ورحيمية يمثّل كلية ثانية تقريراً لعلاقة المسلم في حياته كلها بالله، عائشاً في ظلال رحمته أينما حلّ وارتحل.

وقد أجملت البسملة عن الأصول الثلاثة، ما توضّحه الفاتحة، وتفصّله القرآن العظيم.

ف﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ تعني الفقر إلى الله، ولزوم مصاحبة عبادة الله، تدليلاً من رسول الله، وسواها مما تعنيه في مثلّث معاني الباء ومسبّع الاسم.

كما ﴿ٱللَّهِ﴾ تدل على وحدانيته، حيث الكائن اللّامحدود وهو صرف الوجود بكافة اللّانهايات من كمالات الوجود، يستحيل تعدده، فإن لزام التعدد وجدان كلّ ما يفقده الآخر وهو نقص وحدّ.

ثم الرحمن تدلنا على باسط رحمته وواسع رأفته، وقضيتُه ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[٢] وكما الأشياء درجات، فهدايتها درجات حسب الدرجات، وللإنسان وهو في أحسن تقويم أعلى الهدايات.

ثم الرحيم تقتضي هذه الرحمة الخاصة بالإنسان، وقضيتها هداية الوحي المعصوم بواسطة نبي معصوم حيث يحمل رسالة الله بهداه، وقضيتُه ثانية

(١) سورة الصافات، الآيتان: ١٥٩، ١٦٠.
(٢) سورة طه، الآية: ٥٠.

ضرورة المعاد ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾[١] ولولا المعاد لكانت رحمة الهداية زحمة، وكيف العالم القادر العدل الرحيم يترك القضاء العدل بين عباده؟ فإذ لا نرى جزاء وفاقاً في الأولى فليكن في الأخرى ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾[٢].

فهذه جملة مما في البسملة من المبدأ والمعاد وما بين المبدأ والمعاد.

وعلّ من حكم تثليث الأسماء «اللهِ - الرَّحْمنِ - الرَّحِيم» لتشمل عباد الله أجمع ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾[٣] فهو ﴿ٱللَّهِ﴾ للسابقين إذ يعبدونه لأنه الله وتلك عبادة الأحرار، وهو الرحيم للمقتصدين إذ يعبدونه بين طامع في ثوابه وخائف من عقابه، وهو الرحمن بسائر خلقه من الظالمين من يعفى عنهم ومن لا يعفى، فإنهم تشملهم رحمته الرحمانية في الدنيا مهما كانوا كافرين!.

والبسملة حتى الضالين من كلامنا كما علّمنا ربنا كيف نكلّمه في معراجنا، فإنه تعالى لا يستعين أو يبتدىء ويصاحب أمراً في أموره ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٤] كما وأنه لا يعبد ويستعين وإنما يُعبد ويُستعان، ولا يطلب الهداية لنفسه إلى صراطه المستقيم، مهما يحمد نفسه بـ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ولكنه أيضاً إعلام وتعليم.

فـ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ في كلّ ما عناه لأنه «الله» و﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ لأنه «الرحمن» و﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ لأنه «الرحيم» فإذا ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

(١) سورة طه، الآية: ١٥.
(٢) سورة النجم، الآية: ٢٥.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٢.
(٤) سورة يس، الآية: ٨٢.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾:

إن ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تتلو البسملة في الفضيلة فإنها بداية كل أمر ذي بال كما هيه فـ«كلّ أمر ذي بال لم يبدأ، فيه بحمد الله فهو أقطع»[(١)] فإنها بلام الجنس تستغرق كل حمد من كل حامد لله دون إبقاء، إذ تستجيش له كل حمد دون سواه، أولاً لأنه «اللهِ - الرَّحْمنِ - الرَّحِيم» وأخيراً لأنه ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ دون سواه فـ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[(٢)].

إنها فاتحة الكتاب كأول دعوى في الأولى، ثم في الأخرى لأهل الجنة هي آخر دعوى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(٣)]: وهي خير تحميد لله تبارك وتعالى بخير أوصاف كما علّمها عباده المخلصين: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[(٤)] [(٥)] وأكمله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كما هنا وفي سواها ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(٦)] وقد ذكرت الحمد لله رب العالمين قرينة بربوبيات خاصة (٣٢) مرة في سائر القرآن، بياناً لربوبيته تعالى في مختلف الخلق والتدبير ويجمعه ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقد تشهد آيات من الحمد بخماسية السبب في اختصاص الحمد به دون سواه.

فلأنه الله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾[(٧)]

---

(١) حديث مستفيض في الحمد والبسملة عن الرسول ﷺ والأئمة من آل الرسول ﷺ.
(٢) سورة القصص، الآية: ٧٠.
(٣) سورة يونس، الآية: ١٠.
(٤) فإنها بنفس الصيغة تذكر في (٦: ٤٥) (١٠: ١٠) (٣٧: ١٨٢) (٣٩: ٧٥) (٤٠: ٦٥).
(٥) سورة الإسراء، الآية: ١١١.
(٦) سورة غافر، الآية: ٦٥.
(٧) سورة الإسراء، الآية: ١١١.

ولأنه الرحمن: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[(١)]. ولأنه الرحيم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾[(٢)] ولأنه رب العالمين في آيات خمس سوى الفاتحة و﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[(٣)] ولأنه مالك يوم الدين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾[(٤)] وهذه الخمس هي أسس الربوبية المطلقة تبتدىء بالله وتنتهي إلى ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وبينهما متوسطات «رَبِّ الْعالَمِينَ - الرَّحْمنِ - الرَّحِيمِ».

ويا له من تجاوب لطيف بين القرآن المحكم «الحمد» والقرآن المفصل في آيات الحمد ما يُطمئِن أن السبع المثاني صورة مصغّرة عن القرآن العظيم.

إن ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي «رأس الشكر»[(٥)] و«فاتحة الشكر وخاتمته»[(٦)] فائقاً على النعم المشكور لها فلا قيمة لها أمامها[(٧)] وهي كمال العقل في مدحته لربه[(٨)].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١.
(٢) سورة الكهف، الآية: ١.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٩٨.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٧٤.
(٥) الدر المنثور ١: ١١ - أخرجه جماعة من أرباب السنن عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ..
(٦) تفسير الفخر الرازي ١: ٢٨٤ روي عن النبي ﷺ أن إبراهيم الخليل عليه السلام سأل ربه وقال: يا رب! ما جزاء من حمدك؟ فقال: الحمد لله، فالحمد لله فاتحة الشكر وخاتمته.
(٧) الدر المنثور ١: ١١ - ١٢ - أخرج جماعة عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: ما أنعم الله على عبده نعمة فقال: الحمد لله إلّا كان الذي أعطى أفضل مما أخذه وروى مثله عن جابر والحسن عنه ﷺ وفي تفسير الفخر الرازي عن النبي ﷺ أنه قال: إذا أنعم الله على عبده نعمة فيقول العبد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فيقول الله تعالى: انظروا إلى عبدي أعطيته ما لا قدر له فأعطاني ما لا قيمة له، أقول: وهذه نهاية الرحمة الإلهية ومما لا قدر له أنه علمنا الحمد له ثم وفقنا بالحمد له ثم قدر أنه لا قيمة له!.
(٨) تفسير الفخر الرازي روي عن علي عليه السلام أنه قال: خلق الله العقل من نور مكنون مخزون من=

وكما لام الحمد تستغرقه لله، كذلك اللام في لله تختصه بالله دون أن يعدوه إلى سواه.

وعلى الحامد لله أن يحمده بفطرته وعقله وصدره وقلبه ولبه وفؤاده وكل جوانحه وجواره، فيصبح بكله حمداً لله وفاقاً بين جنباته دون نفاق، دون قولة فارغة منافقة يكذبها الجنان وسائر الأركان.

فعلينا أن نعيش ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ونعيّش بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في كل حلٍّ وترحال، على أية حال ومجال، في كلّ فكر أو فعل أو قال حتى نصبح ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تجاوباً مع الكون كله في محراب الحمد، من رعده وبرقه والملائكة من خيفته: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾[(١)] ومن كلّ شيء: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[(٢)].

ومن لزام الحمد معنوياً أن يشفّع بالتسبيح، تسبيحاً بحمده، حيث الحمد ثناء على ثبوتية الصفات، فلأنها فيما نعرفه من صفات تصاحب خالجة الإمكانيات الخارجة عن ساحة الذات، نسبِّحه بحمده عن صفات الممكنات، فنعني من حمده بعلمه وحياته وقدرته نفي الجهل والموت والعجز عن ذاته حيث الثابتات منها في معروفنا ممكنات ولا نستطيع تصورها كما يناسب ساحة قدسه فـ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾[(٣)]:

= سابق علمه فجعل العلم نفسه والفهم روحه، والزهد رأسه والحياء يمينه والحكمة لسانه والخير سمعه والرأفة قلبه والرحمة همّه والصبر بطنه ثم قيل له تكلم فقال: الحمد لله الذي ليس له ندّ ولا ضدّ ولا مثل ولا عدل الذي ذلّ كل شيء لعزته فقال الرب: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعز عليّ منك:

(١) سورة الرعد، الآية: ١٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.
(٣) سورة الصافات، الآيتان: ١٥٩، ١٦٠.

لذلك لم يرد في سائر القرآن حمدٌ بألسنة غير المخلصين من المكلفين، إلّا الله حيث يحمد نفسه، فهذا نوح يؤمرُ: ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١): وإبـــراهـــيـــم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾(٢) ومحمد ﷺ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾(٣) وداود وسليمان ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾(٤) إلّا ما حكاه عن أهل الجنة وهم المطهرون من خطأ القول وخطله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٥).

فنحن إذ نؤمر بالحمد في الحمد وفي سائر الأحوال فلنشفعه بتسبيحه حتى يكون كما وصفه عباده المخلصون: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٦).

والحمد - ككل - هو الثناء الجميل على الجميل ذاتاً وأفعالاً وصفات، فـ ﴿ٱللَّهِ﴾ حمدٌ للذات بصفات الذات، و﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حمدٌ لصفات الفعل والأفعال، فهو ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾(٧) كما وأسماؤه جميلة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ﴾(٨) كما وذاته أجمل الذوات.

ثم وكل جمال وكمال في الخلق فائض منه وراجع إليه، فليختص به الحمد كلّه، كشعور يفيض به قلب المؤمن حين يذكر الله، في كل خطوة وفي كل لحظة أو لمحة، وفي كل خالجة أو خارجة، كقاعدة رصينة للتصور الايماني المباشر المعاشر.

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٨.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٩.
(٣) سورة النمل، الآية: ٩٣.
(٤) سورة النمل، الآية: ١٥.
(٥) سورة يونس، الآية: ١٠.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.
(٧) سورة طه، الآية: ٥٠.
(٨) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

فليكن ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كما البسملة في موقعها اللائق وهو كل أمر ذي بال، ولا أقل من أقل الحلال، فإنها في غير الحلال تستتبع ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾[1].

ثم الرب هو المالك المدبر المتصرف للإصلاح والتربية اللائقة السابغة، فمن مالك لا يدبّر جهلاً أو عيّاً أو بخلاً أمّاذا، ومن مدبّر لا يملك المدبّر حتى يسطع على إصلاحه كما يحبّ ويجب، وهذا وذاك هما مطلق التدبير والملك، ولله الربوبية المطلقة لا يعرقلها أي مانع ولا يردعها أي رادع، لا كربوبية الخلق دون الأمر، ولا الأمر دون الخلق ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[2].

وكما ربوبية الخلق تعم الخلق لا من شيء كالخلق الأوّل، والخلق من شيء كسائر الخلق، كذلك ربوبية تدبير الأمر وهي هداية كل شيء لشيئه: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[3] من جماد ونبات وحيوان والملائكة والإنس والجان أم أياً كان، فلكلّ سبيل يسلكه بما هدى الله، تكوينية وغريزية وتشريعية أماهيه؟.

فإطلاق الربوبية للعالمين دون إبقاء هو نظام التوحيد الحق وجاه فوضاها التي تفسح لغير الله مجال ربوبيات أو تسمح، وقد تطاردها براهين العقل والآيات حيث توحِّد الربوبية في الله وتوحده في كافة الربوبيات.

وهذا هو مفرق الطريق بين نظام الربوبية وفوضاها، تزيل كل شائبة وكل غَبْش وهاجسة عن توحيد الله، هذه التي تعزل الرب عن الحياة وتصرفاتها، انقساماً في الألوهية بين الذات والصفات والأفعال.

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٦.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٣) سورة طه، الآية: ٥٠.

ف ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هو مالكهم وخالقهم وسائق أرزاقهم إليهم من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون، فالرزق معلوم مقسوم وهو يأتي ابن آدم على أي سيرة سارها من الدنيا ليس تقوى متق بزائده ولا فجور فاجر بناقصه، وبينه وبينه ستر وهو طالبه..)[(١)].

والعالمين هم الخلق أجمعين، وهو جمع العالم من العَلم العلامة، أو من العلم المعرفة، وكل العالم علامة للخالق وآية، وكل العالم يعلم ربه ويسبح بحمده، وجمعه السالم سليم عن الشذوذ، ففيما يعني الخلائق أجمعين هو ترجيح لجانب العقلاء بينهم برزخاً وسطاً من الحقيقة والمجاز، أم هو حقيقة تحتاج إلى قرينة كما هنا وفي سائر الـ (٧٣) موضعاً من الذكر الحكيم، اللّهم إلّا فيما يخص ذوي العقول، كذكرى القرآن: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾[(٢)] والرسول: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٌ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[(٣)] ورحمة الرسالة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[(٤)] ونذارتها ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[(٥)].

حيث القرآن، والرسول برسالته ونذارته يخصّان العقلاء المكلفين دون سائر العالمين، ولأن الملائكة غير مكلفين برسالة القرآن ومنهم الرسل إلى الرسول ﷺ وليست لهم شهوة النفس حتى يسمى تكليفهم تكليفاً، ولم يرد في القرآن، ولا لمحة أنهم مكلفون بالقرآن، وأن أقل الجمع ثلاثة فليكن بعد عالم الإنس والجن ثالث لأقل تقدير أم يزيد لكي يعنيهم ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

(١) تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام عن الإمام علي عليه السلام.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.
(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٤.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.
(٥) سورة الفرقان، الآية: ١.

وقد تلمح لهم آية الشورى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾(١) حيث الدابة العاقلة في السماوات الراجع إليها «هم» فيمن هو راجع إليه، ليست هم الملائكة، فهم إذاً ثالث من العالمين أم ويزيد.

لا تجد في سائر القرآن «عالماً» إلّا «العالمين» جمعاً للخلائق أجمعين، أم خاصاً بالمكلفين، فليعن ضروب المكلفين في إبعاد الزمان والمكان دون إبقاء.

وأفضل الربوبيات - هي طبعاً - لأفضل البريات، وهو الإنسان الذي خلق في أحسن تقويم، فشريعة الإنسان شرعة لسائر المكلفين، كما رسول الإنس رسولٌ لهم أجمعين، مهما كانوا أدنى من الإنسان كالجان، أم بمستواه في حسن التقويم كمن لا نعرفهم لحد الآن.

ثم الأفضل الأحسن بينهم! والأكثر حظوة من هذه الربوبية القمة هو الرسول محمد ﷺ فإنه أول العابدين ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾(٢).

تلك هي الربوبية الوحيدة الموحدة اللائقة بالذات المقدسة دون الضئيلة المحددة التي اختلقتها ركام الظنون والأساطير والتصورات الخاوية والجارفة المجازفة، خليطة من حق وأضغاث الباطل، فإذا الحق يعرض بصورة الباطل، والباطل يفرض بصورة الحق، وهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى.

لقد كانت البشرية تعيش تيهاً لا قرارة فيه، لضخامة الركام الذي كان يبتليه، فجاء الإسلام فأخرجها من الظلمات إلى النور، إلى صراط العزيز

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨١.

الحميد، من ظلمات الفلسفات والهرطقات التي تخبطتْ فيها، إلى نور الحق المبين بالقرآن المتين والرسول الأمين.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾:

أتراهما مكرورتان وبفاصل آية واحدة؟ حسب الظاهر نعم، وفي الحق لا! حيث البسملة على كونها آية وأفضلها، هي بنفسها مكرورة للفصل كما للفضل فليست - إذاً - لتحلَّ محل الآي في كلّ سورة، فالرحمتان هما كآية مستقلة في صلب السورة بعد أن كانتا بعض آية من البسملة، تأكيداً للسمة البارزة في تلك الربوبية الشاملة، وتأبيداً لها في كل مقالة ومجالة، وتثبيتاً لقوائم الصلة الدائبة بين الرب والمربوبين، التي تقوم على الطمأنينة وتنبض بالمودة.

وقد تعنيان في البسملة رحمن الدنيا ورحيمها وفي الحمد له رحمن الآخرة ورحيمها، أم هناك تعم الآخرة والأولى، وهنا تخص الآخرة كما تلمح لها ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

فحتى ولو كانتا مكرورتين بنفس المعنى، ففي التكرار عناية ليس في الوحدة فرب العالمين ليس ليطارد المربوبين مطاردة الخصوم كآلهة الأولمب في أساطير الإغريق، فحتى فيما له غضب، لم يكن إلّا وقبله منه نَضَب، فقد سبقت رحمته غضبه، لا يعذب عباده المستحقين إلّا أقل ما يستحقون، ما لولاه لكان إجحافاً بالصالحين، وحيفاً للطالحين، حيث الإنذار له موقعه في ترك المحظور، والإنذار الخاوي عن واقع العذاب إدغال وتدجيل وإغفال.

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾:

إنه دون ريب ﴿مَٰلِكِ﴾ في كتب القرآن تواتراً دون خلاف، وهل يصح «ملك» كما صح «مالك»؟ فيه روايتان عن الرسول ﷺ متهافتتان، فإنهما متفقتان في «كان يقرأ» مختلفتان في «مالك» و«ملك» فالاستمرارية المستفادة

من «كان يقرأ مالك» تنفي «ملك» كما المستفادة من «كان يقرأ ملك» تمنع «مالك» والثلاثة المشتركون في روايتهما تزيد تهافتاً فيهما على ما كان، وبعرضها على القرآن يصدق «مالك» لا سواه، ومثلهما المرويتان عن الصادق عليه السلام [1].

والقول بالتخيير بين «مالك وملك» لا يلائم الروايتين ولا القراءتين، وهو مخالف للقرآن، وإضافة إلى أن السنة ليست لتخالف القرآن، كيف تثبت سنة في مثل هذه المسألة العامة الدائمة الابتلاء، بمثل هذه الرواية المبتلاة بمعارضة؟

ولو أن الآية كانت نازلة بهما لكانت مثبتة فيه بهما، أم ثابتة كما القرآن بـ«مالك» وبمتواتر السنة «ملك» فالأقوى بل القوي انحصار القراءة في «مالك» وانحسارها عن «ملك» وكيف يترك القرآن المتواتر برواية غير متواترة، ولا يترك حتى بمتواترة، اللّهم إلّا تواتراً يوازي القرآن في التخيير بين القراءتين، وهنا واحدة تحمل «ملك» قائلة إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أم حفيده الصادق عليه السلام كانا يقرآن «ملك» وهو على ضعفه في أصله يرفض «مالك».

(١) فقد أخرج جماعة من أرباب السنن عن أم سلمة وأنس وسعيد بن المسيب والبراء بن عازب والزهري وأبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقرأ «ملك» من دون ألف، كما أخرجوا عن أنس وسالم عن أبيه والزهري وابن شهاب وأبي هريرة وابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقرأ «مالك» بالألف (الدر المنثور ١: ١٣ - ١٤).

فالثلاثة: أنس - أبو هريرة، والزهري مشتركون في نقل الروايتين فالتعارض فيهما منهم من ناحيتين، مهما كان سائداً من جهة واحدة في رواية غيرهم فأم سلمة وسعيد بن المسيب والبراء بن عازب يرون كلمة واحدة «ملك» ثم سالم عن أبيه وابن شهاب وابن مسعود يروون «مالك».

وقد يجمع بينهما أنّ الناقل «ملك» ظن «مالك» في إمالة القراءة «ملك».

ومن طريق أصحابنا روى العياشي في تفسيره عن محمد بن علي الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه كان يقرأ «مالك يوم الدين» وروى عن داود بن فرقد عنه عليه السلام قال سمعته عليه السلام يقرأ ما لا أحصى «ملك يوم الدين».

وقد قرأ عاصم والكسائي وخلف ويعقوب «مالك» والباقون «ملك» وهذا تعارض القراءتين، والمتعارضان رواية وقراءة معروضان على القرآن، وهو يصدق في متواتر كتبه «مالك».

﴿مَـٰلِكِ﴾ في سائر القرآن يذكر هنا وفي ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾[(١)] ثم «ملك» في خمس: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ﴾[(٢)]، ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ﴾[(٣)]، و﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾[(٤)].

ومن ثم «المُلك» تأييداً للمَلِك في (٢٤) موضعاً، ومن مجموع الـ (٢٩) نرى المُلك قريناً بيوم الدين في أربع: ﴿قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾[(٥)] ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾[(٦)] ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾[(٧)]، ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾[(٨)].

أترى أن أكثرية المُلك بقرينة ترّجحه في الفاتحة على ﴿مَـٰلِكِ﴾ أم - لأقل تقدير - تسمح له بديلاً عن مالك؟

كلّا! فإنها إنما ترجّح في غير القرآن ترجيحاً لصدور الراجح على المرجوح، وأما القرآن الثابت دون ريب فلا تراجح فيه صدوراً، وقرن الملك بيوم الدين لا ينفي الملك فإنهما متلازمان في الله، مهما كان بينهما عموم من وجه فيمن سوى الله.

ثم المِلك ليوم الدين والأمر فيه ومَن فيه نجده في آيات أُخر، مما يجعله مثلثاً فيه دون إبقاء لأي ملك فيه إلّا ويحويه: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾[(٩)] شاملة لها كلها ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.
(٢) سورة طه، الآية: ١١٤، والمؤمنون: ١١٦.
(٣) سورة الحشر: ٢٣، الجمعة: ١.
(٤) سورة الناس، الآية: ٢.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٧٣.
(٦) سورة غافر، الآية: ١٦.
(٧) سورة الحج، الآية: ٥٦.
(٨) سورة الفرقان، الآية: ٢٦.
(٩) سورة القمر، الآية: ٥٥.

لِلَّهِ﴾[(١)] شمولاً للأمر كله ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[(٢)] ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[(٣)]. ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾[(٤)].

ثم هنا ليس من المُلك والمِلك إلّا المجازي المستودَع لبعض ما في الزمان والمكان، دون الزمان أياً كان وأيّان، ودون المكان إلّا خصوص ما يملكه مِلكاً أو مُلكاً، فقد يملِك المَلِك وقد لا يملك، كما قد يكون المالك مَلِكاً وقد لا يكون، وفيما يجتمعان يختصان ببعض المكان، وبعض ما - أو - مَن في الزمان والمكان.

ولكن الله مالك وملك لمثلث الزمان والمكان وما في الزمان والمكان مِلْكاً ومُلكاً حقيقياً لا حِوَل عنه، فالكون أياً كان لزامه ذاتياً في العمق أنه مملوكٌ لله وهو مالكه ومَلِكه، إذ ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[(٥)] وهي حقيقة المِلك والمُلك، والمِلكُ أعمق تدليلاً على السلطة المطلقة من المُلك وإن كانت الحقيقة منهما متلازمتان دون فكاك ولا احتكاك، حيث المالك يملك العبيد وليست لهم أية خيرة أمام المالك، وللمَلِك سلطة على الرعية ولهم حق المطالبة بما يرونه حقهم، فلكي تجتثّ خالجة أيّة خيرة للعبيد يوم الدين يأتي هنا ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ دون «ملك» وهما لله سيّان! حيث العبيد أدون حالاً من الرعايا.

ثم المالك ليوم الدين على وجه الإطلاق يملك كلّ مالك بملِكه وكل

(١) سورة الانفطار، الآية: ١٩.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨٦.
(٣) سورة سبأ، الآية: ٤٢.
(٤) سورة النبأ، الآية: ٣٧.
(٥) سورة يس، الآية: ٨٣.

مَلِكٍ بمُلكه حيث يملك مثلث الزمان والمكان بما فيهما، ولكن المَلِك قد يكون بجنبه مالكون، فالوجهة العامة في التصور عنهما تصور المالك المطلق أملك من المَلك المطلق، مهما كانا في الله على سواء، وهو ملك كما هو مالك، ولكنما أم القرآن بسبعها المثاني تقتضي أمّ التعبير، و«مالك» أمّ لـ«ملك» وإلى سائر التعبير كما الدين حيث يشمل كل ما في القيامة وهو أبرز سماته وحجر الأساس من كلّ خصوصياته.

إذاً فهو مالك لكل كائن ومَلِك على كل كائن، مِلكاً ومُلكاً للزمان والمكان وما فيهما، ومن الهراء القول إن «مالك» لا يناسب «يَوْمِ الدِّينِ» حيث لا يُملك الزمان، فإنه يخص كل زماني دون خالق الزمان!

وإذا كان هو مالك الزمان فلماذا خص هنا بـ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وهو مالك يوم الدنيا كما يملك يوم الدين؟ كما وأنه مالك الملك يوم الدنيا ويوم الدين.

إنه ليس في الحق من الاختصاص، فإنما ترجيح ذكراً ليوم الدين، فإن آيته تخص الإنذار بيوم الدين، وفي عرض مالكيته بخصوصه تهيؤٌ أكثر وتهيّب للمصدقين بالدين، ولأن مالكيته يوم الدنيا كانت قرينة في طولها بمالكية عرضيّة مستودعة لأهل الدنيا، وهذه منفية عن أهلها يوم الدين ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾[1] فإن قال «ملك الأيام» لم يكن بذلك التحديد والتهديد، حيث الملوك والمُلّاك يوم الدنيا مخيّرون بجنبه فيما يفعلون ويفتعلون، فعلّهم كذلك يوم الدين، فلا يصل إلى كل ذي حق حقه! وأما ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فقد يحصر المالكية له يوم الدين دون سواه وإن مستودعاً باختيار لاختبار، فإنهما ليسا في عقبى الدار.

كما وإن مالكيته الحقيقية تبرز لنا كريهاً يوم الدين، وتزداد ظهور وبهوراً

(١) سورة غافر، الآية: ١٦.

لمصدّقيها يوم الدين، وفي هذه الأربع كفاية لظاهر اختصاص «مالك» هنا بـ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

والدين في الأصل هو الطاعة والشريعة، شريعة الطاعة وطاعة الشريعة، عنيت منه في (٤٧) موضعاً في القرآن، مهما عنى الجزاء بها يوم الجزاء في (١٥) موضعاً آخر.

ولكنما الجزاء على طاعة الشرعة وعصيانها هي بروزٌ لحقيقة الطاعة أو عصيانها، فلها إذاً يومان، يوم التكليف بها وهو الأولى، ويوم ظهورها بحقيقتها وهو الأخرى فـ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١) فالدين هو الطاعة للشّرعة كما هو ظهورها جزاءً في الآخرة فـ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ تعني الثانية مهما يملك يوم الأولى كما هيه.

فلأن بروز الطاعة بحقيقتها هو جزاؤها في الأخرى، تسمى يوم الدين، كما المالكية الإلهية بارزة يوم الدين أكثر مما هي يوم الدنيا، تختص هنا بيوم الدين.

كما وأن من أيام الله ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾(٢) هي الأيام التي تبرز فيها شريعة الله وحكمه وطاعته، وهي على الترتيب يوم الرجعة والموت والقيامة فيوم الدولة المهدوية عليه السلام من أيام الله حيث تظهر فيه شرعة الله كما في قسيميه مهما اختلف ظهور عن ظهور، كما وقد تظهر قبل دولة المهدي عليه السلام موضعياً وعلى هامشها فله نصيب من أيام الله قدر ما له نصيب من تحقيق شرعة الله.

ومالكية يوم الدين تمثّل قاعدة ضخمة رزينة رصينة، عميقة التأثير في حياة التكليف، فكثيرون يدينون بألوهية الله وخالقيته - أم - وتوحيده، ولا

(١) سورة النمل، الآية: ٩٠.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٥.

يدينون بيوم الدين، عائشين حياة اللامبالاة والأريحيّة إذ لا يخافون يوماً آخر للدين، وآخرون يدينون بيوم الدين معتبرين استمرارية الملك والمُلك فيه لآخرين، فهم يملكون فيه إعفاءً أو تخفيفاً أو إفلاتاً عن حكم أحكم الحاكمين.

وإذ كان الله لا سواه ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ يملك يومه بمن فيه وما فيه من حساب وثواب وعقاب أو توبة وشفاعة وعفو أو إعفاء، إذاً فلا مجال لأمنيّات كاذبة كاسدة رخيصة في فوضى الحساب والجزاء يوم الدين، فـ ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾[(١)] و﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾[(٢)] و﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾[(٣)].

وقد تعم ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ مثلث أيام الله، مهما كان الأصل هو القيامة الكبرى إماتة وإحياءً، فالبرزخ برزخ في الدين، ودولة المهدي عليه السلام ساعة من ساعات الدين كما هي من أشراط الساعة الدين.

و«يوم» هنا مطلق الزمان، محدوداً كما لأهل النار، وغير محدود كما لأهل الجنة، فـ ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ كمطلقه غير محدود فإن لأهل الجنة ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾[(٤)].

ولأن «الدين» هو أبرز سمات ذلك اليوم وأجمعها، يختص السبع المثاني بذكره، إشارة إلى كل سماته في القرآن العظيم، إجمالاً يشير إلى تفصيل، وكما هو سائر في آياتها السبع.

فالقيامة بتدميرها وتعميرها وحسابها وسائر ما لها من أسماء بِسِماتها،

(١) سورة الانفطار، الآية: ١٩.
(٢) سورة الغاشية، الآيتان: ٢٥، ٢٦.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٢٦.
(٤) سورة هود، الآية: ١٠٨.

مطوية في «الدين» فإنه ظهور الطاعة وخلافها، فهو الأصيل الأصيل، وهي كلها من فروعها وآثارها، وقد دلت عشرات من الآيات على انعكاس الأعمال كلها يوم الدين، وأنها هي بنفسها الجزاء، وأنّ الدين الحق هو الميزان لثقل الميزان وخفته ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾[1] فالقيامة هي يوم الدين الشّرعة والكتاب ميزاناً، والدين الطاعة والمعصية ظهوراً، والدين بحقيقته جزاء وفاقاً.

وهكذا يكون آيات السبع المثاني بكلماتها، نماذج رئيسية محكمة عن تفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾:

العبادة هي الانتصاب للمعبود في منصب المعبودية، استجاشة لكل الطاقات والإمكانيات في جانحة أو جارحة لخدمته، بكل ذل وانكسار، بعيداً عن كل عزّة واستكبار، وهي درجات كما الاستكبار دركات، ولأن العبد «المملوك» قد يَملك بعضَهُ ويُملك في بعض، لمالك أو مالكين، وهو مطلق العبد، وآخر يُملك كله لشركاء متشاكسين وهو العبد المطلق ولكن ليس في إطلاق العبودية وإخلاصه لمالك واحد، وقد يملكه مالكٌ واحدٌ ولكنه يستسلم له مع أهواء آخرين، وذلك الثالوث خارج عن مغزى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإنها عبادة خالصة لله رب العالمين، بملكية حقيقة لا تشذ عن ذاته ولا عن عبادته شيئاً لغير الله وفي غير الله.

وهي جوهرياً تنافي الاستكبار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[2] كما الإخلاص فيها ينافي الإشراك لها: ﴿فَمَن

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨.
(٢) سورة غافر، الآية: ٦٠.

كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾[١] كما وبأحرى ينافي الإشراك فيها ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[٢].

إن المعبود الحق وهو الله يملك عباداً سواك فـ ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾[٣] ولكنك لا تجد معبوداً بحق سواه، وهو يربّيك كأن ليس له عبد سواك، ثم أنت تعبده - إن كنت عابده - كأن لك أرباباً سواه!

إنه لا بدّ لك من معبود حقاً أو باطلاً، وقولة القائل: إن العبودية ذلٌّ أياً كان المعبود، والإنسان عزيزٌ أياً كان، فليرفض العبودية لأيّ كان، إنه هرطقة هُراء، والله منها براءٌ.

أجل إن العبودية الذل أمام الذليل والأذل كما يفعلها الذين يعبدون من دون الله إنها ذلّ وظلم ومسٌ من كرامة الإنسان، ولكنها أمام الله عزٌ وعدل وفضل يرجع إلى الإنسان، ولا يتحلّل أي ذي حجى أم ذي شعور عن عبادة مّا حقاً أو باطلاً.

وبصيغة مختصرة محتصرة إن في الكون إلهين اثنين معبودين: حق وباطل فالباطل هو عبادة النفس والهوى، والحق هو عبادة الله على هدى، وليست عبادة من سوى الله إلّا ناتجة عن عبادة الهوى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٤].

ومثلاً على العابدين الإنسان أياً كان، وحتى الذي يدعي الألوهية من دون الله، فإن له إلهاً وآلهة من أصنام وأوثان، مهما كان هو طاغوتاً

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.
(٣) سورة مريم، الآيتان: ٩٣، ٩٤.
(٤) سورة ص، الآية: ٢٦.

لمستضعفي الإنسان، ولأقل تقدير هو يعبد نفسه وهواه ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾(١).

إنه ليست لله تعالى حظوة في عباداتنا، فنحن الذين نحظو بعبادته، حظوة معنوية لأنها اتصال معرفي باللّانهاية في الكمال، وأخرى حيويّة أخرى، أنه يدلنا بها إلى التقوى ويردعنا عن الطغوى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾(٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٣).

والناس بين من يعبد الله وحده على درجاتهم، أم يعبده مشركاً في عبادته، أم مشركاً به معبوداً سواه، أم لا يعبد إلّا سواه، بديل ألّا يعبد إلّا إياه ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٤) فضلاً عن تخصيص العبادة لغير الله.!

إن العبودية العادلة الحكيمة هي مفرق الطريق بين التحرر المطلق عن كل عبودية، وبين العبودية لغير الله من طواغيت، وأوثان وأصنام ونظم وأوهام وعادات وأحلام، فالناس بين عابدين لغير الله، ومدعين التحلل عن كل عبادة وعبودية حتى الله، مفرطين فيها أو مفرِّطين عنها، رغم استحالة التحلّل عن أية عبادة وعبودية، فإنهم يعبدون شهواتهم ومشتهيات غيرهم من طواغيت ثم يدعون التحلل عن كل عبودية ولهم منها أبطلها وأحمقها!.

فإذ يعبد الإنسان ربه الخالق له المدبر أمره فهذه مفخرة له إذ ترفع من كيانه، وحين يعبد أضرابه أو من دونه فقد حطّ من كيانه كإنسان، وردّ إلى أسفل سافلين.

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الذاريات، الآيات: ٥٦ - ٥٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١.
(٤) سورة لقمان، الآية: ١٣.

ثم و﴿نَعۡبُدُ﴾ قد تكون من العبودة كما هي من العبادة، فمن العبودة الرضى بلا خصومة، والصبر بلا شكاية، واليقين بلا شبهة، والشهود بلا غيبة، والإقبال بلا رجعة، والإيصال بلا قطيعة.

ومن العبادة الصلاة بلا غفلة، والصوم بلا غيبة، والصدقة بلا منة، والحج بلا إراءَة، والغزو بلا سمعة، والذكر بلا ملالة، وسائر العبادات بلا أية رئاء وسمعة وآفة.

فـ﴿نَعۡبُدُ﴾ تشمل بإطلاق التعبير كلا العبادة والعبودة كما كلٌّ منهما درجات وفي التخلف عنهما دركات.

وهنا في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ انتقالة من غياب الحمد إلى حضور العبادة والاستعانة، حيث المعرفة البدائية وهي شرط العبادة، هي غائبة بطبيعة الحال، ومن ثم إلى حضور المعبود المعروف بما عرّف نفسه وتعرّفنا إليه في خطوات سابقة سابغة: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ - إلى - مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

أنت قبل صلاتك منشغل عن الله بمشاغل الحياة وشواغلها، فلما تكبّر وتعني به أنه أكبر من أن يوصف، تأخذ في التغافل عما سوى الله والانشغال بالله، ولكي تتهيّأ لحضوره في معراج الصلاة تُقدِّم ما تَقدَّم على ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ...﴾ وحين تكمّل أصول المعرفة والدين بالبسملة - إلى - مالك يوم الدين، هنا يسمح لك أن تخاطب صاحب المعراج بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

فمن قبل كنت في غياب هو مطلق الحضور، وأنت الآن في الحضور المطلق.

فـ«اعبد ربك كأنك تراه وإن لم تكن تراه فإنه يراك».

في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ خرق لكافة الحجب ظلمانية

ونورانية، وهو مجال فاسح لمقام التدلّي في «أو أدنى» بعد ما «دنى» فالدنو المعرفي العبودي كقاب قوسين، يعني أن ليس بينه وبين الله أحد، ثم التدلي هو أن ينمحي العابد عن نفسه كما محّى ما سواه فلا يبقى إلّا حجاب الذات المقدسة وهو لزام الألوهية: بيني وبينك إني ينازعني - فارفع بلطفك إني من البين.

الله تبارك وتعالى حاضر لدى كل كائن، وناظر إليه رقيب عليه، وهو أقرب منه إليه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[(١)] قرباً علمياً وقيومياً، لا ذاتياً أو زمانياً ومكانياً فإنها بُعدٌ في ساحة الألوهية، ومسٌ من كرامة الربوبية:

فلتكن في حاضر خاطرك، في علمك وعملك، في سرِّك وعلانيتك، في جوارحك وجوانحك، حاضراً لديه، أقرب منك إلى نفسك فضلاً عما سواك انمحاءً لنفسك لكمال الحضور، فانعدم هنا عن كافة شخصياتك وتعلقاتك أمام ربك حتى تنوجد متعلقاً بل وتعلقاً بربك متدلياً به.

أم تحضر بحضرته كما أنت حاضر لنفسك، أم - لأقل تقدير - كما أنت حاضر عند عزيز من أعزتك وأنت تراه، أم وأدنى منه أنه يراك، آه يا ويلنا ونحن بعيدون في معراجنا عن هذه الأربع، بل نجد كل ضالة سوى الله في صلاتنا! - أفنحن أضعف من نساء في المدينة بالنسبة لحضرة يوسف ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[(٢)] ويوسف عبد من عبيد الله، فهن يتناسين أنفسهن فيقطعن أيديهن من جمال الحضور ونحن نتثاقل عن معراج الصلاة لحدّ النفور، فأين تفرون؟!

فليكن المصلي في معراجه حضوراً مطلقاً لدى ربّه دون غياب، فإن إليه الإياب وعليه الحساب وهو رب الأرباب.

(١) سورة ق، الآية: ١٦.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٣١.

تقدم ﴿إِيَّاكَ﴾ هنا على «نعبد ونستعين» تدليلاً على حصر العبادة في الله ولله وحصر الاستعانة في الله: نعبدك أنت لا سواك، ونستعينك أنت لا سواك، تعبيراً عبيراً عن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1].

تقدم، لأن الله أحق في التقديم عليك وعلى عبادتك بكلّ موازين التقديم فمن أنت حتى تتقدم على ربك وإن في حضرة العبودية، وما هي عبادتك حتى تتقدم على المعبود في حضرته؟!

و﴿نَعۡبُدُ﴾... و. ﴿نَسۡتَعِينُ﴾ جمعاً ليس جمع التعظيم للمفرد حيث المقام مقام التطامن والتذلل، فإبراز نفسك كفرد زائدٌ أمام ربك فضلاً عن جمعك.

وإنما يعني أموراً عدة بين راجحة ومفروضة، وكلها مفروضة في شرعة المعرفة.

فلكي لا تكذب في صلاتك ادعاء لحصر عبادتك في الله، تدمج نفسك في جموع العابدين، من الملائكة والجنة والناس أجمعين، من السابقين والمقربين وأصحاب اليمين، حتى تصدق دعواك في حصر العبادة، فإن المخلصين صادقون في حصرهم بأسرهم، فأنا - إذاً - قائل عنهم، وناقل منهم وإن لم أكن بنفسي أهلاً لتلك الدعوى، فلعلي أسير بسيرتهم فأكون معهم ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[2].

فإذا أنت تقبل حق العبادة أيها الرب الجليل، فاقبل مني أنا الذليل البائس الهزيل، تلك العبادة الخليطة بعبادات المخلصين.

ثم دمجاً لنفسي في كلِّ العالمين ممن يعبده ويسجد له طوعاً أو كرهاً

(١) سورة الصافات، الآية: ٣٥.
(٢) سورة النساء، الآية ٦٩.

فـ ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾(١) والكون محراب فسيح تعبد فيه الكائنات ربها بلسان فصيح وغير فصيح.

ولأن الصلاة جماعة أحرى أم هي مفروضة كأصلها فـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ هي حكاية الحال الحاضرة والمقال لجموع المصلين، ومعنا ملائكة الله إن كنا في صلاتنا فاردين، ومعنا سائر الكون على أية حال.

وحتى إن كنا في حصر العبادة لله صادقين، علينا أن نخفي أنفسنا في جموع العابدين تحرزاً عن الإنّية والظهور، وإعفاءً لأثر الشخوص والغرور، فلا أنا لائق للإشخاص والشخوص، ولا عبادتي تليق بحضرة المعبود، إذاً فـ «نعبد ونستعين واهدنا» في مثلث من انمحاء الشخصية أمام حضرة المعبود.

إن العبودية المطلقة تقتضي الطاعة المطلقة وبينهما عموم مطلق، فكل عبودية طاعة وليست كل طاعة عبودية اللهم إلّا مطلق العبودية الجامعة مع الشرك خفياً وجلياً.

ولماذا تنحصر العبادة بأسرها في الله؟ لأنه ﴿ٱللَّهِ - ٱلرَّحۡمَٰنِ - ٱلرَّحِيمِ - رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ - مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وكلٌّ من هذه برهان تام لا مردّ له على ضرورة الانحصار.

فهو ﴿ٱللَّهِ﴾ في مثلث الزمان وقبله وبعده، سرمدياً ما له من فواق ولا رفاق الكمال المطلق الصادر منه كل كامل وكمال ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾(٢)؟ ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ﴾(٣)؟!

وهو ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لا سواه، قبل أن يخلقك وبعد خلقك، لا رحمان إلّا إياه، ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ﴾ ﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾(٤)؟!.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٩٣.
(٢) سورة الجاثية، الآية: ٦.
(٣) سورة التكوير، الآية: ٢٦.
(٤) سورة الصافات، الآية: ٨٦.

وهو ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بمن يستحق خاصة الرحمات لا سواه.

وهو ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لا ربّ سواه خلقاً ولا تدبيراً، فمن ذا نعبد إلّا إياه؟

وهو ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ليس إلّا إيّاه فكيف نعبد سواه، وإليه الإياب وعليه الحساب؟

فإن كنت تعبد ما تعبد حباً للكمال المطلق فهو الله فلا تعبد - إذاً - إلّا إياه.

وإن كنت تعبد استدراراً للرحمة أم إدراراً فالرحمة المدرار خاصة بالله فلا تعبد إلّا إياه، شكراً واستكمالاً به، واحتراماً لديه ما أنت المحتاج إليه دونه.

وإن كنت تعبد لمكان الربوبية فلا تعبد إلّا إياه فإنه - فقط - رب العالمين لا سواه:

وإن كنت تعبد طمعاً في الثواب أو خوفاً من العقاب فلا تعبد إلّا إياه فإنه - فقط - ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ لا سواه:

فمثلث: العبادة الحرة وطلب الثواب وخوف العقاب، منحصر في الله منحسر عن سواه، فكيف - إذاً - تعبد سواه وقد ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[1]؟!

ثم الواجب في شرعة التوحيد عبادة الذات «الله» حضوراً وإدراكاً: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ومن زعم أنه يعبد بالصفة لا بالإدراك فقد أحال على غائب» عبادة من لا يحضره فلا يعرفه اللّهم إلّا بما أنعم، فلولا النعمة لم تكن عبادة! و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تنافي الغياب فالله تعالى حاضر لك وأقرب إليك

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٠.

منك، فلتكن حاضراً لديه علماً به وإدراكاً دون إحاطة، فلو كانت عبادتك بالصفة الفعلية فهي إحالة على غائب، وكثير هؤلاء الذين يعبدون الغائب: «ومن زعم أنه يعبد الصفة والموصوف فقد أبطل التوحيد لأن الصفة غير الموصوف» وهي الصفة الفعلية دون الذاتية فإنها عين الذات، فعبادة الذات بصفة الفعل، أم بصفة الذات اعتباراً لها زائدة على الذات، إنها ناحية عن خالص التوحيد إلى خالص الشرك أم شائبه، حيث الثانية شرك في الذات وشرك في العبادة، أن تعبد الذات بصفات الذات كأنها زائدة على الذات، والأولى شرك في العبادة أن تعبده لأنه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ - رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ - مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فإنها عبادة التجار والعبيد دون الأحرار، حيث يعبدون الله لأنه الله، ومهما صحت الثلاث وقبلت، إلّا في شرك الذات - فالعبادة الصحيحة هي عبادة الذات سواء كانت للذات فقط، أم للذات والصفات تعليلاً لعبادة الذات، وأما أن يعبد الذات والصفات ذاتية أو فعلية أو يعبد الصفات كما هيه، أو يعبد الصفات تفريعاً عليها الذات، فكل ذلك إبطال للتوحيد فذلك بين إشراك وإلحاد!.

«ومن زعم أنه يضيف الموصوف إلى الصفة فقد صغر بالكبير»[1] حيث يجعل الصفات أصلاً يفرّع عليها الذات، ففي عبادتهما هكذا مع بعض شرك أنحس من التسوية، وفي عبادة الصفات أصالة بتفريع الذات انزلاق إلى إلحاد، وفي عبادة الذات بأصالة الصفات، أن يعبده هو لهذه الصفات، تحلّل عن عبادة الأحرار إلى العبيد والتجار ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾[2].

فالعبادة درجات: ١ - خوفاً من عذاب الله وهي عبادة العبيد وكثير ما

(١) يرويه إخواننا عن الإمام الصادق عليه السلام وبين الأقواس بيانات منا.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

هم و٢ - طمعاً في ثواب الله وهي عبادة الأجراء وهم أقل منهم[١]. ٣ - أن تعبد الله لأنه الله وهم أقل قليل وكما عن مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام: ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك[٢].

وهذه المراتب مطوية في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ في ظلال ما قبلها، فـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ لأنك الله، فأنت أهل أن تعبد «لا نريد منك غيرك، لا نعبدك بالعوض والبدل كما يعبدك الجاهلون بك المغيبون عنك»[٣].

وإياك نعبد لأنك «الرحمن - الرحيم - رب العالمين» طمعاً في رحمتك وربوبيتك: وإياك نعبد لأنك ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ طمعاً في ثوابك أو خوفاً من نارك وهذا أضعف العبادة.

وهذه الدرجات الثلاث كلٌّ منها درجات كما أن عبادة غير الله دركات.

وكما ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ تتبنّى هذه الخمس، كذلك ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ فإنه كمال الحمد.

وكما أن عبادة التأليه تخصه، كذلك عبادة الطاعة، وعبادة الأفعال والأقوال فالقول: لولا الله وفلان لما نجحت إشراك في القول، وسجدة الاحترام وركوعه لغير الله إشراك في فعل الاحترام، والطاعة المطلقة لغير الله إشراك في طاعة الله، وإن كان ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾[٤] ولكنها طاعة لله دون سواه.

---

(١) الكافي محمد بن يعقوب بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن العباد ثلاثة قوم عبدوا الله عزّ وجلّ خوفاً فتلك عبادة العبيد وقوم عبدوا الله طلب الثواب فتلك عبادة الأجراء وقوم عبدوا الله حباً فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة.

(٢) مرآة العقول للمجلسي من باب النية ج ٢ ص ١٠١.

(٣) تحف العقول عن الإمام الصادق عليه السلام.

(٤) سورة النساء، الآية: ٨٠.

ولماذا تتقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؟ والاستعانة لزام العبادة، حيث الموكول إلى نفسه على توفّر العراقيل بينه وبين ربه ليس ليعبد ربه؟ علّه حثٌ لاستجاشة الطاقات وتكريس الإمكانيات لـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ثم إكمالها بـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالعبادة هي فعل العبد مشفوعاً بعون الله، فعليك الحركة، وعلى الله البركة، رفضاً للاتكالية في الأمور المختارة، وتحريضاً على السعي ثم الاستعانة في كماله وإنتاجه.

كما وأن الاستعانة تعمّ العبادة وسواها، والعام يذكر بعد الخاص تعميماً له ولسواه، فـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وفي كل ما ترضاه.

ثم العبادة لا تنحصر في مجالات الذكر والصلاة والحج: فإنها تشمل كافة حركات الحياة وسكناتها، فلتكن كلها صلاةً لله وصلات بالله لتصبح الكل عبادة لله.

ولأن العابدين فرادى وجماعات لا يقدرون على إخلاص العبادة لله لضعفهم في أنفسهم ووجاه عرقلات الشياطين، فلا حول عن معصية الله إلّا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلّا بعون الله، فعلينا الاستعانة بالله في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ كما في سواه، استعانة تكوينية وتشريعية في: كيف نعبده، هدياً إلى صراط مستقيم في عبادته، وفي تحقيق حق العبادة الخالصة هدياً إلى الصراط إيصالاً إلى المطلوب منه، فلولا الإعانة تشريعية وتكوينية لم تتحقق العبادة اللّائقة الخالصة.

فـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على طاعتك وعبادتك «وعلى دفع شرور أعدائك وردّ مكائدهم والمقام على ما أمرتنا به»[1] و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: استزادة

(١) تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

من توفيقه وعبادته واستدامة لما أنعم الله عليه ونصره[(١)] ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾: أفضل ما طلب به العباد حوائجهم[(٢)].

ولماذا ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ دون «بك نستعين»؟ لأن بينهما فارقاً والنص يوحي بتوحيد الأولى دون الثانية، سامحاً للاستعانة بغير الله في الله وإلى الله حين يأذن الله ويرضى، فالمستعان - فقط - هو الله، ثم المستعان به في الله وإلى الله في إعانة هو الله ومن يأذن به الله، حيث الدار دار الأسباب، وإن كان الله قد يقطع الأسباب كأيّة رسالة أو كرامة أو عناية خاصة بمن يحبّ ويرضى.

ففي توحيد الاستعانة بالله منع عن كل استعانة بغير الله، وأمّا التوحيد في استعانته فهو سائد في الاستعانة بما يأذن به الله كما في الاستعانة بالله.

فكما ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ والعبادة لله، كذلك المستعان هو الله لا سواه، ومهما حمدنا سواه واستعنّا بسواه فلسنا لنعبد سواه إذ ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾[(٣)].

فنحن ﴿نَسۡتَعِينُ﴾ بهدي الرسول الله في: كيف نعبده ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾[(٤)].

و﴿نَسۡتَعِينُ﴾ باستغفار الرسول الله في غفرانه كما أمر الله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾[(٥)].

(١) من لا يحضره الفقيه عن العلل عن الرضا عليه السلام.
(٢) مجمع البيان عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٤٠.
(٤) سورة النساء، الآية: ٨٠.
(٥) سورة النساء، الآية: ٦٤.

كما ﴿نَسْتَعِينُ﴾ بدعاء الرسول وشفاعته الله بإذنه ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾[(١)] ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

أو ﴿نَسْتَعِينُ﴾ الله بالرسول ﷺ وذويه عليهم السلام في كشف الكربات ودفع الأذيّات وأضرابها من حاجات كوسائل كريمة مأذونة لم تخرج عن توحيد استعانة الله، ابتغاء الوسيلة إليه بإذنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[(٢)].

وسيلة مشفوعة بالتقوى والجهاد، دون اكتفاء بها واستقلال لها تاركين التقوى فيها والجهاد، وإنما استغلالها بأمر الله وإلى ابتغاء مرضاة الله:

فليس لنا أن نتوسل بكل شيء إلى الله، ولا أن نؤصل شيئاً فيما نبغي أمام الله فنستقلها بجنب الله.

إذاً فالله يستعان فقط دون سواه، وبغير الله يستعان إلى الله وفي الله بإذنه ورضاه، فقد نستعين الله فيما نستعين به ممن سوى الله، لأن الإعانات كلها من الله، وراجعة إلى الله، بوسائط أم دون وسائط، ولكنما الوسيط في الاستعانة تكويناً وتشريعاً لا بد له من إذن الله، وكما استعان ذو القرنين في بناء الردم بمن ظُلموا: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾[(٣)].

إذاً فالاستعانات الإيمانية بإذن الله كلّها استعانة الله، وهي هي اللّاإيمانية إشراك بالله أو إلحادٌ في الله.

فالتوسل بالأصنام والأوثان أو عبادتها ليقربوكم إلى الله زلفى، أم يؤثروا تأثيرات، استعانة بغير الله فيما منع الله شركاً بالله أو إلحاداً في الله.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٨٧.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٥.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٩٥.

كما التوسل بالأحجار والأشجار أماذا من جمادات ونباتات أم حيوان وإنسان أم ملك أو جان أم أياً كان، كل ذلك توسّل شركي إن توسلت بها إلى الله، أم إلحادي فيما تستقلها من دون الله.

فنحن نتعاون في الله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ﴾(١) ونستعين بعبادة الله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾(٢) ونستعين برسل الله وكل الهداة إلى الله تعرفاً إلى مرضاة الله، وكلّ ذلك استعانة الله واستعانة بالله ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾(٣).

والضابطة السارية في الاستعانة بغير الله في الله وإلى الله في أمور عادية غير عبادية، أن تكون مأذونة بالوحي بصورة خاصة أو عامة، فعدم الإذن - إذاً - دليل المنع لأن منصب العون خاص بالله فضلاً عن المنع.

ومن المأذونة بصورة عامة هو التعاون والاستعانة في كافة الأمور والمشاغل الحيويّة المباحة، وهي في غير المباحة - فقط - غير مباحة دون شرك أو إلحاد، إلّا إذا أُشركت بالله أم استُقِلَّت بجنب الله.

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾(٤):

هل يصح «السراط» كما في الشواذ؟ كلّا وإن اتحد المعنى، حيث النص المتواتر هو ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ مهما كان أصله اللغوي من سرط الطعام(٥).

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٥.
(٣) سورة يوسف، الآية: ١١٢.
(٤) في الدر المنثور ١: ١٤ - اهدنا السراط بالسين عن عبد الله بن كثير وابن عباس وفي أسانيد عن ابن عباس ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ وكما أخرج الحاكم وصححه وتعقبه الذهبي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قرأ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.
(٥) تفسير الصافي عن الإمام الصادق عليه السلام.

وهو هنا الدين ككل لأنه مؤدّ إلى استحباب الثواب واستدفاع العقاب، طريقاً قاصداً ومنهجاً رائداً وبياناً زائداً يوصل إلى الهدف المقصود.

إنها خير دعاء واستدعاء في قلب السبع المثاني، وهي قلب الصلاة، كما هي قلب العبادات فإنها خير موضوع، وإن لها خير موضع في خير موضوع، فإنها بعد خطوات المعرفة والعبودية والاستعانة، فلأن الدعاء هي مخّ العبادة فلتكن في مخّ العبادة.

وإنها دعاء لا يستغني عنها أحد من عباد الله حتى أسبق السابقين وأقرب المقربين محمد ﷺ وآله الطاهرين عليهم السلام فضلاً عمن دونهم من سائر المخلِصين والمخلَصين وعباد الله أجمعين.

ولأن موقع الدعاء هو أقرب حالات القرب إلى الله، فدعاء الهداية وهي قمّة الدعاء أصبحت رابع الخطوات، بعد المعرفة الغائبة في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ - إلى - مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ثم الحاضرة بخالص العبادة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ثم أخرى هي بخالص الاستعانة، فلما اكتملنا خطواتنا الثلاث ووصلنا إلى القمة المقصودة، فلكي نثبت على ما نحن عليه من الهدى، ثم نستزيد هدى على هدى، نقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

والهداية هي الدلالة بعطف ولطف بكل مرونة وازدهار، دون أية خشونة واستكبار، وحتى بالنسبة لأكبر المستكبرين فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾(١).

ثم من الهدى - وهي رحمة - عامة تعنيها «الرحمن» وخاصة تعنيها «الرحيم» وهنا أخصّ تعنيها ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ والخلق في مثلث الهدى درجات حسب الدرجات.

١ - ورحمانية الهدى هي تكوينية لا سواها: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ

(١) سورة طه، الآية: ٤٤.

خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1] مهما اختلفت درجات الخلق وبمستواها هداها، وهي لزام كلّ خلق دونما حاجة إلى استدعاء، فالقوانين المحكّمة على المادة تكوينية دونما استثناء، من كيماوية وفيزيائية وفيزيولوجية نباتية أم حيوانية أم إنسانية أمّا هيه - والكون كله على صراط مستقيم في هذه الهداية الإلهية دونما تخلّف واختلاف حيث الربوبية الإلهية مستقيمة دون خلاف ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

٢ - ومن ثم تكوينية رحيمية كما في هدى العقل والفطرة: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[3] وهما لكافة المكلفين من الملائكة والجنة والناس أجمعين أمّن هم ممن لا نعرفهم؟ ونحن نطلب فيما نطلب تجلّي الفطرة وزيادة العقل، لكي نهتدي إلى صراط مستقيم.

٣ - أم تشريعية ككلِّ شرعة إلهية: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[4] وهذان حاصلان لكلِّ مكلف قدر تكليفه، فلولاهما لم تك من المصلين حتى تطلب الهداية، إذا فلا دعاءَ لهما ولا استدعاء اللهم إلّا تداوماً فيهما واستزادة، أن يزيدنا لبّاً ونوراً وفرقاناً لتعرُّفٍ أعرف إلى شرعته.

٤ - أم رحيمية تكوينية هي التوفيق لقبول الهداية لمن يتطلّبها ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[5] فكذلك الأمر، فلولا قبول الهدى لما اهتديت إلى الصلاة:

(١) سورة طه، الآية: ٥٠.
(٢) سورة هود، الآية: ٥٦.
(٣) سورة البلد، الآية: ١٠.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٣٠.

٥ - أم هي واقع الهدى بعد الاهتداء إليها توفيقاً لمزيد الإيمان وعمل الصالحات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾[1] ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[2] فهذه من أحسن الدعوات وأفضل المستدعيات لأن هديها من أفضل الهديّات.

٦ - أم هي التوفيق لدوام الهدى والثبات عليها بعد الوصول إليها: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[3] ومنها العصمة والتسديد في البقاء على هدي الصراط المستقيم ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[4] ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾[5].

٧ - أم هي استزادة من هدي الصراط المستقيم ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[6] حيث الرسول محمد ﷺ وهو ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾[7] يتطلّب في صلواته ليل نهار هدي الصراط المستقيم، فضلاً عمن دونه في صراطه.

٨ - أم هي - أخيراً - صراط الجنة الأخرى على هدي الجنة الأولى، التي هي جنّة عن كل ضلالة في الأولى والأخرى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى

(١) سورة يونس، الآية: ٩.
(٢) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٧٤.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٨٦
(٦) سورة طه، الآية: ١١٤.
(٧) سورة يس، الآيتان: ٣، ٤.

هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[(١)] وهي في الأخرى جنتان ثانيتهما وأولاهما جنة المعرفة والرضوان: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[(٢)].

فبالسبعة الأخيرة من هذه الثمان: - عدد أبواب الجنان - نغلق أبواب النيران ونفتح أبواب الجنة الثماني: فأولى الهدى هي الفطرة والعقل، غير مكسوفة بطوع الهوى، وأخراها هي لمن بلغوا الذروة من الرعيل الأعلى وبينهما متوسطات، ولكلّ نصيب مما كسبوا وما ربك بظلام للعبيد، والعطيّات حسب القابليات، والطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، فما من أحد إلّا وهو يحتاج هدي الصراط المستقيم.

ولماذا نطلب هداية الصراط المستقيم، دون الهداية «إلى» أم «على» أم «لـ»؟ علّه لأن الهداية «إلى» لا تعم الهداية «على» وهي الحيطة الشاملة على الصراط المستقيم، فإنها واقع الهدى، لا السبيل إليها والرسول ﷺ هو على صراط مستقيم، مهما كان إليه في البداية: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾[(٣)] فقد كان إليه ثم أصبح عليه فكيف يتطلّب «اهدنا إلى أو على الصراط المستقيم»! ثم الهداية «على» تخص أهلها الخصوص، والهداية «لـ» أمر بين أمرين، ودعاء الهداية في الصلاة تعم عامة المصلين، وأما هدى الصراط المستقيم فهو يعم مثلث الهدى!

فهُدى الصراط المستقيم في مثلّث ولكلّ درجات، ولأن دعاء الهداية عامة فلتشمل كافة المتطلّبين، حتى ومن هو على صراط مستقيم، أم هو هو صراط مستقيم حيث يهدي إليه ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(٤)].

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٢.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦١.
(٤) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

إذاً فـ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ تعم الهداية «إلى» و«لـ» و«على» ثم وأعلى منها كالرسول ﷺ وذويه الذين هم - فعلاً - على صراط مستقيم.

والجمع في ﴿ٱهْدِنَا﴾ كما الجمع في «نعبد ونستعين» يجمع في دعاء الهداية كل العابدين الله والمستعينين الله في مثلث الدرجات، من هو مثلك أو دونك أم فوقك، وحاش لله أن يستجيبك فيمن فوقك كما هي طبيعة الحال، ثم يتركك بمن هو مثلك أو دونك على ما أنتم، وهذه من أسس الدعاء أن نجمع إلى أنفسنا غيرنا من صالحين وطالحين، ليستفيد الطالحون، ويفيدنا الصالحون.

كما ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ دون إليه أو عليه لمحة إلى أن القصد دمجنا في الصراط المستقيم، ودمجه فينا حتى نصبح نحن الصراط المستقيم، ولكي نثبت عليه ونهدي إليه، في أيّة درجة من مدارجه.

ونحن نطلب هداية الدلالة والتوفيق والإيصال لما لم نصله حتى الآن، والتثبيت على أصل الهدى التي وصلناها حتى الآن، تثبيتاً حتى لا نرجع القهقرى، ودلالة لما فوقها بمعنييها تكاملاً إليها، فنحن - إذاً - في أبعاد أربعة من تطلُّب الهدى.

والصراط - كما السراط - من سرط الطعام إذا ابتلعه وزرده بسهولة ودون إبقاء فهو السبيل المستسهلة السوية التي يبتلعها سالكها أو تبتلعه، منحدرة إلى المقصود ضامنة لسالكها أن ينحدر ولا ينهدر.

والمذكور منه في سائر القرآن (٤٥) مرة، موصوفاً في كله بالمستقيم أو ما يعني معناه كـ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[1] و﴿ٱلْحَمِيدِ﴾[2] أم ﴿سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾[3] -

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١.
(٢) سورة الحج، الآية: ٢٤.
(٣) سورة ص، الآية: ٢٢.

﴿صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾[(١)] مما يدل على أن هناك صراطاً غير مستقيم ولا سوي مضاداً لصراط العزيز الحميد كصراط الجحيم. ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾[(٢)] فهو - إذاً - صراط المغضوب عليهم ويتلوه صراط الضالين.

فصراط المغضوب عليهم إلى الشيطان ثم إلى الجحيم يسرطهم ابتلاعاً دون إبقاء فيوصلهم بلا هوادة إلى الجحيم.

ثم الضالين يسرطهم صراطهم ابتلاعاً في ابتلاء الضلال، فلا يدعهم يهتدوا، فهم من ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[(٣)] فقد انقسم الصراط إلى ثلاثة، نهتدي إلى قسم المستقيم ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

فهنا طريق ثم سبيل ومن ثمّ صراط هو أبلجه وأنهجه، وهو المستقيم للمنعم عليهم.

فالطريق هي التي تُطرق ويُمشى عليها باستواء أو ارتفاع أم انحدار، فمنها ما هي إلى الجنة: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(٤)] وما هي إلى النار: ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[(٥)] ثم هي بين طريق باطن كما هما، أم وظاهر: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾[(٦)].

والسبيل هي الطريق المنحدرة المسبّلة للسالكين، فهي أخص من الطريق وأكثر استعمالاً في غير الظاهر، وأسهل سلوكاً للسالكين، ولكنها -

(١) سورة مريم، الآية: ٤٣.
(٢) سورة الصافات، الآيتان: ٢٢، ٢٣.
(٣) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.
(٤) سورة الأحقاف، الآية: ٣٠.
(٥) سورة النساء، الآية: ١٦٩.
(٦) سورة طه، الآية: ٧٧.

على انحدارها - قد توصل إلى المنزل المقصود بسهولة أو صعوبة وقد لا توصل، فلذلك قد تجمع كما الطريق، فليست واحدة إلّا طريق أو سبيل مستقيم: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[1].

فالسبل منها سبل السلام ومنها دون ذلك، والصراط المستقيم إلى الحق سلام وليس دون ذلك: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2] فسبل السلام هي درجات لا تخلو إلّا واحدة منها من ظلمات يخرجهم الله منها فيستخلصون إلى صراط مستقيم ليس فيه أيّ ظلام، مهما كان هو أيضاً درجات حسب الدرجات.

فبين نقطة العبودية والربوبية صراط مستقيم بين سبل السلام، كما هي بين كافة السبل، ومن ثم هي أيضاً بين كافة الطرق.

خط مستقيم لا عوج له ولا حِوَلَ عنه، بين سائر الخطوط الملتوية، منحنية أو منكسرة، موصلة على عقباتها أم غير موصلة.

وللصراط المستقيم درجات أعلاها صراط الرب فـ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3] صراط يخصه لربوبيته، لا شريك له فيه ولا يشرك فيه أحداً، إذاً فلسنا نطلبه من ربنا ولا أوّلُ العابدين، وكما لسنا لنطلب صراط الهدى التكويني الرحمانية الأولى، فإنها كائنة لزام كل خلق على أية حال! وأين صراط من صراط؟

وأدناها «الصورة الإنسانية التي هي الطريق إلى كلِّ خير، والجسر

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١٦.
(٣) سورة هود، الآية: ٥٦.

الممدود بين الجنة والنار» (٤٨) ظرفاً صالحاً كأصلح ما يكون لتطلُّب الصراط المستقيم، ولكنها كائنة لكل إنسان أياً كان، وحتى من انكدرت فطرته وغرب عقله، فهذا يستدعي ربه أن يهديه إلى صورته الإنسانية حتى يهتدي بها إلى صراط مستقيم، ولأن الصورة الإنسانية درجات سبع، من الروح والفطرة والعقل والصدر والقلب واللب والفؤاد، فالمستدعاة منها - إذاً - لكلّ صورة تلو بعض، ليستعدّ السالك براحلته في هذه الرحلة المدرسية العالية، معرفة بربه ثم عبودية، إذ لا عبودية إلّا بعد شيء من المعرفة تجذب إلى عبودية.

وبينهما متوسطات من الصراط، كصراط العبودية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[1] وهذا الصراط لزام عشير منذ الأول حتى الأخير راحلة ووسيلة وغاية، فبأقدام العبودية والمعرفة يحضر العبد محضر الربوبية الذي هو الصراط المستقيم.

وهو اعتصام بالله: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2] فلا عصمة في هذه الرحلة دون اعتصام بالله إلّا انفصاماً عن العروة الوثقى، ولا اعتصام إلّا بعصمة المعرفة والعبودية.

كما الاعتصام والإيمان به ذريعة إلى صراط أعلى مستقيم: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[3] فلا اعتصام إلّا بإيمان كما لا إيمان إلّا باعتصام بعشيريهما المعرفة والعبودية.

وهذه كلها لا تحصل إلّا على ضوء هدي القرآن: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠١.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٧٥.

ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾(١) حيث القرآن أقرب السبل الواضحة المعصومة من الله إلى الله، يعرّفنا كيف نؤمن بالله ونعتصم بالله ونعرف الله ونعبد الله، مُخطِّئاً كلّ خالجة خارجة عن الحق في هذه الرحلة.

وإلّا على هدي رسول القرآن: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٢) حيث الرسول كما القرآن بيان من الله يبيّن القرآن ويفسره، وفي سنته ما لا يتوضّح من القرآن، فهو صراط مستقيم كما القرآن، يهديان إلى صراط مستقيم.

ثم الإسلام المطلق بالعبودية الضافية، والتوحيد بالمعرفة الصافية هما الصراط المستقيم، نتذرّع إليهما بالصورة الإنسانية وبالعبودية والإيمان والاعتصام بالله على ضوء هدي القرآن ونبي القرآن: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾(٣)، ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٤) فالهدف هنا ليس هو الرسول والقرآن، فإنما هما بما معهما من وسائل زاد للسالك إلى الصراط المستقيم: إسلام التوحيد وتوحيد الإسلام، كما والصورة الإنسانية هي الظرف والراحلة، ولكلّ درجات حسب درجات السالكين.

فالرسول الهادي إلى صراط مستقيم، وهو على صراط مستقيم، ليس

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٢.
(٣) سورة الأنعام، الآيتان: ١٢٥، ١٢٦.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٦١.

ليتطلّب لنفسه ما هو عليه ويهدي إليه، وإنّما صراطاً مستقيماً أعلى لنفسه، كما الاستمرار على صراطه المستقيم، ثم وصراطاً مستقيماً يهدي إليه لمن دونه، فهو - إذاً - في مثلث الدعاء لمثلث الصراط له ولآخرين، وقد يجمعها ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾(١) في بعدي التثبيت والاستزادة، وكما يروى أنه «استرشاد لدينه واعتصام بحبله واستزادة في المعرفة لربه عز وجل وكبريائه وعظمته»(٢) و«أدم لنا توفيقك الذي به أطعناك فيما مضى من أيامنا حتى نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا.. وهو ما قصر عن العلو وارتفع عن التقصير فاستقام فلم يعدل إلى شيء من الباطل»(٣) و«أرشدنا للزوم الطريق المؤدي إلى محبتك والمبلغ دينك والمانع من أن نتبع أهواءنا فنعطب أو نأخذ بآرائنا فنهلك»(٤).

كل ذلك يعنيها الرسول في ﴿ٱهْدِنَا﴾ لغيره تحصيلاً لما قصروا عنه وتثبيتاً لما حصلوا عليه، ولنفسه تداوماً لعصمته وتكاملاً لمعرفته.

ونحن أيضاً مع الرسول نتطلب لأنفسنا وله ولمن دوننا من هذه السبعة من الصورة الإنسانية - العبودية - الإيمان الاعتصام بالله - كتاب الله - رسول الله ﷺ الإسلام لله وتوحيد الله، سبعة في قلب السبع المثاني يجمعها ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ولكلٍّ درجات، كما لكلٍّ أهل، فلا يستغني عنها ككلّ أيٌّ من العالمين وحتى أول العابدين، حيث يطلب لنفسه استدامة ما هو عليه واستكماله، ولآخرين ما ينقصهم من درجات الصراط المستقيم.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨.
(٢) تفسير البرهان ١: ٥١ عن ابن بابويه في الفقيه عن الإمام الصادق عليه السلام.
(٣) المصدر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.
(٤) المصدر عن الإمام الرضا عليه السلام.

وإن كانت هذه السبع بين درجات ثلاث من أصل الصراط المستقيم، كالعبودية الخالصة لله، والإسلام له والتوحيد الخالص، والمعرفة به ومن الذرايع إليه، وهي إلى الصراط المستقيم، كالإيمان والاعتصام بالله وعبوديته على ضوء القرآن بنبي القرآن، ومن الظرف الصالح له كالصورة الإنسانية، فإنها راحلة للسالك، فكيف تطرق الطريق دون أيّة راحلة صالحة، والعبودية وسيلة هي أحرى منها غاية، حيث الغاية هي الزلفى والمعرفة، ولكن العبودية هي لزامها على طول الخط، فكلما ازدادت العبودية ازدادت المعرفة وكلما ازدادت المعرفة ازدادت العبودية.

فإسلام التوحيد وتوحيد الإسلام بمعرفة وعبودية قمة هي الغاية المقصودة، وغيرها بين ظرف ووسيلة.

فالإسلام التام هو العبودية التامة، والتوحيد التام هو المعرفة التامة.

فـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ يمثّل الأولى الغاية، و﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ الثانية الوسيلة، والعبد يمثّل الظرف: الثالثة، بالفطرة والعقلية السليمة حيث تتقبل هذه وتلك.

ولأن النص هنا ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ فقد يشمل مثلث الصراط بمسبّعه، به وإليه وإياه، فأكمل بها دعاءً وأجمِل.

ثم فاعتراف الجمع في «نعبد ونستعين» والدعاء للجمع في ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ ذلك الجمع المثلث هو قاعدة الإيمان الجماعي التي تمثّل جامعية الإسلام واجتماعيته، حتى وفي صلاته حيث تضم ضمن الصلاة لله صلات بعباد الله:

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾:

والنّعمة - كسراً - هي الحالة الحسنة حسية وروحية، تأتي في سائر القرآن (٣٤) مرة وهي فتحاً - حالة رديئة تقليباً لنعمة الله كفراً ونعمة:

﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾[(١)] ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾[(٢)].

وهل تصح «سراط مَن أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين»؟ كما قرىء في الشواذ[(٣)] قطعاً لا، لمخالفتها النص المتواتر في القرآن مهما اتحد المعنى أو صح اللفظ وهو لا يصح.

فلأن الصراط قد يكون مستقيماً بين نقطتي العبودية والربوبية، أم غير مستقيم يفرّق بالسالك عن سبيل الله أو يحرّجه، أم هو بين نقطة العبودية والشيطنة وهو صراط الجحيم، لذلك يعرَّف هنا بإثبات وسلبين، فالإثبات يتكفّل لاستقامته، والسلب الأوَّل لما يقابله من صراط الشيطان، والثاني هو العوان بينهما قضيةَ الضلال فلا إلى الحق عارفاً ولا إلى الضلال عامداً، مذبذباً بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هولاء!

فإنما المستدعاة هنا هي صراط المنعم عليهم، دون المغضوب عليهم الذين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[(٤)] يعرفون الحق ثم يحيدون عنه كأنهم لا يعرفون، أو يعرفونه باطلاً، ودون الذين ضلوا عن الحق قاصرين أو مقصرين فلم يهتدوا إليه.

ولأن الهدى هي الروحية، والصراط الحق المستقيم هنا هو الموصل

---

(١) سورة الدخان، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٢) سورة المزمل، الآية: ١١.

(٣) في الدر المنثور: ١٥ بسند عن عمر بن الخطاب أن كان يقرأ: «سراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين» وعن عبد الله بن الزبير مثله إلّا في «سراط» وكما عن عكرمة والأسود مثله وفي نور الثقلين ١: ٢٤ ج ١٠٦ تفسير القمي حدثني أبي عن حماد عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قرأ «صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين» قال: المغضوب عليهم النصاب والضالين اليهود والنصارى، وعنه عن ابن أبي عمير عن ابن أذينة عن أبي عبد الله عليه السلام «غير المغضوب عليهم وغير الضالين».

(٤) سورة النمل، الآية: ١٤.

إلى حقها وحاقّها، وأن نعم الدنيا تعم المغضوب عليهم والضالين، إذاً فـ ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ تعني النعمة القمّة الروحية، ولأنها لم تقيّد هنا بقسم دون آخر، فهي مطلق النعم السابغة الروحية.

من الصورة الإنسانية جسراً إلى كلِّ نعمة، والايمان والاعتصام بالله في صحبة العبودية الصالحة، والإسلام لله وتوحيده على ضوء كتاب الشّرعة وسنة رسولها وأفضل النماذج السابقة السابغة للمنعم عليهم - على مختلف درجاتهم - هم: النبيون والصديقون والشهداء والصالحون: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا... وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾(١).

هنا نجد القمّة العليا بين المنعم عليهم وهو الرسول محمد ﷺ فمن يطع الله والرسول فأولئك مع هؤلاء المنعم عليهم في تلك الطاعة مهما اختلفت المرتبة وكما هم درجات، النبيون أعلاهم والصالحون أدناهم، والصديقون والشهداء أوسطهم، وهم كلهم برفاقهم المطيعين لله والرسول، عائشون تحت ظل ظليل من هذا الرسول العظيم، وهو على عظمه وصراطه القمّة المقتدى به يتطلّب في صلواته ليل نهار ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾!

وكيف لا يكون هو صراطاً ومطاعاً للمنعم عليهم طول الزمان وعرض المكان وقد كانت نبواتهم وكتاباتهم مشروطة بالإيمان به ونصرته، فهو أوّلهم

(١) سورة النساء، الآيات: ٦٥ - ٧٠.

ميثاقاً وخاتمهم مبعثاً: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[(١)].

ونرى في سرد حكيم في الذكر الحكيم للأولين من مربع المنعم عليهم، عديداً من النبيين: كزكريا - يحيى - عيسى - إبراهيم - إسحاق - يعقوب - موسى - إسماعيل وإدريس: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ۝٥٨﴾[(٢)].

وعلّ ممن هدينا واجتبينا من لم يذكروا من النبيين، وكذلك الصديقين والشهداء والصالحين.

ثم النّعمة للأولين وأضرابهم من المعصومين كالصديقين، هي نعمة العصمة على درجاتها، فإنهم كانوا على صراط مستقيم، هادين إلى صراط مستقيم.

والمعيّة المعنيّة هنا لمن يطع الله والرسول هي المعية في أصل الصراط، لا سيّما وأن الصراط المستقيم إلى الله واحد، مهما كان الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق والصراط المستقيم - على أية حال - هو سلالة ما تستهدفه رسالات الله وكتاباته يحمله رسل الله، كائنين عليه دالين إليه، فلولا الرسول لم يكن قرآن ولا إسلام التوحيد وتوحيد الإسلام، ولا صورة إنسانية جادّة، ولا اعتصام تامّ بالله، ولا عبودية صالحة.

إذاً فالرسول يمثّل الصراط المستقيم، كما أن صنوه، ومثيله الذي صنعه

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.
(٢) سورة مريم، الآيات: ٥٦ - ٥٨.

على مثاله، وبنيه المعصومين من بعده، هم الصراط المستقيم بعده كما في متظافر الروايات.

فطالما النبيون ومن ثمّ الصديقون هم على صراط مستقيم، إلّا أن لكلّ درجات ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[1] فالأمة الإسلامية تتطلّب الهدي إلى صراط الصديقين، وهم طالبون صراط محمد خاتم النبيين ﷺ، وكما سائر النبيين يطلبون صراطه ويؤمنون به قبل ابتعاثه، فكلٌّ إلى ذاك الجمال يشير.

لذلك نرى أن الصراط المطلوب لنا في صلواتنا هو «صراط محمد وآله»[2] كما يرويه الفريقان، أم «صراط علي»[3] كمصداق ثان لذلك الصراط، كما سائر مصاديقه هم أهل بيت الرسالة المحمدية عليهم السلام[4] كما

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٧٦.

(٢ - ٤) أخرج الثعلبي في الكشف والبيان في الآية قال مسلم بن حيان سمعت أبا بريدة يقول: صراط محمد وآله، وفي تفسير وكيع بن جراح عن سفيان الثوري عن السدي عن أسباط ومجاهد عن عبد الله بن عباس في الآية قال: قولوا معاشر العباد: أرشدنا إلى حب محمد وأهل بيته، وأخرج الحموي في فرائد السمطين بإسناده عن أصبغ بن نباتة عن علي عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٤] قال: الصراط ولايتنا أهل البيت، وأخرج ابن عدي والديلمي في الصواعق ص ١١١ عن رسول الله ﷺ قال: أثبتكم على الصراط أشدكم حباً لأهل بيتي، وأخرج شيخ الإسلام الحموي بإسناده في فرائد السمطين في حديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: نحن خيرة بالله ونحن الطريق الواضح والصراط المستقيم إلى الله وأخرج أبو سعيد في شرف النبوة عن رسول الله ﷺ قال: أنا وأهل بيتي شجرة في الجنة وأغصانها في الدنيا فمن تمسك بنا اتخذ إلى ربه سبيلاً (ذخائر العقبى ص ١٦) وأخرجه مثله الحافظ الحسكاني في شواهد التنزيل (١: ٥٧) بسند متصل عن أبي بريدة وبسند آخر عن ابن عباس وثالث عنه قال قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: أنت الطريق الواضح وأنت الصراط المستقيم وأنت يعسوب الدين، وبسند رابع عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: إن الله جعل علياً وزوجته وأبناءه حجج الله على خلقه وهم أبواب العلم في أمتي من اهتدى بهم هدي إلى صراط مستقيم.

ومن طريق أهل البيت في عيون الأخبار ص ٣٥ - ٣٦ بإسناده عن سيد العابدين علي بن الحسين عليه السلام قال: ليس بين الله وبين حجته حجاب ولا لله دون حجته ستر نحن أبواب الله =

وأن صراطهم هو صراط محمد ﷺ والذي يستهديه محمد نفسه لنفسه هو صراط فوقه والتثبيت على ما هو عليه، ولمن سواه - بطبيعة الحال - دونه فـ ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾(١) فـ ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾(٢) و﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾(٣):

و﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ ۝٧﴾:

هم كل من غضب الله عليه دون جماعة خصوص، وتفسيرهم باليهود(٤)

= ونحن الصراط المستقيم ونحن عيبة علمه ونحن تراجمة وحيه ونحن أركان توحيده ونحن موضع سره.

وفيه عن جعفر بن محمد عليه السلام في ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ يعني محمداً وذريته.

وفي أمالي الصدوق (ص ١٧٣) عن النبي ﷺ من سرّه أن يجوز على الصراط كالريح العاصف ويلج الجنة بغير حساب فليتولّ وليي ووصيي وصاحبي وخليفتي على أمتي علي بن أبي طالب، ومن سرّه أن يلج النار فليترك ولايته فوعزة ربي جل جلاله أنه الباب الذي لا يؤتى إلّا منه وأنه الصراط المستقيم وأنه الذي يسأل الله عن ولايته يوم القيامة، وأخرج ابن شهر آشوب في المناقب ج ٣: ٧٢ عن إبراهيم الثقفي بإسناده عن أبي برزة الأسلمي قال قال رسول الله ﷺ في الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام: ١٥٣] سألت الله أن يجعلها لعلي ففعل، ورواه مثله المجلسي في البحار ج ٣٥: ٣٦٤ والسيد البحراني في غاية المرام ج ١: ٢٤٧ عن الروضة لابن الفارسي، وروى محمد بن الحسن الصفار بإسناده عن أبي حمزة الثمالي في الآية قال: هو والله علي هو والله الميزان والصراط (غاية المرام ج ١: ٢٤٦).

وعن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ بينما أصحابه عنده إذ قال - وأشار بيده إلى علي - هذا صراط مستقيم فاتبعوه (ج ٢: ٤٣٥) وعن سعد عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: آل محمد الصراط الذي دل عليه (تفسير العياشي (ج ١: ٣٨٤) وإلى عشرات من هذه الأحاديث أخرجها الفريقان عن النبي ﷺ وعن أهل بيته المعصومين عليهم السلام.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٣٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٨٣.

(٤) كما عن النبي ﷺ في روايات عدة أخرجها عبد الرزاق وأحمد وابن مردويه في مسنده والبيهقي في الشعب وعبد بن حميد وابن جرير والبغوي في معجم الصحابة وابن المنذر =

تفسير مصداقي كأصدق مصاديقهم وأنحسهم فإنهم منهم وليسوا كلّهم، فمن اليهود من لم يغضب عليهم مهما لم يكونوا مسلمين كالمستسلمين للحق مهما كانوا من الضالين أو المقصرين فيه غير معاندين ولا مكذبين، كما ومن غير اليهود مغضوب عليهم وإن كانوا من المسلمين إذ ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[1].

فذكر اليهود كأنهم هم المغضوب عليهم دون سواهم ليس إلّا لأنّهم كمجموعة - لا ككل - هم أنحس حماقى الطغيان طول التاريخ الرسالي والرسولي[2].

فمن المغضوب عليهم ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ

= وأبو الشيخ عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ هم اليهود.
كما وأخرجه سفيان بن عيينة في تفسيره وسعيد بن منصور عن إسماعيل بن أبي خالد عنه ﷺ وأخرجه أحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسن وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه عن عدي بن حاتم عنه ﷺ وأخرجه أحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم وصححه والطبراني عن الشريد عنه ﷺ (الدر المنثور ١ : ١٦).

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٣.

(٢) في نور الثقلين: ١ : ٢٤ ح ١٠٦ - القمي حدثني أبي عن حماد عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال... المغضوب عليهم النصاب والضالين اليهود والنصارى وعنه عن ابن أبي عمير عن ابن أذينة عنه عليه السلام قال... المغضوب عليهم النصاب والضالين الشكاك الذين لا يعرفون الإمام وفي الفقيه فيما ذكره الفضل من العلل عن الرضا عليه السلام أنه قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ استعاذة من أن يكون من المعاندين الكافرين المستخفين به وبأمره ونهيه «والضالين» اعتصام من أن يكون من الذين ضلوا عن سبيله من غير معرفة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

وفي احتجاج الطبرسي وروينا بالإسناد المقدم ذكرها عن أبي الحسن العسكري عليه السلام أن أبا الحسن الرضا عليه السلام قال: إن من تجاوز بأمير المؤمنين عليه السلام العبودية فهو من المغضوب عليهم ومن الضالين.

وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾[(١)].

ومنهم الذين يحاجون في الله بعد كمال الحجة واتضاح المهجة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾[(٢)].

والمكذبون بآيات الله: ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم...﴾[(٣)].

والطاغون في رزق الله: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾[(٤)] هذا، فبأحرى الطغاة على الله!

والمولّون أدبارهم في الجهاد: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[(٥)].

والقاتلون المؤمنين متعمدين: لإيمانهم: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾[(٦)].

وهكذا نرى أن المغضوب عليهم - على مختلف دركاتهم - هم الذين شرحوا بالكفر صدراً، أم طغوا في رزق الله أم على الله، أم كذبوا بآيات

(١) سورة النحل، الآيات: ١٠٦ - ١٠٩.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٧١.
(٤) سورة طه، الآية: ٨١.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ١٦.
(٦) سورة النساء، الآية: ٩٣.

الله، أم حاجوا في الله من أية طائفة كانوا ملحدين أو مشركين أم كتابيين، هوداً أو نصارى أم مسلمين، مهما اختلفت دركات الغضب عليهم كما المغضوب عليهم جزاءً وفاقاً.

ولكي لا، يغتر غير اليهود بالأماني الكاذبة، يأتي الأمان العام لمن آمن وعمل صالحاً من الذين هادوا كسواهم، بعد ضرب الذلة عليهم والمسكنة والغضب من الله معللاً بما علّل. ﴿. . . وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾[1].

وكما نرى في أخرى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[2].

إذ تأتي تلوها دون فصل آية والأمان لأهل الايمان: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾[3].

أجل إنهم ليسوا سواء لأنهم يهود أم أهل كتاب غير مسلمين لكي يغضب عليهم أجمعين، فإنما الغضب مربوط برباط التخلف عن شرعة الله.

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٦١، ٦٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٢.
(٣) سورة آل عمران، الآيات: ١١٣ - ١١٥.

ولأن اليهود هم أكثر الطوائف طغياناً وتكذيباً بآيات الله، لذلك ترى آيات الغضب تتلاحق عليهم أكثر من سواهم كأنهم هم المغضوب عليهم لا سواهم.

وأمّا ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ فهم عوانٌ بين المغضوب عليهم والمهديين، ناكبين عن الصراط المستقيم، فهم - على أية حال - من الضالين، قاصرين أو مقصرين، عن الصورة الإنسانية وعن التوحيد والآخرة: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾[1] عن صراط العبودية التي هي الصورة الإنسانية الكاملة، التي يجمعها صراط توحيد الإسلام وإسلام التوحيد والاعتصام بالله على ضوء قرآن محمد ومحمد القرآن.

وبصيغة مختصرة كلّ من ضّل عن الصراط المستقيم فهو من الضالين: من مستضعف قاصر لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾[2].

ومن مستضعف مقصر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[3].

ومن مستكبر معاند للحق وهو من رؤوس الضلالة ضالاً مضلاً ناكباً منكباً عن الصراط وهو من المغضوب عليهم ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾[4].

(١) سورة المؤمنون، الآية ٧٤.
(٢) سورة النساء، الآية: ٩٨، ٩٩.
(٣) سورة النساء، الآية: ٩٧.
(٤) سورة الواقعة، الآيات: ٩٢ - ٩٤.

ومختلف دركات الضلال موزّعة بين فرق النصارى لحدٍّ لا مثيل لهم في سائر الطوائف، ولذلك يفسّر بهم ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ في الحديث كأضل الضالين.

و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ يهيمن على المغضوب عليهم حيث تشملهم وسواهم، وقد يشمل سائر السبل الملتوية وإن كانت موصلة إلى الله.

ولكن الصراط المستقيم هو أسلم السبل إلى الله مهما كان درجات، فكل درجة أدنى ضلال بالنسبة للأعلى حال أنها سبيل إلى الله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[(١)].

ولكنما الضلال قصوراً أو تقصيراً هو المقصود من ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ حيث الضال الذي يتحرّى الصراط، وهو في سبيله إلى الصراط، ضلاله ضلال قدسي كما الشك المقدس وهو في سبيله إلى اليقين، والإسلام في سبيله إلى الايمان، فإنه ليس نفاقاً ولا إيماناً، بل هو إسلام إلى إيمان: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[(٢)].

وأما الضال الذي يرى نفسه على هدىً بقصور أو تقصير، فهو في الحق ضال لا يرجى هداه.

فلأن الداعي في صلاته - في الأكثرية الساحقة - ليس على صراط مستقيم، فهو ضال عنه، ولكنه سالك إليه متحرٍّ عنه، فلا يسمّى ضالاً قسيماً للمغضوب عليهم مهما كان ضالاً بقياسه بمن هو على صراط مستقيم.

فالسالكون إذاً أربعة: ١ - مؤمن ليس على صراط مستقيم وهو في سبيله، ٢ - من هو على صراط مستقيم. ٣ - المغضوب عليهم غير المؤمنين ولا المتحرين عن إيمان بل معاندين له ومتعنتين عليه. ٤ - الضالون الذين ضلوا الصراط والسبيل إلى الصراط، فهم عن الصراط لناكبون.

---

(١) سورة الضحى، الآية: ٧.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

فالأوّلان هما من المصلين المهتدين، والآخران من الناكبين عالمين أو جاهلين.

فالمؤمنون الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم، هم في سبل السلام آمنون، سالكون إلى الصراط المستقيم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(١) مهما اختلج لهم شرك خفي أم ظلم عملي، فـ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾(٢).

عود على بدء في السبع المثاني:

لقد شملت البسملة على ثلاثة من أسماء الله هي أهمها كلها، وشملت السبع المثاني - ككل - على خمسة هي أصول أسمائه الدالة على المبدأ والمعاد وما بين المبدأ والمعاد، فلو كان لله اسم أفضل من هذه لذكرها في أم القرآن.

ثم هي على ترتيب الأهمية: ﴿ٱللَّهِ - ٱلرَّحْمَـٰنِ - ٱلرَّحِيمِ - رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ - مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

فقارئ الحمد قارئٌ للقرآن العظيم وكما يروى عن الإمام الرضا عليه السلام.

قال: فلِمَ أمروا بالقراءة في الصلاة؟ قيل: لئلا يكون القرآن مهجوراً مضيّعاً مدروساً فلا يضمحل ولا يجهل.

فإن قال: فلِمَ بدئ بالحمد في كلِّ قراءة دون سائر السور؟ قيل: لأنه ليس شيء من القرآن والكلام جمع فيه من جوامع الخير والحكمة ما جمع في سورة الحمد.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.
(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

وذلك أن قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ إنما هو أداء لما أوجب الله تعالى على خلقه من الشكر، وشكر لما وفق عبده للخير.

﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تمجيد له وتحميد وإقرار بأنه هو الخالق المالك لا غيره.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ استعطاف وذكر لآلائه ونعمائه على جميع خلقه.

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ إقرار بالبعث والحساب والمجازاة، وإيجاب له ملك الآخرة كما أوجب الله له ملك الدنيا.

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ رغبة وتقرب إلى الله عز وجل وإخلاص بالعمل له دون غيره.

﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ استزادة من توفيقه وعبادته واستدامة لما أنعم عليه ونصره.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ استرشاد به واعتصام بحبله واستزادة في المعرفة بربه وبعظمته وبكبريائه.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ توكيد في القول والرغبة، وذكر لما قد تقدم من نعمة على أوليائه، ورغبة في مثل تلك النعم.

﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ استعاذة من أن يكون من المعاندين الكافرين المستخفين به وبأمره ونهيه.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ اعتصام من أن يكون من الضالين الذين ضلوا عن سبيله من غير معرفة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

فقد اجتمع فيه من جوامع الخير والحكمة في الآخرة والدنيا ما لا يجمعه شيء من الأشياء(١).

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام وعلل الشرائع بإسناده عن الفضل بن شاذان عن الرضا عليه السلام.

ثم إلى حديث سلسلة الذهب القدسي حول تفسير السبع المثاني يرويه الإمام الحسن العسكري عليه السلام عن أبيه علي بن محمد عليه السلام عن محمد بن علي عليه السلام عن علي بن موسى عليه السلام عن موسى بن جعفر عليه السلام عن جعفر بن محمد عليه السلام عن محمد بن علي عليه السلام عن علي بن الحسين عليه السلام عن الحسين ابن علي عليه السلام عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال الله عز وجل: قسّمت فاتحة الكتاب بيني وبين عبدي فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل، إذا قال العبد ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله جل جلاله: بدأ عبدي باسمي وحقٌّ عليَّ أن أتمّم له أموره وأبارك له في أحواله - فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الله جل جلاله: حمدني عبدي وعلم أن النعم التي له من عندي وأن البلايا التي دفعت عنه فبطولي، أشهدكم أني أضيف له إلى نعم الدنيا نعم الآخرة وأدفع عنه بلايا الآخرة كما دفعت عنه بلايا الدنيا، فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله جلّ جلاله: شهد لي عبدي أني الرحمن الرحيم، أشهدكم لأوفّرن من نعمتي حظه ولأُجزلنّ من عطائي نصيبه، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال الله جلّ جلاله: أشهدكم كما أعترف أني أنا مالك يوم الدين لأُسهلن يوم الحساب حسابه ولأتجاوزن عن سيئاته فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قال الله عزّ وجلّ: صدق عبدي، إياي يعبد، أشهدكم لأُثيبنّه على عبادته ثواباً يغبطه كلّ من خالفه في عبادته لي، فإذا قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال الله عزّ وجلّ: بي استعان عبدي والتجأ إلي أشهدكم لأُعيننّه في شدائده ولآخذن بيده يوم نوائبه، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾... قال الله عزّ وجلّ: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل، فقد استجبت لعبدي وأعطيته ما أمّل، وآمنته مما منه وجل[1].

(١) رواه شيخ الطائفة الطوسي في أماليه والشيخ الأجل الصدوق في عيونه عن محمد بن القاسم المفسر الأسترآبادي قال: حدثنا يوسف بن محمد بن زياد وعلي بن محمد بن سيار عن أبويهما عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام عن...

إذاً فالسبع المثاني صورة مجملة وضّاءة عن سيرة الله وسيرة العبد تجاه الله تجمع من جوامع القرآن العظيم محكمات، مما يتوجب على العباد معرفياً وعملياً وجاه رب العالمين، لمّاعة لمّاحة إلى مثلث الأصول الدينية: المبأ، والمعاد، وما بين المبدأ والمعاد من نبوّات وتشريعات.

وفي قِرانٍ بين ما نقوله نحن المسلمين في صلواتنا وما يقوله المسيحيون نرى قراناً بين النور والنار، بين أدب بارع وسوء هارع.

ففي إنجيل متّى الفصل ٦ الآيات ٩ - ١٣ فصلوا أنتم هكذا: ونحن نصلي هكذا:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾	أبانا الذي في السماوات
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾	ليتقدس اسمك (٩)
ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾	ليأت ملكوتك. لتكن مشيئتك
مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾	كما في السماء كذلك على الأرض(١٠)
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾	خبزنا كفافنا أعطنا اليوم (١١)
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾	واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن
صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ	أيضاً للمذنبين إلينا (١٢)
عَلَيْهِمْ ﴿٧﴾	ولا تدخلنا في تجربة لكن نجنا
غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ	من الشرير لأنّ لك الملك
وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾	والقوة والمجد إلى الأبد آمين (١٣)

فهل الله تعالى «أباهم»؟ وأصل النص المتواتر في الإنجيل «الآب»: الخالق حسب اليوناني!

ثم أهو فقط «فِي السَّماواتِ» والأرض خلو منه؟ غلطتان في آية منها واحدة!

ثم من الموعود في «لتكن مشيئتك. . »؟ وهل هذه المشيئة حتى الآن ما أتت الأرض، فماذا يقول المسيح عليه السلام إذاً في الأرض، أليس ليحقق مشيئة الله في شرعته لأهل الأرض؟ ثم من هذا الذي ينزل مشيئة الله إلى الأرض!. غلطات تلو بعض، ظلمات بعضها فوق بعض!!!

والصلاة حسب الإنجيل لا يؤتى بها إلّا لله تعالى (مت ٤: ١٠ - مقابل تث ٦: ١٣ و١٠: ٢٠) ففي الأول «لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد» وهذه من الآيات الإنجيلية النادرة في فرض السجود، ولكن «تث» لا تذكر إلّا فرض الصلاة.

والأوقات المقررة حسب الكتاب المقدس للصلاة ثلاثة، ففي «مز ٥٥: ١٦ - ١٧ ودا ٦: ١٠)» أمّا أنا فإلى الله أصرخ والرب يخلّصني مساء وصباحاً وظهراً أشكو وأنوح، فيسمع صوتي - وفي «دا» فلما علم دانيال. . فجثا على ركبتيه ثلاث مرات في اليوم وصلى وحمد قدام آلهة كما كان يفعل قبل ذلك.

مسألة فقهية حول الحمد:

وهل تجوز ترجمة الحمد في الصلاة؟ أقوال[1] أقواها عدم الجواز إلّا لمن لا يتمكن من قراءتها عربية ولا الاقتداء بمن يقرأها ولا متابعته في قراءتها، فما لا يدرك كله لا يترك كله، فإن ترجمة الحمد غير الحمد وقد أمرنا بقراءة الحمد في الصلاة وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: صلوا كما رأيتموني

(١) قال الشافعي إنها لا تجوز إطلاقاً وقال أبو حنيفة تجوز إطلاقاً وقال أبو يوسف ومحمد بما قلناه.

أصلي ولو جازت الترجمة لقرأها أحياناً تدليلاً على الجواز[(١)].

وهل تجب القراءة على المقتدي؟ الحق عدم وجوبها حيث الإمام يتحملها عنه حسب متواتر الحديث، مهما جازت في الإخفاتية، وفي الجهرية إذا لم يسمع صوت الإمام بل هي أحوط، وإذا سمع حرمت لوجوب الاستماع كما قال الله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[(٢)] ومن أصدق مصاديقه قراءة الحمد والسورة في الصلاة.

وهل تجوز قراءة الحمد والسورة التي بعدها في الصلاة من المصحف؟ الظاهر هو الجواز لا سيّما لمن لا يحفظها أو يلحن فيها، والمتعارضتان في الجواز وعدمه متساقطتان لولا ترجيح رواية الجواز، فالأصل هو الجواز[(٣)].

وهل يجوز التأمين بعد ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أم لا يجوز، وعلى الحرمة هل تبطل به الصلاة أم لا تبطل؟ أقوال[(٤)]: أقواها البطلان.

---

(١) وهو إجماع تحقق عندنا ومصرح به في كلام جماعة حد الاستفاضة كالناصريات والخلاف والذكرى.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

(٣) جامع أحاديث الشيعة ج ٥ ص ١٨٧ بإسناده عن الحسن بن زياد الصيقل قال قلت لأبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ ما تقول في الرجل يصلي وهو ينظر في المصحف يقرأ فيه يضع السراج قريباً منه؟ فقال: لا بأس بذلك، وتعارضها رواية قرب الأسناد بإسناده عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر قال سألته عن الرجل والمرأة يضع المصحف أمامه ينظر فيه ويقرأ ويصلي؟ قال: لا يعتد بتلك الصلاة.

(٤) في الخلاف ١: ١٠٤ قول آمين يقطع الصلاة سواء كان ذلك سراً أو جهراً في آخر الحمد أو قبلها للإمام والمأموم وعلى كل حال - وقال أبو حامد الأسفراييني إن سبق الإمام المأمومين بقراءة الحمد لم يجز أن يقولوا آمين فإن قالوا ذلك استأنفوا قراءة الحمد وبه قال بعض أصحاب الشافعي، وقال الطبري وغيره من أصحاب الشافعي لا يبطل ذلك قراءة الحمد ويبني على قراءته -.

فأما قوله عقيب الحمد فقال الشافعي وأصحابه: يستحب للإمام إذا فرغ من فاتحة الكتاب أن يقول آمين ويجهر به وإليه ذهب عطاء وبه قال أحمد وإسحاق وأبو بكر محمد بن إسحاق بن=

فيما يرويه إخواننا عن الرسول ﷺ متظافراً الأمر به فرضاً أو ندباً[١] وفيما يرويه أصحابنا عن عترته الطاهرة عليهم السلام النهي عنه[٢] إلّا شاذاً، وقضية

= خزيمة وأبو بكر بن المنذر وداود - وقال أبو حنيفة وسفيان: يقول الإمام ويخفيه، وعن مالك روايتان إحداهما مثل أبي حنيفة والثانية لا يقول آمين أصلاً -.

وأما المأموم فإن الشافعي قال في الجديد يسمع نفسه وقال في القديم يجهر به واختلف أصحابه فمنهم من قال المسألة على قولين ومنهم من قال: إذا كانت الصفوف قليلة متقاربة يسمعون قول الإمام يستحب الإخفاء وإذا كانت الصفوف كثيرة ويخفى على كثير منهم قول الإمام يستحب لهم الجهر ليسمعوا من خلفه وقال أحمد وإسحاق وأبو ثور وعطاء يستحب لهم الجهر وقال أبو حنيفة وسفيان الثوري لا يستحب لهم الجهر بذلك.

دليلنا إجماع الفرقة فإنهم لا يختلفون في أن ذلك يبطل الصلاة وأيضاً فلا خلاف أنه إذا لم يقل ذلك أن صلاته صحيحة ماضيةٌ وروي عن النبي ﷺ أنه قال: إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الآدميين وقول آمين من كلام الآدميين.

(١) في الدر المنثور ١: ١٧ - أخرج قراءة آمين عن رسول الله ﷺ عن جماعة عن: أبي ميسرة ووائل بن حجر الحضرمي وعلي عليه السلام وأبي موسى الاشعري وأبي هريرة وعائشة وابن عباس ومعاذ بن جبل وأنس عن رسول الله ﷺ كلمة واحدة قراءة آمين أو الأمر بها.

(٢) في جامع أحاديث الشيعة ٥: ١١٢ باب عدم جواز التأمين عن محمد الحلبي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام أقول إذا فرغت من فاتحة الكتاب آمين؟ قال: لا ومثله في حسنة جميل عنه عليه السلام وتعارضها صحيحته سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الناس في الصلاة جماعة حتى تقرأ فاتحة الكتاب آمين؟ قال: ما أحسنها وأخفض الصوت بها وعن معاوية بن وهب قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام أقول آمين إذا قال الإمام غير المغضوب عليهم ولا الضالين؟ قال: هم اليهود والنصارى ولم يجب في هذا، والجعفريات بإسناده عن علي عليه السلام قال رسول الله ﷺ: لا تزال أمتي على شريعة من دينها حسنة جميلة ما لم يتخطوا القبلة بأقدامهم وما لم يصرخوا ينصرفوا قياماً كفعل أهل الكتاب وما لم تكن لهم ضجة بآمين ورواه الدعائم عن جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام أنه قال: لا تزال أمتي بخير وعلى شريعة وذكر مثله، وروى الريان عن الرضا عليه السلام عن أبي محمد العسكري عليه السلام في حديث طويل أنه عدّ الخصال التي خصّ الله تعالى بها الأئمة عليهم السلام وشيعتهم ثم ذكر أن العامة خالفهم فيها - إلى أن قال -: والإخفات في السورتين خلافاً على الجهر. وآمين بعد ولا الضالين عوضاً عن القنوت، الخبر، وفي الدعائم وروينا عنهم عليهم السلام أنهم قالوا يبتدأ بعد بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ في كل ركعة بفاتحة الكتاب... وكرهوا (حرموا) أن يقال بعد فراغ فاتحة الكتاب آمين كما تقول العامة، وقال جعفر بن محمد عليه السلام إنما كانت النصارى تقولها، وفي =

التعارض هنا هي تقديم رواية أهل البيت عليهم السلام فإنهم أحد الثقلين فالأقوى - إذاً - عدم الجواز والظاهر البطلان.

ولا عبرة بعديد الرواة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا كان يخالف نقلها أحد من أئمة أهل البيت عليهم السلام فضلاً عن إجماعهم، فإن عصمة النقل لهم تفوق كلّ رواية ودراية كما في حديث الثقلين المتواتر.

ثم الروايات المتواترة من طريق الفريقين الآمرة بقراءة الحمد في الركعتين تساند القول أن آمين ليس فيها فإنها حسب تواتر القرآن خالية عنها، إذاً فهي كلام خارج عن فرض الصلاة وندبها، فتبطل به الصلاة أم - ولأقل تقدير يحرم.

والقول أن دعاء الهداية في قلب السبع المثاني وهي قلب الصلاة، أنها خير دعاء، والتأمين بعد الدعاء من السنة فهو هنا أحرى، وقد أمرنا بالدعاء في الصلاة وهو من الدعاء بعد الدعاء، إذاً فهو - لأقل تقدير - جائز إن لم يكن ندباً.

إنه مردود إلى قائله لكونه اجتهاداً ضد النص، ولا نقبل حديثاً يروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين يكذبه عترته المعصومون عليهم السلام.

وهذه ضابطة سارية المفعول أن الروايتين المتعارضتين المرويتين عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تعرضان على كتاب الله، ثم على سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والعترة

= المستدرك أبو القاسم علي بن أحمد الكوفي في كتاب الاستغاثة في بدع الثلاثة في سياق مطاعن الثاني، أجمع أهل النقل عن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام أنهم بأجمعهم قالوا: من قال آمين فقد أفسد صلاته وعليه الإعادة لأنها عندهم كلمة سريانية معناها بالعربية افعل كسبيل من يدعو بدعاء فيقول في آخره اللهم افعل ثم استن أنصاره بروايات متخرصة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول ذلك بأعلى صوته وأنكر أهل البيت هذه الرواية وفي روايات عدة «وعلى من خلفه أن يقولوا الحمد لله رب العالمين» رواه جميل عن أبي عبد الله عليه السلام وفضيل.

هم حملة السنة حين تثبت عنهم له ﷺ رواية، سواءٌ أسندوها إلى رسول الله ﷺ أم لم يسندوها، فإنهم - على أية حال - ليسوا إلّا حملة السنة عن الرسول ﷺ لا يزيدون عليها ولا ينقصون عنها، كما الرسول ﷺ عن الله.

سُورَةُ البَقَرَة

سُورَةُ البَقَرَة

«مدنية – وآياتها مائتان وست وثمانون»

أسماء السور القرآنية التي هي أيضاً بتسمية الرسول وحياً، كترتيب السور والآيات الذي يساور التنزيل في الوحي، مما يؤيد وحي التأليف، فالقرآن المفصل وحيان وحي التنزيل ووحي التأليف، ولو أن مات الرسول ﷺ عن قرآن التنزيل مبعثرة الآيات دون تأليف، فكيف إذاً هذه التسميات، هل هي تسميات مسبقة عن السور المسميات التي ألفها أناس بعد الرسول ﷺ؟ وما هي إلّا فوضى جزاف، يستحيل معها انضباط هذه الأسماء دون خلاف واختلاف على مرِّ العصور!

فكما أن وحي التنزيل في محكم القرآن ومفصله من الله كذلك وحي الجمع والتأليف كما تدل عليه آية الجمع[(١)].

ولقد روى تسمية هذه السورة بـ«البقرة» جمٌّ غفير عن الرسول ﷺ [(٢)]

(١) هي قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة: ١٦-١٧]. . راجع ج ٢٩ ص ٢٨٠ ففيها بحث موضوعي حول جمع القرآن.

(٢) الدر المنثور ١: ١٨ – أخرجه جماعة عن الحفاظ وأرباب السنن عن أبي أمامة الباهلي ونواس بن سمعان وبريدة وابن عباس وأبو ذر الهروي ومحمد بن نصر وعبد الواحد بن أعين وابن مسعود وأبي هريرة وأبي الدرداء وعبد الله بن مفضل وأبي مسعود وسهل بن سهل الساعدي والحسن ومعقل بن ياسر والسيد بن حضير والصلصال بن الدلهمس وعروة وعائشة كل عن النبي ﷺ أنها سورة البقرة وروى أنس وأبو سعيد الخدري وربيعة الحرشي عنه ﷺ أن لا تقولوا سورة البقرة وآل عمران بل السورة التي يذكر فيها البقرة. ومن طريق أئمة أهل=

مما يؤيد أنها كغيرها ألفها الرسول ﷺ دون المؤلفين الزاعمين تأليف القرآن: ومن لطيف الترتيب تقدُّم فاتحة الكتاب كبراعة استهلال للكتاب، ثم سورة البقرة وهي أوّل ما نزلت في المدينة، تلمح لموقع الدولة الإسلامية فيها، كأنها بداية الإسلام، كما وأن تأريخ الإسلام يبتدأ بأوّل العهد المدني، وكأنما العهد المكي لم يكن من عهود الإسلام، رغم أنه جذورها الأوّلية، مهما كان نماؤها في المدينة.

= البيت رواها أبو بصير عن الصادق عليه السلام وعن علي بن الحسين عليه السلام عن رسول الله ﷺ ومعاني الأخبار إلى سفيان الثوري عن الصادق عليه السلام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾
وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْءَاخِرَةِ هُمْ
يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾
خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾:

وترى ماذا تعني أمثال هذه الحروف المقطعة المتصدرة بها البعض من سور القرآن؟

فهل هي أسماء لها؟ وليست إلّا في (٢٨) سورة، وهي أقل من ربعها فلماذا لم تسم بها ثلاثة أرباعها؟، ثم للمصدّرة بها أسماء غيرها إلّا قليلاً منها[١] (٤١) ثم الأسماء لا بدّ وأن تعرب عن مسمياتها بما تحمل من معانٍ ولا معاني معروفة لهذه الحروف إلّا عند أهلها!

٢ - أم هي تنبيهات أن آياتها البالغة ذروة معارج الإعجاز هي مركبة عنها؟ إذاً فلماذا لم تتصدر بها أوائلها نزولاً كالحمد والعلق والمزمل

(١) وهي خمس: طه - يس - ص - ق - ن، ثم الباقية الـ: ٢٣ لها أسماء غيرها.

والمدثر؟ وهي أحرى بالتنبيه لها؟ ولماذا لم تستغرق المكيّة الـ(٨٦) إلّا في ٢٥ منها دون الـ(٦١) الأخرى، ونراها في ثلاث من المدنيات الـ(٢٨) دون (٢٥) الأخرى منها، فمجموع المصدرة بها بين (١١٤) سورة ليست إلّا (٢٨)![١].

ثم وهذه لعبة إذ توضح الواضح عند أيّ سامع لها، وهي لا تستحق أن تكون آيات كسائر الآيات ثابتة في صدورها!.

ثم وهذه الحروف لا تستغرق حروف الهجاء الـ (٢٨) وإنما هي نصفها[٢] وقد تكررت مرات ومرات[٣] فليست هي إذاً - فقط - لهذه الإشارة المنبهة.

٣ - أو أنها فصول بين السور؟ وقد تحققت بالبسملات! اللهم إلّا البراءة وهي يتيمة عنها، وهي متحققة بأسمائها إلّا قليلاً منها! ثم ولا يجوز الفصل بما هو أجنبي عن القرآن!.

٤ - أو أنها للإسكات؟ فلتصدّر المكية ولا سيما أولياتها بها، وكذلك مهامّ الآيات وإن في أوساط السور دون اختصاص بأوائلها، وأن الإسكات لا يناسب حروفاً لا يفهمونها!.

---

(١) وهي ا - ل - م - ر - هـ - ي - ع - ص - ط - س - ح - ق - ن - ك - ولم تذكر ١٤ - الأخرى: ب - ت - ث - ج - خ - د - ذ - ز - ش - ض - ظ - غ - ف - و.

(٢) فالمكية الـ ٢٥ هي: ١ - الأعراف - المص - ٢ - يونس: الر: ٣ - هود: الر - ٤ - يوسف: الر - ٥ - إبراهيم: الر - ٦ - الحجر: الر - ٧ - العنكبوت: آلم - ٨ - مريم: كهيعص - ٩ - طه - و١٠ - الشعراء: طسم - ١١ - القصص: ١٢ - النمل: طس: ١٣ - الروم: آلم - ١٤ - لقمان: آلم - ١٥ - السجدة: آلم - ١٦ - يس - ١٧ - ص - ١٨ - المؤمن: حم - ١٩ - فصلت: حم - ٢٠ - الدخان: حم - ٢١ - الزخرف: حم - ٢٢ - الأحقاف: حم - ٢٣ - الجاثية: حم - ٢٤ - ق - ٢٥ - نَ -.
والمدنية الـ: ٣ هي: البقرة: آلم - آل عمران: آلم - الرعد: المر فالمجموع ٢٨.

(٣) وقد كررت آلم خمس مرات - والر: ٥ - وحم: ٦ - وطسم: ٢ - ثم في التسع الباقية مرة مرة ك: المر والمص وكهيعص وطه ويس وص وق ون وطس!

٥ - أو هي مجمل معاني السور المتصدرة بها؟ فلماذا حرمت عنها أربعة أخماسها؟ ولماذا كررت في عديد منها وحرمت عنها أكثرها!

٦ - أو هي المعاني النازلة ليلة القدر؟. فكذلك الأمر، ولماذا تحرم عنها سورة الحمد التي هي صورة باهرة عنها.

٧ - أو أنها تعني ما يعنيه حساب الأعداد؟ ولا حجة فيها إلّا خيالات إسرائيليات وكما زيفت بروايات إسلاميات![(١)].

٨ - أو هي اسم الله الأعظم مقطّعة في القرآن؟ ولا أعظم من «الله»: الأعظم الظاهر، ولا من «هو»: الأعظم الباطن! وأن المركب منها سلسلة حروف لا تؤلف اسماً عربيّاً! ثم ولا حجة تثبتها!

(١) في معاني الأخبار للصدوق بإسناده إلى محمد بن قيس قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يحدث أن حيياً وأبا ياسر ابني أخطب ونفراً من يهود أهل نجران أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: أليس فيما تذكر فيما أنزل الله عليك ﴿الٓمٓ﴾؟ قال: بلى - قالوا أتاك بها جبرئيل من عند الله؟ قال: نعم - قالوا: لقد بعث أنبياء قبلك وما نعلم نبياً منهم أخبر ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك! قال: فأقبل حيي بن أخطب على أصحابه فقال لهم: الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه إحدى وسبعون سنة، فعجب أن يدخل في دين مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟ قال: ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: يا محمد! هل مع هذا غيره؟ قال: نعم - قال: فهاته - قال: ﴿الٓمٓصٓ﴾ قال: هذه أثقل وأطول: الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون فهذه مائة وإحدى وستون سنة! ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فهل مع هذا غيره؟ قال: نعم - قال: هاته، قال صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿الٓرۚ﴾ قال: هذه أثقل وأطول: الألف واحد واللام ثلاثون والراء مائتان! ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فهل مع هذا غيره؟ قال: نعم، قال: هاته، قال صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿الٓمٓرۚ﴾ قال هذه أثقل وأطول: الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان! ثم قال: هل مع هذا غيره؟ قال: نعم، قالوا: قد التبس علينا أمرك فما ندري ما أعطيت ثم قاموا عنه، ثم قال أبو ياسر لحيي أخيه: ما يدريك لعل محمداً قد جمع له هذا كله وأكثر منه، قال: فذكر أبو جعفر عليه السلام أن هذه الآيات أنزلت فيهم ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ [آل عمران: ٧].

أقول: ما أحسن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ترتيباً لذكر هذه الحروف مترتباً متصاعداً حسب الأعداد، ولكي يحتاروا في أمره ويندحروا عما هم يزعمون أنها بحساب الأعداد في حساب أجل الأمة الإسلامية رجماً مضاعفاً بالغيب!.

٩ - أو هي أقسام أقسم الله بها؟ فلمن يقسم وهم لا يفهمونها، ولو عنى بها خصوص الرسول بما يعرف من هذه الرموز فهو لا يحتاج إلى أقسام إذ يصدّق وحي ربه دونما إقسام.

١٠ - ثم ولا يحتمل ألّا تحمل أية معاني أو فوائد فإنه لغو وكلام الله كله معاني وفوائد!

١١ - من المؤكد أن لها معاني لم توضع هي لها في أية لغة فلا يعرفها أصحاب اللغات بأسرها، فإنما هي رموز خاصة بين الله ورسوله[١] اختص الله بها رسوله بعد عموم سائر القرآن لسائر المكلفين، فهي إذاً صفوة القرآن كما عن الإمام علي عليه السلام: «إن لكلّ كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي» و«إنها مفاتيح كنوز القرآن» وإن كانت لها هامشياً بعض الفوائد المذكورة في العشرة السالفة.

فليس لغير صاحب السرّ التنقُّب عن معانيها، أو التخرُّس بالغيب فيها، اللهم إلّا ما ثبت منها عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أو الأئمة من آل الرسول عليهم السلام أو ما يعرف بالتأمل أحياناً في محالِّها بقرائِنها، كالبعض مما عني منها أن يعرفها تأنقاً وتعمقاً أهلوها، غير المتطاولين فيها ما لم يعرفوها، وقد تحمل

(١) في تفسير الفخر الرازي ٢: ٣ روي في الخبر: للعلماء سرّ وللخلفاء سرّ وللأنبياء سرّ وللملائكة سرّ ولله من بعد ذلك كله سر، فلو اطلع الجهال على سرّ العلماء لأبادوهم ولو اطلع العلماء على سرّ الخلفاء لنابذوهم ولو اطلع الخلفاء على سرّ الأنبياء لخالفوهم ولو اطلع الأنبياء على سرّ الملائكة لاتهموهم ولو اطلع الملائكة على سرّ الله تعالى لتاهوا حائرين وبادوا بائرين.
أقول: الخلفاء هنا خلفاء الأنبياء المنصوصون، ثم وكما للملائكة سرّ خاص قد لا يعرفه الأنبياء كذلك لهم سرّ لا تعرفه الملائكة، ولا سيما محمد صلى الله عليه وآله وسلم حيث لا يعرف أسراره المحمدية الخاصة غير الله إذ لا يتحملونها!.
وفيه روي أنه عليه السلام قال: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلّا العلماء بالله فإذا نطقوا به أنكره أهل الغرّة بالله».

هذه الرموز أنباءً غيبية في مثلث الزمان: ماضياً وحالاً واستقبالاً، مما يهمّ الرسول والأمة الإسلامية، أو حقائق علمية معرفية مما تختص بالرسول ﷺ وأهليه المعصومين، وقد يبرزون منها ما نستأهلها دون جميعها، فإن منهما ما لا يتحمله غيرهم وهم في ذلك درجات.

ومما يؤكد أنها تعني معاني سرية أن كلًّا منها آية فذّة في سورتها[(١)] أو آيتين[(٢)]. إلّا قلة قليلة منها هي ضمن آيتها[(٣)].

وكيف تكون آية أو بعض آية لا تعني أيَّ معنىً، إن هي إلّا قولة فارغة هُراء وكتاب الله تعالى منها براء.

وقد نتنبأ من بعضها أن هذه الحروف التلغرافية الرمزية تعم النبيين أجمع وإن لم تذكر في كتاباتهم السماوية: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣﴾[(٤)] فالمشار إليه بـ«كذلك» البعيد البعيد في محتد الوحي ليس إلّا حم عسق: كذلك: الرمز المستسر ﴿يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ وحياً خاصاً لا يعدو أصحاب الرسالات إلى المرسل إليهم!

وقد يكون بينها وبين السور المتصدرة بها ارتباطات، وإلّا لماذا اختصت هي بها دون سواها، ولماذا لم تجتمع في سورة فذة بحيالها، اللهم إلّا أن تحمل بعض ما مضى من وجوه سلفت من إسكات وتنبيهات أم ماذا؟ مما لا نتأكدها إلّا أن يؤكدها أهلوها[(٥)] ولتطلب في محالها بطيّات سورها.

---

(١) كما في ٢٤ منها.
(٢) كما في حم عسق.
(٣) كما في ست منها: يوسف - الحجر - النمل - ص - ق - ن.
(٤) سورة الشورى، الآيات: ١ - ٣.
(٥) كما في بعض أحاديثنا مثل ما رواه الصدوق بإسناده عن الإمام الحسن بن علي العسكري في حديث طويل قال فيه: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ۝٢﴾ [البقرة: ١-٢] أي: يا محمد! هذا الكتاب الذي أنزلته إليك هو الحروف المقطعة التي منها ألف ولام وميم وهو بلغتكم وحروف هجائكم فأتوا بمثله إن كنتم صادقين (البرهان ج ١: ٥٤ ح ٩).

ومهما يكن من شيء فلا تعني أهمية خاصة للمتصدرة بها إذ خلت عنها مهامّها كالحمد والإخلاص، اللّهم إلّا أن تكون هذه بآياتها تكفي معونة رموزها، فإن الحمد - مثلاً - وهي السبع المثاني: سورة هي صورة محكمة عن القرآن كله.

وقد تعني الأخبار القائلة أنها أسماء الله مقطّعة في القرآن[١] العلامات الرمزية الخاصة بالله التي يختص بها رسول الله ﷺ فهي تعني ما تعنيه الأخرى أنها رموز بين الله ورسوله، أم ماذا.

فمهما يكن من شيء فإنها من أفضل القرآن، ولها معاني «من قرأ حرفاً منها فله حسنة»[٢] والحرف لفظياً كلمة جانبية، ومعنوياً معنى جانبيّ، فإنه طرف الكلام فإن قرأت: ألف - أو - لام - أو ميم، قاصداً التي في ﴿الٓمٓ﴾ أم ماذا، فقد قرأت حرفاً لها حسنتها، كما إذا قصدتها حرفاً من غيرها في سائر القرآن كما يروى عن رسول الله ﷺ[٣] مما يدل على أن لمفردات حروف الكلمات في الآيات معانٍ كما لجملاتها، فهي إذاً تنحو منحى رموز القرآن وللبحث عنها مجالات أخرى علنا نأتي عليها.

---

(١) الدر المنثور ١ : ٢٢ عن ابن مسعود قال: الم حروف اشتقت من حروف هجاء أسماء الله، ومثله عن ابن عباس وعامر والسدي وقتادة، ولا نجده مسنداً عن رسول الله ﷺ ولا عن أئمة أهل بيته عليهم السلام فلا حجة فيه.

(٢) الدر المنثور ١ : ٢٢ - أخرج البخاري في تاريخه والترمذي وصححه وابن الضريس ومحمد ابن نصر وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو ذر الهروي في فضائله والبيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا تقول: آلم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف.

(٣) الدر المنثور ١ : ٢٢ - أخرج محمد بن نصر والبيهقي في شعب الإيمان والسنجري عن عوف ابن مالك قال قال رسول الله ﷺ: من قرأ حرفاً من القرآن كتب الله به حسنة. لا أقول بسم الله ولكن باء وسين وميم، ولا أقول: الم ولكن الألف واللام والميم.

ثم وهي تعتبر آيات[١]، إذاً فحروفها كلمات دالات على ما تعني كبرقيات رمزية بين الله وأهل الله الخصوص كالرسول ﷺ وأهليه عليهم السلام وإن كانت حرفاً واحداً ك: ن - ق - ص فضلاً عن كثراتها[٢].

وليس لنا أن نتمسك في معانيها إلّا بُعرى وثيقة من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ الثابتة اللائحة، دون ما يرويها أرباب السنن في روايات آحاد لا تغني في تفسير آيات مفصلات فضلاً عن تلكم المحكمات وهي مفاتيح كنوز القرآن وصفوة القرآن!

وكون هذه رموزاً كسائر التأويل في القرآن لا يناحر الأوامر المؤكدة للتدبر في القرآن، حيث التدبر خاص بالممكن تفهمه، دون سواه الخاص بالرسول ﷺ كبعض التأويل لآيات مفصلات، وكعامة التأويل لسائر الحروف المقطعة التي لا دلالة فيها وضعياً حتى تتحمل التدبر والتأويل، فمن القرآن ما له تأويل وتنزيل، مما يتحمل تأويلاً على ضوء التنزيل، كسائر القرآن، ومنه ما له تأويل ولا تنزيل كالحروف المقطعة، والآيات الآمرة بالتدبر تعني الميسرة: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[٣] والعربية: اللائحة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٤] ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾[٥] ولا عربية دلالة ولا إنذاراً بهذه الحروف فإنها ليست عربية ولا أعجمية ولا أية لغة موضوعة، إنما هي حروف كأسرها،

(١) ولسوف نعرف على ضوء تأملات أكثر أن لحروف القرآن وكلماتها وآياتها وسورها وأسمائها - بترتيباتها وتركيباتها ومحالّها الخاصة، لكلّ ذلك إشارات كامنة يمكن استنباطها واستبطانها لحدّ ما.

(٢) كما نرى في كتب القرآن وتؤيده روايات.

(٣) سورة القمر، الآية: ١٧.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٢.

(٥) سورة الأحقاف، الآية: ١٢.

مفردة أو مجموعة تتألف منها كافة اللغات، مهما اختلفت في شكلياتها فإنها متشابهة في مخارجها الصوتية على سواء.

فمهما كان التدبر في سائر القرآن راجحاً أو واجباً، فهو في هذه الحروف غير ممكنة إذ لا مجال فيها، اللّهم إلّا ما ثبت في تأويلها عن أهليها، أم تخرساً بالغيب أو تخرصاً: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١﴾[١]: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[٢]!

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾:

وترى لماذا ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة البعيد، وهذا الكتاب بين أيدينا قريب قريب؟ ثم وما هو ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾؟ وكيف ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وفيه مرتابون كثير؟ وكيف هو فقط ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾؟ فما بال غير المتقين يعذبون وليس القرآن لهم هدى؟!.

ذلك لأن ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة تلميحة إلى علوّ المحتد، وبعد المنزلة لربانية الكتاب ككلّ: معنوياً ولفظياً، على كونه قريباً منّا كتابة وسماعاً وتلفظاً، ثم وقريباً إن تدبرنا فيه معنوياً حسب الإمكانيات والقابليات، فهو إذاً غريب عنا، قريب منا جماع الغربة القربة، التي تستحق ﴿ذَٰلِكَ﴾ مرة أُخرى.

و﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ علّه أُم الكتاب لدى الله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[٣] فهذا الذي تفصيله بين يديك ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

أو والذي أنزل على الرسول ليلة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[٤]

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ١٠، ١١.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٤.
(٤) سورة القدر، الآية: ١.

نزولاً محكماً: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[(١)] وهذا تفصيله ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾: أو الذي أجمل في أم الكتاب «سورة الحمد» هو ذلك الكتاب لا ريب فيه.

أو الذي بشر به النبيون من قبل كما نجد في كتاباتهم، فـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ المعهود ذكره عنهم من ذي قبل ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾.

أم هو كل ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ ففيه كلّ ما أنزل من كتاب وزيادة، فهو هو كل ما كتبه الله وأوحاه إلى أنبيائه طوال الزمان الرسالي ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾... فـ ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ خبر لـ﴿ذَٰلِكَ﴾

في هذه الخمس، و﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى﴾ خبران بعد خبر[(٢)].

أو ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾: الكتاب الخماسي المعني لا ريب فيه! فـ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ مشاراً ومشاراً إليه مبتدأ: و﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ خبره، أو وصفه و﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ خبره[(٣)].

فالمعنى على الترتيب: «ذلك» أمّ الكتاب. ٢ - المنزل ليلة القدر. ٣ - النازل جملاً في سورة الحمد. ٤ - الذي بشر به من قبل. ٥ - كل الكتاب: «لا ريب في شيء من ذلك» ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ يهديهم دون ريب كما أنه لا ريب فيه. ٦ - ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾. ٧ - ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ دون ريب ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾!..

---

(١) سورة هود، الآية: ١.
(٢) هذه الوجوه تشترك في كون ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ و﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ خبره ثم ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] خبر ان بعد خبر أم وصفان.
(٣) هذا على كون ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ مبتدأ كله. فـ ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ إما خبر، و﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ وصفه أو خبره الثاني، أم حال و﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ خبره، وكل هذه صحيحة تتحملها ألفاظ الآية.

فسباعية الوجوه تعني سباعية المعنى دون تناحر واختلاف، والقرآن حمّال ذو وجوه فاحملوه إلى أحسن الوجوه، وهذه كلها حسنة يساعدها أدب اللفظ ويراعة المعنى.

وترى لماذا لم يفتتح الكتاب بـ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ وإنما بفاتحة الكتاب، فهل إنه خارج عن الكتاب؟.

الجواب: أنها السبع المثاني عدلاً للكتاب، فهي هي كتاب، والقرآن العظيم كتاب وأين كتاب من كتاب؟ من إحكام في فاتحة الكتاب، وتفصيل في سائر الكتاب، ولتكن الحمد مشاراً إليها في ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ ضمن كل مشار إليه بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾.

ثم ترى ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ كيف يشير إلى كل الكتاب ولمّا يكمل تفصيله مهما كمل محكمه، وليس محكمه - فقط - النازل على الرسول ليلة القدر - ليس هو هدى للمتقين، إنما للرسول والرسول فقط، ثم وتفصيله هدىً؟

أقول: ﴿ذَٰلِكَ﴾ نزلت حين نزلت، تعني الكتاب المفصل ما نزل منه وقتها وما لم ينزل، فإنه كله في علم الله، وهو كله هدى للمتقين بطبعه، في دوره ووقته، ثم تعني الكتاب الحاضر كله بعد تنزيله كله وتأليفه كما هو الآن، كما تعنيه ﴿ذَٰلِكَ﴾ و«القرآن» وسواهما من أسماء تعني القرآن كلّه، في القرآن كلّه.

أو أنها تعني بالفعل ما نزل قبلها من المكيات، عناية الواقع الماضي والحاضر، ومن ثم تعني ما سوف ينزل إلى آخر العهد المدني عناية المستقبل الأكيد الذي هو بمنزلة الحاضر.

وكما القرآن والكتاب كله قرآن وكتاب، كذلك بعضه، وحتى سورة قصيرة منه كالكوثر، المتحدى بها الناكرون، فلا غرو أن يكون «ذلك» إضافة

إلى ذلك - تعني البعض الحاضر منه، فإنه نور وهدى بأبعاضه كما يهدي بمجموعه!، كما وأن من «ذلك» سورة الحمد النازلة قبلها بأعوام، والنازلة قبل القرآن المفصل كله.

وللقرآن أسماء تعني مواصفاته بكيانه المتين، فإنه: كتاب - قرآن - فرقان - مبين - بيان - تبيان - برهان - عظيم - عزيز - كريم - صراط مستقيم - حكم - ذكر - موعظة - نور - روح - مبارك - نعمة - بصائر - رحمة - حق - فصل - هاد - شفاء - مهيمن - تنزيل - هدىً - قيم - بشير - نذير - حديث - فصل - نجوم - حبل - مثاني.

فالقرآن كله يحمل هذه المواصفات وسواها كلها جملة وتفصيلاً[(١)].

﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ لا في كونه تفصيل أم الكتاب وما أنزل ليلة القدر، فإنه: ﴿وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾[(٢)].

ولا في كونه كل كتاب فإنه ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[(٣)].

ولا في أنه الحمد تفصيلاً كما أن الحمد هو الكتاب اجمالاً.

ولا في أنه المبشر من قبل حيث التصادق واقع بينه وما بين يديه من كتاب: ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[(٤)] ومثالاً عليه ما في كتاب اشعياء النبي عليه السلام.

ولا في أنه كله وحي السماء حيث يشهد بآياته وبيناته: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ

(١) هذه الأسماء وسواها تجدها في آياتها حسب مناسباتها.
(٢) سورة يونس، الآية: ٣٧.
(٣) سورة يوسف، الآية: ١١١.
(٤) سورة يونس، الآية: ٣٧.

ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[(١)] ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(٢)] كذلك ويشهد به من أوتوا الكتاب: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۗ﴾[(٣)]: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ﴾[(٤)]:

ولا في كونه ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ كما هو لامح في النابهين غير المتعصبين.

فلم يقل: لا شكّ فيه، حيث الشاكون فيه كثير، وإنما ﴿لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ﴾ حيث الريب هو شك مسنود إلى حجة: أن تتوهم بالشيء أمراً فيكشف عما تتوهمه[(٥)] فالشك منه مريب ومنه غير مريب: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۗ... وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾[(٦)] ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ... وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[(٧)] مهما كانوا كاذبين في ريبتهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى... فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾[(٨)].

فقد تكون الريبة في الدعوة أو في كتاب الدعوة، ولا ريبة في كتب الله ودعاته وقد تكون في المدعوين المرسل إليهم وهم الذين: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾[(٩)].

والقرآن لا ينفي الريبة عن قلوبهم: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[(١٠)] ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[(١١)] ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾[(١٢)] ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٢) سورة السجدة، الآية: ٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.
(٥) مفردات القرآن للراغب الأصبهاني.
(٦) سورة هود، الآية: ١١٠.
(٧) سورة هود، الآية: ٦٢.
(٨) سورة هود، الآية: ٦٣.
(٩) سورة البقرة، الآية: ١٠.
(١٠) سورة المطففين، الآية: ١٤.
(١١) سورة التوبة، الآية: ٤٥.
(١٢) سورة التوبة، الآية: ١١٠.

مُّرْتَابٌ﴾[1] وإنما ينفي الريبة عن نفسه متحدياً كل مفترٍ مرتاب ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ . . .﴾[3].

فليأت من يرتاب فيه بسلطان مبين. ولا نراه منذ بزوغه حجة إلّا داحضة تبوء بالفشل والفضيحة على المفترين، فمن أين يكون فيه ريب ودلالة الصدق واليقين كامنة في مطلعه، ظاهرة في عجزهم عن الإتيان بمثله ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[4]!

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾:

القرآن هدى للناس أجمعين دلالة وبياناً: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[5] وهدى للمتقين موعظة وتبياناً: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[6]: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[7] ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[8] ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[9] ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[10].

وكما التقوى - وهي قبول الوقاية إذا وقي - درجات، كذلك الهُدى التي هي على ضوئها درجات، فمن لا يتقي، فيعاند الهدى تعنتاً ورفضاً لا تحصل له أية هدى بالقرآن، بل ولا يزيده إلّا خساراً، ومن يتقي فهو يقيه

(١) سورة غافر، الآية: ٣٤.
(٢) سورة السجدة، الآية: ٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.
(٧) سورة الكهف، الآية: ٢٩.
(٨) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(٩) سورة مريم، الآية: ٩٧.
(١٠) سورة الحاقة، الآية: ٤٨.

كما يتقي، درجات بدرجات، وكما تزيد هداه تقوى فهما تتعاملان: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[(١)].

فمن تقوى هي تقوى فطرية وفكرية، إذا وُقي صاحبها عما يناحرهما ويزيدهما وضاءة وقوة يقبلها، والقرآن يحمل ببيناته هذه الوقاية فهو إذاً هدىً للمتقين، فإن الهدى حقيقته وطبيعته، كيانه وماهيته، ولكن لمن؟ ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يفتحون مغاليق قلوبهم ويواجهونه بفطرتهم التي فطرهم الله عليها، متحذّرين استهواء الأهواء والضلالات، ومتحرّين الهدى، فعندئذ يتفتّح القرآن عن هداه يسكبها في قلبٍ ترك هواه إلى هداه.

فإذا اهتدى المتقي هكذا هُداه الأولى، ثم اتبع رضوان الله على ضوء القرآن يهديه ثانية سبل السلام: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[(٢)].

واستقبال أفعال المتقين: «يؤمنون.. يقيمون.. ينفقون. يوقنون» يلوِّح إلى عامة مراتب التقوى، ابتداءً من تقوى الفطرة قبل الإيمان بالقرآن وصالح الأعمال، وانتهاءً إلى الهدى الفعلية إيماناً بالقرآن وعملاً صالحاً للإيمان، ثم هناك مزيد للتقوى بعد هذا الإيمان وبينهما متوسطات.

فلو مضت هنا أفعال التقوى كـ«آمنوا.. أقاموا.. أنفقوا.. أيقنوا» لكانت مواصفات للتقوى الحاصلة بعد الإيمان، فليست التقوى صفة لقوم خصوص آمنوا ثم اتقوا، وإن صدقت لهم أكثر ممن سواهم.

فيا لاستمرارية أفعال التقوى من دلالة تعم درجات التقوى قبل الإيمان

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.
(٢) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.

جاهزاً له، وبعد الإيمان متدرجاً إلى درجاته: «يؤمنون.. يقيمون..» أن حالتهم قبول الإيمان وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولمّا يؤمنوا ويقيموا، إذ لم يحن حينه حيث لم تأت داعيته.

إذاً فالقرآن ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ولمّا يتقّوا عقائدياً وعملياً، لما اتقوا فطرياً وفكرياً ومن ثم هدى للمتقين بكافة درجاتهم حتى القمة الرسالية لخاتم المرسلين.

كما الهداية المستدعاة في قلب الصلاة تعم هذه الدرجات.

ثم التقوى - كما تلوح من آياتها - هي على درجاتها تعم التقوى الفردية في صلة العبد بالله، والتقوى الجماعية في صلاته بعباد الله، في كافة حقولها: العلمية - الفكرية - العقائدية - العملية - السياسية - الاقتصادية - الحربية أم ماذا من مجالاتها وجلواتها، وهي على شتاتها ترتبط بحبل واحد هو تقوى الله، فإن دين الله يضم كافة الحقول الحيوية تنظُّراً وتنضُّراً، سبكاً لها بسبائكه المكينة المتينة، ما لا قبل لها لأي نظام بشري أم ماذا؟

فالقائد السياسي في دولة الإسلام بحاجة إلى تقوى سياسية بعد ما سواها وأكثر منها، كما قائد الجيش يجب أن يكون الأتقى في الدفاع عن بيضة الإسلام، ووزير الثقافة أتقى ثقافياً، أم من ذا من المتقين في النظام الإسلامي السامي، حيث لا تختص التقوى بصلات العبادات الخاصة كالصوم والصّلاة، بل وكافة الصلات والحركات والسكنات للمسلم تشملها حقيقة التقوى، التي هي الوقاية وقبولها عما لا يحمد أولاه أو عقباه في أية مجالة من مجالات أو حالة من حالات - كما تعم وقاية الغيب والشهادة، وقاية كل حق وعن كل باطل، معنوياً ومادياً، فرديّاً وجماعياً أم ماذا.

فالمتقي من شُرَط الحق يدافع ويذود عنه ما لا يحق قدر المستطاع، فإن

استطاعها وطبّقها دون تقصير أو قصور فهي التقوى المطلقة ولا تحصل إلّا في دولة الحق خارجاً عن صراعات الباطل وقليل ما هي.

وان استطاعها على قصور في مختلف الصراعات، تاركاً للأدنى لتطبيق الأفضل الأعلى، حيث لا يسطع الجمع بينهما في مصطدمات الحياة، فهي - إذاً - التقية فليست التقية هي الخوف والترك، وإنما هي تقوى جانبيّة حفظاً للأهم في ترك المهم، مما يجعل قيام الحسين عليه السلام تقية كما قعود الحسن تقية، ويجعل قيامات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في العهد المدني، وقيامات علي عليه السلام في خلافته تقية، كما قعود الرسول في العهد المكي وقعود الإمام زمن الخلفاء تقية، حيث يترك المهم وقاية وإقامة للأهم في دين الله، قياماً كان أو قعوداً.

فالمؤمن بالله من شُرَط الله مهما اختلفت الظروف والإمكانيات، فاختلفت صور التقوى في مختلف الميادين.

والتقوى بصيغة مجملة نابعة من الغيب، غيب الفطرة والعقل والقلب، نابغة إلى غيب الحقائق: غيب الله - غيب الآخرة - غيب الوحي، فالصلاة الناتجة عن الايمان بهذه الغيوب، ثم الإنفاق في سبيل الله، وهي الخمس المذكورة هنا من صفات المتقين، ثلاث هي الغيب، واثنتان هما الشهادة الناتجة عن مثلث الغيب.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾:

فالغيب الأوّل هو مطلق الغيب الذي يجب الإيمان به، وهو يشمل غيب الألوهية الذي لزامه غيب الآخرة، اللذان لزامهما غيب الوحي: ما أنزل إلى الرسول وما أنزل من قبله، ومثلث الغيب هذا لزامه عبادة الله: الصلاة، ورعاية عيال الله: الإنفاق!

ثم الإيمان بالملائكة من فروع الإيمان بغيب الوحي، والوفاء بالعهد والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، والإتيان بالصدق والتصديق به هي كلها من نتائج الإيمان بمثلث الغيب، كما الإيمان بضلعي الوحي والآخرة مربوط بقاعدة الإيمان بغيب الألوهية!

وهذه جماع أوصاف المتقين هنا وفي سائر القرآن، التي تجمعها الخمس هنا كما يجمع الخمس أيضاً مطلق الغيب.

فالإيمان بالغيب كلما كان أعمق وأعرق يضرب إلى إيمان الشهود أوفق وأليق لحدّ يجعل حياة المؤمن حياة التقوى إذ يصبح من شُرط الحق الذائدين عنه المضحيّن في سبيله بالنفس والنفيس.

ولأن الإيمان بغيب الألوهية واليوم الآخر هما الأصل لسائر الغيوب، حتى وغيب الوحي، تراهما كحجري الأساس للتقوى، فهنا يتوسطها سائر الغيب والشهادة، وقد تترك الأوساط: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾[1].

ولأن إقام الصلاة أقوم عماد في الشهادة للإيمان بغيب الألوهية تراه يقرن به ظرفاً لتأثير الإنذار، وكأنه فقط من نتائجه: ﴿... إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[2].

ولأن اتّباع الذكر الذي يحمله وحي الرسالات والكتب هو من أهم لزامات الإيمان بغيب الألوهية، تراه قريناً له لتأثير الإنذار: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ ...﴾[3].

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٤٨، ٤٩.
(٢) سورة فاطر، الآية: ١٨.
(٣) سورة يس، الآية: ١١.

ولأن الأصل الأهم في الغيب هو غيب الألوهية لمن جاء بقلب منيب نراه مفرداً دون قرين: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾[1].

إذاً فالتقوى تنبع من الإيمان بغيب الألوهية، ثم غيب الآخرة، ثم غيب الوحي، ثم تضرب بها إلى مظاهر الشهود، في الصلاة كأهم الرباطات بالخالق، وكالزكاة كأهمها بالخلق.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴿٣﴾﴾:

والإيمان هو أن تجعل نفسك في أمن وطمأنينة، ولأن الحياة الدنيا وزخارفها متغيرة فانية، فالإيمان بها زيادة في تزعزع واضطراب، وأمّا غيب الألوهية واليوم الآخر والوحي، فالإيمان بها يؤمن الإنسان ويطمئنه عن الهزائز: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[2]!.. يؤمنون بالغيب: «بما غاب عن حواسهم من الأمور التي يلزمهم الإيمان بها كالبعث والحساب والجنة والنار وتوحيد الله وسائر ما لا يعرف بالمشاهدة وإنما يعرف بدلائل قد نصبها الله تعالى دلائل عليها»[3].

والايمان بما غاب عن الإحساس الحيواني هو من ميّزات الإنسان عن سائر الحيوان، فإنه ممتاز بالعقل بعد الحس، ما به يعقل ما يقصر عنه الحس.

إن العقل والحس يتعاملان في تصديق الغائب عن الإحساس كما يتعاملان في العلوم التجريبية أيضاً، فلا مجرد الإحساس يكفي، وحتى

---

(١) سورة ق، الآيات: ٣١ - ٣٣.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٨.
(٣) البرهان ١: ٥٦ عن تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام.

للعلم بالمحسوس، ولا مجرد العقل يكفي وحتى لتصديق الغائب عن الإحساس إلّا قليلاً.

فحصر الإدراكات بوسائل الحس فقط تفريط، كما أن حصرها بالعقل فقط إفراط، ولذلك نرى الآيات تجمع بين العقل والحس في تعامل دائب في الإيمان بالغيب، مستدلة بالآيات الآفاقية الحسية، والأنفسية غير الحسية: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[١].

إن السوفسطائيين الناكرين لوجود العلم - سواء عن طريق العقل أو الحس - ينكرون وحتى أنفسهم، وترى أليس إنكارهم أنفسهم علماً فكيف أنكروه؟ أو أنه جهل - إذاً - فخلافه وهو إدراكهم أنفسهم علم!.

كذلك الحسيون أنكروا أيّ سناد إلى العقل، ثم وهم يسندون في نكرانهم إلى دليل العقل!

ثم العقليون يعتمدون فقط إلى العقليات، ومن المستحيل إلّا قليلاً أن تنتج العقليات الصرفة - دون أيّ سناد إلى الحس - ما يصدّقه الإنسان!

ولكنما الإلهيون المعتدلون هم الأمة الوسطى، إذ يجمعون بين العقل والحس مهما كان العقل أمام الحس والحس أمامه، وكما يقول الإمام الصادق: «العقول أئمة القلوب والقلوب أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء»!

فالإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان فيتخطّى رتبة الحيوانية الحسية إلى درجة الإنسانية العائشة العقل مع الحس، نقلة بعيدة التأثير في تصور الإنسان لحقيقة الوجود، وتصديقه للوجود الحق، كما هي بعيدة في

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

حياته الأرضية، إذ يرى نفسه في رباط دائم بالوجود اللّانهائي وراء هذا الكون: المكوِّن لهذا الكون، فينظّم حياته صالحة كما يرضاه خالق الكون.

ثم النص ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ لا «يدركون الغيب» أو «يحيطون علماً بالغيب»

حيث الغيب منه ما لا يدرك نهائياً كغيب الذات الإلهيّة وصفاته الذاتية وأفعاله، وكغيب الوحي، اللّهم بآيات محسوسات أو معقولات تدل عليه، أو الوحي لأصحابه الخصوص.

ومنه ما يدرك في اليوم الآخر كاليوم الآخر والملائكة أم ماذا، ولكنه لا يدرك يوم الدنيا، فلا سبيل إليها إلّا إيماناً وتصديقاً.

وهناك جهال غابت عقولهم وغربت، يحاولون إدراك ذات الله بما يدركون الكون المحسوس، وهم عاجزون عن إدراك حقيقة المحسوس.

وآخرون يحاولون الحيطة العقلية أو العلمية بذاته تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمًا﴾[1].

فإنما الممكن في هذا المجال التأكّد من وجود الغيب فالإيمان به كما هو، لا كما نعرفه أو نحيط به، كما الكثير من الطاقات المادية، كالذرة والقوة الجاذبية العامة نصدق بها بأدلتها دون أن نحسها أو ندركها، فغيب الذات الألوهية أحق بعدم الحيطة وأحرى.

ثم الغيب هنا ثلاث مذكورة كأصوله، وهناك غيوب غير مذكورة كفروع لها، من غيب البرزخ وهو من فروع غيب الآخرة، ومن غيب القائم المهدي عليه السلام [2] وهو من فروع أصل الوحي والنبوة، ومن غيب الرجعة في

(١) سورة طه، الآية: ١١٠.

(٢) البرهان ١: ٥٤ - ابن بابويه بإسناده عن جابر بن عبد الله الأنصاري في حديث يذكر فيه الأئمة الاثني عشر وفيهم القائم قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: طوبى للصابرين في غيبته. طوبى =

دولة المهدي (عجل الله تعالى فرجه) وهو فرع من فروع الحياة البرزخية والآخرة وإلى سائر الغيب(١).

ثم الإيمان بهذا الغيب يدفع المؤمن إلى مظاهر الايمان وعمودها الصلاة، لا القيام إليها فقط، أو إتيانها فقط، وإنما إقامتها:

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ③﴾:

فإقامة الصلاة هي تقوى العبادة، دون إتيانها أو القيام إليها فإنه طغواها

= للمقيمين على محبتهم أولئك من وصفهم الله في كتابه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم الغالبون، والبرهان ١: ٥٣ - ابن بابويه بسنده عن داود ابن كثير الرقي عن أبي عبد الله في الآية قال: من آمن بقيام القائم أنه حق، وعن يحيى بن أبي القاسم قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الآية قال: والغيب فهو الحجة الغائب عليه السلام وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠].

(١) الدر المنثور ١: ٢٦ عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ليتني قد لقيت إخواني فقال له رجل من أصحابه: أولسنا إخوانك؟ قال: بلى أنتم أصحابي وإخواني قوم يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني ثم قرأ ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾. أقول وأخرج ما في معناه البزاز وأبو يعلى والمرهبي في فضل العلم والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأخرج الحسن بن عروة في حزبه المشهور والبيهقي في الدلائل والأصبهاني في الترغيب عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جدّه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأخرج الطبراني عن ابن عباس عنه صلى الله عليه وآله وسلم وأخرج الاسماعيلي في معجمه عن أبي هريرة عنه صلى الله عليه وآله وسلم وأخرج ابن أبي شيبة في مسنده عن عوف بن مالك عنه صلى الله عليه وآله وسلم وأخرج أحمد والدارمي والباورودي وابن قانع معاً في معجم الصحابة والبخاري في تاريخه والطبراني والحاكم عن أبي جمعة الأنصاري عنه صلى الله عليه وآله وسلم وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي عمر وأحمد والحاكم عن أبي عبد الرحمن الجنهي عنه صلى الله عليه وآله وسلم وأخرج أحمد وابن حبان عن أبي سعيد الخدري - أقول: وكل هذه الأحاديث على اختلافات سطحية لفظية تتفق في تفضيل المؤمنين الذين لم يروا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على أصحابه الذين رأوه. وأخرج جماعة عن تويلة بنت أسلم قالت: صليت الظهر أو العصر في مسجد بني حارثة فاستقبلنا مسجد إيلياء فصلينا سجدتين ثم جاءنا من يخبرنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد استقبل البيت الحرام فتحوّل الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلو البيت الحرام فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك فقال: «أولئك قوم آمنوا بالغيب».

التي يؤتى بها رئاء الناس كُسالى، وإنها من شيم المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(١) ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾(٢).

فإقام الصلاة ليست هي القيام فيها إذ ليس كلها قيام، ولا أنه إقامة لها كلها! إنما هي جعلها قوامة الحياة وأصالتها التي يتفرع عليها سائر الحياة، اتجاهاً إلى الله وحده لا شريك له، وارتفاعاً عن عبادة العباد، دائماً عليها مواظباً لها مراعياً حرماتها وواجباتها، شرائطها وأجزائها، أوقاتها وكلَّ ما يتوجب فيها، من معنوياتها وهي أحرى فإنها أصلها، ومن مظاهرها ما يجعل المصلي كلّه صلاة لله وصِلاتٍ بالله، وخدمات في سبيل الله!.

ثم ومن إقامتها استحضار معاني ألفاظها، وملامح أفعالها، ثم الارتقاء إلى معانيها تغافلاً - لا غفلة - عن ألفاظها، ثم تغافلاً عن نفسه لحدّ لا يرى إلّا ربه بنور اليقين دون حجاب إلّا حجاب ذات الألوهية وهذه صلاة تخص صاحب المعراج ﷺ ثم ذويه المعصومين عليهم السلام، وعلى ضوئها وفي هامشها المصلون الحقيقيون.

ومن ثم وبعد إقامة الصلاة لله، يقوم في صِلات بخلق الله أن ينفق مما رَزَقه في سبيل الله:

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾:

من رزق المال، والحال، من ثروة علمية أو عقلية، أو ثقافة إيمانية(٣)

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٤.

(٣) البرهان ١: ٥٣ - ابن بابويه بسنده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث في الآية قال: مما علمناهم ينبئون وما علمناهم من القرآن يتلون. أقول وهذا من باب التفسير بالمصداق الخفي من الرزق.

أم ماذا؟ فإن كله من رزق الله.. ثم ومن أموال ومن أيّ الطاقات الموهوبات التي يمكن إنفاقها أو الإنفاق منها فإنها كلها رزق الله!

فإن الخلق مستخلفون فيما رزقهم الله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[1] دون استثناء، وحتى إنفاق المال هنا وفي أضرابها من آيات الإنفاق لا يخص خصوص الزكاة، فـ«إن في المال حقاً سوى الزكاة».

وهذا من التضامن بين عيال الله مع الصّلة الصّلاة لله، أن تصبح الحياة مجال أخوّة وتعاون، لا معترك تناحر وتطاحن، عائشين جوّ المحبة والحنان، لا جبهات القتال بين أظفار وأنياب ومخالب بني الإنسان.

ثم ولا يكفي الايمان بغيب الله وإقام الصلاة والإنفاق، حتى يربطها وسواها بما أنزل الله:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ (٤)﴾:

إيماناً شاملاً خطّ الرسالات الإلهية أولاً وأخيراً، دون تفريق بينها، وإنما تصديق بها كلّها، مهما يجب تطبيق الأخيرة منها لا سواها.

ثم ولا يتم كلّ ذلك إلّا بإيقان بالآخرة:

﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)﴾:

و﴿هُمْ﴾ هنا يختصهم بإيقان الآخرة، فإنه ناتج عن الأربعة الأولى، فمن يؤمن بغيب الله ووحي الله، ويصلي لله، وينفق في سبيل الله، لا بدّ وأن يوقن بيوم الله.

فهنا إيمان باليوم الآخر يدفع الإنسان إلى أعمال الإيمان من صلاة وإنفاق وايمان بوحي السماء.

(١) سورة الحديد، الآية: ٧.

ثم إيقان باليوم الآخر هو نتيجة أعمال الإيمان، فالإيمان باليوم الآخر كإيمان بالوحي مطوي في الإيمان بالغيب، وإنما يبرز هنا أخيراً إيقاناً بعد إيمان نتيجة عمل الإيمان، فثمّ إذا أيقن بالآخرة يزداد في الإيمان وعمل الإيمان، وهكذا يستمر دور الإيمان والصالحات تعاملاً وطيداً حتى يبلغ بصاحبه الذروة دون حدّ ولا نهاية.

وهنا نجد تساوقاً وتناسقاً بين هذه الخمس من مواصفات المتقين على درجاتها، ما نجد التقوى سارية في كافة جنبات الحياة في الغيب والشهادة، فرادى وجماعات وفي كل المجالات.

من تقوى في محراب العبادة: الصلاة ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلى تقوى في محراب الحرب والقتال: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[(١)] ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[(٢)].

وتقوى في الاقتصاد: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ - ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(٣)] ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ... فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ ﴿٢٨٣﴾﴾[(٤)] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟...﴾[(٥)].

وتقوى سياسية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٥.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٩٣.
(٤) سورة البقرة، الآيتان: ٢٨٢، ٢٨٣.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٧٨.

جَهَنَّمُ . . .﴾[١] ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾[٢].

وعلى الجملة تقوى فردية وتقوى جماعية: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا . . .﴾[٣]:

وتقوى في الصبر والمصابرة والمرابطة: الروابط السياسية وسواها بين المؤمنين: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾[٤] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[٥].

وهكذا نرى التقوى بطيّات آياتها تشمل كافة مجالات الحياة من عقائدية وإيمانية وعلمية - عبادية وسياسية واقتصادية وحربية - وفردية وجماعية أما هيه؟

ومن أفضل التقوى: «أن تدع ما لا بأس به حذراً لما به بأس»[٦].

و«أن تحب الله بقلبك كله وتعمل بكدحك وقوتك ما استطعت وترحم ابن جنسك: ولد آدم كلهم، وما لا تحب أن يؤتى إليك فلا تأته إلى أحد فأنت تقي لله حقاً»[٧].

﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾:

أولئك المتقون على هدىً من ربهم، «إلى هدى» فإنهم مسيطرون على

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٦.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١.
(٣) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ١.
(٦) الدر المنثور ١: ٢٤ - أخرج جماعة عن عطية السعدي قال قال رسول الله ﷺ: لا يبلغ العبد المؤمن أن يكون من المتقين حتى يدع. . .
(٧) المصدر عن سعيد بن أبي سعيد المقبري قال: بلغنا أن رجلاً جاء إلى عيسى عليه السلام فقال: يا معلم الخير كيف أكون تقياً لله كما ينبغي له؟ قال: بيسير من الأمر: . . .

الهدى مجتازون طرق الردى ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: إذ أفلحوا بمحرات التقوى كل شائكة في حرث الدنيا، فأصبحت الأولى هي الأخرى ﴿وَٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾(١).

فالإفلاح هو الشقّ، والمتقون يشقون أمواج البحور المتلاطمة الهائجة المائجة بسفن التقوى، وفي سائر القرآن مواصفات أخرى للمفلحين توازي صفات المتقين(٢).

هذا شطر من صفات المتقين يفتتح به القرآن كأفضل ما به يتصفون ثم تقابلهم صفات الكافرين الذين لا يؤمنون بما ينذرون:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾:

الكفر هو ستر الشيء، ويوصف الليل بالكافرة لسترها الأشياء بظلامها، والزارع بالكافر لستره البذر بالتراب، ويوصف غير المؤمنين والمتقين بالكفار إذ رانت قلوبهم عن مشاهدة الحق، وسدّت نوافذها وأغلقت عن الإيمان بغيب الحق وشهادته، وقطعت وشائجها عن تصديقه.

وترى أن الذين كفروا هنا هل هم الكافرون أجمعون؟ وهم أضراب، وليس الإنذار وعدمه سواء عليهم كلهم!.

كلّا إنها لا تعني مطلق الكفر حيث الكثير منهم يؤمنون، من مشرك أو كتابي أم ماذا؟ وإنما الكفر المطلق المازج عقولهم، الضائقة به صدورهم،

---

(١) سورة الأعلى، الآية: ١٧.

(٢) ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨] وهي موازين التقوى ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. . . ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: ٨٨] ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

المقلوبة قلوبهم المنحرفة أفكارهم، والخاطئة حواسهم، فهم في غيّهم يترددون، وفي عيّهم يعمهون: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(١): كفر محيط بهم حيث لا يبقي لهم نوافذ بها يبصرون فـ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ليس النص «الكافرون» حتى يشملهم أجمعين، بل ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كفر حدث وجاه الرسالة الإسلامية، بعد كفر سبق: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾(٢): الذين جحدوا بعد البينة، وأنكروا بعد المعرفة!. ولا أنه كلما حدث من كفر بعد كفر فالبعض ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾(٣) يتردون ردحاً من الزمن ثم يؤمنون، أم يتوبون عما كفروا فيهتدون.

وإنما يعني أخسّ دركات الكفر والطغيان ممن ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾(٤) ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾(٥) فـريـق خصوص من الكافرين الذين بلغوا في كفرهم وجحودهم ما لا يؤمل فيه إيمان مهما بقيت في قلوبهم نوافذ لرؤية الحق، ولكنهم يجحدون، فيجازيهم الله إذ يسدّ هذه البقيّة: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٦).

فهؤلاء الأوغاد المناكيد من صناديد قريش وأضرابهم، الكفار الألداء جمعوا بين دركات الكفر: الخمس - في خماسية قاعدتها كفر الجحود على علم - ﴿... وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾(٧) ثم كفر النعم: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾(٨) وكفر العمل:

(١) سورة البقرة، الآية: ٨١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.
(٤) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٥) سورة لقمان، الآية: ٣٢.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٧.
(٧) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٨) سورة النحل، الآية: ١١٢.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[(١)] ولحدّ الإيمان بالكفر لا الكفر فقط: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾[(٢)] [(٣)].

ولأن بنود الإيمان التقوى سبقت في مواصفات المتقين كإيمان مطلق للتقوى فليكن الكفر هنا وجاهة كفراً مطلقاً، في قلوب خاوية عن أية تقوى وأي إيمان هاوية كل دركات الطغوى دون إيمان، ناكرة لمثلث الغيب، عامدة، تاركة لأعمال الإيمان، كافرة بأنعم الله، مؤمنة بالكفر وكأنه الإيمان!

وترى هؤلاء الكافرون أبإمكانهم أن يؤمنوا؟ فبإمكانهم إذاً إبطال علم الله: أنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾! أم لا يتمكنون؟ فلا موقع للتنديد بهم أنهم لا يؤمنون! ولا يصح تكليفهم بالإيمان إذ لا يتمكنون!

الجواب أن النص ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا «لن يؤمنوا» حيث يخبر عن واقع اللّاإيمان، لا استحالة الإيمان، وحتى لو استحال منهم الإيمان فإنما هي استحالة بالاختيار فلا تنافي الاختيار.

وهنا الإخبار عن واقع اللّاإيمان لأنهم لا يؤمنون باختيارهم، فلو كانوا يختارون الإيمان لكان الإخبار عن الايمان، فليس علم الله إلّا كاشفاً عن واقع المستقبل، دون أن يسبّبه، حيث العلم بوقوع حادث أم لا وقوعه، لا

(١) سورة الروم، الآية: ٤٤.
(٢) سورة غافر، الآية: ١٢.
(٣) البرهان ١: ٥٧ - الكليني بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له أخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله عزّ وجلّ؟ قال: الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه، فمنها كفر الجحود والجحود على وجهين (عن معرفة وعن جهالة) والكفر بترك ما أمر الله وكفر البراءة وكفر النعم....

يسبب وقوعه أم لا وقوعه وإنما يكشف، إذاً فالواقع هو السبب لهذا الكشف لا أن الكشف يسببه!

وقد يخطىء الكاشف إذ لا يحيط علماً بما يحصل، فيبطل العلم به إذا حصل، وحاشا الله أن يخطىء فإنه بكل شيء محيط، فلا يمكن إبطال علمه.

وعدم الإمكانية هذه ليست لاستحالة الفعل واللّافعل المخبر عنه ذاتياً، حتى يسقط التكليف ويبطل التأنيب: «لماذا لا يؤمنون»؟ وإنما لاستحالته بالاختيار أنهم رغم اختيارهم في الكفر والإيمان سوف لا يختارون الإيمان.

وهذه من الملاحم الغيبية القرآنية أن ينبئ الله بما في قلوبهم وعن مستقبل أحوالهم، فرغم حرصهم بإبطال القرآن وإبطال علم الله، لم يُقدموا حتى على ظاهر الإيمان، فثبت علم الله، وصدق كتاب الله، وخسر هنالك المبطلون[1].

وثم إذا ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة فلا يتمكنون أن يؤمنوا، هنا يسلب عنهم اختيار الإيمان بما قدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد، وطالما لا يصح تكليفهم بالإيمان ولكنهم معذبون باللّاإيمان حيث الامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار، والتنديد هنا بالامتناع الاختيار، كما العذاب ولا يمكنهم إبطال علم الله وإن حاولوا!

إذاً فأين إبطال علم الله أو إمكانيته، وأين استحالة الإيمان التي تبطل التكليف وتبطل التنديد بترك الإيمان؟!.

(١) الدر المنثور ١ : ٢٩ - أخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمر قال: قيل يا رسول الله ﷺ، إنا نقرأ من القرآن فنرجو ونقرأ فنكاد نيأس فقال: ألا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار؟ قالوا: بلى يا رسول الله ﷺ، قال: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ - إلى - ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥] هؤلاء أهل الجنة، قالوا: إنا نرجو أن نكون هؤلاء ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ - إلى - عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦، ٧] هؤلاء أهل النار قلنا لسنا هم يا رسول الله ﷺ! قال: أجل.

ثم النص ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ لا «سواءٌ عليك» فالرسول ليس له السكون عن واجب الإنذار، سواء - أكان عليهم سواء فلا يؤمنون، أم لا سواء فهم يؤمنون، فلينذر على أية حال كما المرسلون: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾(١) ففيما هو سواء يكون الإنذار حجة وعذراً، وفي سواه برهاناً ونُذراً.

فقد يكون المنذِر قاصراً عن الإنذار دون المنذرين فلا حجة عليهم، أو أن المنذرين قاصرون فكذلك الأمر، أو أنهم مقصرون رغم كمال الإنذار فلا يؤمنون فهنا الحجة البالغة عذراً، أو أنهم يؤمنون نتيجة الإنذار فهنا الحجة نذراً، وهكذا يكون دور الرسالات الإلهية في كمال الإنذار بين مثلث المنذرين وإن كانوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾!

فالإنذار هو الجناح الأعم من جناحي الرسالات حيث التبشير خاصٌ بالمتقين: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ... وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾(٢).

فواجب الإنذار على النبي يعمّ وإن بالنسبة لمن هو سواء عليهم، وتأثيره خاص بمن اتبع الذكر.. كأنه الإنذار لا سواه، حيث هو المؤثر لا سواه.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾:

هنا الغشاوة على أبصارهم والختم على قلوبهم، فماذا إذاً على سمعهم؟ أهو ختم عطفاً على قلوبهم، أم غشاوة معطوفاً لأبصارهم فالواو هناك عطف وهنا استئناف؟

(١) سورة المرسلات، الآية: ٦.
(٢) سورة يس، الآيات: ٥ - ١١.

بما أن غشاوة خصوص السمع غير مألوفة في سائر القرآن، وغير معروفة كذلك في غير القرآن، ثم نرى السمع مقرونة بالقلوب ختماً، والأبصار تنفرد بالغشاوة: لمكان «على» المكررة هنا ثم وفي غيره ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾[1] وأن ظاهر الواو العطف إلّا بقرينة تعطفها على غيره كاستئناف، إذاً يرجح اختصاص الغشاوة بالأبصار، مهما يجمع الطبع أحياناً بين الثلاث: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾[2] فطبع الإبصار لا يستتبع غشاوة السمع! مهما شملت الغشاوة عامة الإنسان: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[3]: كما قد تفرد القلوب بالختم أخذاً بالسمع والإبصار: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾[4].

أو أن السمع هنا مغشوّة كما الإبصار تلميحاً من تكرار ﴿عَلَىٰ﴾ فلولا غشوة السمع هنا كالأبصار لم تكن «على» كما في ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾[5].

أو أنهما معاً معنيان: أن ختم الله على سمعهم وعلى سمعهم غشاوة، فلأنهم غشوا سمعهم وأبصارهم ختم الله على قلوبهم مما يزيد ختم السمع والأبصار: فـ ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[6] ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[7] لـذلـك ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[8]، كما وأن قلوبهم مختومة مرانة بما كانوا يعملون: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[9].

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.
(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٨.
(٣) سورة يس، الآية: ٩.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٤٦.
(٥) سورة النحل، الآية: ١٠٨.
(٦) سورة الشعراء، الآية: ٢١٢.
(٧) سورة الكهف، الآية: ١٠١.
(٨) سورة الأعراف، الآية: ١٠٠.
(٩) سورة المطففين، الآية: ١٤.

ولماذا تفرد «السمع» دوماً مع جمع القلوب أو الأبصار، دون الأسماع؟ علّه لأنّ السمع في أصله مصدر لا يجمع وله معنى الجمع في جمعه والمفرد في مفرده، أو إذا لم يكن مصدراً فهو قوة في الأذن وليس هو الأذن حتى يجمع كالآذان، فلكل منا سمع في أذنين وليس بصر في عينين - حيث البصر هو العين بعينها، أم ماذا؟[(١)].

هنا الغشاوة على أبصارهم: أبصار القلوب والعقول والأفكار وأبصار العيون أيضاً - رغم أنها - علّها - أبصر من غيرها، إذ لم يتنفعوا بالنظر ولم يعتبروا بالعبر فهم كالخوابط الغواشي في مشيتهم، يخطئون الصراط المستقيم!

وإنها كلها من فعلهم أنفسهم إذ جحدوا بالحق وآياته بعد ما عرفوها، فلم تنسب إلى الله، وبذلك استحقوا أن يختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، فحتى لو شاؤوا أن يبصروا لم يتمكنوا، فنسب الختم عليها إلى نفسه، وفي الحق إنهم هم الذين ختموا على قلوبهم وعلى سمعهم إذ غشوا على أبصارهم، فمنه فعل لهم ومنه جزاء: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[(٢)] وعلّ الواو في ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ حالية تعني: أن الله ختم حال الغشاوة من فعلهم على أبصارهم، فظرف هذا الختم إنما هو غشاوة الأبصار، سابقاً على ختم السمع والقلوب.

كما علّها في ﴿وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ أيضاً حالية تعني ما تعنيه في ﴿أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ أن ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ حال أنهم ﴿وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ من فعلهم - وإنما الأصل هو القلب يقلبه الله كما يتقلب صاحبه إن خيراً فخير

(١) راجع ج ٢٩ ص ٤٩ تفسير الآية ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ﴾ [النحل: ٧٨].
(٢) سورة الصف، الآية: ٥.

وإن شراً فشرّ فلأنهم عموا عن أصل السبيل وصمّوا عن دعاء الدليل ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ . . .﴾ جزاءً وفاقاً.

فليس الطبع والختم على قلوب أو سمع - بداية ودون سبب - من الله، ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾(١) ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾(٢) ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾(٣).

فلأنهم كفروا بنعمة القلوب والسمع الإنساني، تناسياً عما يتوجب عليهم فيها، وتعمداً وتعنُّداً لضلالها، جازاهم الله في الأولى بطبعها ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

وهكذا يفعل الله بمن يبدل نعمة الله كفراً أن يذهب بها ويجعلها نقمة، ويقلّبها عليهم دماراً وبواراً: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(٤).

ثم القلوب هنا وفي سائر القرآن هي قلوب الأرواح لا الأبدان كما السمع والأبصار حيثما تقرنان بالقلوب هما كذلك للأرواح - فكثير من هؤلاء الكفار المختوم على قلوبهم، المغشوّة سمعهم وأبصارهم، لهم قلوب وسمع وأبصار لأبدانهم قوية، وأقوى من المؤمنين وإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور وقد نأتي على قول فصل حول القلوب والأفئدة والسمع والأبصار والصدور والأرواح والعقول والأفكار بطيّات آياتها الأنسب وهي ثمان كأبواب الجنة الثمان، ألا فاعتبروا يا أولي الأبصار.

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٥.
(٢) سورة يونس، الآية: ٧٤.
(٣) سورة غافر، الآية: ٣٥.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٥٣.

فأولئك الكفار، لاستهتارهم بالمنذرين والإنذار، لحدّ تساوى عليهم الإنذار واللّاإنذار، مطبوع على قلوبهم هنا، وموعودون في الأخرى عذاب النار، عذاباً على عذاب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾!.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨
يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩
فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ
يَكۡذِبُونَ ١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ
مُصۡلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ
ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا
خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ
بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ
بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ
ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي
ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨ أَوۡ كَصَيِّبٖ
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ
حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ
أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ
وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾

هنا - بعد هذه الآيات وقبل تفسيرها - نقدم تفسيراً للنفاق عن الإمام

أمير المؤمنين علي عليه السلام النفاق على أربع دعائم: على الهوى والهوينا[(١)] والحفيظة والطمع، فالهوى على أربع شعب: على البغي والعدوان والشهوة والطغيان فمن بغى كثرت غوائله وعلّاته[(٢)]، ومن اعتدى لم تؤمن بوائقه ولم يسلم قلبه، ومن لم يعزل نفسه عن الشهوات خاض في الخبيثات، ومن طغى ضل على غير يقين ولا حجة له.

وشعب الهوينا: الهيبة والغرّة والمماطلة والأمل، وذلك لأن الهيبة ترد على دين الحق، وتفرط المماطلة في العمل حتى يقدم الأجل، ولولا الأمل علم الإنسان حسب ما هو فيه، ولو علم حسب ما هو فيه مات من الهول والوجل.

وشعب الحفيظة: الكبر والفخر والحميّة والعصبية، فمن استكبر أدبر، ومن فخر فجر، ومن حمى أصرّ، ومن أخذته العصبية جار، فبئس الأمر أمر بين الاستكبار والإدبار، وفجور وجور.

وشعب الطمع أربع: الفرح والمَرَح واللجاجة والتكاثر، فالفرح مكروه عند الله عزّ وجلّ، والمرح خيلاء، واللجاجة بلاء لمن اضطرته إلى حبائل الآثام، والتكاثر لهوٌ وشغل، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، فذلك النفاق ودعائمه وشعبه»[(٣)].

... وفي الحق إن دور المنافقين هو أخطر الأدوار ضد الرسالات الإلهية ولا سيما الرسالة الإسلامية، وأخطر من الكافرين أيضاً، ترى عرض حالهم في سورة تخصهم «المنافقون» وفي عامة القرآن نلمس خاص الاهتمام بعرض قضاياهم ورزاياهم كثيراً وكما هنا، فبعد آيات أربع تستعرض حال

---

(١) الهوينا تصغير الهونى مؤنث الإهوان، أي التهاون في أمر الدين.
(٢) علات جمع العلة.
(٣) نور الثقلين ١: ٣٤ عن كتاب الخصال للصدوق عن الأصبغ بن نباتة عنه عليه السلام ...

المتقين، وآيتين تخصان الكافرين، نجد ثلاث عشرة تخص المنافقين، وكما تتحدث عنهم ثلاث عشرة سورة في مئات الآيات مصرحة بهم أحياناً[(١)] وملمّحة، أخرى تفضحهم في عرض حالهم ومآلهم، وثالثة تدخلهم ﴿فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[(٢)]:

تخطّينا شفافية الصورة الأولى إلى عتامة الظلامة الثانية، فإذا الثالثة ليست كالأولى ولا كالثانية، فإنها صورة صلتة ملتوية خادعة خائنة لا تقف لحد لكي نعرفها، ألَا وهي الصورة المنافقة، لا ذات شجاعة وانطلاقة في الضمير لتواجه الحق بصريح الإيمان وخالصه، ولا ذات جرأة لتواجهه بالنكران، ثعلبة تماكر بغية البقاء على كيانها، عميلة في عملياتها للكلاب والذئاب، مظهرة إخلاصها للأسد في الغاب، جاسوسة لهذه عن تلك، لا صورة لها ثابتة تعرف اللّهم إلّا مماكرات ومخادعات، وادعاءات - مع ذلك - أنهم أذكياء دهاة، عقلاء مصلحون، مترفعون على البسطاء أم ماذا! ولكن الله يواصفهم بواقعهم المكر الخداع، الخلاء الخواء عن كلّ حقيقة إلّا ادعاء! وهم يعيشون بنفاقهم ثالوث: ١ - مشاركة المؤمنين فيما يمن الله عليهم دنياً، ٢ - اتقاء ما يحكم به على الكافر كذلك، ٣ - التجسس عن أحوالهم إلى شياطينهم، إلّا أن ثالوثهم هالك مفضوح بما يفضحهم الله وينبه الرسول والمؤمنين!

وهنا استعراض لأبواب سبعة من جحيم المنافقين يغلقها الله على المؤمنين:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾:

باب أوّل: ناس في الحق هم نسناس ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي

(١) كما في سبع وثلاثين آية، راجع تفسير سورة (المنافقون) ج ٢٨: ٣٥٥.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٥.

قُلُوبِهِمْۚ﴾[١] ﴿يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾: وهو حالة تصديق في القلب ﴿وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾: حال أن قلوبهم خاوية عن الإيمان، كافرة بمبادئ الإيمان، فقد يوافق القلب اللسان في دعوى الإيمان فهو إيمان، وقد ينافقه فهو الكفر والنفاق، وآخر لا ينافقه إذ لا يعانده ولا يوافقه إذ لم يعرفه فلمّا لم يدخل الإيمان فيه وهو يتروّيه، فهذا إسلام بلا إيمان: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾[٢] فهي عائشة حالة الانتظار حتى تؤمن كما النص فيه «ولمّا» دون استهتار المنافق ولعبته حيث فيه ﴿وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾: ليسوا ممن يؤمن ولا يتروّى الإيمان، فأولاء هم المندّد بهم دون هؤلاء، إلّا تجهيلاً تخطئة في التعبير ﴿ءَامَنَّاۖ﴾ بل ﴿قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا﴾[٣]!

وهذه حالات أربع حاضرة في مواجهات الإيمان: كفراً ونفاقاً أو إسلاماً متروّياً أو إيماناً، ومهما سمي المنافق مسلماً فإن إسلامه استسلام لا إسلام[٤].

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾:

باب ثان وهي الخداع: إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يُبديه على خلاف ما يخفيه، والمخادعة خداع بين طرفين، ابتداء من طرف وانتهاءً إلى آخر، كفاحاً ضد الخداع: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾[٥] وأين

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١١.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٤.
(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٤.
(٤) إن للسان والقلب والأركان أحوال:
فقد يقر اللسان بالحق وقد ينكر أو يسكت، ثم قد يوافقه القلب في الإقرار أو ينافقه أو يتردد متروياً الحجة للكفر أو الإيمان، ثم قد يوافقها العمل أو ينافقهما.
(٥) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

خداع من خداع، خداع أوّل كلّه عجز ومكر وكذب ونفاق كما المخادعين الله، وخداع ثان لا تحمل إلّا اسمه فإنها عن قدرة وصدق جزاء الوفاق، كما الله: حيث يأمر بجري أحكام الإسلام عليهم هنا، وفي الآخرة لهم عذاب أليم، ويكشف أسرارهم للنبي والمؤمنين حيث يخادعون ثم يوم القيامة يريهم جناته كأنهم واردوها ثم ينأون عنها مهانين كما «يفتح لهم باب جهنم فيظنون أنهم يخرجون منها فيزدحمون للخروج فإذا انتهوا إلى الباب ردتهم الملائكة حتى يرجعوا»(١): ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾(٢). فجزاء الخداع خداع مثله فإنه حق، إلّا في باطله، وفي عجزه فإنه قدرة، وفي كذبه فإنه صدق، وإنما التموية والإخفاء في الخداع الجزاء إيلام كما آلموا المؤمنين جزاءً وفاقاً(٣).

إنهم كما يزعمون ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ﴾ آمنوا وفي الحق ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ إذ لن تؤثر خداعهم في الله، ولا تؤثر في المؤمنين بالله، اللّهم

---

(١) الدر المنثور ١: ٣٠ - أخرج أحمد بن منيع عن رجل من الصحابة أن قائلاً من المسلمين قال: يا رسول الله ﷺ! ما النجاة غداً؟ قال: لا تخادع الله - قال: وكيف نخادع الله؟ قال: أن تعمل بما أمرك الله به تريد به غيره، فاتقوا الرياء فإنه الشرك بالله فإن المرائي ينادي به يوم القيامة على رؤوس الخلائق بأربعة اسماء: يا كافر! يا فاجر! يا خاسر! يا غادر! ضل عملك وبطل أجرك فلا خلاق لك اليوم عند الله فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع وقرأ آيات من القرآن: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ [الكهف: ١١٠] الآية و﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٤٢] الآية، وفي تفسير البرهان عن ابن بابويه بإسناده عن جعفر بن محمد عليه السلام عن أبيه مثله.

(٢) سورة الحج، الآية: ٢٢.

(٣) نور الثقلين ١: ٣٥ عن العيون عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في حديث: إن الله تعالى لا يسخر ولا يستهزأ ولا يمكر ولا يخادع ولكنه يجازيهم جزاء السخرية وجزاء الاستهزاء وجزاء المكر والخديعة تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.
وفي مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام: واعلم أنك لا تقدر على إخفاء شيء من باطنك عليه تعالى فتصير مخدوعاً بنفسك - قال الله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٩]...

إلّا قليلاً يرجع بضرر كثير عليهم أنفسهم، فهم بخداعهم مفضوحون يوم الدنيا بما يفضحهم الله، ويفضحون أنفسهم حيث يُعرفون في لحن القول: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ﴾(١) – فما أضمر أحدٌ أمراً إلّا وقد يظهر في صفحات وجهه وفلتات لسانه – ثم «هم يوم القيامة من المفضوحين».

«و» لكنهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن خداعهم راجعة إليهم فلو شعروا ما خادعوا.

ثم النفاق وخداعه دركات صاعدة إلى الكفر النفاق ونازلة إلى السمعة والرئاء كما جزاؤه دركات حسب الدركات طبقاً عن طبق.

ولماذا ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ دون ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ نفياً لما حاولوا طبقاً عن طبق؟

علّه لأن الواقع من فعلهم لم يكن مخادعة، حيث الله لا يخادع، والمؤمنون لا يخدعون بما يفضح الله المخادعين، فلا تبقى في ميدان الخداع إلّا أنفسهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ والخادع لا يخادع نفسه لوحدته، وإنما يخدعها، ويا ويلاه إذا كانت مخادعتهم تبوء بالخدعة لأنفسهم و﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾!.

وترى إذا ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ فكيف التنديد بهم والعذاب، والشعور مدار التكليف فالثواب والعقاب؟

الجواب: أن النص لا ينفي عنهم الشعور، وإنما إعماله وأعماله بسوء الاختيار، وحتى إذا فقدوا الشعور لأنهم أبطلوه إذ لم يستعملوه، وبقي التنديد والعذاب على مبدأ اللّاشعور المختار، فالامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار!

(١) سورة محمد، الآية: ٣٠.

فأولئك الحمقى الأغفال يظنونهم رابحين بهذا النفاق الإغفال ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم خاسرون، لا في العقبى فحسب، ففي الدنيا أيضاً حيث يوردون أنفسهم بالكفر المضمر موارد التهلكة بما يفضحهم الله ويفضحون أنفسهم، إذ تظهر مظاهر من كفرهم من صفحات الوجوه وفلتات الألسن.

ومن مخادعتهم لله قولهم ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ... وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ ومن مخادعتهم للمؤمنين: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾:

باب ثالث من أبواب جحيم المنافقين: «مرض القلوب»: قلوب الأرواح لا الأجساد، فالقلب بيده أزمة العقول والأفكار والصدور والحواسّ والأعضاء، الزعامة العليا في مملكة الكون الإنساني، فإذا مرض مرض الإنسان في كيانه الإنساني ككلّ، فالمرض في القلوب حقيقة، وفي الجسد مجاز أم حقيقة ثانوية.

ولأن المرض - الذي لا يحاوَل شفاؤه يزداد دوماً، إن في الجسم أو في الروح سواء، سنة دائبة في الكائنات كلها، أن تنفرج زاويته في كلّ خطوة فتزداد من حيث لا يشعرون أو يشعرون.

فمرض الجسم يُشعر فيُدرك فيُتدارك مغبَّة الحفاظ عليه، ومرض الروح قد لا يُدرك وكثيرٌ ما هو، فلا يتدارك فيزداد، ثم القلب ومكاسب السوء يتعاملان في زيادته: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[1].

(١) سورة المطففين، الآية: ١٤.

فهناك مرضان اثنان كلاهما في القلوب: ١ - ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾. ٢ - ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾ ومن ثم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾:

وطالما المرض الأول أجمل عن فاعله، ففاعل الثاني ﴿ٱللَّهُ﴾ فهل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ بالمرض الأول، أم وبالثاني أيضاً، أو ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ هنا وهناك حصيلة المرض، ونفاقاً في دعوى الإيمان؟

المرض الأوّل هو مرض الكفر والعناد للحق بما كانوا يكسبون، والثاني هو ازدياد الأوّل منذ بزوغ الرسالة الإسلامية تداوماً فيه ونتاجاً عنه كما توحيه الفاء: ﴿فَزَادَهُمُ﴾ فرغم أنهم كانوا يأملون لهم زعامات في الجزيرة، ويعملون لإزالة عقباتها وتعبيد طريقها، إذ فاجأتهم الدعوة الإسلامية، فأخرجت شطأها فآزرها فاستوت على سوقها يعجب الزارع ليغيظ بهم الكفار، منذ العهد المدني بعد ما أصيبت بجوارف الإصابات في العهد المكي.

إن ذلك الازدهار والتقدم في الدعوة زاد في مرضهم، فهذه الزيادة هي منهم إذ انفرجت زاويته لمّا انفجرت الدعوة، حسداً من عند أنفسهم.

وهي من عند الله إذ بعث صاحب هذه الدعوة، ولم يكن من الله إلّا كلّ خير ورحمة، ولكنهم لمرضهم بدّلوه إلى كل شرّ ونقمة: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[1] مرضاً إلى مرض ورجساً إلى رجس: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾[2] فإن دعاء الكافر المعاند لا يزيد إلّا فراراً: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(٢) سورة التوبة، الآيتان: ١٢٤، ١٢٥.

﴿فِرَارًا﴾[(١)] وهكذا تكون دعوات الرسالات الإلهية قد تزيد في إيمان لمن يؤمن، وكثيراً ما تزيد طغياناً وكفراً لمن لا يؤمن: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾[(٢)]:

فـ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أوّل عاشوه قبل الدعوة ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ عند الدعوة حيث كذّبوها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ كما ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾، ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[(٣)]:

فثالوث المرض الأوّل وما زادهم الله وعذاب أليم - كل ذلك: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾: بالدعوة والداعية، وفي دعوى الإيمان.

ولماذا ﴿مَرَضًا﴾ دون «المرض» طالما الثاني استمرار بزيادة في الأوّل؟.. علّه لأن الثاني مزدوج: من نوع الأوّل، زيادة في الكفر، ومن سواه: حسداً منهم في مواجهة الدعوة، وطبعاً على قلوبهم لمّا كذبوا الداعية: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ على مرض ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾.

وعذابهم الأليم يعم يوم الدنيا ويوم الدين، فهنا أن زادهم الله مرضاً وفضحهم بنفاقهم، ثم يوم القيامة هم من المفضوحين.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾:

باب رابع من أبواب جحيم المنافقين: دعوى الإصلاح في إفسادهم!

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾: قيلٌ إلهيٌ بلسان النبي أو المؤمنين المصلحين الذين يحق لهم نهي المفسدين، قيل لهواء المنافقين: ﴿لَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وقولة

---

(١) سورة نوح، الآية: ٦.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤.
(٣) فـ«بما كانوا يكذبون يعلّل ثالوث المرضين والعذاب الأليم».

فارغة جوفاء منهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ثم فضيحة لهم عالمية في إذاعة قرآنية: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾!

وهكذا يكون دوماً دور المنافقين في كلّ عصر ومصر أنهم يحسبون أنفسهم من المصلحين، وغيرهم مفسدين، حيث الموازين مختلة عندهم، فإنها تتأرجح مع أهوائهم الذاتية، بعيدة عن الواقع والميزان الرباني، أو الإنساني.

إنهم يحسبون المكر والخداع شطارة ولباقة، سياسة يتذرعونها إلى ما يهوون فإن الغاية عندهم تبرِّر الوسيلة، ولأن الأصل من الحياة عندهم حيوانيتها وشهواتها، والوصول إلى بغيتهم ومصالحهم الشخصية، أو الجماعية التي تبوء إليها يحسبونها إصلاحها وفلاحها، لذلك يعدّون فسادهم صلاحاً وإفسادهم إصلاحاً: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾: لا شغل لنا إلّا الإصلاح، وهم صادقون في إصلاح حيونة الحياة لهم، وكاذبون في إنسانيتها وقيمها وقوامها.

إنهم يتبجهون بثرواتهم ونزواتهم، طنطناتهم وعربداتهم، زهواتهم وزهزاتهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ فقط، كأن لا مفسد سواهم، إذ ينافقون دوماً ولا يوافقون، ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم هم المفسدون حيث رأوا الصلاح فساداً، والفساد صلاحاً: «ولكنه أخلد إلى الأرض هواه وكان أمره فرطاً».

إنهم لا شغل لهم إلّا الإفساد: في الحرث والنسل، في الثقافة والعقيدة، في الاقتصاد والسياسة، وفي كافة الحقول الحيوية، محتلّين ساحاتها، طاردين أصحابها، متدخلين في كل رطب ويابس وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً: أنهم هم المصلحون ومن سواهم مفسدون!: وحتى النبيين: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ

وَءَالِهَتَكَ﴾[١] رغم أنهم هم: ﴿... ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾[٢] وقد يوجهون نفاقهم العارم بمسايرة الكافرين حفاظاً على المؤمنين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾[٣].

فهم يعتبرون صدّهم عن رسول الله إحساناً إليه وتوفيقاً بينه وبين الكافرين اقتساماً للبلد نصفين، وجعلاً للحكم شطرين، ورعاية للقبيلين!: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ وليسوا بتلك البلادة حتى يفقدوا مطلق الشعور وإنما يشعرون من الحياة حيوانيتها فيحتالون ويمكرون بكل شطارة وشعور لبغيتها وهم أنفسهم لا يشعرون عمق الحياة وقيمها وواقعيتها، ومهما لم يشعروا فيما يجب على الإنسان شعوره فكأنهم لا يشعرون! إذ لا يستعملون الشعور حقه الإنساني وإنما إدراكه الحيواني!

ثم الإفساد منه شخصي كالمعاصي التي لا تتجاوز العاصي، ومنه جماعي كالتي تتعداها إلى غير العاصي، ومنها حكومي تشمل من يعيش في ظل الحكم، ثم منها مادي تشمل الناحية الاقتصادية، ومنها عقيدي تفسد العقائد ومنها.. وأفسدها كلها ما يشمل الإفسادين بقوة الحكم: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[٤] ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢٧.
(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ١٥١، ١٥٢.
(٣) سورة النساء، الآيتان: ٦١، ٦٢.
(٤) سورة النمل، الآية: ٣٤.

وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾[1].

هنا نهوا عن منكر الفساد، ومن ثم يؤمرون بمعروف الإيمان: حيث النهي عن المنكر يتقدم على الأمر بالمعروف، إذ ما دام الناكر مكباً على المنكر لا يتأتى منه المعروف، فإذا ترك المنكر أو نُهي فهنالك المجال لفعل المعروف والأمر به، حيث التزكية تتقدم التحلية في كافة المجالات، مادية ومعنوية!:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾:

باب خامس من أبواب جحيم المنافقين «تسفيه المؤمنين» وأنهم هم العقلاء النابهون من دون المؤمنين!

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ لا كما استسلم النسناس - والقائل هو الرسول ومن معه - ﴿قَالُوٓا۟﴾ في جفوة وغرور واستعجاب وهزء وزور: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ فإن هذا الإيمان خاص بفقراء الناس وأراذلهم دون الأغنياء العليّة ذوي المقام - فجاء الجواب الحاسم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

والسفه هو خفة العقل وبلادته، حيث السفيه يفسد ويحسبه مصلحاً، ويضيع ويراه حافظاً، لجهله بموارد الإصلاح وموازينه، وخفة عقله، مهما كان مثقفاً في مختلف العلوم الزمنية - فـ«رب عالم قتله جهله»!

فهم يعتبرون الإيمان الصادق سفهاً، والنفاق عقلاً، إذ يمكّن العشرة مع المؤمن والكافر فيربح الجوّين، ويؤمن الخطرين، وهذه هي الحياة العاقلة عند هؤلاء المجاهيل، وحياة الإيمان عندهم سفيهة! تخص المجاهيل.

(١) سورة البقرة، الآيات: ٢٠٤ - ٢٠٦.

وهكذا يكون دوماً دور غير المؤمنين: منافقين وكافرين، أن الإيمان سفه ورجعية سوداء وتأخر عن الحياة في زعمهم، والكفر والنفاق سياسة حيوية وشطارة، وأن موافقة السر والعلن. تفسد الحياة، ومنافقتهما تصلحها، حيث اختلف لديهم موازين الحياة الصالحة، إذا أخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم فكان أمرهم فُرُطاً!:

ولماذا هنا «الناس» لا «المؤمنون» وهم ناس خصوص دون سائر الناس، وقد ذكر «الناس» في القرآن أكثر بكثير من المؤمنين والمتقين - وحتى المسلمين: الذين هم أعم من المؤمنين - فإنه (٢٤١) مرة وهي كلها خطابات عامة؟

علّه لأن المطلوب منهم فعلاً أقل درجات الإيمان التي تخرجهم - لأقل تقدير - عن كفر النفاق، وأن هذا الإيمان لا يكلّفهم إلّا أن يكونوا من سواد الناس، ولهم ما لسائر الناس من عقل وإدراك، فإذا لم يؤمنوا كما الناس فهم أولاء إذاً نسناس فاقدين ما للناس من عقل، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ علم الناس حيث الإيمان هكذا لا يتطلب براعة في العلم والعقل، وإنما يكفيه كونك على مشارف العقل دون أشرافه!

وترى أن الإيمان الصادق القرين بكافة البراهين سفه، ثم الكفر والنفاق اللذان ترفضهما البراهين عقل؟ ما هذه إلّا دعاية غوغائية ضد المؤمنين، لكي لا يرغب في الإيمان من يحبون العقل المتين!

ولماذا هنا ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾ وهناك وهنالك ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾؟

علّه لأن الوقوف على حق المؤمنين وعقلهم، وباطل المنافقين وسفههم بحاجة إلى علم زيادة على شعورهم فاقدوه، ولكن التمييز بين الصلاح والفساد، وبين ربح الخداع وضرره يكفيه الشعور، فهم هناك وهنالك ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ وهم هنا ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ مدعين كل علم وشعور! ناسبين إلى هداة

العقول أنهم سفهاء: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾[1] فلأنه يحمل رسالة الله، وهم حاملون رسالة الشيطان، يرونهم عقلاء، ثم العقلاء هم سفهاء! كلمات فقدت معانيها، كما هم فقدوا عقولهم إلى أحلامهم، ومشاعرهم إلى أهوائهم! ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ فلا سفيه مقصراً إلّا إياهم، ولا عاقل حقيقاً إلّا هو مؤمن، فإن الإيمان من حصائل العقل، حيث «هم» هنا دليل الحصر، أن السفاهة المقصرة محصورة فيهم.

فمتى علم السفيه أنه سفيه، وهو بحاجة إلى عقل راجح وعلم رامح؟ ولكنه مقصِّر دون سفهه إذ قصر في عقله فلم يستعمله لما يحقّ حتى خفّ عقله، والله ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾:

باب سادس من أبواب جحيم المنافقين: ﴿ءَامَنَّا... إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾.

فهؤلاء الأوغاد المناكيد ليسوا ليقفوا عند حد﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ الكذب والخداع والسفاهة بالادعاء الجوفاء، بل ويتترَّسون بالتآمر في الظلام خفية، خيفة من المؤمنين، ومغبّة جلب الكافرين، ثعالب مكارين لا أسدٌ يسفرون عن وجوههم في الميادين، وهكذا يكون دوماً دور الساسة الشياطين!.

إنهم في لقاءاتهم ذوو وجوه، ففي لقائهم المؤمنين ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٦٦، ٦٧.

ليخدعوهم، وليس إلّا لقاءً عابراً دون خلوة واطمئنان ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ﴾ معتذرين إليهم ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ ليست لقاءنا المؤمنين إلّا استهزاءً وتجسساً دون تحسّس لهم، إلّا عليهم ولكم.

فشياطينهم: رؤوس الضلالة، هم الأصلاء ضد المؤمنين، وهؤلاء الجواسيس وسائطهم، فهم يخلون بهم دوماً - إلّا في لقاءات عابرة مع المؤمنين - فيشاورونهم كيف يلاقون المؤمنين، وكيف يضللونهم وكيف؟.

وهؤلاء الشياطين - على الأكثر - كانوا ولا يزالون هم اليهود، الذين يجدون في المنافقين أداة لتمزيق الصف الإسلامي وتفتيته، وتوهين العقيدة الإسلامية وتبكيتها، طالما أصول المنافقين كذلك منهم فـ ﴿شَيَٰطِينِهِمْ﴾ يعم كبراءهم المنافقين ورؤوس الكفر والضلالة مشركين وكتابيين: شياطين أصول، وشياطين أذناب عملاء يصدرون عنهم ويردون إليهم.

و﴿خَلَوْاْ إِلَىٰ﴾ دون «خلوا بهم» تلمح أنهم مراجعهم وملاجئهم، حيث الخلّو به لقاءٌ منفرد، والخلو إليه اطمئنان والتجاء، فإنهم يشمئزون وحتى من مجرد لقاء المؤمنين وإن كان استهزاءً، فيخلون إلى الشياطين، حاملين معهم أسرار المؤمنين.

ثم وقولهم في خلوّهم إليهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ تثبيت لكفرهم السابق، رداً للمحة اللقاء إلى الإيمان و﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ نفي صريح لإيمانهم، أن ليس إلّا استهزاءً بالمؤمنين، تأكيداً لهذه المعية الكافرة، وتوطيداً لعلاقة العمالة المنافقة.

والاستهزاء البادي هو من الجهل: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(١) حيث العالم يرشد ما أثّر، ويترك ما لم يؤثر، وأما أن يستهزأ فهذا جهل وسوء خلق.

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٧.

وأما جزاءُ الاستهزاء باستهزاء فهو جزاء وفاق، يوافق العلم والعدل، لذلك فـ ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ يوم الدنيا ويوم الدين، فهنا يجري عليهم أحكام الإسلام وهناك هم في الدرك الأسفل من النار، وما إلى ذلك من تمويه يستحقونه بما كانوا يموّهون ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فـ ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾(١).

وهكذا يكون دوماً دور الناكرين للرسالات الإلهية، المعاندين، أن يجابهوها باستهزاء واستخفاف دونما حجة يواجهون بها حج الرسالات: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾(٢).

و﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ هنا بما يهزأ ويسخر منهم عذاب الأولى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾(٣)، وأخرى في الأخرى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾(٤) وكما سخرت أمواج الطوفان بقوم نوح الذين كانوا منه يسخرون: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ . . . حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ . . .﴾(٥).

والقول: إن ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ دعاء من الله على المنافقين، هُراءٌ جارف خارف، فمن ذا الذي يدعوه الله عليهم، ويرجو منه أن يستهزأ بهم؟ فإنما الله يُدعى ولا يدعو، إذ لا إله يُدعى إلّا هو!.. فإنما هو إخبار من الله أنه يستهزأ بهم في الأولى والأخرى.

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٤١.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٤٨.
(٥) سورة هود، الآية: ٤٠.

ومن استهزائه بهم في الأولى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: مداً في حياتهم وزهواتهم، زعاماتهم وثرواتهم، فيحسبونهم أنهم كرماء يستحقون هذه التكريمات، فيُمدون بها في طغيانهم يعمهون، كما ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾(١): ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾(٢)، وهكذا يستدرجهم من حيث لا يعلمون: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾(٣).

فهم أولاء في طغيانهم يعمهون بين مدّين: إلَهي حيث يمهلهم ويَمدّهم بأموال وبنين، وشيطاني حيث إخوانهم في كفرهم يمدونهم في الغيّ ثم لا يقصرون، وهذان المدّان من مُخلّفات إصرارهم على الكفر بالله وهُزئهم برسالات الله! «و ما الله يريد ظلماً بالعباد»!

ثم وفرق بين المدّ والإمداد، أنّ المدّ زيادة في الشيء من نفسه والإمداد زيادته من غيره، والله يمدهم: يزيدهم في طغيانهم بما طغوا وبغوا، أن يتركهم دون إمداد للخير حيث عاندوا الحق وأصروا على الباطل فـ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ بمعنى: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(٤) فمجرد تركهم في طغيانهم ومدّهم بأموال وبنين يزيدهم طغياناً وعمهاً.

إنه يمد لهم كأنه يخلّيهم والامتداد في عمههم والجماح في غيِّهم، إيجاباً للحجة وانتظاراً للمراجعة بعد وضوح المحجة، تشبيهاً بمن أرخى الطول للفرس، ليتنفس خناقها، ويتسع مجالها.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٢.
(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ٥٥، ٥٦.
(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ١٨٢، ١٨٣.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٦.

وترى وماذا ﴿يَعۡمَهُونَ﴾؟ إنه عذاب فوق العذاب، وتباب في الحياة أيّ تباب؟ فهو التردد والتحيّر في الضلالة دون أن يعرف الحجة، ولا أين يتوجه في المهجَّة، والعَمَه في البصيرة كالعمى في البصر، فمن عمهت بصيرته عميت سيرته، وشملته حيرته، يعيش محتاراً، يتخبط في مشيته ويمشي مكبًّا على وجهه.

وما أورع استهزاء الله وأروعه بهواء الهزالى التائهين، حيث يدعهم يتخبطون على غير هدىً، في طريق ضلت غايته، وفي النهاية تتلقفهم اليد الجبارة، أخذ عزيز مقتدر، حيث تواثبوا في فخّهم بذات أيديهم كالفئران الغافلة عن المقبض المكين!

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾:

باب سابع من أبواب جحيم المنافقين هو الدرك الأسفل حيث تتشعب عنه الأبواب الستة السابقة «اشتراء الضلالة بالهدى»!

وترى متى كانوا على «الهدى» حتى يشتروا «الضلالة» بها، والتجارة بحاجة إلى رأس مال هو هنا الهدى وهم فاقدوها؟!

أقول: إن رؤوس أموالهم هنا في معترك تجارة الضلالة والهدى، هي العقول والفطر، حيث الفطرة كما فطرها الله منطلقة إلى الهدى، إلى الدين حنيفاً: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1].

كما والعقول من شؤونها الأولية أن تعقل أحكام الفطر، المنبثقة من أعماقها بما فطر الله، ولكن «إنارة العقل مكسوف بطوع الهوى»!

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

ثم الهدايات الإلهية التي تترى لهم وتتوارد، مؤيدةً مكملة للفطر والعقول، هي الزاوية الثالثة من مثلث الهدى التي يملكونها، ولكن هم رغم الهداية المثلثة باعوها واشتروا الضلالة ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾: كيف يتاجرون إذ استبدلوا الأركس الأدنى بما أمكنهم من الغالية الأعلى! فـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾[1] وقد كانوا يملكون الحياة الآخرة بما ملّكوا من أسبابها - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾[2] و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[3]!

فـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾«أولئك» المنافقون هم ﴿ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾: الدنيا والعذاب بشهواتها ولهواتها ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾: هدى العقول والفطر وهدى الأنبياء، فالمغفرة والأخرى ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ فقد خسرت، حيث التجارة بين ربح وخسران، وهم خسروا عقولهم وفطرهم وخسروا أنبياءهم فـ: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[4] حيث خفت موازينهم في إنسانيتهم: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾[5] ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[6]! ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾: ما هي التجارة الرابحة، فلم يكونوا ليهتدوا منذ كانوا حيث انحرفوا عنها مبصرين، وانجرفوا في ضلالهم عمهين! ولكنهم استبدلوا الغي بالرشاد، والكفر بالإيمان فخسرت صفقتهم ولم تربح تجارتهم.

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٥.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٧.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢.
(٥) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٣.
(٦) سورة المجادلة، الآية: ١٩.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾:

هذا والمثل الذي يتلوه لا بدّ وأن يمثّل حالات المنافقين المسرودة من ذي قبل جامعة لأصل النفاق.

فكما الذي يستوقد ناراً ليستفيد من نورها ويضر بنارها، ترى لو ذهب نورها وبقيت نارها بحرِّها، فلا يُبصر وقد يحرق هو بما أوقد:

كذلك المنافقون، فنفاقهم نار موقدة ليستضيئوا بنور الإسلام ويحرقوا المؤمنين بنار النفاق ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ حيث استفادوا قليلاً، فعمر الدنيا قليل بجنب الآخرة ولو عُمّروها كلها، كيف وهم لا يُعمَّرون منها إلّا قليلاً ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ حيث يفضحهم هنا فلا نور به يستضيئون كما يذهب به يوم يقوم الأشهاد، إذ لم يبق من نور إسلامهم ولا ظاهرٌ مدعى ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ فلم يبق هنا وهناك إلّا نار مظلمة بلا نور، فنار الجحيم لا نور فيها، وكذلك نار الفضيحة هنا!

ويا له من مثل يمثّل حقيقة حالهم هنا ومآلهم هناك، إن النفاق نار مظلمة تحرقهم في ظلماتها يوم الدنيا ويوم الدين، وهم ليسوا ليستفيدوا من نورها إلّا ظاهراً ضئيلاً مؤقتاً يوم الدنيا، ثم لا يطول إلّا قليلاً وقد ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾:

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: ﴿صُمٌّ﴾ وهم يسمعون إذ عطلوا آذانهم الإنسانية عن سماع الحق ﴿بُكْمٌ﴾ وهم ينطقون إذ عطلوا ألسنتهم عن كلام الحق ﴿عُمْىٌ﴾ وهم يبصرون إذ غطوا أعينهم عن مشاهدة الحق ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى الحق: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[1].

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

ومن لطيف الأمر في تمثيلات القرآن أنها كلها حقائق بعيدة عن التخيلات والأوهام، لحدّ نراها تقحم في ممثلاتها كما هنا: يبتدىءُ المثل بـ ﴿ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارًا...﴾ وهو فرد، ثم ينتهي عند الاستنتاج إلى الممثل نفسه وهو جمع: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ وليس المثل بالذي يقرب الممثل عن بُعده إلّا إذا كان واقعاً ملموساً كما هنا، دون الأمثال البعيدة عن الواقع التي تبعّد ممثّلاتها أكثر وأكثر!.

هذا المثل الأول يمثل جماع حال المنافقين أنفسهم وأما الثاني:

﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾

فـ ﴿أَوۡ﴾ هنا للتقسيم حيث هذا القسم يختلف عن الأوّل تمثيلاً، فإنه مثلهم أنفسهم فيما يفعلون، وهذا مثلهم وجاه صيّب الدعوة السماوية الإسلامية، مثلٌ يبدأ بهذه الدعوة الصارمة: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ...﴾ وينتهي إلى: كيف يعاملونها ويتأثرون بها! ويتطلعون إليها!

و﴿كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هو غزير المطر حيث يُصبُّ من السماء في ثورة الأمطار طوفانية المصدر، بحرية المورد، حاوية - رغم حياتها المائية - مثلث الإرهاب: ﴿ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ﴾: ظلمات السحاب والغيوم المتراكبة التي تحول دون ضوء الشمس نهاراً، ودون أنوار نجوم السماء وقمرها ليلاً، ويواكبها ﴿وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ﴾ رعدٌ هو صوت قوي تحدث عن اصطكاك السحاب، وبرق: هو نور يذهب بالأبصار نتيجة الاصطكاك، والصواعق هي نوازل الرعد والبرق: قصف رعد ينقض منها شعلة من نار لطيفة لا تمر بشيء إلّا أتت عليه وهي مع قوتها سريعة الخمود!

وهكذا تمثل الرسالة القرآنية أنها «صيب من السماء» مطرٌ غزير تسقي أراضي القلوب لتحييها، نازلة من سماء الوحي الأخير، ساترة على كافة الأنوار، فإنها نور الأنوار، وشمس مضيئة لا قبل لها، وهذه من ظلماتها، وأخرى أنها تظلم على القلوب الخاوية الظالمة الخاسرة: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[١] ومنها القلوب المقلوبة المنافقة! وثالثة أنها تصاحبها ظلمات العرقلات ممن يقفون لها بالمرصاد، ورابعة أنها هطلت ونزلت في أجواء مظلمة من أضغاث أحلام وخرافات أوهام!

ومن ثم رعدها هو صوتها الجلي العالي، الواصل إلى آذان من لهم آذان، الصارخ فيها صرخة الحق النافذة في الأنفس: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾[٢] فهذه آذان الناس، وأما النسناس: فـ ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾: حيث ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾[٣]: فيجعلون أصابعهم في آذانهم من صيحة الحق وصرخته حذر الموت، وهي التي تحييهم، وهذه الحيطة الإلهية حيطة عذاب بعلم محيط وقدرة محيطة، فرغم نفاقهم العارم ليس الله بغافل عما يعملون: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ۝١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ۝٢٠﴾[٤] فهنا الله يحيط بهم حيطة عذاب عن علم وقدرة، وللمؤمنين حيطة رحمة عن علم وقدرة: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ مهما اختلفت الحيطة نقمة ورحمة، فإنها من مصدر علم وقدرة!

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ٦٣.
(٣) سورة المنافقون، الآية: ٤.
(٤) سورة البروج، الآية: ١٩، ٢٠.

ومن ثمّ برقها: نورها الشامل كالشمس في رابعة النهار، النافذ إلى الأعماق حيث نور البرق تختلف عن سائر النور، ولأن أبصارهم كليلة وأنفسهم عليلة ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ هذا البرق المنير، الهادي لكل بصير في الظلمات يكاد يخطف أبصارهم: يأخذها بسرعة حسداً منهم وخوفاً ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾: إضاءة في ظل إسلامهم الظاهر، وإفادة من ميّزاته في حال أو مال أو منال ﴿مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ منتفعين كأنهم من المسلمين ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ ببلايا أو رزايا للمسلمين، في حروب دامية فنقص من الأموال والأنفس والثمرات - ﴿قَامُوا۟﴾: وقفوا عن كل حراك، وتنحّوا عن العراك فراراً دون قرار، زحفاً عن معتركات الحروب.

فالإسلام مطر غزير دائم، إلّا أن فيه ظلمات العقبات في حروب ومعاركات سجال: غالبين أحياناً فبرق، ومغلوبين أخرى، فظلمات كما فيه نور الخيرات وكلها خيرات!

هؤلاء المنافقون هكذا يعاملون مطر الإسلام الغزير بظلماته ورعده وبرقه فبرقه لهم خاطف الأبصار. ورعد الصاعقة منه صامة الأسماع، أترى هذه أبصار وأسماع الإنسان!

وإذ لا ينتفعون بها ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] ولكنه يبقيها لدوامة الحجة عليهم.

وإنه مشهد عجيب رهيب، حافل بالحركة الثورة، مشيج باضطراب، فيه أضواء وأصداء، وفيه ظلمات وعماء.

فهناك ظلمات طامة عامة كانت شاملة للعالم أجمع قبل بزوغ الإسلام، وفي هذه الظلمات المتراكمة هطلت غزيرة أمطار وحي القرآن ﴿كَصَيِّبٍ مِّنَ

(١) راجع الجزء: ٢٩ ص ٥ - ١٠ كلام في القدرة.

﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ لتسقي أراضي القلوب الواعية، فمن خلال هذه الظلمات أرعد القرآن وأبرق فتجاوبا في صاعقة نورانية روحانية، وتتفتح الآذان الصاغية، وتتصدع بها القلوب الواعية وتتصدى لها، وهي القلوب المؤمنة.

ولكنما المنافقين ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ . . . يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ إذ لا يريدون إبصاره ولا يحبون قراره فـ ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾ إضاءة خاصة للمتاجرين بالدين، المتظاهرين بالإسلام مغبّة الانتفاع ﴿مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ مستفيدين، كما في حالات الصلح أو الحرب الإسلامية الغالبة، وفي سائر الميّزات الإسلامية - «و» أما ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ في حرب مغلوبة، أو فضيحة لهم بما يعرِّفهم الله «قاموا» وقفة عن كلّ حراك اللّهم إلّا ضد الدعوة!

فهذا الصيّب البرق الصاعقة للمؤمنين به ضوء دائب، ونور واصب، في الصلح والحرب، غالبين ومغلوبين، في الأفراح والأتراح، ولكنه بالنسبة للمنافقين ضوء أحياني وظلمة أخرى، حسب مختلف الحالات ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم . . . وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾!

حيث الإضاءة، والإظلام هي فقط بالنسبة لهم، فإنه للمؤمنين إضاءة على طول الخط وفي كافة الأحوال.

مشهد حسي واقعي يمثّل حالة نفسية عن المنافقين كأنها محسوسة، تجسيماً لأحوال هذه النفوس البئيسة في كافة حالاتها وتصرفاتها ومواجهاتها للصيّب الهاطل القرآني، الراعد البارق الصاعق!: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾: من قوة إيماضه وشدة التماعه: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾[(١)].

هنا يتم استعراض الصور الثلاث: المتقين - الكافرين - المنافقين - ومن ثمّ خطاب عام للناس أجمعين لكي يصبحوا من المتقين.

(١) سورة النور، الآية: ٤٣.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ
تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا
وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢ وَإِن كُنتُمۡ فِى رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ
بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ
٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ
أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ
جَنَّٰتٖ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ
هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ
وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡىِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا
بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ
كَثِيرٗا وَيَهۡدِى بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ٱلَّذِينَ
يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيُفۡسِدُونَ فِى ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ
وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ
٢٨ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى
ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٞ ٢٩﴾

تبتدئ هذه الآيات بدعوة الناس لعبودية الله، مبرهنة لها بمثلث الأصول الدينية: التوحيد - النبوة - المعاد، فلولا الاعتناق بها فلا مجال لعبادة الله، إلّا تقليدياً دون برهان كما في بداية الإسلام والاستسلام، ولكنما الله يريد منا هنا الإيمان المكين مزوداً ببراهين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ولماذا «الناس» وهي أعم شمولاً من ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا... وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ و﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ وإلى ﴿ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ﴾ حيث تشمل مثلث المؤمنين والمنافقين والكافرين؟:

أقول: لأن دعوة القرآن شاملة للناس أجمعين إلّا القصّر والمجانين مهما اختص واقع التأثير بالمتقين كما مضى في آية المتقين، فإن رسل الله يبلغون رسالات الله ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾(١).

فالناس في القرآن (٢٤١) مرة وهي أكثر بكثير من المسلمين والمؤمنين والمتقين وحتى من بني آدم، حيث الأخير أعمّ من الناس إذ يشمل القُصَّر والمجانين، والأول تختص بمن يتقبَّل الدعوة وإن كان إقراراً باللسان:

و﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ نداء تنبيه، استجاشة للضمير الإنساني إلفاتاً إلى ما يصلح الناس حيطة على كونهم ناساً خارجين عن نسناس.

ثم ونداء البعيد هنا «يا» لبعدهم عن حضرة الربوبية قبل أن يعبدوه!

﴿ٱلنَّاسُ﴾ هنا وفي سواها لا يخص الموجودين زمن الخطاب، فإن دعوة القرآن لا تختصهم، حيث القرآن دعوة خالدة فلتشمل كل من يصح دعوته، فما استجدّ من قرون مستقبلة وإلى يوم الدين مشمولة لهذه الدعوة،

(١) سورة المرسلات، الآية: ٦.

مهما لم تشملهم زمن النزول حيث لم يكونوا، كما لم تشمل القصَّر والمجانين إذ لم يؤهلوا لها.

فخطابات القرآن هي حقيقية، فما وجدت لها مخاطبين شملتهم، وليست فعلية زمنية، بل على نحو القضايا الحقيقية الشاملة مواردها في أوقاتها.

وهل الكفار مأمورون بالعبادة وهم ملحدون في الله أو مشركون، وعبادة الله فرع الاعتراف بالله وتوحيده؟

أقول: نعم - إذ لهم أن يصدقوا به فيعبدوه، إذاً فهم يؤخذون بالفروع كما الأصول: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾[١] حيث الويل لهم يشمل فرع الزكاة بين أصلي التوحيد والمعاد، لا سيما وهنا الأمر بالعبادة قرين التوجيه إلى مثلث الأصول. ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا...وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا ... كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ...﴾ «اللهم إلّا القصر المستضعفين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم...» خارجين عن الويل المحتوم إلى رجاء العفو.

﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾: اعبدوه لأنه ربكم - لا فحسب بل ولأنه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾: الرب الخالق لكم - لا فحسب أنتم بل ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فهو خالق كل شيء ورب كل شيء - فاعبدوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ كما ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢].

(١) سورة فصلت، الآيتان: ٦، ٧.

(٢) فـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لا تخص الترجي بحصول التقوى من العبادة، بل ومن الخلق، اعبدوا... لعلكم تتقون - خلقكم لعلكم تتقون، واللفظ يحتملها فهما معاً مقصودان وكمال تدل عليه الآيات المسرودة في المتن.

﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ... لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ حيث العبادة والتقوى غاية الخلق: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾(١) فلأنه رب خالق فاعبدوه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾(٢) واتقوه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾(٣) ولكنما التقوى لا تحصل إلّا بعبادته كما أمر: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ... لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ كما ﴿خَلَقَكُمۡ... لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾(٤): فقد خلقكم ورباكم أنتم والذين من قبلكم لتعبدوه فتتقوه! حيث تختلفان سبباً ومسبباً! كما ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾(٥) (٦).

ولأن مطلق العبادة لا تنتج التقوى وإنما العبادة المطلقة الخالصة هي التي تنتجها، فلا تترتب التقوى على مطلق العبادة، لذلك: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ... لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٢.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٨٤.
(٤) تفسير البرهان ١: ٦٦ - القمي قال علي بن الحسين عليه السلام في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يعني سائر المكلفين من ولد آدم - اعبدوا ربكم - أطيعوا ربكم من حيث أمركم أن تعتقدوا أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ولا شبيه له ولا مثل له، عدل لا يجور، جواد لا يبخل، حليم لا يعجل، حكيم لا يعجل، وأن محمداً عبده ورسوله... ثم قال: اعبدوا الذي خلقكم من نطفة من ماء مهين، فجعله في قرار مكين إلى قدر معلوم... والذين من قبلكم من سائر أصناف الناس «لعلكم تتقون - قال عليه السلام: لها وجهان:
أحدهما: وخلق الذين من قبلكم لعلكم كلكم تتقون - أي لتتقوا كما قال الله: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] -.
والوجه الآخر: اعبدوا الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون - أي: اعبدوا لعلكم تتقون النار، ولعل من الله واجب لأنه أكرم من أن يعني عبده إلى منفعة ويطمعه في فضله ثم يخيبه» أقول: يعني رجاءه في موقعه بلا خيبة لا أن التقوى حاصلة بالعبادة على أية حال.
(٥) نجد التقوى في كثير من الآيات جعلت نتيجة التقوى رجاءً أم واقعاً.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

فرجاء اتقاء المحاظير في حظيرة العبودية واقعة على أية حال، وواقع الاتقاء في حق العبودية لحضرة الربوبية لا محالة كائن.

فلأن العبادة المعنيّة هنا من الناس ليست هي المطلقة الخاصة بالمتقين، لذلك لا مجال لها إلّا رجاء التقوى، وحتى بالنسبة لحق العبادة المنتجة لحق التقوى، هنا كذلك مجال لتقوىً أعلى، فقد تكون الرجاء لأصل التقوى كما للبدائيين في عبادة الله، وأُخرى هي لدرجاتها صاعدة إلى أعلى فأعلى كما للمتوسطين والرعيل الأعلى.

فكما العبادة درجات كذلك التقوى الناتجة عنها درجات: طبقاً عن طبق في مختلف الإطارات، كلما ازدادت العبادة زادت التقوى، وكلما زادت التقوى ازدادت العبادة.

وأساس التقوى هو الوقاية عن نسيان ذكر الله، الذي هو أُسّ البلايا كلِّها: «فإن قال قائل فلم يعبدوه»؟ - وهو ليس بحاجة أن يعبدوه - «قيل: لئلا يكونوا ناسين لذكره ولا تاركين لأدبه، ولا لاهين عن أمره ونهيه، إذا كان فيه صلاحهم وقوامهم فلو تُركوا بغير تعبد لطال عليهم الأمد فقست قلوبهم»[(١)] و«ليست العبادة كثرة الصلاة والصوم، إنما العبادة التفكر في أمر الله عزوجل »[(٢)] و«إدمان التفكر في الله وقدرته»[(٣)] فـ«لا عبادة إلّا بتفقّه»[(٤)].

لذلك نرى الآية تبرهن لزوم العبادة بسناد الخلق مبدئياً والتقوى نهائياً، ومن ثم الآيات الآفاقية بعد الأنفسية:

(١) نور الثقلين ١: ٣٩ عن عيون أخبار الرضا عليه السلام فيما ذكره الفضل بن شاذان من العلل عن الرضا عليه السلام.

(٢) نور الثقلين ١: ٤٠ عن أصول الكافي عن الإمام الرضا عليه السلام.

(٣) المصدر عن الإمام الصادق عليه السلام.

(٤) المصدر عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

واجهة الخطاب هنا المشركون، المقرّون بالله، المشركون في عبادة الله، يذكّرهم بما يفرض عليهم توحيد العبادة لله إذ ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ وَ... فهل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ في العبادة ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن لا أنداد له في الألوهية، كما وتناظرها آياتها الأخرى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾[١].

فالأرض الفراش في امتهادها، والسماء البناء بارتفاعها، النازل منها الماء، المخرج من الأرض ثمرات، هذه وتلك التي هي من نعم الله وحده تفرض أن تكون العبادة أيضاً لله وحده دون أنداد: أمثال ونظراء في العبادة، فإنه ضلال مبين: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[٢].

و﴿... جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾[٣]

(١) سورة النمل، الآيات: ٥٨ - ٦٤.
(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٩٧، ٩٨.
(٣) سورة الذاريات، الآية: ٤٨.

تلمحان إلى أنها ما كانت فراشاً حين خُلقت، وإنما فُرشت مهداً ومهاداً لساكنيها راحة الحياة دون تصعّب وشماس، فكما الأنعام فراش: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾(١) كذلك الأرض على حركاتها جعلها الله ذِلّاً بعد شماس، وحمولة فرش بعد ارتكاس، «ملائمة لطباعكم، موافقة لأجسامكم»(٢).

كما وإن ﴿لَكُمُ﴾ تصريحة: أن فراش الأرض هو لصالح حياتكم عليها، وترى أن «كم» هم نحن الأنسال من آدم الأخير، المخلوق أخيراً بعد ملايين السنين من فراش الأرض، أم والأنسال السابقة من أناسيّ سابقين، الذين خلقوا منذ فراش الأرض، كما تدل عليه آيات الخلافة وأقوات الأرض؟(٣).

علّه الأوّل، لا اختصاصاً بنا، وإنما تكريماً لنا على من سبقنا، أم هو الثاني جمعاً بين المكلفين، وإن كانوا حال الخطاب منقرضين، ولكنما الماضين متى يشملهم مستقبل الخطاب؟ اللهم إلّا إذا خوطبوا من قبل كما هنا وأنّى لنا بإثباته! ويا لفراش الأرض من نعمة عظيمة لا ندركها لأننا ساكنوها منذ كنّا، حيث يتطلّب موافقات عدّة بين عناصر عدة تُعدُّ الأرض بها فراشاً لها، فلو فقد أو قلّ أو زاد عنصر واحد من هذه العناصر في ترابها أو مائها أو هوائها لاستحالت أو صعبت الحياة عليها، سبحان الخلاق العظيم!..

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٢.

(٢) نور الثقلين ١: ٤١ عن عيون الأخبار، ابن بابويه بسنده عن الحسن بن علي العسكري عليه السلام مسلسلاً عن آبائه الكرام عن علي بن الحسين عليه السلام في الآية: ... ولم يجعلها شديدة الحمّا والحرارة فتحرقكم ولا شديدة البرد فتجمدكم ولا شديدة طيب الريح فتصدع هاماتكم ولا شديدة النتن فتعطبكم، ولا شديدة اللين كالماء فتغرقكم ولا شديدة الصلابة فتمتنع عليكم في دوركم وأبنيتكم وقبور موتاكم ولكنه عزّ وجلّ جعل فيها من المتانة ما تنتفعون به لدوركم وقبوركم وكثير من منافعكم فلذلك جعل الأرض فراشاً لكم...».

(٣) يأتي البحث عن آيات الخلافة هنا وآيات الأموات في فصلت.

كذلك السماء حيث جعلها الله بناءً ولم تكن بناءً، فنور الأرض وأمطارها وكثيرةٌ أُخرى من بركاتها هي من بناء السماء: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾[1] ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾[2] [3] . . . ثم ومن آثار بناء السماء: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾[4] فـ «أنزل» هنا دون «ينزل» توحي بالنزول الدفعي الأوّل، حيث الأرض كانت كرة عطشانة محترقة، لا ماء فيها ولا كلاء، فأنزل الله عليها من ماء السماء ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾[5].

فأرضنا الشموس العطشى كانت تتطلّب لمهادها لنا ماءً: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾[6] ولو أن مياه الأرض أو بعضها كانت من نفسها لم يكن هنا موقع للتهديد بذهاب مياه السماء فإنما حياة الأرض منوطة بمياه السماء: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[7] [8] فسبحان من أمسكها بعد موجان

(١) سورة النبأ، الآيات: ١٢ - ١٦.
(٢) سورة النازعات، الآيات: ٢٧ - ٣٣.
(٣) راجع الجزء الثلاثين إلى تفسير هذه الآيات في بناء السماء ص ٢٥ - ٢٨ وص ٨٦ - ٨٨ وكما نبحث عنها مفصلاً في الآيات من «فصلت» عن خلق الدخان السماوي وجعلها سبعاً.
(٤) سورة النمل، الآية: ٦٠.
(٥) سورة النبأ، الآيات: ١٤ - ١٦.
(٦) سورة المؤمنون، الآية: ١٨.
(٧) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.
(٨) راجع العنوان ص ٢٩ - ٣٢ حول مياه المعصرات.

مياهها، وأجمدها بعد رطوبة أكنافها، فجعلها لخلقه مهاداً، وبسطها لهم فراشاً فوق بحر لجّي راكد لا يجري، وقائم لا يسري، تُكر كِره الرياح العواصف، وتمخَضه الغمام الذوارف، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى[(١)].

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن هذه النعم هي من إله واحد دون أنداد!: أمثال ونظائر أو أضداد.

وكما التوحيد له درجات، كذلك اتخاذ الشركاء الأنداد دركات: فالند قد يُعبد من دون الله، أو يُعبد مع الله، أم لا هذا ولا ذاك وإنما يخضع له كما يخضع لله ركوعاً أم سجوداً أم ماذا؟ واستغاثة واستعانة به من دون الله، أو مع الله، أو بعد الله أم ماذا؟ أو اعتقاد تأثير له من دون الله أو مع الله أو بعد الله أم ماذا؟ فحتى الرئاء شرك بالله، فجعل الأنداد لله محرم أو كفر أو شركٌ أو إلحاد بالله، صاعدة إلى اتخاذها آلهة من دون الله، ونازلة إلى الرئاء وبينهما متوسطات!: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[(٢)] حيث الشرك كدبيب النمل! ففي الحديث أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ ما شاء الله وشئت قال: أجعلتني لله نداً؟! وقد قالت اليهود له ﷺ دينك خير دين لولا أن أمتك مشركون! قال: وكيف؟ قالوا: حيث يقولون: لو شاء وشاء محمد، فغضب فقال لهم: لا تقولوا هكذا، قولوا: لو شاء الله فشاء محمد تفريعاً لمشيئته ﷺ على مشيئة الله، لا قرناً لها إياها!

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

(١) نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام.
(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

. . . تحدٍّ بالقرآن - أنه وحي السماء - الناس أجمعين في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، جزماً بعدم إمكان الإتيان بمثل القرآن ولا بسورة من مثله: القرآن: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾!.

وتحدٍّ بمن أنزل عليه ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾: عبدنا، تحديان يتمازجان، فيضربان في أعماق تاريخ الرسالات وكتابات الأرض والسماء: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾: مثل القرآن من كتب الوحي في أنها وحي مهما اختلفت مراتبها - وكذلك فيمن أنزل عليه: رجالات الوحي ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾: مثل عبدنا الذي لم يدرس فأصبح مدرساً للعالمين، أو وحتى مثله في البشرية وإن كان عالماً نحريراً! فقرآن محمد ومحمد القرآن معجزتان متلازمتان فائقتان سائر المعجزات لسائر رجالات الوحي خالدتان ما طلعت الشمس وغربت!.

«التحدي بالقرآن»:

نجد آيات التحدي بالقرآن في مثلث التحديات:

١ - بالقرآن كله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(١) وهذا أشمل التحديات حيث يشمل الجنّة والناس أجمعين متظاهرين متظافرين أيّاً كانوا وأيّان، والقرآن كما هو صادق على كله كذلك على آية منه وبينهما عوان!.

٢ - بعشر سور مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾(٢).

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

(٢) سورة هود، الآيتان: ١٣، ١٤.

٣ - بسورة من مثله - كما هنا - وهو أقوى التحديات من حيث القرآن مَن أنزل عليه، فالقرآن: ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾، وإن كانت كالكوثر - لا فقط بعشر أو به كله - ومن أنزل عليه وإن كان مَن كان إذا كان مثله(١): أمّياً لم تسبق له أية دراسة أو كتابة أو قراءة: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾(٢)، ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ

(١) الضمير الغائب في «مثله» يرجع إلى «عبدنا» كما هو راجع إلى «ما نزلنا» وهما معاً مقصودان حيث تتحملها الآية لفظاً ومغزى.

وكما في تفسير البرهان نقلاً عن تفسير الإمام العسكري عن الإمام الباقر عليه السلام: في الآية قوله: ﴿فَأْتُوا۟﴾: يا معشر قريش واليهود! يا معشر النواصب المنتحلين بالإسلام الذين هم منه برآء! ويا معشر العرب الفصحاء البلغاء ذوي الألسن ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] من مثل محمد مثل رجل منكم لا يقرأ ولا يكتب ولم يدرس كتاباً ولا اختلف إلى عالم ولا تعلم من أحد وأنتم تعرفونه في أسفاره وحضوره - بقي كذلك أربعين سنة ثم أوتي جوامع العلم حتى علم الأولين والآخرين - فإن كنتم في ريب في هذه الآيات فأتوا من مثل هذا الرجل بمثل هذا الكلام ليتبين أنه كاذب كما تزعمون، لأن كل ما كان من عند غير الله فسيوجد له نظير في سائر خلق الله، وإن كنتم معاشر قراء الكتب من اليهود والنصارى في شك مما جاءكم به محمد صلى الله عليه وآله وسلم من شرائعه.. فأتوا بسورة من مثله - يعني: من مثل القرآن من التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم.. فإنكم لا تجدون في سائر كتب الله تعالى سورة كسورة من هذا القرآن.

وفيه عن الإمام علي بن الحسين مثله وزيادة هي: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] من مثل محمد - أي: لم يختلف إلى أصحاب كتب قط ولا تلمذ لأحد ولا تعلم منه وهو من قد عرفتموه في حضره وسفره ولا يفارقكم قط إلى بلد، ليس معه جماعة منكم يراعون أحواله، ويعرفون أخباره، جاءكم بهذا الكتاب المشتمل على هذه العجائب، فإن كان متقوّلاً كما تزعمون وأنتم الفصحاء والبلغاء والشعراء والأدباء الذين لا نظير لكم في سائر الأديان ومن سائر الأمم، فإن كان كاذباً فاللغة لغتكم وجنسه جنسكم وطبعه طبعكم وسيتفق لجماعتكم أو لبعضكم معارضة كلامه هذا بأفضل منه ومثله، لأن ما كان من قبل البشر لا عن الله فلا يجوز ألا يكون في البشر من يمكن من مثله فأتوا بذلك لتعرفوه وسائر النظار إليكم في أحوالكم انه مبطل كاذب على الله تعالى...

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[١] وأن تقولوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾[٢]: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾[٣] فحيث لم يجدوا عربياً يفترون أنه علّمه، قالوا: علّمه سلمان الفارسي، خبلاً في فريتهم وخبطاً عشوائياً في مريتهم، فجاء الجواب الحاسم: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾! فإذا لم يأت به عربي ولم يعلمه فكيف بأعجمي جاءه في العهد المدني، وقد نزل من القرآن شطر عظيم في العهد المكي!.

٤ - ثم وحتى بآية فإنها قرآن ويشمله التحدي الأول وإن لم ترد في خصوصها آية، حيث الآية في القرآن تعني الآية الإلهية: الدالة على كونها إلهية المصدر والصياغة، بنفسها، وكما الآيات تعبير عن المعجزات فالقرآن آية إلهية بمجموعه - بعشر سور - بسورة - بكل آية آية: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[٤].

ومهما كانت هذه الآيات درجات بالنسبة للمستدلين بها.

ولكنها كلها مصبوغة بصبغة واحدة، مساغة بصيغة واحدة فصاحة وبلاغة وحتى في موسيقى التعبير فضلاً عن محتوياتها.

فالقرآن آية إلهية جملة وتفصيلاً - بآية أو سورة أو عشر سور أم كله، مهما اختلفت القابليات في الحصول على هذه أو تلك بمختلف العقول في مختلف الحقول!.

(١) سورة يونس، الآية: ١٦.
(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٣.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٠٣.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٢.

ومن ثم فحتى لو درس محمد ﷺ في المدارس كلها واكتسب العلوم كلها لا يقدر أن يأتي بمثل هذا القرآن ولو بسورة من مثله أو آية! كيف ولم تسبق له سابقة دراسة أو تلاوة ثم أتى بالقرآن العظيم الذي يعجز دون سورة منه العالمون، ولقد كان المجال أمامهم مفتوحاً، واهتمامهم الشديد بمعارضة القرآن وإبطال حجته مفسوحاً، وحتى الآن لم يأتوا ولن يأتوا ولا بسورة من مثله - أفلا يدل كل ذلك على تحليق القرآن على أجواء الفصاحة والبلاغة تعبيراً، وعلى أجواء العقول في كافة الحقول، وعلى أجواء مختلف العلوم معبراً عنه، طوال أربعة عشر قرناً، وحيداً في ميادين السباق، بل لا سباق إذ لا رفاق!

أفلا يدل كل﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ ذلك أنه نازل بعلم الله؟ ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾[1].

﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ في دراسة موسعة:

﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ فيما يُعنى من الضمير ﴿عَبْدِنَا﴾ ابتدائية نشوية: فأتوا بسورة من مثل عبدنا الأمي ثم قايسوا بها سورة من القرآن، لتعرفوا البون الشاسع بينهما، فليكن نازلاً بعلم الله، وحتى إذا استويا، إذ لا مساواة ولا مساماة بين وحي الأرض ووحي السماء!.

أو «من مثل عبدنا» في كونه عبداً وإن كان من عباقرة العلم - وهو أمي! - فأتوا بسورة من أي جن أو إنسان أو نبيٍّ أو أيّاً كان، ثم قايسوا بها سورة من القرآن الذي جاء به هذا الأمي، لتعرفوا - كذلك - البون بيّناً[2] فليكن نازلاً بعلم الله.

(١) سورة هود، الآية: ١٤.
(٢) هنا يجمع بين المماثلة في الأمية، والمماثلة في كونه عبداً، وحتى نبياً حيث تحملهما الآية.

وفيما يعني من ضميره ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ فـ«من» تتحمل الجنسية كما تتحمل النشوية الابتدائية: فأتوا بسورة من مثل القرآن: من كتابات الوحي أيّاً كان، سورة مأخوذة منها وهي مثل القرآن في الوحي، أو سورة هي جنس القرآن كذلك: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[١]: أهدى من التوراة والقرآن اللذين تنكرونهما، فإذ لم يأتوا بكتاب إلهي هو أهدى من هذين - كأنهما غير إلهيين - ! دل ذلك بيقين أنهما من وحي الله، فوحي الأرض أياً كان هو أدنى من وحي السماء دنوّ الأرض من السماء وأدنى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ . . .﴾[٢].

فهل أتى أحد من أهل الكتاب بسورة من أي كتاب يقايسها بسورة من القرآن، والمجال فاسح؟ كلّا حيث الحاصل من هذا القياس - على أبعد تقدير - مماثلتها سورة من القرآن، أو رجاحة القرآن كما هو حق التقدير، وكيف بالإمكان مماثلة كلام العبد كلام الله أو رجحانه عليه؟ فليكن نازلاً بعلم الله.

ترى ومن الذي يشهد هكذا؟ إنه كلام الله نفسه! بل وكافة الشهداء من دون الله: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾: أنه ليس من كلام الله! ليشهدوا في كافة مجالات القياس بقرآن محمد أو محمد القرآن، أنهما نازلان من عند الله: شاهداً هو كتاب الله، ومشهوداً له هو رسول الله، إذاً فهما معاً معجزة بارعة إلهية ما لها من فواق!.

فهنا يصل التحدي إلى الغاية أن يطلب من ناكري وحي القرآن أن يدعوا شهداءهم - كلهم - من دون الله، أن يأتوا بسورة من مثل القرآن، أو بسورة

(١) سورة القصص، الآية: ٤٩.
(٢) سورة القصص، الآية: ٥٠.

من مثل محمد كسورة من القرآن، أن يأتوا ويشهدوا لكم، ولكن ﴿لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ لا تأتون بمثله ومحال أن تأتوا، ولئن أتيتم فإنكم وشهداءكم سوف تشهدون أن القرآن نازل بعلم الله، إذ لا مماثلة بين ما أتاه وتأتون به!.

فكما ﴿ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ...﴾[1] كذلك الشهداء من دون الله عليهم أن يشهدوا عند القياس، أو - ولأقل تقدير - أن يسكتوا عن الشهادة ضد وحي القرآن، إذ ليس لهم أيّ برهان إلّا عجزهم عن الإتيان بمثله!.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ كما لم يفعلوا ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ كما يستحيل أن يفعلوا في مثلث الزمان، ومن أي فاعل أو محاول كان ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾: الناس النسناس الذين هم كذلك حجارة، إذ غربت عقولهم وتخبطت أحلامهم فصمدوا على نكران القرآن، وحجته باهرة كالشمس في رابعة النهار!

فكيف بالإمكان أن يدّعي محمد ﷺ وهو أعقل العقلاء حقاً وعندهم - أن ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ وهو ليس على يقين من وحي القرآن؟ - ليفضح نفسه ويهدم أساس دعوته لأحيان عاجلة أم آجلة لو أتوا بمثله أو فوقه! ولكنه يعلن في هذه الإذاعة القرآنية ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾: محال أن تفعلوا - لا فقط سوف لا تفعلون - حيث «لن» لمحة أو صراحة لاستحالة مدخولها عقلياً أم واقعياً، ومن اللائح أن الإتيان بمثل القرآن محال فيهما حتى وإن كان من سائر كتابات السماء!.

وعند العجز ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ فحيث تجعلون أنفسكم هنا وقوداً لنار الجحود والنكران لتحرقوا به وحي

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٦.

القرآن فهناك سوف تصبحون مع الحجارة وقوداً للنار التي أضرمتموها من ذي قبل فـ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[1] فكل من له دراية وذوق بأساليب الكلام، وتصورات البشر عن الكون، وكلّ ما للبشر من مناهج ونظريات، لا يخالجه شكٌ أن ما جاء به القرآن في هذه المجالات يختلف تماماً عما للإنسان ونظرائه، كما يختلف الله عن مخلوقاته، فكلام الله إله الكلام كما عِلْمه إله العلم فإنه نازل بعلم الله!

فالقرآن بذاته ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[2] ولكن: إذا لم تكن للمرء عين صحيحة فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر! ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾: شك كأنه مسنود إلى دليل، ولا يملك أي دليل، بل الأدلة الذاتية من القرآن نفسه تؤكد أنه نازل بعلم الله.. ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ . . .﴾ ولكي تثبتوا أنه اختلاق خَلقي وليس من الخالق في شيء ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ إذ لا مثيل له وحتى لسورة منه من كتابات السماء، ولا مثيل لمن أنزل إليه أن يأتي بمثله، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ . . .﴾! و﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ تلمح أن العبودية هي الظرف الصالح لنزول الوحي، لا سواها من طرق بشرية، وما أجمله تعبيراً ﴿عَبْدِنَا﴾ في مثلث المعنى من «عبد» - «نا» وحروفه الثلاثة عند أهل المعرفة «فالعين علمه بالله تعالى والباء بونه عما سوى الله، والدال دنوه من الله بلا كيف ولا حجاب»[3].

﴿فَأْتُواْ﴾ إن كنتم كتابيين فمن كتب السماء، وإن كنتم مشركين ناكرين لها ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ﴾ كسورة منه «من مثل عبدنا» في أميته أم أو في بشريته، أو

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢.
(٣) مصباح الشريعة عن الإمام الصادق عليه السلام.

كونه خلقاً أياً كان ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: في ريبكم: فإنه شك مسنود إلى دليل وليس لكم أيُّ دليل!

هنا يتحدى ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ وأخرى ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ومماثلة سورة من غير القرآن لسورة من القرآن مماثلة للقرآن كله، والتحدي قائم في مثلث: سورة - عشر سور - القرآن كله، أدناه سورة أو آية، وأعلاه كلّه، وبينهما متوسطات ذكر منها عشر سور.

وترى ما هي «سورة» ليقف التحدي عندها، أم ماذا؟

أقول: إنها لغوياً فعلة من «سور»: سور المدينة وحائطها، الذي يفصلها عن غيرها، فالسورة من القرآن آيات محدودة مفصولة عن محدودات أخرى، وبماذا؟

طبعاً بالبسملات في بداياتها كآية منها - إلّا البراءة - وفي نهاياتها كآية مما يليها كالسور كلها، وإنما تعرف البراءة سورة في نهايتها كسائر السور، وفي بدايتها بما تواتر أن ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ...﴾[(١)].

أولى آياتها، فالبسملة بصورة عامة - إلّا التي في النمل - سورٌ بدءَ ختم للسّور كلها، إضافة إلى المعروف المتواتر القاطع من بداياتها ونهاياتها.

وقد تدل «سورة» و«عشر سور» وأضرابها[(٢)] أن القرآن كما هو الآن رتب سوراً زمن الوحي، مهما نزل في قسم منه سوراً وفي آخر آيات، فلو لم يكن مرتباً حينذاك سوراً لم يشمل التحدي القرآن كله.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١.

(٢) مجموع ما ذكر فيه «سورة» في القرآن تسعة مواضع: هنا و٩: ٦٤ و٨٦ و١٢٤ و١٢٧ - ١٠: ٣٨ - ٢٤: ١ - ٤٧: ٢٠ - ١١: ١٣ - وعامة الدلالة فيها أن القرآن أنزل سوراً، إلّا طوائف من آياته.

أو أنه يلمح إلى ترتيب سابق للعهد المكي، وترتيب يلحقه في العهد المدني، فيما لم تنزل سوراً، ومهما يكن من شيء فلا ريب أن جمع القرآن وترتيبه لم يكن إلّا بالوحي كما أن تنزيله بالوحي: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾(١) (٢) دون تدخّل لأحد في تأليفه سوراً وآيات إلّا كما أُمر الرسول وائتمر فألّفه كما أُمِر.

فسورة من القرآن وإن كانت أقله كالكوثر، تتحدى الجن والإنس في الدهر كله، لا ردحاً من الزمن وجماعة خاصة، فالتحدي يعم الزمن وأهله: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(٣) أن يأتوا بمثله بشريّاً أم إلهيّاً، فإن الله لم يكلّم أنبياءه في سائر كتابات الوحي كما كلَّم محمداً في القرآن، رمزاً لخلوده، وهيمنة له على وحي الأرض والسماء كله، وسبقة له في كافة ميادين السباق، بل ولا سباق معه فيها إذ لا رفاق!.

فإنه ليس عبارات يحاولون محاكاتها، بل هو كسائر ما يبدعه الله من آيات معجزات - وأعلى منها كلها - يعجز المخلوق من صياغته وصنعه، فهو أمر من الله كما الروح من أمره، لا يدرك الخلق سره مهما أدركوا من معناه.

إنه آية إلهية يدل بنفسه على نفسه دون شهود آخرين: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾(٤) فلا تعني شهادة الله بما أنزل إلّا شهادة كلام الله أنه منه دون سواه حيث: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾: فمعالم علم الله فيه باهرة: علماً في كافة الحقول أدناها صياغة

(١) سورة القيامة، الآية: ١٧.
(٢) راجع إلى تفسير الآية في سورة القيامة ج ٢٩: ٢٨٠ - ٢٨٤.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٦٦.

الألفاظ فصاحة وبلاغة، وأعلاها العلوم الإلهية التي لن تدرك إلّا بالوحي وبينهما متوسطات.

فالبشر الذي يعرف كلام البشر بوسمته ووصمته، يعرف الوسمة الإلهية دون أية وصمة في القرآن، لحدّ لا يستطيع وحيدها في الكلام أن يعبر عنه إلّا أنه «يؤثر»: يبقى مدى الدهر دون معارضة، وإن افترى عليه: «أنه سحر» تناقضاً فاضحاً واضحاً[١].

القرآن يتحدى في كافة الحقول:

١ - فصاحة العبارة وبلاغة التعبير وهي أبسط تحدياته وأسهل معجزاته مع القمة العليا في صياغته ونظامه وتركيبه وانسجامه، أما لو صرفت الأنظار من مبانيه إلى أسراره ومعانيه، «فهنالك تنقطع الإشارات وتُحيا العبر وتموت العبارات، حيث تحار دونها العقول والنفوس، وتخضع الرقاب وتُطأطأ الرؤوس، فإنها هبّة الملكوت، وهيبة الجبروت، هناك الفزّة والهزّة، والعظمة والعزة، والنفائس والبزّة.

لقد كانت بلدة القرآن أملك البلاد لأساطين الفصحاء البلغاء، وزمنه أبهج الأزمنة بمهرة الكلام، وقد شق عليهم ظهور القمة المتفوقة في الفصاحة والبلاغة غاية الشقوة حتى تخاوصوا بحماليق الحنق إليه، واعترفوا بعجزهم في أولى خطوة وأقصرها اعجازاً وهي قشرها فضلاً عن لبها، فعاد لبيدهم بنكرانه بليداً، وبليدهم بإيمانه لبيداً، وشيبتهم وليداً، وقائمهم حصيداً، وعالمهم أبا جهل، وسهيلهم على السهل، وعتبتهم أعتاهم، وبولهبهم أخمدهم وأخزاهم، وعبد شمسهم آفل، ونابغتهم خامل، وحيّ أخطبهم ميّتاً،

(١) راجع تفسير الآية ج ٢٩ ص ٢٤٦ - ٢٥٠.

وهشامهم مخزوماً، ومخزومهم مهشوماً، وسراتهم أسارى، وكبّارهم من الصَغار صِغاراً، قد وسموا جباههم بنار العار والعيار ورسموا على محاسنهم وسم السوء بالذل والصغار، وجعلت كلماته في أعناقهم أغلالاً فظلوا لها خاضعين، وطاشت ألبابهم فقالوا: إن هذا إلّا سحر مبين(١).

تحداهم القرآن فيما يعرفون من جانب اللفظ دون جناب المعنى، به كله فعجزوا ثم بعشر سور فعجزوا، ثم بسورة فكذلك الأمر، فضلاً عما تحداهم في سائر الحقول، ولكنهم التجأوا إلى مفاوضة الحقوف عن معارضة الحروف، وعقلوا الألسنة والعقول، ورضوا بكَلم الجراح عن الكلم الفصاح»(٢).

فمعجزة القرآن في سائر الحقول يفوقها تفوّق المعنى على اللفظ، والعقول على الأجسام، فما اللفظ إلّا أداة للتعبير، وهو فيها أيضاً بالغ قمة الإعجاز فضلاً عما سواها.

كما وإنَّ معجزة الفصاحة والبلاغة قد تخص أهليها، وفي خصوص العربية، والقرآن يتحدى العالمين دون خصوص العرب العرباء الفصحاء البلغاء، فالتحدي شاملٌ كافة الحقول المتسابقة ألفاظاً ومعاني وحقائق.

فرغم ما تجد في كلام غير الله - أياً كان-: القمم والسّفوح - التوافق والتعثّر - القوة والضعف - التحليق والهبوط - الرفرفة والثقلة - الإشراق والانطفاء، وأمثالها من سمات الاختلاف والتغير والنقصان والملل والكلل، لا تجد شيئاً من ذلك في القرآن، وفيه من صريح الحق، والبعد عن الكذب والخيال، ما يناحر مظاهر الفصاحة والبلاغة المرسومة!

(١) قسم من هذه العبارات ملتقطات من كتاب الدين والإسلام للإمام محمد حسين آل كاشف الغطاء.

(٢) . . . . نفس المصدر السابق.

فالفصاحة ركنها في وصف خيالات بعيدة عن الواقع تجاوب الآمال الشاسعة، والقرآن كله حق وبيان الواقع! ومع ذلك فإنه في أعلى قمم الفصاحة!

ومن عواملها الكذب، فأي شاعر تركه إلى الصدق نزل شعره كما نزل شعر لبيد بن ربيعة وحسان بن ثابت لما أسلما، والقرآن كله صدق! وفصاحة الكلام - ولا سيما الطويل المتجول في مختلف الحقول - لا تتفق إلّا في بعض دون بعض، والقرآن كله في قمة الفصاحة!

ومن طبيعة الكلام مهما كان فصيحاً أنه يبلى على التكرار والترداد، والقرآن لا يُبلى على ترداده، بل يزهر ويبهر أكثر وأكثر.

ومنها وحتى في الأشعار مختصة ببعض المجالات دون أخرى، والقرآن زاهر في كافة المجالات!

ومن نضارة الكلام وطراوته أن ينحو منحى الزهوات والشهوات والوعود الفارغة، والقرآن مقتصر على إيجاب عبادات، وتحريم حرمات والحث على ترك مشتهيات، وأسر أهواء، وسلب حريات، وهو مع ذلك في أرفع قمم الفصاحة والنضارة.

فالتعبير القرآني من ناحية الأداء وطرائقه الفنية وحتى في موسيقاه، إنه طريق عاقم غير مسلوك، حتى ولأنبياء الله، فكيف بسائر الناس مهما بلغوا مبالغ الأدب في التعبير، فهي طريقة خاصة بالقرآن نفسه، لا تضاهيها وحتى سائر كتابات السماء، فإن الله ما أراد في سائر كلامه ما أراده في القرآن من صيغة معجزة خالدة ولكي تتم حجته فيه، ويطمّ ربوبية العبارة والتعبير على مرّ الدهور.

فمن ذا الذي يجرؤ على محاولة أو خيالها واحتيالها لمعارضة القرآن، وحتى في هذه الناحية التعبيرية، اللهم إلّا من سامح عن عقله، وغره غروره

وفضح نفسه كمسيلمة الكذاب حيث عارض سورة الفيل: بتقوّله الخواء الخيلاء: «الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل له ذنب وبيل وخرطوم طويل» كما ويخاطب سجاح النبية: «فنولجه فيكن إيلاجاً ونخرجه منكن إخراجاً» وثالثهما طائش من حزب الثالوث معارضاً سورة الحمد: «الحمد للرحمن. رب الأكوان. الملك الديان. لك العبادة وبك المستعان. اهدنا صراط الإيمان» وأمثالها من تقولات وقفت لحدها دون تكرار، حيث لم تجلب إلّا الفضاحة والاختجاج! بديل الفصاحة أو الاختلاج.

وإن لأسلوب القرآن ميزته الإلهية الخاصة تمتاز آياته عن غيرها في أي كلام، وحتى أفصح من نطق بالضاد النبي محمد ﷺ وصنوه علي عليه السلام حيث يظهر ويزهو كالشمس في رايعة النهار.

وما تصدى لمعارضته لفظياً - منذ نزوله حتى الآن - إلّا مأفون الرأي مايق العقل وإن تعجب فعجب من خطيب مصقع وفارس لا يقمع، لما تصدى للقرآن أفحم وتبلد، وأبكم وتلدّد.

فهذا مسيلمة وسجاح وأضرابهم من الأولين والمتنبي والمعري وأمثالهم من الآخرين، كل بزعمه أتى بآيات تضحك منها الثكلاء وتبكي حروف الهجاء.

فيا من فجرّوا اليوم من العربية جداول وأنهاراً، وجلوا من خرائدها ثيبات وأبكاراً، وأجروا المحيط بأقرب الموارد من قاموس لغاتها، وجاؤوا بالوسيط والبسيط في مجمع البحرين من حريري مقاماتها، تعالوا تعالوا بمن يساندكم متسابقين فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين.

القرآن في أقل تحدياته يتحدى بسورة وآية تشملها فيما تشمل ﴿أَن يَأْتُواْ

بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾[(١)] ولكنهم قد يتحدّون بآية: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٢)] وليست هي عديمة النظائر أو قليلتها، حيث الآيات كلها آيات تعني أنها دلالات ربانية في ألفاظها ومعانيها، فضع نظراك أنّى شئت من بيناته، وسرِّح فكرك في أية آية من محكماته، تجدها شقيقة لتلك ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[(٣)]!

يا من يخلد بخلده معارضة القرآن مهما كدحت وسعيت وأتعبت نفسك وأعييت فقد تقحّمت يا خراشة على منيع سور، وتهجمت يا فراشة على بركان نور فما أجرأك يا هذه على أن تخترق! وما أحراك إذاً أن تحترق، وأنى لك التسنّم أو التنسُّم لشستّي صعود تلك المزالق![(٤)].

آية من القرآن إن كانت في رسالة كانت عينها، أم في خطبة كانت وجهها وزينها، أم في قصيدة فقلادة جيدها، مهما كانت حافتها كلام النبي، أو حافتها كلامٌ نبيّ!

وجملة من جمله إن أفردتها بهرت، وإن ضممتها في عقدها أعجزت وقهرت فهي على كمال إلفها بأخواتها، وارتباطها بلداتها، تامة بنفسها، قائمة بذاتها، فهاك نصف الآية ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[(٥)].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.
(٢) سورة هود، الآية: ٤٤.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٢٣.
(٤) مما صنفناه وملتقطات من الإمام كاشف الغطاء.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

فهي برمتها كبعض آية جملة مستقلة، ثم قل - يلعبون - مستقلة، وبلا «يلعبون» ودون «في خوضهم» ودون «ثم ذرهم» كلها مستقلة، استقلالات خمس في آية! إن ضممتها إلى أخواتها سطعت وإن أفردتها لذاتها برعت وشعّت! متجلية ببهجة القدرة، متحلية بخالص العزة، تجمع السلاسة إلى الرصانة، والسلامة إلى المتانة، ولا تحسبنها آية أو آيات عدة، فإنها كلها أو جلّها لو فتحت النظر وأجليت البصر، ففيها من خمس وما زاد، إلى عشر ويزيد، فخذ عشراً من «حم. تنزيل الكتاب، ١ - من الله، ٢ - العزيز، ٣ - الحكيم، ٤ - غافر الذنب، ٥ - وقابل التوب، ٦ - شديد العقاب، ٧ - ذي الطول، ٨ - لا إله إلّا هو، ٩ - إليه المصير، ١٠ -»! تصلح كل واحدة عنواناً لخطبة، ومداراً للبحث كراساً ذا الطّول بقصر أم طُول!

ثم ترى القرآن في أعلى قمم الفصاحة والبلاغة لا في حقل واحد، رغم أحوال البلغاء المختلفة غير المولفة، فامرؤُ القيس بليغ إذا ركب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب، وزهيراً إذا رغب! والقرآن بليغ حيثما كان!.

أيها المدعي معارضة الفصاحة القرآنية أو بلاغته، الذين عارضوا القرآن وهم يعيشون وحيه كانوا أسعد منك في البلاغة، وأروى في العربية زنداً وأكثر مراساً وأقوى أمراساً فإنهم أصلها الأصيل، ثم هم أشد على القرآن عداوة وأعمق نكاية، إذ حادهم وتحداهم، عاب آلهتهم وسفّه أحلامهم، ونكس أعلامهم، وكسر أصنامهم، وفعل بهم الأفاعيل وجاءهم بالأهاويل، وهم على ما هم لما سمعوه طاشت ألبابهم وتقطعت أسبابهم ومزقوا معلقاتهم، وافتضح من عارضه لحد أنكرها وحمّلها على غيره.

٢ - عدم الاختلاف فيه:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[1].

فالتدبر في مجموعة هو جعل بعضه دَبر بعض بُغية إنتاج معانٍ جمعية وجامعة إضافة إلى مفردات، فالتدبر في القرآن حقه باستنطاق بعضه ببعض وتدليل بعضه على بعض يسفر عن كمال التلاؤم الوئام بين آياته البينات دون أيّ اختلاف، لا في آياته مع بعض، ولا فيه مع الواقع، ولا متطلبات الفطرة والحياة، ولا في ألفاظه فصاحة وبلاغة ووزناً، فأبواب الاختلاف السبعة الجهنمية مغلقة على القرآن! حيث التعبير فيه منقطع النظير لا يتفاوت فصاحة وبلاغة ووزناً ولا معنى، رغم تفاوت الحالات في نزوله نجوماً سوراً وآيات، في العهد المكي المغلوب المضايق والعهد المدني الغالب المضايق، في الحرب وفي الصلح، وفي متضادة الحالات نرى آياته البينات في تناسق مطلق شامل كامل، في كافة المجالات التي جالت فيها، وكافة الحقول التي قالت كلمتها فيها.

فظاهرة عدم الاختلاف، والثبات، هي الطابع الإلهية لكلامه المجيد، الذي لا يوجد في أي كلام من أي متكلم، حيث الخلق أيّاً كان متحول متكامل دون أي ثبات أو وقفة، نازلاً وصاعداً أم ماذا، فحالة التغير باستمرار، لزام الكائنات غير الإلهية مهما كانت في قمم الكمال كأنبياء الله!

فالاختلاف المستمر الدائم من حال إلى حال، من باطل إلى صحيح وإلى أصح من مستوى إلى مستوى، ولا سيّما في ردح طائل من الزمن، هذا الاختلاف هو لزام الكائن غير الإلهي أياً كان، حيث لا يحيطون بكل شيء

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

علماً، وهو بكل شيء محيط، فترى من عباقرة الفكر في مختلف الحقول العلمية من يؤلفون كتباً علمية طوال زمن، فيها اختلافات حسب الحالات والبيئات التي يعيشونها، والتجربيات والتفكيرات المتواصلة التي يعملونها، ثم وأخيراً وبعد كافة التدقيقات تجدها وفيها اختلافات أو اختلاقات! ولكنما القرآن النازل طوال ثلاث وعشرين سنة في تضاد الحالات وتناقضاتها لا تجد فيه أيَّ اختلاف ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾[1] لا قليلاً، حيث القلة القليلة من العلم ينتج الاختلاف الكثير، وليس في القرآن أي اختلاف، من كثير ولا قليل.

لا اختلافاً في فصاحة العبارة وبلاغة التعبير، فإن آية منسقة على نسق واحد لا اختلاف فيه ولا اختلال، ولا فيما يحمله من معانٍ في مختلف الحقول، مما تراه واضحاً عند ما تتدبر أعمال أديب أو مفكر أو فنان أو سياسي أو اقتصادي أو اخلاقي أو اجتماعي أو عسكري أو أيّاً كان.

ولكنما القرآن مع ما يحمل من منهج التنظيم للنشاط الإنساني فرادى ومجتمعات، بشتى الملابسات التي تطرأ في الحياة، ومنهج التقويم للإدراك البشري ومنهج التنسيق بين الإنسان جملة وتفصيلاً في جميع أجياله ومستوياته وأحواله وبين هذا الكون الذي يعيش فيه، ثم بين دنياه وأخراه وثم وثم... تجد فيها كلها تلاؤماً ووئاماً تاماً دون أيّ اختلاف.

فما من مذهب بشري أو نظرية إلّا وهو يحمل الطابع المتفاوت، جزئية النظرية والرؤية، والتأثر الوقتي بالمشاكل الوقتية، وعدم الحيطة بالتناقضات التي تؤدي إلى الاصطدام بين مكوناتها، وإلى مئات المئات من التضادات الناشئة من طبيعة الكائن المحدود غير الإلهي ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[2].

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

إن القرآن منهج حياة، متوفرة فيه نواميس البشرية في كافة أحوالها وأطوارها يعالج النفس المفردة، والأفراد المتشابكة، والمجتمعات الشائكة المتعاركة، كل ذلك بالقوانين الملائمة للفطرة، والواقع، ومتطلبات الحياة الراقية، يعالجها كلها علاجاً عاجلاً وآجلاً، متناسق الخطوات في كافة الجهات، في الوقت الواحد، فلا يغيب عن حسابه احتمالة من الاحتمالات، ولا حالة من الحالات الكثيرة المتشابكة، لأن مشرّع هذه القوانين هو خالق الفِطَر والكائنات.

وأما النظم غير الإلهية فهي على قصورها الذاتي، متأثرة بملابسات الحياة، وقاصرة عن الحيطة بجميع الاحتمالات، فقد تعالج مشكلة فردية وتخترق مشكلة اجتماعية أم فردية أخرى.

ومهما ادعى المدعون أن في القرآن تناقضات واختلافات فهي تظهر بعد التدبر في آياته أنها ملائمات متوافقات، ولحد الآن ما ثبت أي اختلاف أو غلطة لفظية فضلاً عما سواها، رغم ما يوجد في العهدين آلاف الأغلاط والمناقضات، مما تؤكد أن التوراة والإنجيل الحاليين تأثرا بكثير من الخرافات والأساطير[(١)].

فمن المستحيل عقلياً وواقعياً كون القرآن من عند غير الله، وطابع الربانية ظاهر في مظاهر عدم الاختلاف فيه: آياته مع بعض لفظياً ومعنوياً، ومع الواقع الكوني والتطلّب الفطري والعقلي والفكري، ومع الحاجيات الحيوية التي يعيشها الإنسان ايّاً كان! لذلك ترى جملاته تسمّت بآيات ﴿تِلْكَ

---

(١) يقول المسيحي الفاضل «يا ركز»: إن في الكتب المقدسة ثلاثين ألف غلط، والقسيس «ميل» و«كريستاج» ينهيانه إلى نيف ومائة ألف غلط، و«شولز» أن أغلاطها لا تحصى، وفي دائرة المعارف البريطانية والفرنسية أنها زهاء مليون غلط وكما يعترف بهذه الأغلاط والاختلافات في الكتب المقدسة كثيرون مثل: اكهارن - كيسر - هيس - ديوت - ويز - فرش راجع كتابنا: المقارنات العلمية والكتابية بين الكتب السماوية.

ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾(١) تدليلاً أنها كلها تحمل سمات إلهية، وبصمات ربوبية، مكتوبة بقلم الوحي الأعلى، خارجة عن وصمات غير الله: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾(٢).

٣ - بعلم الغيب ومطلق العلم:

نجد بطيّات كثير من آياته البينات تحديات بعلم الغيب، ومطلق العلم، اللذين لا يحصلان بالوسائل غير الإلهية، اللهم إلّا بالوحي.

إنه يتحدى بالعلم جملة: ﴿وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾(٣) ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾(٤)، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾(٥). وكما يتحدى بالعلم تفصيلاً، ونموذجاً واحداً من تحدي التفصيل: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ﴾(٦) حيث تذكرنا بملاحم علمية غيبية ثلاث:

١ - إن في السماوات دواباً كما في الأرض: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ﴾ ولم يصل العلم - الغازي للفضاء - حتى الآن إلى التأكد من وجود جوّ للحياة أو نباتات في بعض الكرات، فضلاً عن دواب هناك كما في الأرض!.

٢ - ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ﴾ مما تبرهن بـ«هم» وهي لذوي العقول، إن من دواب السماوات ذوي العقول كما للأرض، مهما لم نعرف أسماءهم وسماتهم، كيف ونحن نجهل وجود أيّة حياة في الكرات.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.
(٤) سورة النحل، الآية: ٨٩.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٩.
(٦) سورة الشورى، الآية: ٢٩.

٣ - إن عقلاء الأرض والسماوات - وعلّ سائر دوابهما أيضاً - سوف يجتمعان حيث الجمع هنا: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ﴾ لا يعني يوم الجمع وإن شمله فإنه الجمع بعد البث، فكما الله بثهما فيهما بعد خلقهما، كذلك هو جامعهما «إذا يشاء»: في مستقبل نجهله! -.

وهل المواكب العلمية الغازية للفضاء وصلت حتى الآن إلى زاوية من هذا المثلث الغيب البارع الذي تحمله آية واحدة من القرآن؟!.

وسوف تمر عليك المئات المئات من هذه الآيات العلمية، وقتية أو زمنية أم ماذا، بطيات آياتها، التي تحمل فيما تحمل: وحيها - ونبوة نبيها - وصدق أنبائها واقعياً، كما وسائر الآيات تحمل الأوليين دوماً، كما وتحمل الثالثة لمن أمعن.

وأنا كطالب صغير من طلاب علوم القرآن أتحدى جميع العالمين بما يتحداهم القرآن أن يأتوا بحديث مثله، وإن في سورة أو آية كاملة الدلالة، أو أن يأتوا منه ما يعارض العقل والفطرة أو قانوناً علمياً ثابتاً أو أياً من الثابتات آفاقية أو أنفسية.. أرضية أو سماوية..

وأنا على يقين أنهم «لن يفعلوا» كما ﴿لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾ ﴿وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾[(١)] تظاهراً في أي حقل من حقوله لفظية ومعنوية، ولو كان لبان ممن يجدّون السير في معارضته، ويتواكبون في مخالفته.

لذلك تجد القرآن يعتبر نفسه المعجزة الوحيدة الخالدة الكافية، محلقاً على كافة صنوف المعجزات في كافة النبوات، فإنها كانت كلها وقتية عابرة، والقرآن زمنية شاملة تبقى ما بقي الدهر، زاهرة مشرقة في رحاب تقدم العقل والعلم أكثر وأكثر، وعلى حدّ تعبير تلميذ الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام ابن عباس: «إنّ للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن»!

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

ويا لها من معجزة تمشي مع الزمن إماماً أمام العقل والعلم يقودهما إلى أعماق الغيب ليهدي أتباعه للتي هي أقوم!

فطالما طالبوا هذا النبي أن يأتي بما أوتي رسل الله، رغم ذلك تجده دوماً يوجههم بالقرآن لأنه أدل وأفضل مما أوتوا، وفيه الكفاية حجة للعقل والعلم دون الحس والبصر فقط، كما في الآيات المحسوسة من ذي قبل، التي تعودوا بها طوال الرسالات، ثم فوجئوا بآية وحيدة منقطعة النظير هي القرآن: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾[1]: فشهادة الله في كتابه النازل ويتلى عليهم كافية، وأكفى من شهادته في الآيات الحسية العابرة التي تحدّ بحدود رسالاتها، ولكن هذه الرسالة الأخيرة لا حدَّ لها حتى يكتفى فيها بآيات محدودة.

ترى لو أن محمداً أُوتي ما أُوتي رسل الله من آيات وقتية مع رسالته الخالدة فكيف كان بالإمكان أن يؤمن به العالمون بعد موته وانقضاء معجزاته، وكما لا يمكن عقلياً الإيمان بالرسالات الماضية، لا على ضوء كتاباتها إذ معجزة فيها، ولا معجزاتها التي ماتت بموت أنبيائها، وغبرت بما قبروا، اللّهم إلّا بما يشهد القرآن المعجز بذاته، بآياته وبيناته!.

فعلى المرسل إليهم أن يطالبوا رسولهم بآية تدل، لا كما يهوون فـ ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[2] ولكنما المبطلون كانوا ولا

(١) سورة العنكبوت، الآيات: ٥٠ - ٥٢.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٧١.

يزالون يطالبون صاحب هذه الرسالة بمثل ما أوتى رسل الله من قبل: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ...﴾[(١)] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ۝٤٨ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤٩﴾[(٢)].

فالآيات الدالة على النبوّات، منها آيات قد تكذَّب بتهمة السحر لأنها بصرية، ولكنما القرآن آية بصيرة: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾[(٣)] ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾[(٤)] [(٥)] آيات تخويفية وقتية قد يكذّب بها، لذلك بدلناها بآية عقلية علمية زمنية لا تقبل التكذيب إلّا ممن سامح عن عقله أو علمه.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.
(٢) سورة القصص، الآيتان: ٤٨، ٤٩.
(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٠.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٥٩.
(٥) يذكر من الأسباب في عدم نزول آيات تخويفية عينية في الآيات التالية: السورة ٦: ٤ - ٢٥ - ٣٥ - ٣٧ - ١٠٩ - ١٢٤ و٧: ١٣٢ - ١٤٦ - ٢٠٣ و١٠: ٢٠ - ٩٧ - ١٠١ و١٣: ٧ - ٢٧ - ٣٨ و١٦: ١٠١ و٢٠: ١٣٣ و٢١: ٥ و٢٦: ١٥٤ و٢٩: ٥٠ و٣٠: ٥٨ و٣٦: ٤٦ و٣٧: ١٤ و٤٠: ٧٨ و٤٣: ٤٨ و٥٤: ٢.
ومنها ما تذكر سبباً آخر في عدم نزول هذه الآيات وهو فوضى اتباع الناس فيما يهوونه من آيات ثم يكذبونها.
ثم وآيات تثبت نزول آيات النبوة على محمد ﷺ هي ٣٠: ٥٨ و٦: ١٢٤ و٣٦: ٤٦ و٣٧: ١٤ و٥٤: ٢.
وحاصل جمع الآيات حول آيات النبوة المحمدية أنها تركز على آية القرآن الخالدة كأصل ثم تذكر بصورة عامة أو خاصة آيات هامشية لهذه الرسالة، وتنفي أصالة الآيات الحسية الوقتية لها ولا سيما التي كذب بها الأولون، والتي يهوونها ولا يصدقون.

فهل بالإمكان تكذيب آية القرآن ومعجزته وهي تعيش الطول التأريخي والعرض الجغرافي دون فناء وبلاء، فإنما تزداد على تقدم العلم نوراً وبهوراً!

لذلك لا ترى لصاحب هذه الرسالة آيات معجزات كمثل التي لرسل الله، اللهم إلّا هامشية عابرة لم تؤصل، ولذلك لم تسجّل في آية القرآن إلّا شذر كشق القمر والمعراج، ولهما ما لهما من ميزّات على سائر الآيات البصرية كما نفصلها في طيات آياتها.

وإذا كانت سائر الآيات تدل على نبوات أصحابها وما يدعون من وحي السماء شهادات منفصلة عن تلكم النبوات، فآية القرآن شهادة ذاتية على وحيها ونبوة نبيِّها دون انفصال، إذاً فهي أدلّ وأقوى من سائر الآيات، دلالة ذاتية وخلوداً ضارباً في أعماق الزمن.

فلم يكن المرسل إليهم في سائر النبوات يطالبون أصحابها بتلكم الآيات إلّا تدليلاً لإثبات نبواتهم، دلالة النظير على نظيره، حيث الوحي آية غير ملموسة فلتدل عليه آية نظيرة لها في كونها فعل الله مهما كانت - ولا بد - ملموسة.

ولكنما القرآن آية هذه النبوة، وهي نفس الوحي النبوة، آية تقرأ وتسمع وتفهم، تدل بنفسها على آية الوحي النبوة، وعلى صدق مدعيها، كما تتوسط بين النبوة والرسالة حجة تثبتهما: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾﴾[1] حيث يستدل بحكمة القرآن في صيغة القسم - التي كلها في القرآن برهان - يستدل بها لإثبات دعوى سابقة: ﴿يسٓ﴾ يا سامعاً للوحي! وهو النبوة - وأخرى لاحقة: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: الرسالة التي هي بعد النبوة النبوءَة[2].

(١) سورة يس، الآيات: ١ - ٣.
(٢) حيث النبوءة وهي خبر الوحي تتقدم على الرسالة، ولكنما النبوة وهي رفعة الرسالة هي بعد الرسالة كما نبحث عنها في آياتها، ونبحث عن الوحي والنبوة والرسالة مفصلة في مناسباتها.

إذاً فالقول: إن المعجزات إنما هي للعوام الذين عقولهم في عيونهم، دون الخواص المميزين الحق عن الباطل، إنه هراء - حيث المعجزات إنما تثبت النبوات، لا الأحكام الرسالية التي ياتي بها رسل الله، إذ لا صلة بينها وبين تلكم الأحكام، وإنما هي آيات النبوات: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[1].

فتراها تعتبر هذه الآيات المعجزات آية واحدة لوحدة الدلالة والاتجاه، وأخيراً إن هذه الآية هي آية الرسالة، وليست أصيلة كالقرآن، وإنما هي وسيلة لإثبات نبوة المسيح، فما يقول - إذاً - عن الله حق لا مرية فيه، دون أن تثبت أحكاماً مسيحية، إذ لا صلة بينهما.

ثم آية القرآن القاطعة الخالدة، الذاتية، لا تكتفي بنفسها في إثبات ما يحملها من أحكام عقلية أم ماذا - اللّهم إلّا كونها وحياً - فتراها إذ تستعرض مواضيع أحكامية أم سواها، هي بحاجة إلى براهين، تراها مصحوبة ببراهين تترى كما تناسبها وتثبتها بما لا فواق لها، وكما تراها في طيات آياتها هنا في «الفرقان»!

﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾:

إنه ليس الكافرون كلهم وقود النار وإن كانوا كلّهم بها يُضرمون وفيها يتّقدون حيث الوَقود الصِّلاء هو الذي تتقد به النار: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾[2] وهؤلاء الناس كفار

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.
(٢) سورة التحريم، الآية: ٦.

خصوص كالمكذبين بالله ورسالاته لا كل من يستحقون النار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا . . .﴿١١﴾﴾[1] كما وتشهد آيات صلي الجحيم: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾[2] إذاً فصليها مخصُوص بالأشقى، طالما الشقي يدخلها، ولو كان صليهما - فقط - دخولها لعمّ الشقي والأشقى دون اختصاص بالأشقى!

فالصّلي هو الإيقاد كما الاصطلاء استيقاد: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[3] وكما الصّلاء هي الوقود.

وترى ما هي الحجارة القرينة للناس الوقود الصّلاء؟ علّها الأصنام الأحجار التي كانوا يعبدونها: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[4] ولكنما الأصنام لا تختص بالمصنوعة من الأحجار، فعلّها هي وحجارة أخرى تصلح للصِّلاء كأقوى الوقود وأبقاها مثل «حجرة الكبريت»[5].

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٠، ١١.
(٢) سورة الليل، الآيات: ١٤ - ١٦.
(٣) سورة النمل، الآية: ٧.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.
(٥) تفسير البرهان ١: ٦٩ عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام عن جدّه علي بن الحسين عليه السلام في حديث طويل حول تفسير هذه الآيات «وقودها وحطبها الناس والحجارة حجارة الكبريت أشد الأشياء حراً . . .».
وفي الدر المنثور ١: ٣٦ - أخرج ابن أبي شيبة والترمذي وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أوقدت النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة، وفيه أيضاً عن أنس عنه صلى الله عليه وآله وسلم مثله بإضافة «لا يطفأ لهبها».

وتُرى إذا كان الناس من وَقود النار وهم بعدُ لم يدخلوها، فكيف إذاً ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾؟ علّ الوقود الحجارة - غير أصنامها - يكفي الآن لإعداد النار، أم أن الإعداد حالة ترقُّب لا فعلية له، فإنما يضرم النار بمختلف وَقودها يوم يدخلونها.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

بشارة للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وترى أليس عمل الصالحات من الإيمان أو لزامه فكيف يقابله؟ علّه لأن الإيمان في الأكثر ينحو منحى القلب ولا يستحق دخول الجنات إلّا من أضاف عمل الإيمان إلى عقيدة الإيمان.

ثم الجنات هي البساتين الملتفة الأشجار كسقف أخضر ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لا تحت الأرض، وإنما تحت جنات الأشجار التي تجنّ ما تحتها من أرض[1]، فالجنات هي مظلّات شجرية، توحي بجمعيتها أنها مقسّمة بين أهليها، لكلّ جنة فللكلّ جنات.

وترى ما ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾؟ هل هي الأرزاق الدنيوية التي رُزقوها قبل الجنة ففيها يؤتون أشباهها؟ ولا فضل لما في الدنيا حتى تكون أشباهها في الجنة فضلاً لهم فيها! و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لم يرزقوا من الدنيا إلّا قليلاً، إذ اغتصبها أكثرها أهل الدنيا، فهل يرزقون في الجنة - فقط - أشباه هذه القلة القليلة!

(١) الدر المنثور ١: ٣٦ - أخرج جماعة عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: أنهار الجنة تفجر من تحت جبال مسك.
وفيه عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: لعلكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود في الأرض لا والله إنها لسائحة على وجه الأرض حافتاه خيام اللؤلؤ طينها المسك الأذفر.

أم هي من التي رزقوها في الجنة قبل هذا الرزق؟ و«كلّما» تشمل مع سائر المرات المرة الأولى وليس قبلها جنة أو رزقها!.

علّ «من قبل» هي الأرزاق التي رزقوها في جنة البرزخ، أم هي الأعمال التي رزقوها يوم الدنيا فيؤتون في الأخرى ثمراتها ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾(١) ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ تشابه الأعمال وثمراتها، وفيها مزيد بفضل الله.

أم إنها ما رزقوا من قبل في الدنيا مهما حرموا عنها فيها، فالحارمون هنا محرومون هناك، والمؤمنون المحرومون مرزوقون هناك: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾(٢) بعد ما كانت خالطة يوم الدنيا، وهم في الأكثر كانوا محرومين عنها، فلما وجدوا هناك من كلّ الثمرات فرحوا قائلين: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ وحرمناه هناك.

وهم من هذا المثلث من الرزق السابق، يجدون له متشابهاً: للذي رزقوه من قبل من حيث الشاكلة لرزق الدنيا، وفي مرتبة أعلى عن جنة البرزخ، جزاء وفاقاً لما عملوها من صالحات وهناك مزيد.

فرزق الجنة والدنيا لا يتشابهان إلّا في الاسم وفي أصل المنظر، وأما في نضرته وطعومته فـ«لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» وعلّ «في طعام العرس مثقال من ريح الجنة»(٣).

والرسول ﷺ يصف الجنة ببعض شروطها وأشراطها: «من خالف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة،

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.
(٣) الدر المنثور: ١: ٣٨ - أخرجه الديلمي عن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: . . .

جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه»[١]. هذا، كما ويجدون متشابهاً مع بعض، فثمار الجنة متشابهة اللذة والطراوة والنضارة، مهما اختلفت ألواناً وطعوماً، فهذا الاختلاف وذلك التشابه مرغوبان حيث اختلاف الأُكل دوماً والتشابه أحياناً وعدمه أخرى في الألوان والأشكال، كلُّ ذلك رحمة ونِعمّاً هي وكما هنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾[٢].

إن في هذا التشابه الظاهري والتنوع الواقعي بين أثمار الجنة والدنيا مفاجأة لطيفة من ناحية، واستئناس بالمألوف من أخرى، كدعابة دائبة تكشف في كل مرة عن جديد وجديد، رزقوا أشباهها في أشباحها يوم الدنيا وهم كانوا - على الأكثر - محرومين عنها[٣].

(١) الدر المنثور ١: ٣٧ أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: . . وفيه وأخرج جماعة عن أسامة بن زيد قال قال رسول الله ﷺ ألا هل مشمر للجنة فإن الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تزهر وقصر مشيد ونهر مطرد وثمرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة وحلل كثيرة ومقام في أبد في فاكهة دار سليمة وفاكهة خضرة وخيرة ونعمه في محلة عالية بهية. قالوا: نعم يا رسول الله ﷺ! قال قولوا: إن شاء الله قال القوم: إن شاء الله. وفيه عن أبي هريرة قال قلنا يا رسول الله ﷺ! حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: لبنة من ذهب ولبنة من فضة وحصاؤها اللؤلؤ الياقوت وملاطها المسك وترابها الزعفران من يدخلها ينعم لا ييأس ويخلد لا يموت لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه.
وفيه عن أبي سعيد الخدري عنه ﷺ قال: لشبر في الجنة خير من الدنيا وما فيها.
وفيه عن سعد بن أبي وقاص عنه ﷺ: ولو أن رجلاً من أهل الجنة اطلع فبدا أساوره لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.

(٣) تفسير البرهان ١: ٦٩ - الإمام الحسن العسكري عن جدِّه علي بن الحسين عليه السلام في حديث طويل حول هذه الآيات: «بشرهم أن لهم جنات»: بساتين - تجري من تحتها الأنهار: من تحت أشجارها ومساكنها ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا﴾ من تلك الجنان ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾ من ثمارها ﴿رِّزْقًا﴾: طعاماً يؤتون به ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: ٢٥] في الدنيا فأسماؤه =

وكما يجدون فيما يُرزقون تشابهاً لما رزقوا من صالحات هي ثمرات الإيمان يوم الدنيا، فاليوم يرزقونها جزاءً وفاقاً، مما تزيدهم رضى سابغة أنها مما قدمت أيديهم جزاء ومزيداً من فضل الله تعالى.

وحيث إن لأهل الجنة من كل الثمرات: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾(١) ولأن ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾(٢) فـ ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ لا يعني ما تحدّه الحياة الدنيا من ثمرات، بل هم في مثلث الثمرات غير المحدودات ولا المحدّدات، بمختلف الألوان والشهيّات والطعومات.

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ إسباغ غريزة الجنس بكلّ نزاهة وطهارة، بجنب ما لهم من ثمرات في جنات، وترى أن هناك للرجال أزواجاً وليس للنساء؟ أقول: «هم» في «لهم» هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات رجالاً ونساء، فلكلّ ازواج دون اختصاص بالرجال، مهما لا تجد آية تصارح بما للنساء من أزواج كما للرجال هناك ازواج من الحور العين ومن أزواجهم المؤمنات: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾(٣) فإن ذلك لا يعني حرمانهن لا سيّما إذا متن باكرات وإنما استحياءً عن ذكرى شهوة النساء وإحياء لعفافهن، وكما

= كأسماء ما في الدنيا من تفاح وسفرجل ورمان وكذا وكذا وإن كان ما هناك مخالفاً لما في الدنيا فإنه في غاية الطيب، وأنه لا يستحيل إلى ما يستحيل إليه ثمار الدنيا من عذرة وساير المكروهات ومن صفراء وسوداء ودم، بل ما يتولد من مأكولهم إلّا العرق الذي يجري من أعراضهم أطيب من رائحة المسك وأتوا بذلك الرزق من الثمار من تلك البساتين متشابهاً بعضه بعضاً بأنها خيار لا رذل فيها وبأن كل صنف منها في غاية الطيب واللذة، ليس كثمار الدنيا التي بعضها في وبعضها متجاوز لحد النضج والإدراك لحدّ الفساد من حموضة ومرارة وسائر ضروب المكاره، ومتشابها أيضاً متفقات الألوان مختلفات الطعوم.

(١) سورة محمد، الآية: ١٥.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٧١.

(٣) سورة الانشقاق، الآية: ٩.

لا تجد لهن ذكراً بأسمائهن في القرآن اللهم إلّا مريم عليها السلام ذوداً عنها ما مسّوا من كرامتها.

ولأن ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[(١)] نتأكد أنّ هناك للنساء المؤمنات ما للرجال المؤمنين من مشتهيات، وشهوة الجنس تحتل القمة فلتكن لهن كما لهم سواء.

إنهن سوف يتزوجن هناك برجال كما يشتهين، برجالهن إن كانوا من أهل الجنة أو بسواهم إن متن باكرات، وهن أجمل وأطرى من الحور العين، فلهن منازل عند أزواجهن فوقهن[(٢)] وإن كن أقل عدداً[(٣)].

وحتى إذا يُعنى من «لهم» الرجال فقط فـ ﴿أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ تشمل النساء المؤمنات أبكاراً وثيبات كما تشمل الحور العين.

و«مطهرة» تعني الطهارة بكل زواياها النسائية: مطهرات من الزنى ومن النظر إلى غير رجالهن: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾[(٤)] ومن أيّة مكروهة مرغوبةٍ عنه فيهن مثل مختلف الدماء، حيضاً أم

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٧١.

(٢) في من لا يحضره الفقيه قال الصادق عليه السلام: الخيرات الحسان من نساء أهل الدنيا وهن أجمل من الحور العين، وفي روضة الكافي عنه عليه السلام قال: هن صوالح المؤمنات العارفات، أقول راجع آيات قاصرات الطرف والخيرات الحسان ومقصورات في الخيام من سورة «الرحمن» ج٢٧ ص٥١.

(٣) الدر المنثور ١: ٣٩ - أخرج ابن السكن وابن عساكر عن حاطب بن أبي بلتعة سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: يزوّج المؤمن في الجنة ثنتين وسبعين زوجة من نساء الآخرة وثنتين من نساء الدنيا.

وفيه عن أبي هريرة قيل يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هل نصل إلى نسائنا في الجنة؟ فقال: إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء.

أقول هذا الاختلاف حسب اختلاف الدرجات والشهيات.

(٤) سورة الرحمن، الآية: ٥٦.

سواه[(١)] كذلك ونكاحهن «دحاماً دحاماً لا مني ولا منية»[(٢)] فلا يصحب أية قذارة أو صعوبة أو خلافات أو حسادات: «مطهرات من أنواع الأقذار والمكاره، مطهرات من الحيض والنفاس، لا ولّاجات ولا خراجات ولا دخّالات ولا ختّالات ولا متغايرات ولا لأزواجهن فركات ولا صخابات ولا غيّابات ولا فحّاشات ومن كلّ العيوب والمكاره بريات»[(٣)].

﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: في هذه الجنات والثمرات والأزواج المطهرة وفي كلّ ما يشتهون: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾[(٤)] [(٥)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ (٢٦)﴾

قد توحي الآية نفسها أن الله تعالى ضرب مثلاً قبلها ببعوضة أو ما فوقها فقال الذين كفروا ما قالوه، كما علم الذين آمنوا ما علموه، فكيف لم يذكر المثل قبلها وإنما جاء الجواب؟.

أقول: هذه الآية مع ما تحمل من مثل البعوضة، فيها الإجابة عما ربما

---

(١) الدر المنثور ١: ٣٨ - أخرج الحاكم وابن مردويه وصححه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في الآية قال: من الحيض والغائط والنخامة والبزاق - أقول هذا هو من باب الجري والتطبيق تفسيراً ببعض المصاديق.

(٢) الدر المنثور ١: ٤٠ عن أبي أمامة الباهلي أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: هل تتناكح أهل الجنة؟ فقال: دحاماً...

وفيه أيضاً أنه سأله ﷺ نفس السؤال فقال ﷺ: نعم بفرج لا يمل وذكر لا ينثني وشهوة لا تنقطع دحماً دحماً.

(٣) تفسير البرهان ١: ٦٩ عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٢.

(٥) بحثنا عن موقع الخلود في الجنة والنار وحدوده في الجزء الثلاثين عند البعض من آياته كـ ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣] ص ٤٠ - ٥٠ فراجع وكذلك في الأسرى وغيرها.

قيل عن الأمثال السالفة[(١)] أو يقال، بأن ضرب المثل بصغير أو كبير إنما هو لإثبات حق ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ﴾[(٢)] والكون بصغيره وكبيره لله ومن خلق الله، وله أن يمثل بما يشاء، حيث العبرة في المثل ليست في الحجم والكمّ، وإنما في الكيف والتدليل كأدوات للتنوير.

والبعوضة حشرة مضرة من فصيلة البعوضيات ورتبة ذوات الجناحين، تعيش صغارها في المستنقعات، وتنقل بلدغتها شتى الجرثومات، فإذا الله يضرب بها مثلاً لمعجزة الحياة فلا استحياء في مثلها، حيث الحياة في الفيلة بأعضائها كالحياة في البعوضة فما فوقها في الصغر، بل وللبعوضة ما للفيلة وزيادة عضوين آخرين[(٣)].

ثم ضرب المثل بالصغار ينبه كبار المتعنِّتين أنهم صغار صغار بجنب الله حتى في خلق بعوضة، حتى وآلهتهم التي ألهتهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[(٤)].

وهكذا تكون دوماً حال الأمثال التي يضربها الله، مواتية لما يهدفه من

(١) حيث سبق المثل هنا بالذي استوقد ناراً أو كصيب من السماء، كما سبق في العهد المكي أدنى منه كالعنكبوت والذباب، فاتخذ جماعة من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين من هذه الأمثال منفذاً للتشكيك في صدق الوحي بحجة أن فيها سخرية منهم لا تصدر عن الله، فهنا الإجابة عن كل ذلك بصيغة مختصرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٦].

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

(٣) البرهان ١: ٧٢ نقلاً عن أبي علي الطبرسي قال وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: إنما ضرب الله المثل بالبعوضة لأن البعوضة على صغر حجمها خلق الله فيها جميع ما خلق في الفيل مع كبره وزيادة عضوين آخرين فأراد الله أن ينبه بذلك المؤمنين على لطف خلقه وعجيب صنعته.. أقول: ومن عجائب البعوضة أنه يضرب بخرطومه على الفيل والجاموس كما يضرب الرجل إصبعه في الخبيص من فورة السم الذي عبئ على رأس خرطومه!

(٤) سورة الحج، الآية: ٧٣.

أهداف: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1]... ثم الحالة المؤمنة وجاه هذه الأمثال، فيما إذا كانت مريبة كبعوضة فما فوقها في الصغر - هي: العلم أنه الحق من ربهم فإيمانهم بالله يدفعهم في مزال الأقدام أن يتلقوا كلّ ما يصدر من الله بكلّ قبول وتصديق، فمهما جهلوا حكمته ومغزاه، فالله حكيم عليم. طالما المقالة الكافرة سؤال استكبار واستنكار، سؤال المقطوع الصلة عن الله المحجوب عن نور الله ومن لا يرجو لله وقاراً: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ﴾. كأنه باطلٌ من ربهم ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾: مثلاً يضلّل فكيف يضربها الله: اعتراضاً على كلام الله، غافلين أو متجاهلين أنه ﴿وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾![2].

وقد تكون ﴿وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾ من أوسط الفاسقين، بعد ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ ولا تكون من كبرائهم الفاسقين إذ لا يرون في هذا المثل وجهة حقّ وهدى.

فجواب الآخرين - فقط -: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ وللأولين زيادة ﴿وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾.. والفسق هو الخروج عما يحق من كنٍّ ووقاية - كما يقال: فسقت التمرة: إذا خرجت عن قشرها، فالفاسقون هم - الخارجون عن قشر العبودية.

وترى الفاسقون كل الفاسقين هم المضلَّلون بأمثال هذه الأمثال وكثيرٌ هم مؤمنون فاسقون.. وقليل هم الذين لا يفسقون؟

أقول: إنهم فاسقون خصوصٌ كما عرفهم الله بفسق مطلق لا مطلق الفسق؛

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٥.

(٢) هنا الوجهان مقبولان حيث تتحملهما الآية لفظاً ومعنى أن يهدي به كثيراً إما من كلامهم تتمة الاعتراض أو من كلام الله نقضاً للاعتراض، وكما ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] حلّ نهائي لسؤالهم.

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾

وفي أخرى بالكفر ومرض القلب الشامل للمشركين وأهل الكتاب والمنافقين: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ. . .﴾[(١)] وهو مثال الزبانية التسعة عشر.

إن ثالوث الفساد هذا هو المجال لذلك الضلال: نقضاً لعهد الله - قطعاً لوصل الله، وإفساداً في أرض الله، ويا له من ثالوث منحوس! يجعل من كلّ هدى ضلالة ومن كلّ نور ظلمة.

ومثلث الفساد هذا يقطع بزواياها كل صلّة بالله وبعباد الله: نقضاً لعهد الله بعد ميثاقه، من عهد توحيد العبودية فطرياً وعقليّاً، ومن ثم رساليّاً ورسوليّاً، وثم عمليّاً، التي تجمعها صيغة واحدة: «عبادة الشيطان»: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾[(٢)]: عهد ثنائي سلباً وإيجاباً هو أصل العهود! إنهم ينقضون عهد الله - أيّ عهد - من بعد ميثاقه بوثاق العقل والفطرة ووثاق النبوات، فالفاسقون: الخارجون عن حدود العبودية هم حياتهم نقض لمواثيق الله - بكلّ زواياها الثلاث وحواياها، ونقض عهد الله من أعظم الفسق: ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ﴾[(٣)]. فإنهم لا لُبَّ لهم إنسانياً و﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ . . . ٢١﴾[(٤)].

(١) سورة المدثر، الآية: ٣١.
(٢) سورة يس، الآيتان: ٦٠، ٦١.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٠٢.
(٤) سورة الرعد، الآيات: ١٩ - ٢١.

﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ فقد أمر الله بصِلات كثيرة: عقيدية وعملية، فردية وجماعية اماهيه، فإذا قطعت هذه الصِلات ونُقض عهد الله عمّت فوضى الفساد في الأرض، فإن إصلاحها على ضوء الحفاظ على عهد الله، وإيصال ما أمر الله في جناحي الرباطين: بينك وبين الله وبين عباد الله... ونرى آية النقض والقطع تربط بينهما هنا وفي أخرى مما يدل أن كل نقض لعهد من عهود الله يسبب قطعاً لما وصل الله وأمر به أن يوصل، فشريعة الله شريعة وصل المفاصلات التي تفصل الانسانية عن صالح الحياة، ابتداء بوصل الحياة البيتية، إلى وصل الأرحام، إلى المجتمع الإسلامي الكبير وإلى كافة المجتمعات وصلاً عقيدياً - أخلاقياً - مادياً - سياسياً - اقتصادياً وعسكرياً أم ماذا، وكما تأمر به آية المرابطة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾[(١)].

ثم وقطع عهد الله، وفصل وصل الله يسبب كلّ فساد في أرض الله: ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

إذ خسروا رأس مال الاهتداء في متاجر الضلالة والهدى، فالمثل الإلهي الذي من شأنه شفاء ورحمة لا يزيدهم إلّا خساراً.

ولأن الفسوق دركات فالضلالة الناتجة عنه أيضاً دركات طبقاً عن طبق فالفسوق المروق عن مطلق الطاعة ضلال مطلق مطبق، والفسوق عن الطاعة المطلقة وهو مطلق الضلال غير مطبق، فالحياد عن منهج الله ومحادّة حكم الله والحداد عن حدود الله هو الفساد الشامل للنفوس والأحوال، التي تُردي في الأوحال، ومن ثم فحق لهم أن يضلهم الله بما يطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾[(٢)].

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨.

ثم و«مثلاً ما»[(١)] يشمل كافة الأمثال القرآنية، ومثلاً منها: «البعوضة» وهي أضعف ما يعرف عامياً من خلق الله «فَما فَوْقَها» في الضعف والخساسة، الذي يعرفه البعض بعيون مجردة أو مسلحة[(٢)] ولكن الله إذ يواجه الناس أجمعين يضرب أمثالاً يعرف الناس أجمعون: نملاً بعوضة - ذباباً - عنكبوتاً - نحلاً: وهي على صغرها وخستها حجماً، عظيمة في خصّتها خلقة وخاصّتها مثالاً: فلماذا الله يستحيي أن يضرب مثلاً مّا: بعوضة فما فوقها؟ وما الأمثال في القرآن إلّا مظاهر نعيشها، تدليلاً على حقائق نجهلها.

ويا لمثل البعوضة فما فوقها من ملابسات هامة فيزيولوجياً وحيوياً ودلالة على ما يُرام منها هدىً ورحمة للمؤمنين وتذكرة للكافرين ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾!

فلا ضلال في المثال، ولا من الله الذي يضربه لتقريب الحق، وإنما في ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ حيث يبدلون نعمة الله كفراً، فليس من الله دفع إلى ضلال، اللهم إلّا تركاً لمن يهرع إلى ضلال، ثم ختماً على قلبه فيزيد ضلالاً على ضلال: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾[(٣)] إن في تركه فلا موفّق إلّا الله، أو في ختمه فلا رادّ لأمر الله.

(١) ﴿مَآ﴾ هنا ليست زائدة. وإنما تعني الإجمال الشامل لكلّ مثل، كما يقال: شيئاً مّا - أمراً مّا - رجلاً مّا - شخصاً ما، ف ﴿مَآ﴾ تؤكد التنكير الإجمال فيما قبله وتعمّه.. فـ ﴿بَعُوضَةً﴾ [البقرة: ٢٦] منصوب على البدلية من ﴿مَثَلًا مَّا﴾ [البقرة: ٢٦] دون حاجة إلى تكلفات أخرى تأبى عنها كلام الله!.

(٢) لأن المقام هنا الإجابة عما يسأل عن صغر المثال ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦] هنا تعني: ما فوقها في الصغر والخسّة، حيث الفوقية تختلف مواردها وكما يقال: فلان فوق فلان في الفقر - في اللؤم - في الفسق أو في الصغر، حيث الفوقية فيها هو الشدة في كلٍّ منها... ومع ذلك كله ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ في الآية تتحمل الفوقين: أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها في الصغر كالنملة وما فوقها، أو في الكبر كالنحلة وما فوقها.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٦.

كلام حول الضلال والهدى:

نرى عشرات من آيات الله البينات تنسب الإضلال إلى الله كما تنسب إليه الهدى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾[(١)] ولكنما المشية الإلهية، الحكيمة العادلة، لا تتعلق بإضلال المهتدين، ولا الحائرين المتحرّين عن الهدى، فلا نجد آية تحمل من إضلال الله من شيء إلّا بالنسبة للزائغين: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[(٢)] الظالمين: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾[(٣)] والفاسقين: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ والكافرين: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[(٤)] أو كل مسرف مرتاب: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾[(٥)]: إضلال بما زلّوا وضلوا من قبل، لا بمعنى الدفع إلى الضلال قبل بيان الهدى، وإنما تركاً لهم يفعلون ما يريدون بعد الإياس من هداهم: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾[(٦)] تعبيراً عن تركه لهم بإضلالهم إذ لم يحملهم على الهدى تسييراً: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾[(٧)] ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾[(٨)].

ثم وبما يمدّهم في أعمار وأموال وبنين: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾[(٩)] ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾[(١٠)].

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٨.
(٢) سورة الصف، الآية: ٥.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.
(٤) سورة غافر، الآية: ٧٤.
(٥) سورة غافر، الآية: ٣٤.
(٦) سورة يونس، الآية: ١١.
(٧) سورة الأعراف، الآية: ١٨٦.
(٨) سورة التوبة، الآية: ٤٥.
(٩) سورة البقرة، الآية: ١٥.
(١٠) سورة الأعراف، الآيتان: ١٨٢، ١٨٣.

ثم وأخيراً أن يطبع على قلوبهم جزاء في الأولى بما كانوا يعملون: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[(١)] ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[(٢)] ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[(٣)] ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[(٤)].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[(٥)] ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾[(٦)].

وهكذا نرى أنّ الإضلال من الله لا يعني الدفع إلى الضلال، ولا سيما للمهتدين والحائرين، وإنما ترك وإهمال وامهال للضالين فيزدادوا ضلالاً على ضلال ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[(٧)].

ثم الإفعال كما تأتي لنقل الفعل من لازم إلى متعدٍّ، كذلك تأتي لمجرد الوجدان[(٨)] فـ ﴿أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾[(٩)] قد تعني: وجده الله ضالاً، ثم ولم يهده فاستمر على ضلاله!

كما ونسب الإضلال إلى نفسه بما هدى فلم يهتدوا وزادوا ضلالاً: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[(١٠)] فدعاء

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٥.
(٢) سورة يونس، الآية: ٧٤.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٠١.
(٤) سورة غافر، الآية: ٣٥.
(٥) سورة المنافقون، الآية: ٣.
(٦) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.
(٧) سورة آل عمران، الآية: ١٨٢.
(٨) كما يقال: سألناكم فما أبخلناكم: فما وجدناكم بخلاء - أتيت أرض فلان فأعمرتها: وجدتها عامرة.
(٩) سورة النساء، الآية: ٨٨.
(١٠) سورة البقرة، الآية: ١٠.

الحق تزيد المبطل ضلالاً بما يدفعه لتكذيبه وحرابه: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾[(١)].

فلا نجد في القرآن بأسره إضلالاً ظالماً إلهيّاً مسيّراً للضلال! فالناس في مجال الهداية الإلهية على ضروب:

١ - منهم من يقبل الهدى إذ يعرفها فيصدقها، فيزيده الله هدى على هدى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾[(٢)].

٢ - ومنهم المستضعف الحائر الذي لا يجد حيلة ولا يهتدي سبيلاً، فأولئك قد يهديهم الله أو قد يعاملهم في الآخرة بالحسنى إذ كانوا قاصرين: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾[(٣)].

٣ - ومنهم من يعرف الحق ويعانده فهل على الله أن يجبره على الهدى؟: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[(٤)] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾[(٥)] كلّا! إنه الاختيار في كلّ من الضلالة والهدى، ثم لكلّ زيادة جزاءً وفاقاً.

فآيات الاختيار في قبول الضلالة والهدى هي رأس الزاوية في مثلث الهدى تثبت التخيير وتنفي التسيير، وتكملة البحث تترى في طيّات آيات الضلالة والهدى.

(١) سورة نوح، الآية: ٦.
(٢) سورة مريم، الآية: ٧٦.
(٣) سورة النساء، الآيتان: ٩٨، ٩٩.
(٤) سورة النحل، الآية: ٩.
(٥) سورة السجدة، الآية: ١٣.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

سؤال استنكار وتقبيح بمن يكفرون بالله، وهذه التنقلات المقصودة من موت إلى حياة ثم موت وثم حياة تدل على فاعل عليم حكيم، فكل تطوّر بحاجة إلى مطوِّر، فإذا كان مقصوداً حكيماً فليكن المطوِّر قاصداً حكيماً، وهكذا تطورات الموت والحياة منذ البدء حتى الختام.

فمهما أنكر الكفار الحَياة بعد الموت، لم يهدِ لَهُمُ نكران الموت الأوّل ثم الإحياء عنه ثم الإماتة، مما يكفي دليلاً على وجود قدرة عليمة خلاقة حكيمة واحدة، وأن له الإحياء مرة أخرى كما أحيى في الأولى، فحجة الاستنكار هنا تشمل كافة المكلفين: ماديين ومشركين، وكتابيين وموحدين: الناكرين منهم ليوم الدين!

ولأن الخطاب هنا موجّه إلى الناس الأحياء، فليكن الموت فيه قبل الإحياء، لا موتاً عما هم فيه من الحياة الإنسانية ولا أيّة حياة، فقد كنا أمواتاً إذ كنا أجنَّة في بطون أمهاتنا، وقبل خلق الروح الإنسانية فينا مهما كنا أحياء بالروح النباتية، وبعضٍ من الحيوانية، حتى أتى دور الحياة الإنسانية بما أنشأ الله فينا خلقاً آخر: ﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾ للحياة الدنيا دون فصل، بعد ما تهيأ الجنين لتقبّل الروح الإنساني وكما توحيه «فـ» حيث تلمح بعدم الفصل.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بعد فصل فيه تعمرون، يميتكم عن الحياة الدنيا - وثم ماذا؟، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ فهل للحياة البرزخية، حيث بعدها: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؟ فإن الرجوع إلى الله هو الحياة الأخرى! علّه نعم: لمكان الرجوع هنا، ولـلآية الأخرى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾[1] حيث الإحياء الأوّل هو - فقط - عن

(١) سورة غافر، الآية: ١١.

الموت الأوّل كما هنا، فالإحياء الثاني هو عن الموت الثاني نتيجة الإماتة الأولى، ثم لا معنى للإماتة الثانية إلّا أنها عن حياة ثانية تتوسط الحياتين: الأولى والأخرى، وهي الحياة البرزخية، فكما الإماتة الأولى إفناءٌ للحياة الأُولى فلتكن الثانية أيضاً إفناءً عن حياة مّا ثم الإحياءُ الثاني هو للحياة الأخرى.

وهذا اعتراف من جماعة أهل النار بإماتتين وإحياءين وهم في النار، بعد إذ كانوا لكلّ منها ناكرين: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾[١] إذ حصروا الموت بما عن الحياة الدنيا كما حصروا الحياة بها، فلا حياة بعدها وكما لا موت بعد الموتة الأولى! واعتراف أهل النار وهم في النار، بما أنكروه يوم الدنيا دونما ردّ عليهم، إنه مصدّق كواقع، حيث المتناقضان لا يجتمعان والقرآن بيان دون إجمال أو تقرير لضلال!

والترتيب الواقعي بين الإماتتين والإحياءين، إحياء عن الموت الأوّل، ثم إماتة عنها، ثم إماتة عن حياة تعيش هذه الإماتة، فإحياء إلى الحياة الأخرى، فلولا الحياة البرزخية لم تكن هناك إماتة ثانية.

فحالة الحياة البرزخية هي موت عن الحياة الدنيا - وليست موتاً مطلقاً - بل هي حياة مّا - تقبل الإماتة ثم الإحياء للحياة الأخرى.

ثم وعلّه لا! حيث الحياة البرزخية لا تحتاج إلى إحياء، فإنها حاصلة في الحياة الدنيا وفي الموت عنها، وهي بقاء الروح في البدن المثالي البرزخي، فلا تعني الإماتة عن الحياة الدنيا إلّا انفصال الروح ببدنه المثالي عن هذا البدن نهائياً، فتبقى ما تبقى من أصل الحياة برزخياً دونما حاجة إلى إحياء.

(١) سورة الدخان، الآية: ٣٥.

لذلك لا تجد مصارحة قرآنية بإحياء برزخي، وإنما الحياة والحياة فقط دونما إحياء!

ثم إنّ الرجوع إلى الله بعد الإحياء الثاني لا يخص الحياة الأخرى بعد الموت حتى يخص هذا الإحياء بما بين الأولى والأخرى، بل هو يعمّها وما بعدها من رجوع الحساب فالثواب والعقاب: كما ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾(١) ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾(٢) فهل الإعادة والبعث هما في البرزخ؟! وليس فيه إلّا استمرار الحياة الدنيا. مهما نجد آيات أخرى هنا تعني من الرجوع إلى الله الحياة الأخرى، ولكنه بعد هاتين ليس إلّا ما يعم الحياة الأخرى والانتقال إلى حياة الحساب، ولا حجة في آيتنا: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ... ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أنه الإحياء للأخرى، واستعمال العام وقصد الخاص دون دليل، خارجٌ عن مذهب الفصاحة فضلاً عن القرآن البالغ أعلى القمم فيها.

ومن ثم فـ ﴿ثُمَّ﴾ قبل: يحييكم - الدالة على تراخي الإحياء عن الإماتة تدلنا دلالة رابعة أنها الحياة الأخروية النائية عن الموت كثيراً، لا الحياة البرزخية التي لا تنفصل عن الموت.

فعلى ضوء هذه الدلالة المربعة، ننتقل من: علّه نعم أو لا، إلى التأكدّ من عدم دلالة الآية على حياة برزخية، فهل إذاً تدل على نفيها؟ لمكان: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ ولا إحياء إلّا عن الموت، فليس هناك قبل الحياة إلّا الموت؟

في الحق أنه لا دلالة على نفيها كما لا تدل على إثباتها، حيث الحياة

---

(١) سورة الروم، الآية: ١١.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٦.

البرزخية موت بالنسبة للحياة الأخرى - كما الحياة الدنيا موت بالنسبة لها - فكما يصح الإحياء عن الموت المطلق الذي لا حياة فيه - وهنا نفيٌ للبرزخ - كذلك يصح عن الموت النسبي: - البرزخي - وهو أحيى من الحياة الدنيا - وهنا إثباتٌ للبرزخ:

فعلى ضوء الآية الأخرى: ﴿أَمَتَّنَا... وَأَحْيَيْتَنَا﴾[1] حيث تثبت الحياة البرزخية، نفسر آيتنا هكذا: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ أجنّة في بطون أمهاتكم قبل إنشاء الخلق الآخر ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ بالحياة الدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عن الحياة الدنيا فصلاً للروح ببدنه المثالي عن هذا البدن ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ لحياة أخرى هي أرقى، إحياءً عن الحياة البرزخية التي هي موت وجاه الأخرى، أو إحياءً بعد الإماتة عن الحياة البرزخية - وهو أحق وأحرى - وكما تدل الآية الأخرى: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ حيث الإماتة الأولى إماتة عن الحياة الدنيا، فلتكن الثانية إماتة عن حياة أخرى إلى الحياة الأخرى، فلولا أنّ هناك حياةً وسطى: بين الدنيا والأخرى، لم يكن للإماتة عنها معنى!.

فالفرق بين الآيتين أنّ آيتنا لا تحمل إلّا إماتة واحدة، وموتاً قبل الحياة الدنيا، وفي الأخرى إماتتان، وحاصل جمعهما أنّ كلًّا من الموت والحياة ثلاث: موت قبل الحياة الأولى دون إماتة وهو الموت المطلق، وموت بالإماتة عن الحياة الأولى، وموتٌ بالإماتة عن الحياة البرزخية.

ثم: حياة بعد الموت الأوّل، وحياة بعد الإماتة عنها، وحياة بعد الإماتة عن الثانية: الحياة الأولى ثم الوسطى ثم الأخرى، وآيتنا هنا لا تتكفل إلّا بيان الحياة الأخرى، إذ تواجه الناكرين لها، لا البرزخية التي هي على هامشها، تثبت بعد ما تثبت هي الأخرى.

(١) سورة غافر، الآية: ١١.

فقيلة الناكرين للحياة البرزخية إن آيتنا تنكرها كما الآية الأخرى - وهي مثلها - لا تثبتها، حيث تشملان الموتتين والحياتين، إنها قولة فارغة هراء، حيث البون بيّن بينهما، وأنها موت وإماتة دون الأخرى: إماتتين، دلالة قاطعة هنا عليها، وسكوت هناك عنها!

فالقرآن يثبت الحياة البرزخية في قرابة عشرين آية نبحث عنها في طياتها، دون تصريح أو تلويح بإحياء فيها فإنها استمرارية للحياة الأولى بعد انفصال البدن عنها طالما يصرح في مئات الآيات بالإحياءين دنيا وأخرى، وتصرح آية وحيدة بإماتتين: تلويحة كتصريحة أن في البرزخ حياة، وإلّا فالإماتة الثانية عماذا؟!

هذا ولأن الإماتة الثانية لا تزعج الصالحين لا يأتون في الأخرى بذكرها إلّا تلميحاً: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩﴾[1] استثناء منقطع يعني أن لا موت في الآخرة، اللّهم إلّا الموتة الأولى في الأولى، فلولا الموتة الثانية لم تكن لصيغة الأولى من معنى.

وأما الكفار فتهمّهم الموتة الثانية وأكثر من الأولى، فإنها تنقلهم إلى دار البوار جهنم يصلونها فبئس القرار، ولذلك يصرحون بها دون المؤمنين، وفي تصريحة يوم الدين حجة عليهم، وحجة للمؤمنين يوم الدنيا تدليلاً على حياة برزخية بين الحياتين.

ثم هذا الخطاب العام: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ يعني الحالة العامة السائرة لسائر الناس، لا الذين لهم حياة ثانية وإماتة أُخرى في الحياة الدنيا: ﴿كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ . . . فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾[2] و﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن

(١) سورة الصافات، الآيتان: ٥٨، ٥٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾[(١)] ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ۝﴾[(٢)] ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[(٣)] إحياءات وإماتات أخرى لبعض الناس، تدليلاً حسيّاً على أن وعد الله حق!

وترى كيف تحتج آيتنا على منكري المبدأ والوحي بنكران المعاد؟ لأنها تحمل دليل التطور بعد ما ثبت المبدأ والوحي بما مضى، قرن الدليل الحسي إلى العقلي إذا فـ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾؟!.

ثم الموت هنا ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ من باب العدم والملكة لا عدم الملكة، فكما يصدق على من مات عن حياة، كذلك الموت البدائي الذي تلحقه حياة، فلا يقال لما لا يقبل الحياة ميّت، وإنما لما يقبلها كما هنا، أو ما يستقبلها كما في الموت بعد الحياة، و﴿أَمْوَٰتًا﴾ هنا تعني الموت الثاني حيث الأول تخصُّ لفظة الإماتة دون ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾.

ثم الرجوع إلى الله له درجات يتدرجها الراجعون، ابتداءً من الموت في حياة برزخية فيها ثواب وعقاب مؤقت نظرة الأخرى، ثم الحياة الأخرى، ثم إلى موقف الحساب الختامي فالجزاء، فنحن إذاً في مثلث الرجوع إلى الله، وكما آياته تشملها أحياناً: ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[(٤)] وبعض منها بعضاً كما آيتنا و﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[(٥)] ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[(٦)] حيث تدل على قاعدة مثلث الرجوع: موقف

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٣.
(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٥٥، ٥٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٧٣.
(٤) سورة يونس، الآية: ٥٦.
(٥) سورة الروم، الآية: ١١.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ٣٦.

الحساب، ومن ثم لا نجد تصريحة في الرجوع الثاني فحسب اللّهم إلّا لمحات: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾[(١)] حيث الإنباء بما عملوا بعد الرجوع إلى الله هو رجوع الحساب بعد رجوع الحياة ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾[(٢)] وعلّها صريحة في الثاني.

وترى أن الرجوع الثالث بعيد عن الثاني ولذلك يعطف عليه بتفريع البعيد ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؟.

أقول: نعم: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٣)] وطبعاً هو بعد زمني بالنسبة لنا، وأما الله فلا: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٤)] فلا مناحرة بين «فـ وثم» لاختلاف المقامين، ثم لا نجد ﴿ثُمَّ﴾ إلّا في ثنتين بين إحدى عشر آية[(٥)] مما يؤكد القرب إلهيّاً، مهما كان بعيداً عندنا.

وهكذا نرى في آية قصيرة واحدة تُفتح سجلّة الحياة كلها ثم تُزوى وتُطوى معروضة في ومضة لقبضة الباري جلّ وعلا، ينشرها من همدة الموت قبل أيّة حياة، ثم يقبضها بهدمة الموت بعد حياة، ثم يُحييها مرة أخرى في الأخرى، ثم إليه ترجعون.. في استعراض سريع يرسم أدوار الموت والحياة، مذكّرة للمغفلين الناكرين لقاعدة الحياة!

(١) سورة النور، الآية: ٦٤.
(٢) سورة ق، الآية: ٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٦٠.
(٤) سورة المائدة، الآية: ١٠٥.
(٥) العشرة الأخرى هي: ٣: ٥٥ - ٥: ٤٨ - ٥: ١٠٥ - ٦: ١٦٤ - ١٠: ٢٣ - ٢٩: ٨ - ٣١: ١٥ - ٣٩: ٧ - ٦: ١٠٨ - ٣١: ٢٣.
ثم الثانية المذكورة فيها ﴿ثُمَّ﴾ ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ [يونس: ٧٠].

ثم ينتقل بنا إلى جوٍّ أوسع من هذه الحياة، في نعم واضحة رغم غامضة الحياة:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

هنا يرتفع بنا ربُّنا من حمأة هذه الأرض وحياتها المغمورة المحصورة في معمورتها، إلى السماء والسماوات، وليرفعنا عن هذه المحدودة فنجنح بأفكارنا ومحاولاتنا وتصرفاتنا إلى عليّات الكون، ولنعرف أنه تعالى وتقدس خلقنا لأمر عظيم، أعظم من خدمة الأرض المتعة وسماواتها، فإنها كلها مخلوقة لنا، مستعبداً لها لصالحنا دون أن نعبد الآلة ونعشو عن ذكر خالق الآلة وغايتها، رغم دعايات أنصار المادة، المنغمسين في نزواتها المنطمسين عن غاياتها، المحقّرين دور الإنسان فيها، فكرامة الإنسان وسيادته واستعلاؤه على الكون لغاية معرفة الله، والحياة مع الله، وطاعة الله، هي القيم القمة من وراء هذه الآيات.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ وهل من خالق إلّا الله ﴿خَلَقَ لَكُم﴾: الناس كل الناس - ﴿لَكُم﴾ كأصل ولسائر الخلق وحتى الجان كفرع.

وتراه ﴿لَكُم﴾ - فقط - تعني هذا النسل الأخير؟ كما ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[(١)] ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾[(٢)] ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾[(٣)] ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[(٤)]

---

(١) سورة النمل، الآية: ٦٠.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ١٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٧.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾[(١)] ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلًا﴾[(٢)] ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾[(٣)] ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولًا﴾[(٤)] ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطًا﴾[(٥)].

فهل إن خلق الأرض وما فيها، وجعلها مهداً وفراشاً ومهاداً وذلولاً وبساطاً وجعل النجوم وإنزال ماء السماء، وجعل الليل والنهار وما إليها من حياة أرضية ومستفيدة من السماء، هي هي كلها فقط «للناس»؟ هذا النسل الأخير؟

فكيف إذاً يهمل سائر من يستفيدون من الأرض ويفيدون، ومنذ أن تهيأت الأرض للسكنى؟ فبناء وأثاث للناس هذا الناس، يخلق قبل خلقه بملايين السنين؟

لا يمنع الخطاب أن يستغرق كلَّ الناس طوال الحياة الأرضية الصالحة لحياة الناس، إيحاءً بأن «الناس» ليس فقط هذا النسل الحاضر البادئ من آدم وزوجه مهما اختلفت أنساله منذ صلوح الأرض لسكنى الناس، في عقلياتها وسائر درجاتها كما يلوح لنا من آية الاستخلاف.

وبما أن «الناس» بين مختلف الخليقة الأرضية هم الأساس القمة في الخلق لذاك يختص بهم الخطاب تشريفاً، وعلى هامشه الجن وسائر الخلق المستفيدين من الحياة الأرضية.

(١) سورة يونس، الآية: ٦٧.
(٢) سورة طه، الآية: ٥٣.
(٣) سورة غافر، الآية: ٧٩.
(٤) سورة الملك، الآية: ١٥.
(٥) سورة نوح، الآية: ١٩.

وكما قد يختص بنا الخطاب تشريفاً لنا على سائر الناس، حيث يواكبنا نحن، إذ نزل القرآن في دورنا، وبينهما الخطاب لهذا النسل الأخير منذ آدم حتى القيامة الكبرى.

﴿خَلَقَ لَكُم﴾: كل أنسال الناس - النسل الأخير - الناس زمن الخطاب حتى القيامة - فإن هذا الخطاب - وكثير مثله - يوّجه على غرار القضايا الحقيقية، الشاملة للناس أيّاً كانوا وأيّان.

﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: خلق لكم جميعاً - ما في الأرض جميعاً، فهو في ازدواجية الجمع، فكما الأرض بما فيها جميعاً خلق لكم، كذلك هي لكم جميعاً.

وها هما قاعدتان فقهيتان من أعمّها وأهمّها في التشريع الإسلامي: أصالة الإباحة في جميع الأشياء، وأصالة الاشتراك فيها.

ف ﴿مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يشملها وما في ظهرها وبطنها وما في جوّها، جمعاً لما في الأرض إلى الأرض، حيث ﴿فِي﴾ تعني الظرف، فظرف الأرض بمظروفها: بكلّ حواياها وزواياها، بكلّ أبعادها - ما صدق الأرض وما فيها - إنها جميعاً خلقت لنا جميعاً.

وبما أن ﴿لَكُم﴾ تفيد الانتفاع، فهنا الغاية من خلق الأرض وما فيها أن ننتفع بها كما نشاء بما نشاء وحيث نشاء وأنّى، حتى يأتينا من الله حظر في: كيف ننتفع ومتى وأنّى وممّا؟ وهي أصالة الإباحة في كافة التصرفات والانتفاعات، ولكنها تلميحة كتصريحة أن هذه التصرفات محددة بحدود الحفاظ على المنافع الفردية والجماعية، الفردية التي لا تضر بالمجتمع، والجماعية التي تحافظ على منافع الأفراد: أصالة الفرد والمجتمع، ولكنما المجتمع هو الأوّل والأولى إذا تناحرا، لمكان ﴿لَكُم﴾! فحرية التصرف فيما في الأرض هي مباحة مسموحة ما لم تناحر حرية الآخرين.

ثم وأصالة الاشتراك: «لكم جميعاً» فخلق الله ليس لناس خصوص أو أشخاص خصوص، وإنما «لكم جميعاً» أن تنتفعوا مما في الأرض جميعاً.

فكما الله إله الناس جميعاً دون اختصاص بناس دون ناس كذلك، رزقه هو لهم جميعاً دون اختصاص، إلّا أن يختصوا بما يقدّمون من أفكار وأعمال، فلهم ما لهم بما قدموا دونما اشتراك، ولهم ما للجميع ما لم يقدموا دونما اختصاص.

إذاً فالأرض بمائها وهوائها وكلائها ومعادنها وغاباتها، بما فيها وما عليها وما إليها، هي جميعاً للناس جميعاً، لا يحق لأحد أن يختص بنفسه منها شيئاً إلّا ما عمل وكدح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾(١).

والاقتصاد الإسلامي اختصاصي في وجهات الأعمال بحصائلها، واشتراكي في خلق الله كخلق الله، رفضاً ليمينية الاختصاص الظالم في كلِّ شيء، ويسارية الاشتراك الغاشم في كل شيء، وإنما: اختصاص عادل واشتراك عادل، دون الكلمات والعبارات والدعايات البراقة، الجوفاء الخواء من الحقيقة، وإنما هو الحق كلُّه والحقيقة كلُّها.

ولأن جميع ما في الأرض مخلوق لنا فلنا أن ننتفع منها باستخدام العلم والعمل كدحاً في سبيل الانتفاع مما هبانا الله، ولنعبد الله على منّه وإحسانه، ولماذا يسبقنا من لا يعرفون الله أو يكذبونه، ثم نحن المسلمين نعيش على هوامشهم ونحسب أننا نحسن صنعاً!..

وفي الحقل الفقهي لا نفهم من ﴿لَكُم﴾ هنا كما في غيرها إلّا حلية الانتفاع مما في الأرض، دون ملكية لعين الأرض والأرضيات، فإنها ليست من سعي الإنسان ولا يملك الإنسان - أياً كان - إلّا ما سعى: ﴿وَأَن لَّيْسَ

(١) سورة الانشقاق، الآية: ٦.

لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ...﴾[1] ضابطة عامة تعم النشآت الثلاث: الأولى والوسطى والأخرى[2].

ولأن الأرض «لكم جميعاً» تستفاد ضابطة أخرى أن استثمارها ليس فوضى تستغله أكلة الأرض حيث يحرم الآخرون وهم شركاؤهم فيها! وإنما كلّ حسب حاجته وسعيه، ونصوص التحجير والإحياء والتعمير[3] لا تعني - وليست وجاه نصوص الآيات لتعني - أنها من أسباب ملكية رقبة الأرض، وفيها دلالات تناحرها تدليلاً على ما تدل عليه آياتها، فـ«من أحاط حائطاً على أرض فهي له»[4] و«من أحيا مواتاً فهي له»[5] و«أيما قوم أحيوا شيئاً من الأرض - أو عمّروها - وعمروها فهم أحق بها وهي لهم»[6] هذه لا تدل على أكثر مما تدل عليه آيتنا ﴿خَلَقَ لَكُم﴾ مع الأولوية الحاصلة بالإحياء والتعمير دون ملكية رقبتها، فإنها ليست من سعي عمّارها حتى يملكوها، فإنما يملكون ما سعوا لها «وله ما أكل منها فإن تركها أو أخربها فأخذها رجل من المسلمين من بعده فعمرها وأحياها فهو أحق بها من الذي تركها..»[7].

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) فـ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] تشمل الكل ومنها الأولى - و﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٤٠] تخص البرزخ، و﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٤١] تخص الأخرى.

(٣) هو النبوي العامي: كما في (ج ٥ مفتاح الكرامة ص ٢٤).

(٤) هو النبوي العامي: كما في (ج ٥ مفتاح الكرامة ص ٢٤).

(٥) صحيحة عبد الرحمن بن أبي عبد الله عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ (وسائل الشيعة).

(٦) صحيحة محمد بن مسلم عن الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ ففيها (أو) وفي أخر (و).

(٧) صحيحة أبي خالد الكابلي عن الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: وجدنا في كتاب على أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، أنا وأهل بيتي الذين أورثنا الأرض ونحن المتقون والأرض كلها لنا فمن أحيى أرضاً من المسلمين فليعمرها وليؤد خراجها إلى الإمام من أهل بيتي وله... فليؤد خراجها إلى الإمام من أهل بيتي وله ما أكل منها حتى يظهر القائم... وهنا أحاديث أخرى تدلنا على انتقال الأولوية إلى من يعمرها بعد الذي يهملها كصحيحة معاوية =

فاشتراكية الأرض لها مرحلتان، أولى وهي قبل أن يسعى لها تحجيراً أو إحياءً وتعميراً، فليست إذاً أولى لأحد، وثانية هي بعد هذه الثلاثة أو واحدة منها، حيث الأولوية تخرجها عن اشتراكية الانتفاع، فإنه لمن استثمرها على حده، ولا تخرجها عن اشتراكية العين.

فإن تركها مستثمرها دون عذر أو حاجة كان لمن يحتاجها باستثمارها دون مشاكسة فيها، كما لو استثمر أكثر مما يحق لم يحق له إلّا قدره، وهو في الزائد عامل في الأرض ليس له إلّا أجرة المثل.

فحذار حذار على أكلة الأرض، فليس كما يزعمون أنهم يملكون مدّ أعينهم من أرض الله كما تمدهم أموالهم وأعوانهم، وإنما لكلٍّ نصيبُه حسب المكانة والمكان والحاجة المراعاة فيها حاجات الآخرين، بالتحجير والإحياء والتعمير، فلو حجّر دون إحياء، أو أحيا دون تعمير مغبة استغلالها في غلائها زالت عنه هذه الأولوية المسموحة، وانتقلت إلى من يستغلها لحاجته أو حاجيات الآخرين.

وهاتان الضابطتان تسمحان لكل إنسان أن يستفيد من أرض الله التي خلق لهم جميعاً، كلٌّ كما سعى وقدر الحاجة، دون إجحاف بحقوق الآخرين، فلا تبقى أرض صالحة معطلة، ولا عاطل عن استثمارها ولا عامل - فقط - لمن يستثمرها، قضية العدل والنصفة وإعطاء كل ذي حق حقه، حيث تقتسم الأولويات بين الساعين قدر الحاجيات، ثم هم في الزائد كعمال لأنفسهم وسواهم على سواء.

= ابن وهب عن الصادق عليه السلام: «أيما رجل أتى خربة بائرة فاستخرجها وكرى أنهارها وعمرها فإن عليه فيها الصدقة فإن كانت أرض لرجل قبله فغاب عنها وتركها فأخربها ثم جاء بعد يطلبها فإن الأرض لله ولمن عمرها». أفلا يدل خروجها بخرابها عن ملكه على أنه لم يملكها حين أحياها؟!.

ومن حصائل هذا البحث أن الأرض - أيّة أرض - لا تُملك وإنما تُملك منافعها المحللة لمن أحياها، دون رقبتها إذ ليست مما سعاه محييها، والقاعدة الحاصرة القرآنية: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1] تحصر الملك فيما يحصل بالسعي، وتحسره عما سواه، وليست الأرض سعياً لأحد إلّا الله، اللّهم إلّا منافعها لمن يحييها.

فإن قلت: الأموال الموروثة أو المهداة والتي تُنفق في حلها هذه أيضاً ليست مما سعى لها من يرثونها أو يُهدى ويُنفق لهم.

قلنا: أجل، ولكن كونها لسعاتها يسمح لهم أن يورثوها وينفقوها لمن يشاؤون فيملكها غير سعاتها بما مّلكوها إياهم، قضية الملكية المطلقة لهم، فالمال - أي مال - إنما يُملك بالسعي أو التمليك، وليست الأرض من سعي محييها، ولا يملكها أحد - حتى يملكها من يشاء - إلّا الله ولم يملّكها لناس خصوص وإنما «لكم جميعاً».

﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ. . .﴾.

وترى أنّ خلق هذه الأرض بما فيها مقدم على خلق السماء؟ أقول: نعم وأقول: لا! نعم: إنها خلقت قبل تسبيع السماء، فقبل نجومها ومصابيحها ومنها الشمس! ولا: فإنها خلقت مع دخان السماء أو بعده أم قبله: لا ندري، حيث انفجرت المادة الأمّ «الماء» فأزبدت زبداً خُلِقت منه الأرض وزملاءها: الست الأخرى، وثار منها دخان هو المادة السماوية الأولى.

فهنا الإشارة: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ كتصريحة أن خلق الأرض بما فيها هو قبل تسبيع السماء، وكانت السماء وقتئذ سماءً،

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

مع الأرض أم قبلها؟ هنا لا ندري، وتجد التفصيل الأصيل في «فصلت» كما فصلناه على ضوء الآيات الثلاث[1].

ف﴿مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ هنا هي رواسيها وبركاتها وأقواتها ثم من بعد ذلك سوّى السماء سبعاً وهي دخان لم تسوّ بعد سماء ولا سماوات فللسماء مراحل ثلاث: ١ - الدخان، ٢ - السماء مبنية واحدة، ٣ - السماوات السبع.

واللائح من آية البقرة والآيات من فصلت أن الأرض خلقت برواسيها وأقواتها قبل خلق السماء سبعاً، وإذ كانت دخاناً: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ . . . فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾[2].

وآيات النازعات تؤخر إخراج ماء الأرض ومرعاها وإرساء جبالها - بدحرها - تؤخرها عن بناء السماء، ولأن خلق الأرض ببركاتها وأقواتها كان قبل تسبيع السماء، فلا يعني بناءُ السماء في النازعات - قطعاً - تسبيعها، فإنما تطوير غازها إلى سماءٍ واحدة هو أقل تقدير لبنائها: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾[3].

بناها من أصلها الثاني «الدخان» المنبثق من المادة الأمِّ «ماء»[4].

وترى أن هذا البناء الأوّل للسماء هو قبل تكملة الأرض أم بعدها؟

(١) ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ . . .﴾ [فصلت: ٩].
(٢) سورة فصلت، الآيتان: ١١، ١٢.
(٣) سورة النازعات، الآيات ٢٧، ٣٣.
(٤) يأتي تفصيل البحث عن «ماء» المادة الام في آيتها في سورة هود.

آيات «فصّلت» تقدِّمها على هذا البناء، وآيات النازعات تؤخرها عنها، فهل هنا تنازع بين فريقي الآيات؟

أقول: هنا تكملة للأرض في أدوارها الأربعة بخلق رواسيها وبركاتها وتقدير أقواتها هي كلها قبل بناء السماء سماء إذ هي دخان كما في آيات «فصلت».

وهناك تكملة أخرى - بإرساء جبالها وإخراج مائها ومرعاها - هي بعد بناء السماء كما في النازعات، إذاً فلا تناحر بين الآيات.

وحاصل الترتيب التكويني، ١ - خلق الأرض ببركاتها وأقواتها كامنة فيها والجبال غير راسية في متونها، ٢ - بناء السماء برفع سمكها فإغطاش ليلها وإخراج ضحاها، ٣ - دحو الأرض فإخراج مائها المكنون ومرعاها، وإرساء جبالها المجعولة عليها فيها، ٤ - تسوية السماء سبعاً بعد هذا البناء وذلك الخلق، وقد توحي بفصل بناء السماء بين تكملتي الأرض: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾[1] أن تأتي الأرض للتكملة الثانية والسماء لبنائها، ثم تسبيع السماء بعد هذا البناء وتلكما التكملتين.

أو قد تكون بناء السماء هي هي دخان السماء، فقبلها أو معها خلق الأرض ببركاتها وأقواتها والجبال من فوقها، وبعدها دحو الأرض بليلها وضحاها بإخراج مائها ومرعاها والجبال - من فوقها - أرساها في متنها.

إذاً فإتيان السماء لتسبيعها وإتيان الأرض للتكملة الثانية أما هيه؟[2].

وترى ماذا تعني ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾؟ أقول: معاني الاستواء تختلف حسب اختلاف مواردها، متعدية بأداة وسواها، فمنها الاعتدال

(١) سورة فصلت، الآية: ١١.
(٢) تفصيل البحث إلى الآيات في فصلت.

والتمام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[1] والاستقامة: ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾[2] والإحاطة: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[3] والاستقرار: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾[4]، ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾[5] والتماثل: ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾[6] وإتمام التدبير على سواء فيما عديت بإلى كما هنا: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: أتمّ تدبيره إلى تسوية السماء سبعاً دونما تكلف رغم أنها سماء.

ومعنى المساواة مضمّنة فيها في كافة أحوالها، فالاستواء إلى السماء هو إتمام تدبيره إلى السماء، على سواء في ذلك بين الأرض والسماء فإنما هما وجاه خلقه وتدبيره سواسية سواء، دون عييّ ولا لغوب.

ولماذا ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾؟ والسماء واحدة لا يرجع إليها ضمير جمع! وجمع السماء وهي السبع لا تسوّى سبعاً، اللهم إلّا تحصيلاً للحاصل!.

أقول: السماء واحدة قبل تسبيعها، ولكنها لمشارفتها إلى سبعها اعتبرت كأنها سبع ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ السماء المشارفة لسبعها ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ولذلك فهو على كل شيء محيط وبكل شيء قدير.

وطالما تنادي آيات من الذكر الحكيم - المستعرضة لخلق الكون - أن السماوات سبع، فقولة القائلين أنها بليارات حسب عديد الكرات، أو أنها الأجواء السبعة للمنظومة الشمسية، إنها قولة خاوية هُراء، فإن سماوات

---

(١) سورة القصص، الآية: ١٤.
(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٩.
(٣) سورة طه، الآية: ٥.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٢٨.
(٥) سورة الزخرف، الآية: ١٣.
(٦) سورة النحل، الآية: ٧٦.

المفرِّطين هناك والمفرّطين هنا كلُّها مطويات كنقاط في السماء الأولى من السبع حسب القرآن وقد فصلت في «فصلت»(١).

كما وأن توجيه خلق ما في الأرض بتقديره دون إيجاده رغم المصارحة من متظافر الآيات، وزعم أن إيجاده مؤخر عن السبع السماوات، في اتفاق مزعوم، إن ذلك مما يضرب به عرض الجدار(٢) فالقرآن بنفسه وجيه لا يقبل التوجيه، وإنما علينا توجيه أفكارنا إلى مغازي آي الذكر الحكيم!.

(١) نفصل البحث حول السماوات في الآيات من فصلت وسائر آياتها، كل حسب دلالاتها.

(٢) في تفسير الآلوسي نقل الإمام الواحدي عن مقاتل واختار المحققون ولم يختلفوا أن جميع ما في الأرض مما ترى مؤخر عن خلق السماوات السبع بل اتفقوا عليه، إذا يجعل الخلق في الآية بمعنى التقدير لا الإيجاد، أو بمعناه ويقدر الإرادة يعني أراد خلق ما في الأرض جميعاً، وكذلك الخلق والجعل في آيات فصلت!

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

آيات أربع تبين موقف هذا الإنسان - السامي - بعد سائر أنساله في الأرض، أن جعله الله خليفة في الأرض، بعدما خلق له ما في الأرض كأنه هو فقط إنسان الأرض، وبعد أن أعطاه المعرفة التي يعالج بها خلافة الأرض، لئلا يخلد إلى الأرض ويتبع هواه ويفرط عن هداه، بل يتابع صراطه الإنساني الى الله، فيحقق في نفسه خلافة الله، فلنَعِش ردحاً مع هذه الخلافة السامية، بعين البصيرة وانشراح الصدر، في ومضات الاستشراف، مطلّين على ساحته الأعلى، متطلعين إلى المشية العليا، حيث الجعل رباني فليكن الخليفة ربانياً، مثلاً أعلى للرب آية لربوبيته، لا مِثلاً ينوبه سبحانه سبحانه!

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾:

آية يتيمة منقطعة النظير في تصريح الخلافة الأرضية لهذا الإنسان، مهما تلمح لها وتلمع آيات أُخرى في إشارات.. يحق لنا أن نجدّ السير بهذه

اليتيمة بكل إمعان وإتقان، في كلِّ لفظة أو لمحة، ولكي نحصل منها على معرفة منقطعة النظير.

﴿وَإِذْ﴾ ترى ما هو المعطوف عليه هنا؟ لا نجد هنا معطوفاً عليه مذكوراً يناسبه، فليكن سراً بين الله ورسوله غير مذكور لنا، حيث الخطاب هنا له ﷺ ذاتياً لا لنا.. فـ«اذكر» «واذكر» إذ قال ربك..

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ولماذا ﴿رَبُّكَ﴾ لا «رَبِّ الْعالَمِينَ»؟ علّه لأن له الحظ الأعظم من هذه الخلافة، فهو الخليفة الأعظم والإمام الأقدم، ابن لآدم الأوّل صورةً وأبوه سيرة وسريرة!:

وإني وإن كنتُ ابن آدم صورة فلي فيه معنى شاهدٌ بأبوتي، كما وأعظم الأسماء التي علمها الله آدم هو الحقيقة المحمدية كما تأتي.

﴿...قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾: و﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾(١) ﴿...مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾(٢) فـ«بشراً من طين من صلصال من حمأ مسنون»، هو الخليفة في الأرض مهما اختلف هذا الخلق عن ذلك الجعل حيث خلق بشراً من طين ثم جعل إنساناً خليفة.

ثم ترى وماذا تعني الخليفة عامة وماذا هنا؟ إنها من الخلف: أن يأتي كائن خلف آخر ينوبه في كونه أو كيانه أو صفاته وأفعاله، وكأنه هو بَعده، مهما اختلفا في درجات، فلا بدّ إذاً من مشاركة بينهما تهمُّه الخلافة، وتاء الخليفة للمبالغة، أنه يتابع ما للمستخلف عنه بجدٍّ بالغ وعزم فارغ، أو يزيد عنه كما هنا، أو ينقص أو يساوي كما في غيرها، على اشتراك ذلك المثلث

(١) سورة ص، الآية: ٧١.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٢٨.

من الخلفاء في المجانسة مع المستخلف عنه كوناً وكياناً قضية الخلافة في حقها وحاقّها.

فهل إن هذا الإنسان - إذاً - خليفة الله؟ أن يخلف الله في ألوهيته في أرضه، كأنه غائب عن الأرض، فالإنسان له خليفة ونائب في الأرض؟ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾[1] فلماذا الخلافة في الأرض؟ وله الحكم في الأرض كما في السماء، وليس الرسل إلّا مبلغين عن الله، لا خلفاء أو وكلاء أو نواب عن الله! فلماذا الخلافة في الأرض؟

ولو أنها الخلافة الإلهية في الأرض لكانت الملائكة المخاطبون هنا أحرى أن يفهموها، فلماذا السؤال أو الاعتراض: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾؟ فهل إن خليفة الله في فهم ملائكة الله يفسدون ويسفكون؟! وهم أنوار عارفون، لا يتهمون الرب فيما يخفى، فكيف فيما يجلو! فـ «ما علم الملائكة بقولهم أتجعل فيها.. لولا أنهم قد كانوا رأوا من يفسد فيها ويسفك الدماء»[2] فالخليفة هنا إنسان يخلف إنساناً مضى أم من ذا، لا أنه يخلف الله وسبحان الله أن يخلفه إنسانٌ أم مَن ذا.

لا نجد تصريحة ولا إشارة قرآنية على خلافة الله هذه، اللّهم إلّا أن يجعل الله إنساناً خليفة عن سالفه، فقد يُسمّى خليفة الله ولا تعني أنه يخلف الله ومعاذ الله، وإنما الذي نصبه الله نائباً يخلف مثيله في منصبه، نبوة أو إمامة أم ماذا: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾[3] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾[4] ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٤.
(٢) تفسير البرهان ١: ٧٤ - العياشي عن هشام بن سالم قال قال أبو عبد الله عليه السلام ...
(٣) سورة ص، الآية: ٢٦.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥.

ٱلْأَرْضِۗ﴾[(١)] فهنا خلافة خاصة كما لداود وأضرابه، وهناك عامة كما للناس أجمعين عن ناس قبلهم، أو بعضهم عن بعض.

فمن المستحيل خلافة الله نفسه لأيّ من العالمين وحتى الحقيقة المحمدية فـ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾[(٢)] و﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[(٣)] فهو هو لا يخلف الله في أيّ من شؤون الألوهية والربوبية حتى ولا في بلاغ الأحكام، وإنما هو رسول، لا خليفة ولا نائب ولا وكيل، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾[(٤)] ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[(٥)] ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[(٦)].

فإذاً لا يكون أفضل المرسلين وأوّل العابدين وكيلاً لرب العالمين فهل هو بعد خليفة عنه، وهي أسمى المنازل وقمة المراحل؟ أو هل يكون آدم بذريته كلهم خلفاء الله؟ وليس أصفياءهم وكلائه!

أم أنه خليفة الملائكة حتى يستجيش مشاعرهم وضمائرهم لحدّ الاستفهام كأنه اعتراض: ﴿أَتَجْعَلُ...﴾؟

وهم عارفون أنفسهم أنهم معصومون ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[(٧)] فلا يستخلف عنهم ربهم إلّا كأمثالهم أو أطوع منهم وأرقى! فلماذا يسألون ﴿أَتَجْعَلُ...﴾ أو قد كان يكفيهم ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ...﴾ دون تقصير، فلماذا الاستخلاف!

---

(١) سورة النمل، الآية: ٦٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٥٤.
(٥) سورة النساء، الآية: ١٧١.
(٦) سورة الفرقان، الآية: ٤٣.
(٧) سورة النحل، الآية: ٥٠.

كما وأن الملائكة لم يكونوا ولن - من سكنة الأرض حتى يخلفهم خليفة في الأرض: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾[١] ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴿٦١﴾﴾[٢] فجعلُ الملائكة في الأرض مستحيل حتى تقوم الساعة، فكيف يخلفهم إنسان الأرض وفيم يخلفهم؟ أم فيما هم يؤمرون في السماء، عزلاً لهم عن مقاماتهم فهم عُزَّل؟ أم فيما يرسلون به إلى الأرض؟ أم ماذا؟! سبحانك اللّهم هذا بهتان عظيم!

أو هم خليفة الجن، المفسدين في الأرض ومسفكين؟ وهم قد خلقوا قبلهم!: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾[٣]؟

ولكنهم بعدُ لم ينقرضوا، أو لم يُبعدوا عن الأرض حتى يخلفهم فيها إنسان الأرض، ثم ولا نعرف خلافة للإنسان عنهم فيما لهم من حياة الأرض، فكيف يكون الإنسان إذاً خليفة عنهم في الأرض؟!

أو هم بنو الإنسان، حيث يخلف بعضهم البعض: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾[٤] ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[٥] ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ﴾[٦].

وآية الخلافة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ...﴾ تعني خلافة آدم الأوّل ومن ثمّ بنيه، فليكن هو الخليفة الأصل ثم فروعه الفروع، وأن ﴿خَلِيفَةً﴾ تعني - على

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٥.
(٢) سورة الزخرف، الآيتان: ٦٠، ٦١.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٢٧.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٦٩.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٧٤.

أكثر تقدير - هذا النسل أجمع: بأصله وفرعه، وعلى أقل تقدير: آدم وزوجه، فلا بد هناك على أية حال من مستخلف عنه قبل هذا النسل.

أم هم خليفة من سلفهم وانقرض من نسل أو أنسال ترابية عاقلة مكلفة أفسدت في الأرض وسفكت الدماء، فأهلكهم الله بأن قامت قيامتها وانقرضوا، فأبدلهم الله بهذا الإنسان وجعله خليفة عنهم؟..

وهكذا يبدو من آيتها هذه وسائر آياتها ورواياتها..

ف«ما علم الملائكة بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ لولا أنهم قد كانوا رأوا من يفسد فيها ويسفك الدماء»[(١)].

فهذه السابقة السيئة التي رأوها ممن سلف من الخليقة الأرضية هي التي استجاشتهم حتى سألوا، معترضين على الخليفة الأرضية: ﴿أَتَجْعَلُ...﴾ تكراراً لما سلف من إفساد وسفك، وما هي الحكمة إلّا مزيد الصلاح والعبادة ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ وهم لا يسبحون ولا يقدسونك!

فلم يكن يقنعهم ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لو أنهم خليفة الله، إذ كانوا هم كذلك يعلمون أنه لا يعصى الله فلم يكونوا ليسألوا حائرين.

ولا - لو أنهم خليفتهم أنفسهم، إذ هم يعلمون من أنفسهم ما يعلمون من نزاهة وطهارة، فكيف كانوا إذاً يسألون؟

فإنما يقنعهم ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما ينبههم من غيب هذه الخليفة، خلاف ظهوره الذي مضى مثله، من إفساد وسفك، فلم يقل «إنهم لا يفسدون ولا يسفكون» حيث هما معروفان متداولان في تاريخ الإنسان، وإنما ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: من ميّزات هذه الخليفة في البعض من

(١) تفسير البرهان ١: ٧٤ - العياشي عن هشام بن سالم قال قال أبو عبد الله عليه السلام..

مصاديقها وأفرادها، من مُثُلٍ عليا لا تصل أيدي ولا أفهام الملائكة إليها، وفيها جبرٌ كامل لمن يفسدون فيها ويسفكون الدماء من أفرادها.

وكما ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا...﴾ ولكي يروا النموذج الأول من هذه الخليفة أنه يعلّمهم وهم تلاميذه، فضلاً عن الأسماء التي عُلِّم آدم وهم أشباح من الحقيقة المحمدية وسائر الخمسة!

فلأنهم خفيت عنهم حكمة المشيئة العليا في استخلاف هذه الخليفة، بما عرفوا ممن سبقها من إفساد وسفك وفتك، سألوا سؤالهم، فأجابهم الله بما يعلم من خير أكثري مع هذا الشر الجزئي!

هذه الجيوش من البراهين القرآنية نستجيشها لإثبات هذه الملحمة الغيبية التي تتفرد بها آيتنا اليتيمة هذه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أنها خلافته لمن سبق من أنسال أمثاله، مع ما تساندها من روايات متظافرات مهما عارضتها أخرى مختلفات ومختلقات، فالأصل هو كتاب الله مورداً ومآلاً، جملة وتفصيلاً: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾[1].

فقد عاش قبل هذا الإنسان نسل أو أنسال ترابية عاقلة مكلفة[2] لا

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٠.

(٢) وقد تكون بعض الأجساد المكتشفة الضاربة إلى عشرات آلاف السنين قبل هذا النسل، قد تكون من الأنسال السابقة، دون أن تكذّب تاريخ هذا النسل.

ثم وهؤلاء الذين عاشوا قبل هذا النسل قد يسمون بالنسناس وهم ناس أشرار كما في تفسير نور الثقلين ١ : ٥٨ عن علل الشرائع عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في حديث الخلافة: ثم قال للملائكة: انظروا إلى أهل الأرض من خلقي من الجن والنسناس فلما رأوا ما يعملون فيها من المعاصي وسفك الدماء والفساد في الأرض بغير الحق عظم ذلك عليهم - إلى أن قال -: «إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً فقالت الملائكة سبحانك أتجعل فيها...».

وفيه (٥٩) عن كتاب التوحيد للصدوق عن أبي جعفر عليه السلام حديث طويل يقول في آخره: لعلك ترى أن الله إنما خلق هذا العالم الواحد؟ أو ترى أن الله لم يخلق بشراً غيركم؟ بلى والله لقد خلق ألف ألف عالم وألف ألف آدم أنت في آخر تلك العوالم وأولئك الآدميين.

نعرفها، عرفتها الملائكة من ذي قبل فضاقت بها ذرعاً ففرحت بانقراضها، فرحة العبد لمولاه إذ يجده يعبد ولا يعصى، ثم تضايقت من جعل خليفة لها، دون أن تحسب حساباً لخلفيات سؤالها فجهّلهم الله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أن قد تكون هذه الخليفة أعلى منكم في عبادة ربها، مهما كان فيها ببعض أنسالها فساد وسفك للدماء.

وترى أن سؤالها هذا يتنافى وعصمتهم، أن اعترضوا على الله لماذا الخليفة؟ واغتروا بما عرضوا من تسبيحهم وتقديسهم؟ وقد كذبوا كما قال الله: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ وهم كما يعرفنا الله: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧﴾[1] فكيف سبقوه بقولة السؤال دون نظرة الإيضاح من الله و﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[2] فكيف لم يخافوه إذ سألوه، وكيف فعلوا ما فعلوه ولم يؤمروا؟

إن السؤال ليس نصاً ولا ظاهراً في الاعتراض، فإنما سألوا استيضاحاً إذ جهلوا كيف ﴿جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾؟ ثم وذكر النعمة والرحمة ليس اغتراراً بل والتحديث بها مكرمة ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾[3] وكان ذكرها تتمة السؤال: إن كان جعل الخليفة للعبادة فنحن لها، وإن كان غير ذلك فبين لنا.

ثم ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ وإن كان تلميحاً بالكذب، ولكنه كذب جاهل لا كذب متعمد، فإنهم سألوا جاهلين كأن فيهم الكفاءة فلماذا هذه الخليفة؟ فقد كذبوا قاصرين لا مقصرين، وهكذا كذب يشمل العالمين أجمعين: أن

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٦، ٢٧.
(٢) سورة النحل، الآية: ٥٠.
(٣) سورة الضحى، الآية: ١١.

يجهلوا كثيراً مما يعلمه رب العالمين، فمنهم من يبرزه بسؤال وسواه كهؤلاء الملائكة، ومنهم من لا يسأل كالرعيل الأعلى من النبيين.

ثم ومن نقد الملائكة الخليفة الأرضية: ﴿يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ ومقابلتهم لهذا النقد بما لهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ نعرف أن الشر كله يختصر في الإفساد والسفك، والخير كله في التسبيح بالحمد والتقديس لله، فليكن صحيحاً مصدّقاً عند الله إلّا في الآخرين، أن المعرفة هي القمة في الخير، التي تنتج تسبيحاً بالحمد وتقديساً أعلى وأحرى.

فالإفساد في الأرض يشمل كلّ فساد فردي يفسد فاعله، وجماعيّ يفسد مجتمعه، نفسياً أم مادياً، ومن أظهره جمعاً بينها سفك الدماء فإنه جماع الإفساد.

ولماذا تسبيح بالحمد وليس التسبيح وليس الحمد والتسبيح والحمد؟ أقول: لأن تسبيحه فقط دون حمد نفي بلا إثبات، والنفي ذريعة الإثبات، والحمد دون تسبيح إثبات ناقص لأنه إثبات بحدود المعرفيات ووصف له تعالى محدود و﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1] وكذلك التسبيح والحمد دون رباط، حيث التسبيح ينفي والحمد لا يثبت ما يليق بساحته.

فأما التسبيح بحمده، فأن نحمده مسبحين منزهين لساحة قدسه عن إثباتياتنا المحدودة، وإنما: عالم = ليس يجهل. قادر = ليس يعجز.

موجود = ليس بمعدوم.. وهكذا في كافة صفاته الثبوتية، ألّا نصفه في حدود أفكارنا بما نعرفه ونأنسه من صفات وإثباتات، وإنما نسبحه بحمده: ننزهه في حمدنا إياه عما هو لزام حمدنا من حدود وتخيلات، فإنما إثباتاتنا تنحو منحى نفي كل ما عندنا وفي عالمنا وحدود تصوراتنا وإدراكاتنا عن

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٩١.

ساحة قدسه، فالصفات الثبوتية تؤوَّل الى السلبية من نوع آخر، فهو إذاً «خارج عن الحدين حدّ الإبطال وحدّ التشبيه» لا منفيّ إطلاقاً، ولا مثبت له شبيه، فما أجمله وأحلاه: «التسبيح بالحمد»!

ثم ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ تعني ما تعنيه و﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ وزيادة: أننا نعيش تقديساً لذاتك وصفاتك وتصرفاتك، وفي أنفسنا تعبداً لك وخشوعاً، وفي أفعالنا اتباعاً لك وبخوعاً.

ولكن ترى هل تكفي حياة التسبيح بحمد الله والتقديس لله لحدٍّ ثابت ومقام معلوم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾[(١)] لسان قالٍ لهم يكشف عن حالهم الثابت إذ تدوم دونما تقدّم.

ثم وهل تكفي هذه دون معرفة لائقة بجناب قدسه؟ وفي هذه الخليفة الأرضية مَن هم فوقهم في هذه وتلك رغم أنهم سماويون؟

إذاً فالجواب: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ هو على إجماله كلُّ الجواب، عن سؤال الإفساد والسفك، ورعونة التسبيح بالحمد والتقديس، بما علم آدم الأسماء كلها، وبما أنبأهم آدم الأسماء كلها:

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ۝٣٣﴾:

وها نحن مع الملائكة ننظر بعين البصيرة، ونسمع بأذن صاغية، ونعي بقلوب واعية في ومضات الاستشراف، ما هذا السرّ الإلهي الذي اختصه الله

(١) سورة الصافات، الآية: ١٦٤.

بهذه الخليفة الأرضية، التي تخضع لديها رسل السماء الملائكية، وهو بذلك يسلّمها مقاليد الخلافة الأخيرة السامية، وكرسي التعليم للملائكة؟!

إنه كله في ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ . . .﴾ فانظر ماذا ترى!

فهل الأسماء هنا هي - فقط - أسماء الأشخاص والأشياء؟ و«هم» و«هؤلاء» لا تعنيان إلّا ذوات عقلاء! ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ . . . ﴿بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾! ومن ثمّ وما قيمة علم هذه الأسماء وكثيرون يعلمون كثيراً من الأسماء وليسوا بأفضل ممن لا يعلمونها، ولو أن الملائكة علّمتها كما علّم آدم لكانت مثل آدم كما آدم أنبأهم بها بما أمر الله.

فليس علم هذه الأسماء مما يتفاضل فيه، ولا أنه جناح من جناحي العلم بالله وتقوى الله، وهذه الأسماء إنما يحتاج إليها في تفاهم مسمياتها، والملائكة يتلقونها دون وسائط، ولا يحتاجونها كما يحتاجها الإنسان في الحاجيات الجماعية الأرضية!

أو أنها المسميات، حيث الاسم من الوسم[1]: العلامة - الدلالة، ودلالات الأسماء اللفظية على المدلولات هي من أضعف الدلالات، فأعلى منها دلالات الذوات والأفعال والصفات على مدلولاتها فيما بينها، ثم دلالات الكائنات كل الكائنات على مكوّنها بدرجاتها، ثم دلالات الرعيل الأعلى من رجالات الله: بذواتهم وصفاتهم وتصرفاتهم وإرشاداتهم على الله

---

(١) هذا أحد وجهي الاسم أصلاً وقيل أصله سمو من السموّ: العلوّ، لأن تصغيره سمي، فلو كان من وسم: العلامة، لكان تصغيره وسيم، والعلامة أنسب له معنى، والعلوّ لفظاً، وعلّهما معنيّان أحياناً وأحدهما أحرى، أو يقال إن الاسم السمو يناسبه معنوياً كما اللفظي فإنه يعرف به ذات الشيء، فبه يرفع المسمى عن حضيض المجهول، ولكلّ وجه، والأوجه أن السماء من السمو: العلو والرفعة، والاسم من وسم: العلامة، أو ومن السموّ أيضاً.
ثم الاسم قد يكون مأخوذاً من «شما» آرامية وعبرية، وهي تستقل عن مادة السماء: الرفعة، وذكرها في مادة السمو غفلة عن تحقيق أصل الكلمة.

ثم الذروة العليا منهم وهي الحقيقة المحمدية العظمى فإنها الآية الكبرى وأعظم أسمائه الحسنى بين الممكنات، بجنب ما لله من سائر الأسماء الحسنى، ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾(١) ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾(٢).

فأحرى بهم هؤلاء أن تعنيهم الأسماء التي علّمها آدم كلها: أنهم أنبياء الله ورسله.

ولكنما التعلّم لا يناسب الذوات، وإنما هو التعريف، ثم ويبقى السؤال كيف يفضّل آدم على الملائكة لأن الله علّمه دونهم، ثم كلّفه أن ينبئهم بها؟

في الحق إن الأسماء هنا مجمع الاسمين ألفاظاً وذوات، ولأن بداية المعرفة كانت بالنسبة للألفاظ صح التعليم، مهما انتهت الى معرفة الذوات، وقد تبين هنا لهذه الخليفة فضيلتان اثنتان:

الأولى لآدم حيث عُلِّم الأسماء ألفاظاً وذوات ثم لم ينبئ الملائكة بالذوات وإنما ﴿بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ وإن كانت تكشف أشباحاً من هؤلاء الذوات، ولكنه قليل بجنب ما عرّفه آدم من الذوات، تدليلاً على أن الملائكة ليست بالتي تتمكن أن تعرف أو تعرَّف حقائق هذه الذوات، بياناً لكيانهم بما خلق الله: أنه محدود بما حدّد الله، دون هذه الخليفة التي منها آدم، فليس علمه محدوداً لحدٍّ، فهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾(٣) والخليفة: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(٤).

والثانية أن هؤلاء الذوات هي الأصيلة في هذه الخلافة، مهما كانت

(١) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.
(٣) سورة الصافات، الآية: ١٦٤.
(٤) سورة طه، الآية: ١١٤.

لأشباههم في الصورة الإنسانية تخلّفات وترذّلات من إفساد وسفك دماء، فإن هؤلاء الأشباح لا تشبه أشباهها في المعنى مهما شابهتها في الصور.

لذلك ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾: أسماء هؤلاء الخلفاء كلها، وذواتهم بأشباحهم كلهم، تجنيداً وعرضاً لآدم أوّلاً لكي يعرف موقعه أنه يحمل في صلبه هذه الأمانات الغالية، وللملائكة لكي يعلموا: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ﴾ من هذه الخليفة ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فهناك البون الشاسع بينكم وبينه لحدٍّ لا تعرّفون حقائقهم إذ لا تتمكنون، حيث هم في الذروة العليا، وما أنتم بها حتى تحيطوها معرفة وعلماً، فإنما أُنبئتم بأسمائهم لكي تتعرفوا حسب المستطاع إلى ذواتهم. قدر ما تعلمون: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾!

فالأسماء الذوات هي المعروضة هنا على ملائكة السماوات، : ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ دون «عرضها» حيث العرض للذوات، ودون «عرّفهم الملائكة» حيث العرض لمنظر من الأشباح، لا حقائقها كلها - لأن هؤلاء من غيب السماوات والأرض: ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهم - أو معظمهم - رجالات الله: النبيين والمرسلين: حقائق عاقلة محجوبة تحت حجاب الغيب: غيب السماوات والأرض، كشف الله لآدم منها أسماءً وذواتٍ، وأنبأ الملائكة بأسمائها بآدم، ولكن ترى: إنباء الأسماء فقط دون أي كشف عن حقائقها؟ إذاً فكيف عرفت الملائكة فضلَهم، وعرفت فضل آدم بما عُلِّمهم دونهم!

فليكن في عرض هؤلاء الذوات على الملائكة، وإنبائهم بأسمائهم - ليكن في هذا الإنباء وذلك العرض تعريف مّا بالذوات، يكفي لهم إقناعاً: أنهم هم الأفضلون في الفضائل كلها، لحدّ لا يحيطون - وحتى - معرفة بجنابهم وعلماً بذواتهم كما يحق.

فهنا تعليم وعرض وإنباء خُص آدم بتعليم الأسماء والذوات، وهو فوق

العرض والإنباء، حيث خُصَّ بهما الملائكة، فقد أنبأت بأسمائها بعد ما عرضت عليهم ذواتها، إلّا أن هذا الإنباء والعرض ما عُلِّمها الملائكة قدر ما علّم آدم بالتعليم!

فَعَرَضَها أن عرّفهم شبحاً من أشباحهم يستشرفونها من بُعد ولمّا، وقد كان العرض بحيث تُستعرض منه أسماء المعروضين لمن يؤهل، وإلّا لم يكن معنى لـ: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ لولا أن العرض يُنبئهم!

ثم وإنباء أسمائها زادتهم معرفة، ولحدّ الإقناع ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾: إنهم أعلى منكم محتداً وفي التسبيح والتقديس، دون إحاطة على هذه الحقائق النورانية التي تخطف الأبصار، فلا تبصر منها إلّا بحدود الإبصار، فلكلّ من العرض فالإنباء بالأسماء دوره في تعريف ذواتهم قدر إمكانية الملائكة، وكما أن تعليم الأسماء عرّف آدم الذوات والأسماء قدر إمكانيته فوقهم، لحدّ أصبح يُنبئهم بأسمائهم!

ذلك! ولم يكن آدم وقتذاك نبياً حيث ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ - بعد ذلك - فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾[1] وهذا الاجتباء ثم الهدى هما النبوة بعد إذ تاب عما عصى.

فـ ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ في بداية الجواب، كان له دور الإقناع دون شهود، ولكنما العرض والإنباء لهما دور الإقناع بشهود، حتى أتى موقع التنديد التذكير: ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾!

فقد عجزت الملائكة من استنباء أسماء هؤلاء بعد عرضهم عليهم،

---

(١) سورة طه، الآيتان: ١٢١، ١٢٢.

وكان العرض بحيث ينبئ، وعجزت أن تعرف حقائق هؤلاء الذوات المقدسة: الخلفاء، وكان الإنباء بعد العرض مما يعرَّف، وقد خص آدم عليه السلام بتعليم الأسماء بالذوات دفعة واحدة، مما يدل على رجاحة ميزانيته عليهم(١)، وعلى أفضلية هؤلاء الخلفاء كذلك.

وبطبيعة الحال حصلت لهم أشباح من المعرفة بهذه الذوات حسب الدرجات، ولكنما الحقيقة المحمدية لم تكن تظهر لهم ولا لآدم كما يحق، فقد بهروا وتحيروا منها، واستدلوا بما عرفوا مما دونها على تلكم القمة العليا(٢) وتعبدت لهم الطريق لكي يسجدوا لآدم كما أمروا!

. . . ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ وأنكم الأفضلون من هذه الخليفة - و﴿صَٰدِقِينَ﴾ في سؤالكم ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾؟

فها أنتم لم تعرفوا أسماءهم بعدما عُرضوا لكم بأشباحهم فكيف تدّعون؟. . ثم وبعد أن تعرفوا أسماءهم فتزدادون بهم معرفة بعد ما أنبأكم آدم، فتعرفون من هم، فأين هم وأين أنتم؟!

﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ . . . وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾ مما تقولون ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾: وقد كتمه الله عنا إلّا ما بينه عن إبليس.

فقد «عجزت الملائكة على قربهم من كرسي كرامته وطول ولهِهم إليه

---

(١) في معاني الأخبار وكمال الدين وتمام النعمة وعن الصادق عليه السلام: إن الله عز وجل علم آدم أسماء حججه كلها ثم عرضهم وهم أرواح على الملائكة فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١] بأنكم أحق بالخلافة في الأرض.

(٢) تفسير البرهان ١: ٧٣ عن تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام في آية الأسماء قال: أسماء أنبياء الله وأسماء محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلي وفاطمة والحسن والحسين والطيبين من آلهما - ثم عرضهم -: عرض محمداً وعلياً والأئمة على الملائكة، أي عرض أشباحهم وهم أنوار في الأظلّة.

النبي ﷺ في تعيين أفضل المخلوقين نقلاً عن آدم عليه السلام أنني رأيت خمسة أشباح نورانية مكتوبة أسماؤهم على العرش في غاية العظمة والجلال والجمال والكمال والحسن والضياء والبهاء، حيث أغرقتني أنوارهم في الحيرة..

قلت: يا رب! من هؤلاء، فإذ أنا ناظر الى العرش أرى هذه الأسماء: **پار قليطا = محمّد. إيليا = علي. طيطِه = فاطمة. شِبّر = حسن. شُبّير = حسين.**

«**إني لِهَويوَه أنَا لبرين وَارَخ لا الشّماى ولا أل ارعا ولاَ اليردس ولا الكَهِين ولا الشّمِس ولا السَّعر:**».

«لولاهم لما خلقتك يا آدم ولا السماء ولا الأرض ولا الجنة ولا النار ولا الشمس ولا القمر».

«**هَليلُوه لِت شُوق مِنّي محمّد انِوِّي دِألَهَ:**»

«هللوني فإنه لا إله إلّا أنا ومحمد رسولي»(١).

(١) هذه البشارة ينقلها جديد الإسلام في كتاب أنيس الأعلام ج ٢ عن النسخة السريانية من كتاب إدريس عليه السلام في مكتبة الآثار في لندن المطبوعة ١٨٩٥ ص ٥١٤ - ٥١٥ بالتفصيل الآتي.
فيما كان إدريس النبي ببابل في معبده، ينقل هذه القصة بين جمهور من أصحابه: اختلف ولد أبيكم آدم عليه السلام يوماً في: من هو أفضل الخليقة؟ - فقال بعضهم: إنه أبونا آدم إذ خلقه الله بيد قدرته ونفخ فيه من روحه وأمر ملائكته بتعظيمه وتكريمه وجعله معلمهم وخليفة في الأرض.
وقال آخرون: الملائكة أفضل من أبينا فإنهم لم يعصوا الله ولن يعصوه، وأبونا آدم عصاه فأخرجه الله وزوجه من الجنة، مهما تاب عليه وهداه ووعد المؤمنين من ذريته الجنة.
وقال ثالثة إن أشرف الخلق هو الملك العظيم جبرئيل أمين رب العالمين.
زادت خلافاتهم فقال آدم: اسمعوا حتى أخبركم بمن هو أفضل خلق الله: لما خلقني الله ونفخ فيّ من روحه جلست فرأيت: . . .
وهكذا نرى في إنجيل برنابا ٣٩: ١٤ - ٢٨ ولكنه لم يأت إلّا بذكر الرسول محمد ﷺ (راجع كتابنا: رسول الإسلام في الكتب السماوية).

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

.. معركة مصيرية دائبة تنبثق بين خليفة الخير: آدم، وبين خليقة وتعظيم جلال عزه وقربهم من غيب ملكوته أن يعلموا من أمره إلّا ما أعلمهم وهم من ملكوت القدس بحيث هم، ومن معرفته على ما فطرهم عليه أن قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾[1].

فيا لهذا النسل الأخير الإنساني من مكرمات جعلته خير الأنسال الترابية - لا فحسب! فقد فضّلته على ملائكة السماء، فلا أفضل منه في تاريخ التكوين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[2] فليس في الخلق أقوم منه، اللهم

(١) نور الثقلين ١: ٥٥ عن التوحيد للصدوق خطبة لعلي عليه السلام يقول فيها: ..
(٢) سورة التين، الآية: ٤.

إلّا أن يماثله من لا نعرفه: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[(١)] فمن هذا القليل الذي يزامله في هذه القوامة الحسنى؟ لا ندري!.

ثم اللهم إلّا أن لا يعرفوا كيانهم فيردون إلى أسفل سافلين، بعد ما خلقهم الله في أحسن تقويم، في ذلك التعليم والإنباء والعرض عرض لكيان هذه الخليفة في معرض القياس على الملائكة، ولكي يعلموا أن هذه الخليفة الترابية البشر، المخلوقة من تراب من حمإٍ مسنون، هي أعلى من ملائكة السماوات! ولكي يعلم الإنسان من هو، فليجدّ بالسير الى مثله العليا.

نكات مستدركات حول هذه الآيات:

١ - ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ دون ﴿خَالِقٌ﴾[(٢)] توحي أنه جُعل خليفة بعد خلقه لا بخلقه، وعلّ بداية خلافته حين نُبِّئ بعد ما ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾[(٣)] وإن كان تعليمه الأسماء وإسجاد الملائكة له قبل ذلك، فقد كفى إثباتاً لخلافته بذريته الأنبياء تعليمه الأسماء - ذاتياً - وإنبائهم وعرضهم الأسماء حملاً لهؤلاء الخلفاء...

٢ - ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾: في ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ فإنه مهما حصل فهو أقل ممن مضى، وليس مع ذلك ممن يعنى من ﴿خَلِيفَةً﴾ فإنها هم الأسماء التي سوف تعرض عليكم وتُنبَّؤون بأسمائها.

أو ﴿صَادِقِينَ﴾ في ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ كأنكم أنتم الأعلون في هذا المسرح.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٢٨.
(٣) سورة طه، الآيتان: ١٢١، ١٢٢.

أو ﴿صَٰدِقِينَ أَنۢبِـُٔونِي﴾ في معرفة هذه الخليفة، أن تدفعكم للحكم عليها ولأنفسكم، أم ماذا؟

٣ - ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾: ننزهك عن أن نقول بغير علم، أو أن تجعل فيها من يفسد فيها.. أو أن نعلم قبل أن نُعلَّم -:

٤ - ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ﴾ توحي أن علوم الملائكة إنما هي بالتعليم الإلهي وحياً دونما محاولة منهم أو تحصيل، كدحاً في تعلّم أو تفكير، إلّا وحياً، ومن ميِّزات الإنسان عدم انحصار علومه بهكذا وحي، فله استخدام مختلف الوسائل للحصول على علوم مهما قلت أو كثرت، ومهما أخطأ فيها لو سلك غير سبلها.

فعلم الوحي في الملائكة والناس على سواء في عدم تكلف التحصيل، ثم للإنسان علم زائد يحصل له بتحصيل، وهو ليس للملائكة دون وحي إلّا جهلاً، ولكنه للإنسان علم بعد علم الوحي، مهما تورّط في مجاهيل.

ف ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ﴾ اعتراف ثان بقصورهم وجاه هذه الخليفة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ دون سواك، تعلم ما تفعل وتفعل ما تعلم: ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في أفعالك كلِّها كما هنا وإنّما نحن الخاطئون!

هنا يحسن بنا عرض نظير القصة من الأصل السرياني لكتاب إدريس الشر: إبليس، عندما يؤمر الملائكة بالسجود لآدم، ندرس هذه المعركة بأجوائها وأرجائها ومخلّفاتها ومعداتها من خلال الآيات التي تستعرضها تصريحاً أو تلميحاً وقد صرح بها في مواضيع سبعة[1] هذه منها:

---

(١) المواضيع الستة الأخرى هي: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ [الأعراف: ١١] ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾ [الإسراء: ٦١] ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾ [البقرة: ٣٤] ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: ٥٠] ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

﴿وَإِذۡ﴾ قد تكون عطفاً على ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ﴾ ثم وعلى المحذوف في ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ إذ.. ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا﴾ بياناً لأهم ما كانوا يكتمون من الاستكبار عن السجود لآدم، كما حصل لإبليس ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ظهور العصيان إذ كان يكتم كفره.

وترى متى قال للملائكة اسجدوا لآدم؟ وكيف أمروا أن يسجدوا لآدم؟ وإذ لم يكن إبليس من الملائكة: و﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾(١) فلا يشمله أمر الملائكة فكيف أبى واستكبر، فهل عما لم يُؤمر؟!

إنهم أمروا أن يسجدوا لآدم قبل خلقه: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾(٢) فموقع الأمر قبل خلقه، وموقع السجدة بعد خلقه، وقد تكون بعدما علّم آدم الأسماء كلها لتكون السجدة أمكن وأمتن، أو تكون قبله لتكون المحنة أتم، ولكن فلنسكت عما سكت الله عنه.

وأما السجود لآدم، فهل المسجود هنا آدم عبادة؟ و﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾(٣) فلا يمكن أن يأمر بعبادة غير الله، فإنها تسوية ضالة ظالمة بين الله وسواه: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾(٤) ثم ولا طائل تحت هذه العبادة اللّهم إلّا دفعاً لعبادة غير الله، اتباعاً لملائكة الله!

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٠.
(٢) سورة ص، الآيتان: ٧١، ٧٢.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٤٠.
(٤) سورة الشعراء، الآيتان: ٩٧، ٩٨.

أو أنها تكريم لخليفة الله، أن يسجد لآدم إكراماً له واحتراماً؟ فهكذا الأمر! فهل يأمر الله بهكذا تكريم لسواه، وفيه إهانة لساحته، وتشريك له معه في كرامته، وتسوية له في حرمته، ونيلٌ من محتده، فلم يكن الله ليسمح أو يأمر باحترام لآدم أو من فوقه، وفيه اخترام لساحة قدسه والاحترام درجات قمتها احترام العبادة فلا يحق إلّا للمعبود!

كما وآيات السجود تختصه - عبادة واحتراماً - بالله، وما ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾[1] من والدي يوسف له، إلّا كما سجد الملائكة لآدم، إذ تعنيان معنى سواء، دون أن تفسر إحداهما الأخرى!.

فعدم جواز التسوية بين العالي والداني، فضلاً عن الله وخلقه، إنه من المستقلات العقلية، والسجود هو الغاية القمة من مراحل العبادة عبادة، ومن الحرمة احتراماً أو شكراً، اللهم إلّا إذا كان بقصد الاستهزاء فليس إذاً سجوداً، ومسرح البحث هنا هو سجود العبادة والاحترام دون اللعبة والاخترام، وهو - لا شك - منحصر في الله، منحسر عمن سوى الله مهما كان عظيماً، فلا عظيم بجنب الله!

أترى أن الله يأمر بما هو ضلال وظلم في نفسه، ولكي يرّغب إلى عبادة غيره أو احترامه كمثله سواءً.

والقرآن في عشرات الآيات يصرح باختصاص السجود بالله أيّا كان: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩﴾[2] أترى أنه تعالى يمدح الملائكة في اختصاص السجود به ثم يأمرهم أن يسجدوا لآدم، فإنما الخالق هو الذي يحق أن يُسجد له دون سواه، فلا تعني

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٦.

﴿ٱسۡجُدُواْ لِآدَمَ﴾ إلّا ما تعنيه ﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾[(١)] بفارق أن هذه مطلق السجود لله، وتلك هي سجود الشكر حيث ﴿لِآدَمَ﴾ و﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾[(٢)]: فتوحيد العبادة لله لزامه توحيد السجدة لله، ولأنه الخالق دون سواه و﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾[(٣)] ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾[(٤)] [(٥)].

ثم ولم يسبق لأحد من أنبياء الله، ولا لنبي الأنبياء محمد ﷺ أن يسمح بالسجود أو الركوع له، ومناط السماح - لو جاز لآدم - هو فيه أقوى بما لا يحصى! ولقد كذَّب كونه تحية الأنبياء[(٦)] إذ «ما ينبغي لبشر أن يسجد لبشر»[(٧)] ولا «لأحد أن يسجد لأحد من دون الله يخضع له خضوعه لله ويعظم به السجود كتعظيمه لله»[(٨)] لا وحتى أن يُقبَّل رجل ولي من أولياء

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٦.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٧.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٣.
(٤) سورة الجن، الآية: ١٨.
(٥) راجع لتفسير الآية إلى ج ٢٩: ١٩٣ - ١٩٤ تجد بحثاً مفصلاً عن السجود.
(٦) روى أحمد بن حنبل في مسنده ٤ : ٣٨١ - أن معاذاً لما قدم من اليمن سجد للنبي ﷺ فقال: يا معاذ! ما هذا؟ قال: إن اليهود تسجد لعظمائها وعلمائها ورأيت النصارى تسجد لقسسها وبطارقتها، قلت ما هذا؟ قالوا: تحية الأنبياء فقال ﷺ: كذبوا على أنبيائهم.
(٧) الجصاص ١ : ٣٥ عن عائشة وجابر بن عبد الله وأنس أن النبي ﷺ قال: ما ينبغي لبشر أن يسجد لبشر ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم من حقه عليها، «ورواه ابن ماجه وأحمد بن حنبل في مسنده ٤ : ٣٨١ و٦ : ٧٦ و٥ : ٢٢٨ وروى ما في معناه أبو داود في سننه - نكاح : ٤٠.
(٨) تفسير البرهان ١ : ٨١ عن تفسير الإمام الحسن العسكري قال قال رسول الله ﷺ ... ولم يكن سجودهم لآدم إنما كان آدم قبلة لهم يسجدون نحوه لله عزّوجلّ وكان بذلك معظماً مبجلاً ولا ينبغي لأحد... ولو أمرت أحداً أن يسجد هكذا لغير الله لأمرت ضعفاء شيعتنا وسائر المكلفين من شيعتنا أن يسجدوا لمن توسط في علوم وصي رسول الله ﷺ.

الله، فهل «بقي شيءٌ - بقي شيء»[(١)] لله، لو سوينا بينه وبين عباده احتراماً فضلاً عن عبادة! كما هَوى رجل على قدميه ﷺ فقال ﷺ: تنح! دع عنك أفاعيل الأعاجم[(٢)] وما إلى ذلك من مواقف مشرفة للرسول ﷺ والأئمة من آل الرسول، مستنكرين الركوع أو السجود - مهما كان احتراماً دون عبادة لغير الله، ولهم! وهم من نعرفهم بفضلهم على آدم ومن فوقه، فكيف يختص آدم بسجود الملائكة، ثم يُحرم مَن هم أدنى منهم أن يسجدوا لمن فوقه، إن هي إلّا قيلة فارغة هراء، والله منها براء!

أم كان آدم قبلة لهم في سجودهم لله؟ والقبلة لا يُسجد له، وإنما يُسجد إليه، وهنا السجود لآدم لا إلى آدم! ثم لا تفضيل له عليهم بالسجود إليه كقبلة، كما الرسول يسجد إلى القبلة التي هي دونه! والسجدة لآدم تحمل تكريماً له على الملائكة وفيهم إبليس القائل: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ...﴾[(٣)]! وإن كانت سجدة الشكر لنعمة لا تجعلها أفضل من الشاكر، اللهم إلّا إذا كان نعمة روحية من تعليم أو نبوة!

أم كان السجود لله شكراً على ما أنعم عليهم بمعلم كآدم، كما تقول: سجدت لولدي - لرزقي - لصحتي.. والمسجود هو الله لما أعطاك وحباك! فاللّام إذاً للغاية ﴿ٱسْجُدُواْ﴾ لله ﴿لِآدَمَ﴾ حيث خلقه الله لكم معلماً داعياً إليه

(١) في الوافي باب المعانقة والتقبيل عن أبي عبد الله عليه السلام قيل له: أعطني يدك أقبّلها فأعطاها ثم وجهك فأعطاه، ثم قال: ورجلك قال: هل بقي شيء؟ ثم قال: لا يقبّل وجه أحد ولا يده إلّا رسول الله أو من أريد به رسول الله - وفي حديث آخر: إلّا رسول الله أو وصي رسول الله.

(٢) في حديث لا أذكر مسنده أن أعجمياً أراد أن يهوي على قدمي رسول الله ﷺ فقال ﷺ: تنحّ! دع عنك أفاعيل الأعاجم.

وفي تفسير الرازي ٢: ٢١٢ عن الثوري عن سماك بن هاني قال: دخل الجاثليق على علي بن أبي طالب فأراد أن يسجد له فقال علي عليه السلام: اسجد لله ولا تسجد لي.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٦٢.

وسراجاً منيراً كما ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾[(١)]: خروا سجداً لله ليوسف حيث وجدوه حيّاً عزيزاً، فليس يعني السجود هنا وهناك لآدم أو يوسف أنه المسجود له، وإنما مسجود لأجله المعبر عنه بـ«له» ﴿لِآدَمَ﴾!

فاللام الأولى للمسجود له والثانية للمسجود لأجله[(٢)] تحذف الأولى حين تحذف اعتماداً على الضرورة العقلية والقرآنية وسائر كتابات السماء أن لا سجود إلّا لله، عبودية أو احتراماً أم شكراً.

وقد يجوز أنهم سجدوا إليه كقبلة، سجوداً لله: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِآدَمَ﴾: لله شكراً لما خلق آدم، متوجهين إليه كقبلة، حيث كونه وسيطاً بينهم وبين الله في سجودهم وسائر عباداتهم لله.

فـ «إنما كان آدم قبلة لهم يسجدون نحوه لله وكان بذلك معظماً مبجّلاً»[(٣)] أم أنهم سجدوا عليه كتربة يسجد عليها؟ ولكنما الملائكة ليست لتسجد على شيء فإنها ساكنة السماء لا ساكنة الأرض! وليس هنا السجدة «على» بل السجدة «لـ»!

ولكن «لـ» في السجود، دون «إلى» أو «على» ينحّي هذا السجود عن هاتين اللّهم إلّا معنيّاً ضمنياً ما صلح معنوياً كالقبلة، دون كونه كتربة يسجد عليه!

أو أن لامه للانتفاع «اسجدوا لينتفع آدم»: اخضعوا لأمر الله في تحقيق مصالح آدم لحاجياته الحيوية نفسية ومادية، وكما نراهم هكذا يعملون، من ملائكة الوحي والمدبرات أمراً أم ماذا.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

(٢) لسان العرب ٣: ٢٠٤ - ولأهل العربية وجه آخر وهو أن يجعل اللام في قوله: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ [يوسف: ١٠٠] - وقوله: ﴿رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] - لام من أجل: فالمعنى: وخروا من أجله سجداً لله شكراً.

(٣) تفسير البرهان ١: ٨١ عن تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام.

أو أنه يحمل مثلث المعنى: أن آدم كان قبلة والمسجود هو الله سجدة شُكر لله، وخضوع في صالح آدم لأمر الله، والآية تتحملها كلها، ما دام المسجود هو الله دون آدم، ولأن «سجد» لازم فليتعد بشيءٍ، فلام «لله» هي للتعدية. . اسجدوا لله» واللام في غير الله لغيرها كما في سجدة الشكر «لآدم وليوسف» إذ تعنيان: اسجدوا لله لآدم أو ليوسف!

ومهما يكن من شيء ففي هذا السجود لآدم مكرمةٌ له وشكرٌ لله أن يُسجد له لله لما أنعم، لمّا أنعم، فله الشكر بما أنعم وألهم[1].

وهل يا ترى أن الملائكة كيف سجدوا؟ لا شك أنهم تطامنوا في غاية التذلل والخنوع، وأما كيف فلا ندري، فلكل كائن هيئة خاصة لسجوده كما يناسبه، أم دون هيئة وإنما حقيقة السجود كما ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم﴾[2] ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[3] ولا شك ليس يسجد كل الكائنات كما نسجد بوضع الجباه على الأرض، ولا سيما في السجود التكويني كرهاً أن ذواتها خاضعة لإرادة الله، مسيّرة في قبضة الله دونما تمنُّع، لا فحسب، فحتى الإنسان حيث يؤمر بغاية الخضوع أحياناً دون هيئته الخاصة كما الخضوع للقرآن - التام-: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾﴾[4] حيث تفرض السجود عند قراءة القرآن

(١) ومن أغرب ما نراه في هذا المسرح اختلاف الشيخين الأعظمين المفيد والطوسي في ماهية الشيطان؟ اختلاف التناقض - قال في البيان: كان إبليس من الملائكة بدلالة استثنائه من جملتهم وهو المروي عن أبي عبد الله والظاهر في تفسيرنا وأخبارنا.
وقال الشيخ المفيد إبليس كان من الجن ولم يكن من الملائكة وقد جاءت الأخبار بذلك متواترة عن أئمة الهدى وهو من مذهب الإمامية.
أقول: ليتهما استندا فيما ذهبا إليه إلى كتاب الله، دون أن يقعوا في فخ دعوى التناقض بين متواتر الأخبار!

(٢) سورة الرعد، الآية: ١٥.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٦.

(٤) سورة الانشقاق، الآيتان: ٢٠، ٢١.

ككلٍّ، وهو لا شك غير سجدة التلاوة في آياتها الخاصة، حيث الموضوع هنا القرآن كلُّه، فلتكن غاية الخضوع استماعاً وإنصاتاً وتفهماً وتصديقاً وتطبيقاً، وهي هنا السجدة كما قد تكون السجدة حالة المشي، فلا يمكن أن تكون الهيئة الخاصة في الصلاة كما أمر بنو إسرائيل حين دخول القدس: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾(١) فغاية الخضوع حالة المشي الدخول، هي التطامن إلى الأرض كما يستطاع، وهو أركع من الركوع، وأرفع من السجود!.

فالسجود بكافة صنوفه في هيئات خاصة أو دونها، له معنى واحد: «غاية الخضوع»: طوعاً أو كرهاً بأرجائه وأجوائه، مهما اختلفت شاكلته وحالاته وغاياته، اللهم إلّا هتكاً وهزأً!

إذاً فلا تهمنا وتعنينا أن الملائكة كيف سجدوا ويسجدون، وبعدما سكت الله عنها، وإنما أنهم خضعوا للغاية وتذللوا للنهاية بما لا يحق إلّا لله، فسبحان الله عما يصفون!.

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ . . . ﴿٣٤﴾﴾:

لا شك أن إبليس لم يكن من الملائكة كوناً في أصله وهيئته مهما كان منهم في كيانه وظاهر عبادته، فقد ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾(٢) ولو كان من الملائكة لم يفسق عن أمر ربه: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾(٣) ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾(٤) ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾(٥).

(١) سورة البقرة، الآية: ٥٨.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٠.
(٣) سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٦، ٢٧.
(٤) سورة النحل، الآية: ٥٠.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٢٠.

كما وأن الملائكة أيضاً تعترف أن الجن لا تسانخهم ولا تجانس: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ﴿٤١﴾﴾[1].

ومن ثم فإبليس له ذرية: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾[2] ولا ذرية إلّا بين ذكر وأنثى، والجن منهم نساء ومنهم رجال: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[3] والملائكة لا ذكور فيهم ولا إناث: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ﴾[4] وإذ لا إناث فيهم فلا رجال أم - على أقل تقدير - ليست لهم ذرية فإنها بين رجال وإناث!.

فترى إذ لم يكن إبليس من قبيل الملائكة فكيف يشمله أمر السجود الخاص بالملائكة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾؟ وكيف يعتبر عاصياً إذ لم يسجد، أفعصياناً دون ذنب؟!

إنه أمر ولعله مرتين، إحداهما: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ﴾[5] كما وهو معترف بالأمر: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾[6] وإلّا كان يعتذر ويعترض بعدم الأمر!

فلقد شمله أمر الملائكة - كما وعلّه اختصه أمرٌ ثان - شمله حيث كان في العبادة بكيان الملائكة، وحتى في مكان الملائكة، فعدّ منهم من حيث الملائكية الروحانية، مهما اختلف عنهم في غيرها، عبد الله معهم كما كانوا يعبدون، ردحاً بعيداً من الزمن نفاقاً عارماً كافراً، حتى أظهر مكنونه إذا

(١) سورة سبأ، الآيتان: ٤٠، ٤١.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٠.
(٣) سورة الجن، الآية: ٦.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ١٩.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٢.
(٦) سورة الإسراء، الآية: ٦١.

أمر[١] فـ ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: كان إذ كان مع الملائكة من الكافرين المنافقين.

وهنا الاستثناء متصل، وعلى انفصالها فالوجه أنه لم يكن منهم لا كوناً ولا كياناً، ولكنه إذ أمر شخصياً بالسجود: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[٢] اعتبر هنا في ردف المأمورين وليس منهم في غيره، وعلّ الفائدة هنا أتم، إذ الاستثناء المنقطع تفيد الاستغراق: لم يبق منهم أحدٌ إلّا سجد، فلم يعص منهم أحدٌ، اللّهم ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[٣]: وأما هم: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[٤] مما يؤكد استغراق الأمر بالسجود.

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: وهناك تفاصيل وتعاليل من قياس إبليس لمّا ترك السجود لآدم، أجمل عنها هنا وفصّلت في

---

(١) نور الثقلين (١: ٥٥) عن تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن جميل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سئل عما ندب الله الخلق إليه أدخل فيه الضلال، قال: نعم والكافرون دخلوا فيه لأن الله تبارك وتعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم فدخل في أمره الملائكة وإبليس، كان مع الملائكة في السماء يعبد الله وكانت الملائكة تظن أنه منهم ولم يكن منهم، فلما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم أخرج ما كان في قلب إبليس من الحسد فعلمت الملائكة عند ذلك أن إبليس لم يكن منهم فقيل له عليه السلام فكيف وقع الأمر على إبليس وإنما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم فقال: كان إبليس منهم بالولاء ولم يكن من جنس الملائكة وذلك أن الله خلق خلقاً قبل آدم وكان إبليس منهم حاكماً في الأرض فعتوا وأفسدوا وسفكوا الدماء فبعث الله الملائكة فقتلوهم وأسروا إبليس ورفعوه إلى السماء فكان مع الملائكة يعبد الله إلى أن خلق الله تبارك وتعالى آدم.

أقول: لعلّ الجمع بين معرفتهم لإبليس وعدمها أن الذين قاتلوه هم عرفوه دون سواهم.

ثم أقول: وفي معناه إن إبليس لم يكن منهم، رواه في أصول الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبي عبد الله عليه السلام..

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٣٠.

سائر آياتها الست الأخرى، ندرسها في طياتها، وهي في صيغة واحدة: ردٌّ على الله وردّة عن شرعة الله بقياس فيه إبلاس: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾[(١)] ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾[(٢)] ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾[(٣)] ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾ ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾[(٤)].

وهنا نجمل كما أجمل الله وما أجمله شمولاً ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾: أبى أن يسجد كما أمر الله، واستكبر على آدم وعلى الله، على آدم حيث عدّه أدنى منه لأن جنسه - كما زعم - أعلى من جنسه، وعلى الله حيث رد حكمه بقياس، تجهيلاً لله وترفُّعاً عليه كأنه أعلم منه في مناطات الأحكام، فليس إذاً كفره لأنه ما سجد حيث التاركون من المسلمين للسجود كثيرٌ وما هم بكافرين، إذ يأبون دون استكبار، وإنما لاستكباره. لرده حكم الله ومحادّته لله، وما أكفره من يحاجّ الله، فإنه ليس فقط تكذيباً لله، بل وترفعاً وطغياناً على الله، فهو أنحس من أيِّ شركٍ أو كفر أو إلحاد، ولذلك فهو زعيم الضالين أجمعين.

إن «إبليس» كلما يذكر فهو زعيم الشياطين، طالما الشيطان يعمه وسائر الشياطين، وإن أخطر مواقفه وأكفرها هو رده على رب العالمين، فاختص في موارده بـ«إبليس»: إحدى عشر موضعاً من الذكر الحكيم، طالما الشيطان يذكر في (٦٨) والشياطين في «١٧» زائداً على جنوده الشياطين باسميه في (٦٢) موضعاً: ثنوي الاسم وثالوثي الموقف: إبليس - شيطان - شياطين: بشخصه وحزبه.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٣٣.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٦١.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

والإبلاس حزن معترض من شدة البأس، وقطع، وانقطاع حجة، وحيرة، وقنوط، وقطع رجاء، وانكسار، وحزن، وإيقاع في البلس: الالتباس.

وإبليس يجمع في نفسه جميع هذه المعاني لاسمه: حزناً على ما كُرِّم عليه آدم وطُرد، وقطعاً للجنة والناس من الوصول إلى مأمولهم، مع انقطاع حجته أمام الله وأمام الخلق، وحيرة فيما تورّط فيه ووقع من هوّات، وقطع رجاء لنفسه عن رحمة الله ولغيره أيضاً عن مغفرة الله، وانكسار في كافة الحقول الدعائية أمام عباد الله، وحزن مما يجاهدون في سبيل الله، وإبلاس لهم فيما يعتنقون من شريعة الله، وكل ذلك تجمعها ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

إن إبليس يُبلس كما المجرمون مبلسون يوم الدنيا ويوم الدين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[1] ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[2] ولكنما إبليس زعيمهم هو الأصل في الإبلاس كما إفعيل مبالغة في مادته، والإبلاس هنا هو الإياس، فإنه آيس عن رحمة الله ويؤيس عن رحمة الله ليجلب أكثر عدد ممكن إلى حزبه، ألا فتيقظوا يا أولي الأبصار!

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾:

قصة الجنة هذه تُذكر هنا وفي أخرى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ

(١) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.
(٢) سورة الروم، الآية: ١٢.

لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾(١).

وثالثة في طه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾(٢).

مواضع ثلاثة تذكر فيها قصة جنة آدم، كما وذكرت قصة المعركة المصيرية بين إبليس وآدم في سبعة هذه منها، معركة تفتح للغاوين السبعة أبواب الجحيم كما ذكرت في سبعة، ندرس الثلاثة هنا ونترك السبعة إلى محالها، وفي الهامش عرض الاعتراضات السبعة الإبليسية(٣).

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٩ - ٢٥.
(٢) سورة طه، الآيات: ١١٥ - ١٢٣.
(٣) في تفسير الفخر الرازي: ٢/٢٣٦: حكى محمد بن عبد الكريم الشهرستاني في أول كتابه المسمى بالملل و النحل عن ماري شارح الأناجيل الأربعة، وهي مذكورة في التوراة على شكل مناظرة بينه وبين الملائكة بعد الأمر بالسجود، قال إبليس للملائكة: =

. . . .

= إني أسلم أن لي إلهاً هو خالقي وموجدي وهو خالق الخلق لكن لي على حكمة الله تعالى أسئلة سبعة:
الأول: ما الحكمة في الخلق لا سيّما إن كان عالماً بأن الكافر يستوجب عند خلقه الآلام؟.
الثاني: ثم ما الفائدة في التكليف مع أنه لا يعود منه ضرر ولا نفع وكل ما يعود إلى المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التكليف؟.
الثالث: هب أنه كلفني بمعرفته وطاعته فلماذا كلفني بالسجود لآدم؟.
الرابع: ثم لما عصيته في ترك السجود لآدم فلِمَ لعنني وأوجب عقابي مع أنه لا فائدة له ولا لغيره فيه ولي فيه أعظم الضرر؟.
الخامس: ثم لما فعل ذلك فلِمَ مكنّني من الدخول إلى الجنة ووسوست لآدم؟.
السادس: ثم لما فعلت ذلك فلِمَ سلطني على أولاده ومكنني من إغوائهم وإضلالهم؟.
السابع: ثم لما استمهلته المدة الطويلة في ذلك فلِمَ أمهلني؟ ومعلوم أن العالم لو كان خالياً من الشر لكان ذلك خيراً!..
هكذا زين لإبليس سوء تفكيره والجواب كلمة واحدة:
﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] حيث المسؤول تنديداً ليس إلّا لجاهل أو العامد الخاطئ والظالم المفتاق، وأما الغني الحميد والعالم الذي علمه لا يبد فلم يسأل إلّا إلا كفهما!
ثم الحكمة في الخلق هو إظهار لطفه ورحمته وإبراز عطفه ونعمته، فما لمن بدّل نعمة الله نقمة أن يعترض على ما أتاه الله من نعمة. ثم التكليف ليس لفائدة إلى الله من دفع ضر أو جلب نفع، وإنما العائدة إلى المكلفين واستكمالاً للهدف من خلقهم فـ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٧] وتحصيل الكمال لنا دون سعي بطالة وعطالة وهي خلاف الحكمة.
ثم التكليف بالمعرفة والطاعة لزامه الابتلاء بالأمر والنهي، ومنه السجود لآدم إظهاراً لفضله، رغم أنه أضله، فليرغم بذلك جزاء عما أضل.
وليس العذاب واللعنة إلّا من خلفيات العصيان أيًّا كان دونما ابتغاء فائدة لله أم لغيره وإنما جزاء وفاقاً هو العصيان بنفسه في ظهور حقيقته، ولكي لا يسوّي بين المحسن والمسيء، وليحذر كل سيّئ.
وفي تمكينه لدخول الجنة تمكين بلا تسيير لاقتراف المعصية، فلو لم يمكّن العاصي في عصيانه لم يفرّق بين المطيع والعاصي وهذا ظلم وتسليطه على ولد آدم ليس تسليط التسيير، وإنما تخيير دون إلزام، لا في إغواء ولا إهداء، وحجج الله البالغة كافية لولد آدم تركاً لطاعة إبليس، وفي ذلك التسليط ابتلاء يجعل من المدعين الإيمان مخلصين وغير مخلصين، ولتمييز =

وفي هذه القصة مسارح للبحث والتساؤل ندرسها على ضوء المثلث من آياتها، تاركين الأقاويل والروايات المتناقضة التي لا تلائمها، كما هو دأبنا في تفسيرنا ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾(١) فعلّنا نكون ممن يصلح ولا يفسد في آي الذكر الحكيم.

فما هي جنة آدم؟ ولماذا أدخل فيها إذا كانت سماوية وهو خليفة أرضية؟ وما هي الشجرة المنهية؟ وكيف النهي؟ وكيف يجوز العصيان من الخليفة المفضّلة على الملائكة وهو نبي؟ وكيف استطاع إبليس أن يزلَّهما وهو خارج الجنة إذ أُمر بالهبوط قبله؟ ومَن هم المأمورون بالهبوط: «اهبطوا»؟ وما هي الكلمات التي تلقاها من ربه فتاب عليه؟ أم ماذا من أسئلة حول هذه القصة المهمة التي تستعرض بداية ظهور الإنسان وحياته.

١ - جنة آدم

ترى إنها جنة الخلد؟ وكما يفهم من إطلاقها دون قرينة تصرفها عن وجهها؟

١ - وجنة الخلد هي خُلد دونما شرط الأكل من شجرة خاصة منها، فكيف عصى آدم ربه فغوى طمعاً فيها: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا ﴿١٢١﴾﴾(٢) وآدم أعرف بها منا إذ دخلها، فلو كانت هي الخلد لم يزلَّ للحصول عليه بالأكل من شجرة الخلد وملك لا يبلى!

= الصالح عن غيره، فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان.
وفي إمهاله إملال وإدلال، وليظهر مكنون كفره كما هو، ويظهر مدخول النيات والطويات لمن يدعون الإيمان.
فلقد أغلقت أبواب جحيم إبليس السبعة بكلمة واحدة ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٠.
(٢) سورة طه، الآيتان: ١٢٠ - ١٢١.

٢ - وأن ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[(١)] دونما استثناء، وقد نهي آدم فيها عما اشتهت نفسه!

٣ - وأن الداخل فيها ليس بخارج عنها: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[(٢)] وقد مسّه نصب وأهبط عنها، وهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[(٣)] ﴿لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾[(٤)]:

٤ - وأن الكافر محروم عنها ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[(٥)] وإبليس كان من الكافرين!

٥ - وأن الخلد هي جنة الآخرة، لا يدخلها أحدٌ قبل الآخرة، فكيف دخلها آدم وزوجه في الأولى وقبل أن تقوم القيامة!.

٦ - وأنها ليست دار شريعة وتكليف وقد كلّف آدم فيها!

٧ - وأنه لا يدخلها إلّا من آمن وعمل الصالحات وجاهد وصابر: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[(٦)] ولا يعرف لآدم عمل يستحق به الجنة قبل دخولها ولا موقف للمصابرة قبل معركة الشيطان!.

٨ - وأنها لا تزلف لأهله إلّا عند القيامة: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾[(٧)] كيف يدخلها آدم قبل إزلافها وقبل ابتلاء التقوى!:

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٧١.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٤٨.
(٣) سورة النساء، الآية: ٥٧.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٢١.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٥٠.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٤٢.
(٧) سورة ق، الآية: ٣١.

فلدخول جنة الخلد التي لها ثمانية أبواب، ثمانية أبواب شرحناها، ولم يدق آدم حينذاك ولا باباً واحدة فكيف دخلها؟!

أم كانت هي الجنة البرزخية؟

١ - ولا دخول فيها قبل الموت عن الحياة الدنيا وكما تشهد لها آياتها: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾(١):

٢ - ولا يخرج الداخل فيها ما دامت السماوات والأرض: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾(٢).

٣ - ولا يدخلها الداخلون إلّا بأبدان تناسبها هي البرزخ بين الآخرة والأولى دون الأبدان الأولى!

إذاً فلتكن هي من جنان الدنيا، وترى أنها من جنان الدنيا الأرضية؟ أم السماوية؟

والأرضية منها ترفضها آياتها: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ ولا هبوط إلّا من أعلى إلى أدنى، ثم ولا تدل ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾(٣) على أنها المعني منها، حيث القرينة الأرضية هنا حاكمة دونها، وتفسير آية بأخرى ليس أن تفسرها بما فُسرت الثانية مع فارق قرينة فيها دونها، فإنه من ضرب الآيات بعضها ببعض، وهنا قرينة قاطعة أن الهبوط كان من جنة في السماء:

﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾(٤). ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ حيث الأرض المستقر فيها هي

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠.
(٢) سورة هود، الآية: ١٠٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٦١.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٤.

كلُّ الأرض بجنانها وجاه السماء، وفيها حياة وموت وخروج منها، دون الجنة التي كان آدم فيها، وأن في الأرض الشقاء أياً كانت دون هذه الجنة: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩﴾[1] وفي الأرض بجناتها جوع وعرى وظمأ وضحى!

إذاً فلتكن هي من جنان السماء، المتوفرة فيها مواصفاتها التي ليست في جنان الأرض أبداً.

وهل خلق آدم وزوجه فيها ومن ترابها ثم أسكنا فيها استمراراً لكونهما؟ كما قد توحي له: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾؟ والسكون لا يخص الاستمرار فيما كان، وقد يلمح للدخول، فلا يقال للمكوّن في مكان: اسكن فيه فإنه لا محالة ساكن فيه ما لم ينقل عنه، وإنما يقال: ابق فيها، فالسكون فيها هو الدخول، وكما توحي له خلافته الأرضية منذ خلق: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾.

إذاً فهو مخلوق في الأرض ثم منقول منها إلى جنة في السماء، علّها جنة المسيح عليه السلام التي رفعه الله إليها، مما يدل أن الحياة الأرضية تختلف عن حياة الجنة الدنيوية في السماء، فـ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩﴾ وبصيغة واحدة أنك فيها لا تشقى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾.

فلتكن فيها حياة بلا شقاء، بلا جوع ولا عرى ولا ظمأ ولا ضحى، فلتكن فيها أحياء وسعداء لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وترى كيف صعد إليها آدم وحواء ثم كيف هبطا؟ القرآن ساكت عنها، فلنسكت عما سكت الله عنه.

(١) سورة طه، الآيات: ١١٧ - ١١٩.

٢ - خليفة الأرض كيف يسكن جنة السماء ولماذا؟

إن آدم - دون شك - خلق لهذه الأرض بحياتها الشقية البلاء منذ اللحظة الأولى ولكنه لا بدّ له من تجربة واستعداد، إيقاظاً لقواه المكنونة، وإبرازاً لسوءاته المواراة ومعرفة لشيطانه الغاوي، تدريباً له على تلقي الغواية، وتذوُّق النهاية، وتجرُّع الندامة، واللجوء المكين إلى ملاذ أمين.

فنسيان العهد، ووسوسة الشيطان في الشجرة المنهية، والصحوة بعد السكرة، والندامة بعد المعصية، التي بدأت لآدم وزوجه في الجنة، إنها مثال التجربة البشرية المتكررة في الحياة الأرضية، فليستعد آدم وزوجه لمعركة الشيطان المصيرية الدائبة على هذه الأرض وليعرف أن الشيطان لا يكاد يتخلى عنه في الجنة فكيف له في الأرض، فليعدّ عُدته وعِدّته لمعترك هذه الساحة بسلاح اليقظة حتى لا يقع في فخّه، ثم التوبة لو اعترضته اللمم، تلقياً من الله عهده فلا ينساه، ومعرفة عدوّه فلا يهواه! وتعرّفاً إلى كلماته ليتوب عليه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

إن تجربة الجنة توحي بأن حياة الخليفة الأرضية هي حياة الجنة لولا الخطيئة وسوف تنتهي إلى الجنة إذا تداركها بالتوبة، كما وتتدارك حياته الأرضية أيضاً بالتوبة، وأن الطريق إلى التوبة مفتوحة في يسر وبساطة، وحتى إذا كانت توبة وقتية فضلاً عن التوبة النصوح.

وتوحي أيضاً أن ما حلت في حياته من الطيبات أكثر بكثير مما حرمت من الخبيثات(١) فإن له أن يستعيض الطيبات بخبيثات يهواها على ضوء الشريعة السهلة السمحاء، فلا عليه إذ يهدف تبنّي حياة الجنة في الأولى والآخرة إلّا أنها تنغّص الحياة المريحة، وتهدم صرح الإنسانية.

(١) نستوحيه من ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

ففي معترك الحياة الأرضية تكفيك معرفة عدوّك بما عرفه الله، والالتزام بعهد الله، ثم التوبة إلى الله إذا اعترضتك لمم، مثلث الحياة للخليفة الأرضية، التي تجعلها راجعة إلى ربها راضية مرضية!..

٣ - ما هي الشجرة المنهية؟

لا نجد لها اسماً في آياتها الثلاث، اللّهم إلّا سمات وآثاراً، وهي هي المقصودة في كتاب الهداية دون الأسماء، إذ لا جدوى فيها إلّا تعريف المسميات، وعلّ القصد من الشجرة المنهية ليس شجرة واحدة مما نعرفها، وإنما جنس ما يتشجر تحريضاً للشهوات والتشاجرات، فليس لها - إذن - اسم خاص ولا مسمى خاص، وإنما كل ما يؤثر ذوقه وتناوله هذه الآثار: الخروج من حياة الجنة إلى حياة الشقاء والعناء، حياة الجوع والعرى والظمأ، والضحى وظهور السوءات، وهي في صيغة أخرى: نسيان عهد الله والإعراض عن ذكر الله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا... وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[(١)] كما في الآيات من طه، فضنك المعيشة وشقائها، والهبوط من حياة الجنة إلى أرض التجربة والبلاء، كل ذلك من مخلفات ذوق هذه الشجرة، التي تشجِّر الحياة فتعملها فوضى، وتتشجر عنها الحياة الظالمة المظلمة فتخلِّف عيشة ضنكاً!.

هذه هي الشجرة المنهية بسماتها دون أن نعرف اسمها أو أسماءَها حيث لا جدوى فيها إلّا سماتها، مهما تشجرت الآراء في اسمها، بين هابطة خابطة كالتي تسربت في توراة موسى: شجرة المعرفة! وبين ما لا طائل

(١) سورة طه، الآيات: ١١٥ - ١٢٤.

تحتها أو لا صلة بها وآثارها، أو لا دليل لها من علم أو أثارة من علم[(١)].

وترى كيف ينهى عن تناول شجرة المعرفة بين الحسن والقبح، وهي الشجرة الطيبة التي خلق الإنسان لها، وأمره الله أن يعيشها متزوداً بها حياته وحياتها، مندّداً بمن لا يستظل في ظلها، ولا يتناول من ثمراتها؟ فكيف ينهى عنها؟

أم كيف يعصى بتناولها قبل أن يعرف الحسن والقبح؟ ومن القبيح عصيان الله! فليعرف فيتعرف إليها بذوقها حتى لا يعصى ربه بعدها! فلماذا عدّ من العصاة؟: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[(٢)] فلو كانت هي شجرة المعرفة كان تناولها من أفضل الطاعة! ثم ولا عصيان قبل المعرفة! حيث هي مهبط التكاليف الإلهية، وأما المجانين أو البُله المستضعفين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فليسوا هواء عصاة!

ثم آدم الذي عُلّم الأسماء كلها وأنبأ الملائكة بأسمائها، هلّا كان هو من العرفاء ولحد يعرف الحسن عن القبيح حتى يعصي ربه في ذوق شجرة المعرفة! إنها لقولة فارغة هُراء، خاوية عراء، والله منها براء!

وأما شجرة الكرم والنخلة والتين والحنطة والكافور والأترج والسنبلة فليست هي بالتي تؤثر هذا الأثر الرذيل، رغم أن التين مبارك في القرآن والسنبلة مباركة في حديث الرسول، والنخلة أمُ للآكلة، والحنطة إدام لدوام الحياة، والكافور ممدوح في القرآن، والأترج في السنة، فما هي الصلة الطبيعية بينها وبين هذه العرقلات للحياة مادية وروحية، اللّهم إلّا كونه نهي

(١) إنها بين ستة عشر قولاً: شجرة الكرم، النخلة، التين، الحنطة، السنبلة، الكافور، الأترج، الحنظل، المحبة، الطبيعة، الهوى. العلم بالخير والشر، الخلد، الحسد، شجرة علم محمد وآله، والمؤيدة ببعض الروايات منها هي: ١ - ٤ - ٥ - ٦ - ١٥ - ١٦.

(٢) سورة طه، الآية: ١٢١.

امتحان دون أن تحمل شجرته هذه وتلك من العرقلات، ولكنما التوبة - إذاً - لا بدّ وأن ترجع بصاحبها إلى ما كان من حياة الجنة لولا أن طبيعة الشجرة المنهية تحمل عناء الحياة وشقائها، وكما أن ذوقها عصياناً لله نسيان لعهد الله وإعراض عن ذكر الله.

فنفسية الشقاء هي من مخلفات العصيان، وماديتها من آثار هذه الشجرة، خلاف ما وصفها الشيطان: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[(١)]!

ومهما يكن من شيء فلنسكت عما سكت الله، ونفصح مستصفحاً عما ذكر الله، وما هو في مثلث الآيات إلّا التي عرفناها: شجرة الإعراض عن ذكر الله، تتبع نسيان عهد الله، فتخلّف معيشة ضنكاً: انحرافاً وانهرافاً عن معنوية الحياة، وشقاءً وجوعاً وعرى وظمأ وضحى، التي تجمعها: «الهبوط عن الحياة العليا»: أسفل سافلين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾[(٢)]: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ثم الآيات تنهى آدم وزوجه أن يقربا هذه الشجرة، مما يوحي بشدة النهي كما في سائر مواردها: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾[(٣)] ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾[(٤)] . . .

ولكنما المنهي عنه هو الأكل منها أو ذوقها: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾[(٥)]

(١) سورة طه، الآية: ١٢٠.
(٢) سورة التين، الآيات: ٤ - ٦.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٣٢.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢٢.

و﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾[(١)] وترى أنه ذوقها هي أم ثمرتها؟ إن الشجرة لا تؤكل أو تذاق بسوقها وأوراقها! وإنما أثمارها، فهي هي التي نهي عنها، والنهي عن قربها تأكيد للنهي عن ثمرتها، «فالمعاصي حمى الله فمن حام حول الحمى أوشك أن يدخلها».

وهنا الأكل منها يعني ذوق ثمرتها، دون شبع للبطن منها، ولا أكل دون ذلك، وإنما ذوق الأكل وأكل الذوق: أقل ما يسمّى أكلاً، ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾[(٢)] ما أن بدآ يأكلان، ولذلك عبر عنه بالذوق.

وهذا الأكل الذوق خلّف دون فصل أو اختيار ظهور السوءات، ومن ثم حياة العناء الهابطة الخابطة.

٤ - وكيف النهي؟

لقد نهى الله تعالى آدم وزوجه عن أكل الشجرة وذوقها نهياً مؤكداً منذراً: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ - ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[(٣)] - ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾[(٤)].

فهنا يهدد في اقتراف المحظور بالخروج عن الجنة والشقاء وأنه ظلم، ثم ينادي في آيات أخرى أنه زل عن طاعة الله بوسوسة الشيطان: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾[(٥)] ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾[(٦)]!

فهناك فيما فعله آدم وزوجه: زلة وغواية وظلم وعصيان وشقاء، وكلٌّ

(١) سورة طه، الآية: ١٢١.
(٢) سورة طه، الآية: ١٢١.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٢.
(٤) سورة طه، الآية: ١١٧.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢٠.
(٦) سورة طه، الآية: ١٢١.

منها كاف في التدليل على أنهما ارتكبا الحرام، كما و﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ تؤكده وتشدده!

فالزلة هنا هي الزوال عن الحق أو زوال الطاعة: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾[(١)] والغواية جهل عن اعتقاد فاسد: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾[(٢)] ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾[(٣)].

والظلم انتقاص إما بحق النفس والغير وهو أفحشه، أو بحق الغير وهو أوسطه أو بحق النفس وهو أدناه، وليس بحق الله إذ لا ينتقص في شيء: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[(٤)]، وقد ظلم آدم نفسه فانتقص حاله ومستقبله!: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[(٥)]. ثم قد يكون الظلم بالنفس دون اقتراف منهي عنه كما في يونس: ﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٦)]: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾[(٧)] حيث لم يسبق ليونس نهي عن ذهابه عن قومه مغاضباً مستاءً أن عصوا الله، وإنما انتقص في دعوته الرسالي إذ ذهب عن قومه ولم يصابر!..

وأظهر منه ظلم موسى نفسه فإنه قتل القبطي المشرك المقاتل للإسرائيلي الموحّد، وليس هذا محرماً حتى ولو لم يقاتل المشرك فإن دمه هدر، فكيف إذا قاتل الموحد فإن مطاردته تصبح واجبة، فهذا ذنب العصيان عند المشركين: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[(٨)] وطاعة خاطئة عند الموحدين: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾[(٩)] فلم يقل غيري وهو قد قتل، وإنما

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٢.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٥٧.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.
(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.
(٧) سورة القصص، الآية: ١٦.
(٨) سورة الشعراء، الآية: ١٤.
(٩) سورة النمل، الآية: ٤٤.

﴿نَفْسِى﴾ حيث أخر دعوته الرسالية نتيجة قتله القبطي، إذ كان الأحرى أن يدفعه ولا يقتله حتى لا تتأخر دعوته، ولكنه ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾(١) فوكزه عملُ الرحمان وقد كان مقصوداً للدفاع عن الموحد، وقتله من عمل الشيطان ولم يكن مقصوداً حيث يؤثر الدعوة، وطلب الغفر عن هذا الذنب الظلم لا يعني إلّا أن يستر الله على البغضاء الفرعونية حتى يواصل موسى في دعوته.

ومهما يكن هنا وهناك من شيء فليس الظلم من يونس وموسى مسبوقاً بنهي، وإن كان مرجوحاً وجاه الدعوة الرسالية، لكن ظلم آدم كان مسبوقاً بأشد النهي موصوفاً بالزلة والغواية والعصيان، إذاً فهو الظلم الحرام مهما كان من أدناه، وقد هدّد الظالمون العصاة بعدم الفلاح ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٢) والهلاك: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٣) واللعنة: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٤) وبضلال مبين: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(٥) مهما اختلفت مراتب الهلاك والضلال واللعنة حسب اختلاف الظلامات.

فهل لك بعد ذلك كله أن توجّه ظلم آدم وعصيانه وزلته وغوايته بظلم غير محرم كما في يونس وموسى، وبينهما مثلث البون:

١ - إنهما لم يسبق لهما نهي، وقد سبق لآدم أشده بتهديدات!

٢ - إنهما اعترفا بظلم توجّهه قرينته أنه - فقط - انتقاص في الدعوة دون قصد، ولكن آدم وزوجه ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: سائر الظالمين العصاة لا ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حتى يتحمل ما تحمّله في يونس وموسى!.

(١) سورة القصص، الآية: ١٥.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢١.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٤٧.
(٤) سورة هود، الآية: ١٨.
(٥) سورة لقمان، الآية: ١١.

٣ - إنّ ظلم آدم مقرون بقرائن قاطعة أنه ظلم الزلة والغواية والعصيان، دونهما حيث القرائن تنفي عنهما ظلم العصيان.

وترى هل يتحمل هكذا نهي أنه تنزيهي إرشادي، فإن ذوق الشجرة أتبع الهبوط عن الجنة فعناء الحياة الأرضية وشقاءها، فقد نهيا عنها إرشاداً إلى التحرز عن هذه الشقاء، ولولا أنه - فقط - إرشادي: لا مولوي - لأنتجت توبتهما رجوعهما إلى ما كانا فيها ولم يرجعا بعدها؟!

إلّا أن المتصور من النهي والأمر: المولوية - الإرشاد - مجموع الأمرين.

فإذ ينهى المولى مولوياً وللإرشاد إلى ما يحمله من فساد، كان العصيان ثنائياً فالظلم اثنان، كما في أكثرية النواهي التشريعية.

وإذ ينهى مولوياً دون إرشاد إلى محظور الفساد، فهذا نهي ابتلائي فعصيان واحد لا اثنان، كما في القليل من موارده.

وإذ ينهى إرشادياً لا مولويّاً، فقد يتحمل توجيه خلاف الأولى! وقد لا يتحمله.

والأغلبية الساحقة من أوامر الله ونواهيه هي من القبيل الأول فإن الله يأمر وينهى كرب العالمين ومولى الخلق أجمعين، بما يحمل توجيهات - عرفناها أم لا - إلى مصالح فيما يأمر ومفاسد فيما ينهى، فليس ذكرى التبعات في المنهيات مما يزحزحها عن المولويات. كما ليس ذكر المثوبات في المأمورات يجعلها - فقط - إرشاديات، فكثير هذه الأوامر والنواهي القرينة بذكر المصالح والمفاسد، دنيوية أو أخروية، ترغيباً إلى الطاعات وترهيباً عن المحظورات.

وهنا الله تعالى ينهى آدم وزوجه عما ينهى مهدّدا لهما أنه ظلم يتبع شقاء كما في الكثير الكثير مما ينهى سائر الجنّة والناس، فهل هي كلها إرشادات

تُحمل على ترك الأولى، وقليل هذه الأوامر والنواهي التي لا تحمل إرشادات؟

بل الأصل فيها كلها أن تكون إرشادية من المولى سبحانه، إلّا ما بثت أنه مولوي دون إرشاد، كما أمر إبراهيم أن يذبح إسماعيل عليه السلام ثم لا نجد أمراً إرشادياً أو نهياً في صيغة الغواية والظلم والعصيان أن لو ترك اللّهم إلّا في مستحبات ومكروهات تحمل إرشادات غير ملزمة وهي بحاجة إلى قرائن قاطعة.

ثم التوبة عن الذنب ليس لزامها رجوع التائب إلى كل ما كان قبل الذنب، وإنما الرجوع إلى الله فرجوع الله إليه ألّا يأخذه بنكاله، وقد يكون - أيضاً - رجوعاً إلى سائر ما كان.

أترى أن الآكل للسمّ، الذي تأثر في جسمه لحدّ الموت، هل هو يرجع إلى صحته الأولى أن لو تاب؟ أو أن القاتل لابنه هل يرجع هو غير قاتل، وابنه حياً بعد ما تاب؟.

كذلك آدم وزوجه إذ عصيا بما هددهما الله ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾[1] إرشاداً إلى تبعة هذا العصيان التي هي لزامها، مهما تاب أو تابع في العصيان، ولكنما التوبة ترجعه إلى ما كان من نزاهة وطهارة الطاعة، دون هذه التبعة الدنيوية للعصيان.

فالأصل في التوبة إزالة التبعات الأخروية، وقليلة هذه التوبات التي تزيل تبعات من الدنيوية كذلك.

وأما القول أن نهيه كان في الجنة قبل تشريع أية شريعة، حيث شرّعت بعد هبوطه إلى الأرض: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ

(١) سورة طه، الآية: ١١٧.

وَلَا يَشْقَىٰ﴾(١) إذ توحي بمستقبل الهدى بعدما ﴿ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾(٢).

إذاً فلا يعني نهيه في الجنة نهي تشريع وحكم حتى يحرم عصيانه؟

فهذا غريب في نوعه! فإذ لا شريعة في هذه الجنة - وحتى بقدر نهي واحد - فكيف ينهى الله فيها، وأقل النهي أن يحمل تنزيهاً وهو من الشريعة، وإذا صحّ نهي تنزيه صح نهي تحريم على سواء فإنهما في كونهما من الشريعة شرع سواء.

ثم النص ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ وقد هداه هنالك وجاه الشجرة سلباً وإيجاباً: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾(٣) سلباً لاتّباع الشيطان ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾(٤) وترغيباً لاتباع الرحمن، - فليست هذه الهدى تكفي آدم في الانتهاء بنهي الله، مهما عبّرت عنه بشرعة أو غير شرعة، وليست الشرعة إلّا طريقة الهداية إلى طاعة الله قلّت أو كثرت، وقد انحصرت شريعته في الجنة في السماح من أكل ثمار الجنة كلها إلّا هذه الشجرة، ثم توسعت في الحياة الأرضية، كل حسب مقتضياتها ومتطلباتها، وكما تختلف الشرائع الأرضية هكذا: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا... لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ...﴾(٥). ومن الغريب الإصرار على هذه التأويلات المخالفة للآيات، وإجابة الإمام الرضا عليه السلام عن مشكلة عصيان آدم مع نبوته

(١) سورة طه، الآية: ١٢٣.
(٢) سورة طه، الآية: ١٢٢.
(٣) سورة طه، الآية: ١١٧.
(٤) سورة طه، الآيتان: ١١٨ - ١١٩.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

مشهورة، أنه كان قبل النبوة[(١)] ثم لا نجد تأويلاً يجعل عصيانه خلافاً للأولى!

٥ - كيف يجوز العصيان من الخليفة المفضلة على الملائكة وهو نبي؟!

في الحق أن آدم عليه السلام لم يكن نبياً حين عصى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾[(٢)] فاجتباؤه بما تاب عليه وهدى كان بعدما عصى وغوى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ

---

(١) نور الثقلين: ١/ ٥٩ عن عيون أخبار الرضا عليه السلام بإسناده إلى علي بن محمد الجهم قال حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - ليس من قولك إن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، قال: فما معنى قول الله عز وجل: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ - إلى أن قال بعد عرض قصة الجنة والشجرة: وكان ذلك من آدم قبل النبوة ولم يكن ذلك بذنب كبير استحق به دخول النار وإنما كان من الصغاير الموهوبة التي تجوز على الأنبياء وقيل نزول الوحي عليهم فلما اجتباه الله تعالى وجعله نبياً معصوماً لا يذنب صغيرة ولا كبيرة قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢١-١٢٢] وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

وفي الدر المنثور: ١/ ٥٤ عن أبيّ بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث قال، قال الله تعالى يا آدم اخرج من جواري فبعزتي لا أساكن من عصاني ولو خلقت ملء الأرض مثلك خلقاً ثم عصوني لأسكنهم دار العاصين قال: - رأيت إن أنا تبت ورجعت - تتوب علي؟ قال: نعم يا آدم!

وأما ما في الدر المنثور أنه كان نبياً حين دخل الجنة فلا يناسب الآية كما أخرجه الطبراني وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن أبي ذر قال قلت يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم! - رأيت آدم أنبياء كان؟ قال: نعم كان نبياً رسولاً كلمة الله قبلاً، قال له: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

أقول: مجرد تعليم الله لا يدل على نبوة وإلّا كانت أم موسى وأم عيسى من النبيين إذ كلمهما الله وكذلك الشيطان حيث خاطبه الله فهذا الحديث وأمثاله مردود مزور على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنه مخالف لكتاب الله.

(٢) سورة طه، الآيتان: ١٢١ - ١٢٢.

عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(١)] «فلما اجتباه الله تعالى وجعله نبياً كان معصوماً لا يذنب صغيره ولا كبيرة»[(٢)].

وخطابه بوحيه قبل نبوته لا يجعله نبياً حيث خاطب الله مريم وأم موسى دون نبوة، وخاطب إبليس الكافر كما خاطب آدم الخليفة، فليس الخطاب إذاً دليلاً على النبوة حينه.

وترى كيف شمله عهد الله: النبوة، وهو ظالم ناقض لعهد الله: الطاعة -: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[(٣)] ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٤)] - فليس العصيان الغواية ظلماً ونقضاً لعهد توحيد الطاعة، وعهد الله: الإمامة النبوة، لا ينال الظالمين وإن ظلموا لمرة وقبل النبوة؟.

أجل إنه ظلم، ولكن عهد الله في آية الإمامة هو عهد الإمامة في النبيين، لا عهد مطلق النبوة، وإنما النبوة المطلقة التي تقود نبوات جزئية، حيث الرسالة والنبوة درجات: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[(٥)] فالرسالة المفضلة لحدِّ الإمامة، وعلّها ولاية العزم الخاصة بالخمسة الذين دارت عليهم رحى الرسالات، هذه الرسالة القمة هي المقصودة بعهد الله في آية الإمامة حيث لا تنال الظالمين، لا مثل آدم الذي هو في أدنى درجات النبوة!

وترى أن آدم حين المعصية نسي الشيطان أنه عدوٌّ له؟ وقد عرّفه ربه إياه

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٣.
(٢) الهامش رقم واحد ص٣١٣.
(٣) سورة طه، الآية: ١١٥.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

وأراه شخصه!: ﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾[1] كما وحوار الشيطان إياه حين أزلّه تذكّره أنه من هو؟: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ . . . ﴿٢٢﴾﴾[2]!.

أم هل نسي الرحمن أنه ربه؟ وأنه أحط دركات الغفلة عن الله فكيف يناسب آدم الخليفة!..

أو نسي نهيه؟ وقد ذكره الشيطان بنهيه: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا﴾! ومن قبل ما استكبر إبليس عن السجود له فلا ينسى موقفه منه.

إذاً فما هذا العهد الذي نسيه فدفعه إلى ارتكاب الخطيئة؟

قد يكون هو العهد العام المأخوذ على بني آدم: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[3].

ولكنه يعم بني آدم دون آدم، وآدم لم يعبد الشيطان وإنما اغتر بما غرّه، وملامح العهد أنه فوق ما عهده الله إلى بني آدم: ﴿عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾[4] لا بني آدم أو الإنسان.

أو أنه العهد المأخوذ في الذر على توحيد الربوبية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾[5]؟ وهذا العهد وإن كان أعلى من الأوّل، فقد يعم ويناسب آدم، ولكنه أيضاً من بني آدم!

(١) سورة طه، الآية: ١١٧.
(٢) سورة الأعراف، الآيات: ٢٠ - ٢٢.
(٣) سورة يس، الآية: ٦٠.
(٤) سورة طه، الآية: ١١٥.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

أو أنه الميثاق المأخوذ على النبيين، في درجة أعلى من توحيد الربوبية: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨﴾(١).

أو أنه عهد خاص إليه كما إليهم خاصة العهود حسب درجاتهم؟ ولكنه لآدم كان قبل نبوته: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ﴾(٢) وعلّه بمناسبة المحنة الإبليسية عهد يضم توحيد الربوبية وترك طاعة الشيطان ﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾(٣): إذ لم يثبت ويعزم على عهده، فلم يكن النسيان مما يرفع عنده التكليف، وإنما التناسي الغفلة الغفوة الذي يتنافى وذكر الربوبية الموحّدة، فكل تخلف وعصيان هو من خلفيات نسيان حضرة الربوبية ولحدّ الإعراض عن ذكر الله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾(٤).

وترى أنه كان عصياناً كبيراً؟ إذ كان النهي مؤكداً: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ حيث النهي عن القرب إلى شيء يوحي بأن محظوره عظيم: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾(٥) إيحاء ثان إلى تأكد النهي بنونه الثقيلة.

ثم في اتباعه لإبليس وهو يعرفه بعينه وقد سبق التحذير عنه، وكأنه صدّقه ناصحاً: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾(٦) ما يوحي كأن الله غشه

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧ - ٨.
(٢) سورة طه، الآية: ١١٥.
(٣) سورة طه، الآية: ١١٥.
(٤) سورة طه، الآية: ١٢٤.
(٥) سورة طه، الآية: ١١٧.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٢١.

بزعمه - في نهيه: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ ﴿٢١﴾﴾[(١)]!.

أقول: لم يكن آدم عليه السلام في هذا المسرح ليتّهم ربه بالغش والخداع ومعاذ الله! ولو كان متّهمه هكذا لكان أنكى من أكل الشجرة وأردى، فلماذا لم يخصه التنديد أو يعمهما، وإنما خصه بأكل الشجرة ليس إلّا، مما يبرهن أن سبيله في ذنبه لم يكن أعظم من ذنبه: أن يتهم الله بالإغواء والخداع، ويصدق إبليس في النصيحة ولا سمح الله!.

وإنما غره أن ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ وما كان يظن أن خلقاً خلقه الله يحلف كاذباً بالله وكما يروى عنه في حوار له مع جبريل عليه السلام[(٢)]: «فاغتره عدوّه نفاسة عليه بدار المقام ومرافقة الأبرار، فباع اليقين بشكّه، والعزيمة بوهنه، واستبدل بالجزل (الفرح) وجلاً، وبالاغترار مذماً، ثم بسط الله سبحانه له في توبته ولقّاه كلمة رحمته، ووعده المرد إلى جنته فأهبطه إلى دار البلية وتناسل الذرية»[(٣)].

فقد حلّ بين غرورين ووقع بين محظورين: غرور بما قاسمهما وهو لا يظن أن أحداً يقسم بالله كاذباً، وغرور بما وعده دار المقام في جنة الله بمرافقة الأبرار، ومن ثم محظور سابق من نهي الله، وآخر في غروريه: لعل

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٢٠، ٢١.

(٢) نور الثقلين ١: ٦١ عن تفسير علي بن إبراهيم في القصة، فنزل عليه جبرئيل فقال: يا آدم! ألم يخلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته؟ قال: بلى - قال: وأمرك أن لا تأكل من الشجرة فلِمَ عصيته؟! قال: يا جبرئيل! إن إبليس حلف لي بالله أنه لي ناصح وما ظننت أن خلقاً خلقه الله يحلف بالله كاذباً!. وفي تفسير البرهان ١: ٨٣ عن ابن بابويه القمي في حديث مجلس الرضا عليه السلام والمأمون قال فيه: ولم يكن آدم وحوا شاهدا قبل ذلك من يحلف بالله كاذباً «فدلاهما بغرور فأكلا منها ثقة بيمينه بالله..».

(٣) نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

الله نسخ ما نهى وفسخ ما عهد «فباع اليقين» بنهي الله «بشكّه» في نهي الله «والعزيمة على الثبات على عهد الله» بوهنه - ﴿فَنَسِيَ﴾ عهد الله ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ يعصمه من معصية الله «فأهبطه الله إلى دار البلية وتناسل الذرية» ثم ولم ينتجبه كولي عزم من أنبيائه الذين حافظوا على عهد الله واعتزموا عصاماً دائباً وسياجاً على حرمات الله قبل اصطفائهم برسالات الله وبعدها، وهم سادة المرسلين الذين دارت عليهم الرحى وآدم في درجة من درجات الرسالات بعد ما عصى وأهبط!.

هكذا يأتي الشيطان غروراً كلّ إنسان أو جان بغراره ومسلكه، فآدم الخليفة المعلّم الأسماء، ليس ليُستضل بالشهوات أو مربع السياجات الشيطانية، اللهم إلّا يُمنة: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾[(١)] فقد جاء آدم عليه السلام عن يمينه، عن طريق دينه: ألّا يمكن الحلف كاذباً بالله، ولا سيّما في وعد المقام في دار كرامة الله! ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖ﴾[(٢)] كهذا، بدلوٍ يتعلق هو به! وحب الشيء يعمي ويصم، وهذه أوّل تجربة توقعه في فخ العصيان دونما تعمد أو طغيان.

وعلى أكثر تقدير تذرع بعصيانٍ ما إلى البقاء في دار القرب والكرامة لورود الاحتمال أن الله نهاه عن أكل الشجرة: وعلّها الخلد! - تبعيداً له عن ساحة قربه ولمّا يصل إلى أهليته، وقاسمه الشيطان على مقالته، فرجح عصياناً على حدته - ودون تعمد وطغيان - على بعده الدائب لو خرج عن جنته - عن جوار الرحمة وجناب العظمة.

كعبد ينهاه مولاه عن المقام بجواره، فيغترُّ بما يُغر أن يعصيه هيماناً

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٢.

للمقام بجواره، فليس إذاً هو البعيد البعيد في خطئه، مهما كان خاطئاً في تصرفه، حيث العبودية اللائقة بجنابه تعالى هي المطلقة الشاملة عزماً وعملاً صالحاً، لا يحول بينه وبين طاعته أي غرور وإن كان في محبته.

ولقد كان ابتلاء آدم وزوجه شديداً بهكذا غرور، لا سيما وكما يروى - ابتعدت حرس الشجرة عنها حيث اقترباها، بعدما كانت تحرسها قبله، فظنا أن الله تعالى رفع حظره فأبعد حرسه!

فمستهلّ هذه المعركة المصيرية بين آدم وإبليس يوقظ النابهين أن يحذروا الشيطان الرجيم، حيث يحتال بمختلف الحيل في خطواته المضللة، فليكن الإنسان كله بصراً وبصيرة، كي لا يقع في فخه كما وقع الأبوان الأولان، تجربة مُرة مَرّتَ بهما، فحذار حذار لولدهما وكما تتردد في إذاعات قرآنية: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾(١).

٦ - كيف استطاع إبليس أن يزلهما وهو خارج الجنة إذ أمر بالهبوط قبله؟

في الحق إن إبليس إذ أزلهما كان في الجنة بين أمرين بهبوطه: أمر يخصه إذ أبى عن السجود لآدم واستكبر: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾(٢).

ومن ثم أمر يعمّه وأبوينا: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣.

مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[(١)] ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ﴾.. ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ﴾ مهما أُمرا - هما بأمر آخر يخصهما: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ﴾[(٢)].

فأمر الهبوط الجماعي هناك دليل أن إبليس كان بعدُ في الجنة، أن عصى ربه في أمره الأول، ولكنما الثاني كان نافذاً لم يقدر ولم يقدرا أن يعصوه، إذاً فالأول أمر تشريعي، والثاني يعمه والتكويني أن أهبطهم من الجنة، مهما كان ذلك للشيطان دحراً دائباً، ولأبوينا هبوطاً آئباً إلى دار الخلد والكرامة!.

ثم ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ﴾ في جماعيّ الأمر ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ﴾ تأشير إلى العداوة الدائبة بين الشيطان وبين الإنسان، فما هي العداوة بين بعض في ثنائي الأمر: ﴿ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ﴾؟

هل هي العداوة بين قبيلي الأناثى والذكران من بني الإنسان، أم نسل الإنسان ككل حيث التثنية تخرج الشيطان، ولا مباعضة بين الإنسان والشيطان حتى تعمهما هنا المباغضة؟.

أم إنها بين الإنسان والشيطان طالما الشيطان غير مذكور هنا ولكنه مذكور هناك، ولا تعني المباعضة المجانسة، وإنما مباعضة في هذا الجمع العصيان، أو الجمع الذي يجوز عليه ككل العصيان، فثنائية الأمر وجماعيته تعنيان العداوة الدائبة بين قبيلي الإنسان والشيطان.

أو أنها - وبالأحرى - تعنيهما جميعاً، فآية الجمع تعني عداوة الجمع، بين الشيطان وبينهما، وآية التثنية تعني - فقط - ما بينهما كخليفة الأرض

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٤.
(٢) سورة طه، الآية: ١٢٣.

جميعاً، فحياة الأرض الضيقة العناء الشقاء، هي حياة العداء بين بني الإنسان، كما بين الإنسان والشيطان: ازدواجية العداء التي تتوحد في إغراءات الشيطان، فقد يأتيك بنفسه أو خيله ورجله من ذوي جنسه، وقد يأتيك بذوي جنسك: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾[1] حيث ينزغون بيننا: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾[2] ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3].

٧ - «ما هو لباسهما وسوءاتهما المواراة قبل العصيان»؟

طبعاً إنه من ملابس الجنة، ولقد ووري عنهما سوءاتهما بلباسهما ثم بدت بما ذاقا الشجرة: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ﴾[4].

وقد توحي الآيات في اللباس المواري للسوءات - وقد بدت بما ذاقا الشجرة - أنهما ما بدت لهما سوءاتهما منذ خلقا لحدّ الآن، مما يوحي أنهما ألبسا من لباس الجنة منذ خلقا دون انتخاب أو محاولة منهما، حيث اللباس يلبس السوء، فقبل أن تبدو السوءة لا دافع لمواراتها بلباس.

أو أن كلّاً كان عارفاً بسوءته هو، دون الآخر، فلما نزع عنهما لباسهما عرف كل سوءة الآخر فأحسا بشهوة الجنس بما عرفا، فلولا المعرفة الثانية لما أحسّا شهوة الجنس.

إلّا أن ﴿مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾[5] توحي بلطف أن المواراة كانت عنهما في أنفسهما وكما بالنسبة لبعض، أن الله أوراها تحت لباس الجنة،

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٠.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢٠.

حتى إذا أبرزا سوءاتهما في أرواحهما بما عصيا، برزت لهما سوءاتهما في أجسامهما، ليعلما أنهما بعد عائشان سوءات على سوءات، فلا يليقان حياة الجنة.

فلم يكن لهما في هذا المسرح إلّا العصيان والموارة الثانية للسوءات ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾(١) وأما لبس لباس الجنة، وأما نزعها، فلا شيء منهما كان منهما، وإنما اللبس منذ البداية لموارة السوءة فلا يعرفاها فيسوءاها لكرامة الجنة ولباس الخلافة، ثم النزع في النهاية ليعرفاها فيسوءاها ويعلما أنهما على سوء وإلى سوء إلّا أن يتبعا الهدى!.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾:

٨ – وما هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه ومتى تلقاها؟

إن الكلمات هي كلمات التوبة وقد تلقاها آدم بين أمرين جماعيين بالهبوط: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

فقد تلقى آدم كلمات من ربه بعد العصيان وقبل الهبوط، وتاب الله عليه كذلك قبل الهبوط، فلم تكن التوبة بالتي تنفعه في البقاء في الجنة، اللّهم إلّا غفراً عن ذنبه فلا يعذب في دار الخلد، وأما الدنيا ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ إنها دار عمل دون جزاء، كما الآخرة دار جزاء ولا عمل.

ولأن اجتباءه بما تاب عليه وهدى كان في الجنة وقبل الهبوط ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٢.

رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ . . .﴿١٢٣﴾﴾[1] فلتكن بداية نبوءَته في الجنة وإن كانت رسالته باتساع نبوءَته بعد الهبوط عن الجنة: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا. . . فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾[2] فهنالك له هدى واجتباء قبل الهبوط، علّهما النبوءة دون رسالة، وهنا هدى عامة بعد الهبوط هي الرسالة بعد اتساع النبوءة -.

إذاً فترتيب القصة: أكل من الشجرة، فتلقي كلمات التوبة، فنبوءَة، فهبوط فتوبة فرسالة، ولكنما النبوءة تنافي العصيان وقد عصى! إلّا أنها كانت بعد التوبة.

وترى أنها كانت كلمات الاعتذار التوبة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ ﴿٢٤﴾﴾[3] فتلقى كلمات التوبة، وهذه الكلمات كان قبل الهبوط وبعد الأمر الأول بالهبوط، أفلا يدل هذا القرآن أنها هي تلك الكلمات؟.

أقول: إنها كانت قبل الأمر بالهبوط ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾[4]. . . ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ﴾[5] وتلقي الكلمات هو بعد الأمر الأول وقبل الثاني الذي بعده الهبوط، والترتيب حسب مختلف الآيات، العصيان - ربنا ظلمنا - الأمر بالهبوط - تلقي الكلمات - الأمر الثاني بالهبوط، كما وتلمح ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ بعد ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ أن آدم تاب إلى الله قبلها بقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ﴾[6] فلم يتب الله عليه حتى ﴿فَتَلَقَّىٰٓ. . . مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ أخرى ﴿فَتَابَ

(١) سورة طه، الآيتان: ١٢٢ - ١٢٣.
(٢) سورة طه، الآية: ١٢٣.
(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ٢٣ - ٢٤.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٢.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.

عَلَيۡهِۚ﴾. كما وتوحي ﴿وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا﴾[١] دون «اغفر لنا» أنها ما كانت لتكفي في المغفرة فتلقّى كلمات غيرها بعدها تشفعها ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾.

ثم وقد لا تحتاج هذه الكلمات ﴿رَبَّنَا﴾ إلى تلقّ من الله، حيث الندامة بعد المعصية وظهور السوأة هي التي تدفع مثل آدم الخليفة أن يردد هذه الكلمات دون نظرة لتلقّيها من ربه، وقد لا تكفي - كذلك - توبة من الله عليه وإن صحت توبة منه إلى الله، والنص ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ الله، دون «تاب إليه» آدم إلى الله إذاً فهذه الكلمات مشفوعة بأخرى وهي شفيعة له في قبول التوبة، وعلّها هي هي الأسماء التي علّمها، أسماء الخلفاء الذين احتج الله بهم على الملائكة في هذه الخلافة فليكونوا هم الرعيل الأعلى بينهم، لا كأمثال آدم، إذ لا تنفع شفاعة ممن هو مثله في كيانه، إلّا من هو فوقه وفوق العالمين كمحمد ﷺ وآله المعصومين عليهم السلام: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾[٢].

والتلقّي هو التلقن، أخذاً للكلام على تفهُّم لما يعنيه، إذاً فهذا التلقي يحمل تعريفاً بأصحاب هذه الكلمات الأسماء، أكثر مما حمله تعليمه بها، ولأن ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[٣] ثم ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾[٤] يحمل جواباً مقنعاً للملائكة عن قولهم ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾[٥] فليكن الأسماء هم هؤلاء الرعيل الأعلى أنهم هم الخلفاء، أو أن فيهم من يكافح العصاة والعصيان، إذاً فهم أولاء الأكارم الذين بهم يتوب الله على من

(١) سورة طه، الآية: ٢٣.
(٢) سورة النساء، الآية: ٦٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٣١.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

يتوب، وفيهم الكفاح عمن لا يتوب أم لا يتوب عليه الله، ولا نعرف أجدر أو بهذه الجدارة من أهل بيت الرسالة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم ![1].

(١) الدر المنثور ١: ٥٨ - أخرج الطبراني في المعجم الصغير والحاكم وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل وابن عساكر عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لما أذنب آدم الذنب الذي أذنبه رفع رأسه إلى السماء فقال: أسألك بحق محمد إلّا غفرت لي فأوحى إليه ومن محمد؟ فقال: تبارك اسمك لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك فإذا فيه مكتوب لا إله إلّا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعلمت أنه ليس أحد أعظم قدراً عندك ممن جعلت اسمه مع اسمك فأوحى إليه يا آدم! إنه آخر النبيين من ذريتك ولولا هو ما خلقتك». وفيه أخرج ابن البخاري عن ابن عباس قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه؟ قال: سأل بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلّا تبت علي فتاب عليه ورواه مثله في ملحقات الإحقاق ج ١٤: ١٤٨ العلامة ابن المغازلي الشافعي في المناقب ص ٣٩ نسخة مكتبة صنعاء باليمن - بإسناد متصل عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وأخرج مثله العلامة النطنزي في الخصائص.

وفيه ٣: ٧٦ وممن أخرجه العلامة البيهقي في دلائل النبوة على ما في اللوامع ١: ١٢٥ روي عن عمر بن الخطاب قال آدم اسألك بحق محمد وآله إلّا غفرت لي - إلى قوله -: ولولا هو ما خلقتك، ورواه مثله ابن عساكر في مسنديه على ما في اللوامع ١: ٢١٥.

وفيه أخرج الديلمي في مسند الفردوس بسند رواه عن علي عليه السلام قال: سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن قول الله: ﴿فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾؟ فقال - بعدما ساق القصة - قال: فعليك بهؤلاء الكلمات فإن الله قابل توبتك وغافر ذنبك قلّ اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد سبحانك لا إله إلّا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم، اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد سبحانك لا إله إلّا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم، فهؤلاء الكلمات التي تلقى آدم ومن طريق أهل البيت عليهم السلام أخرج الشيخ الطبرسي في الاحتجاج عن معمر بن راشد قال سألت أبا عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن آدم لما أصاب الخطيئة كانت توبته أن قال: اللهم بحق محمد وآله محمد لما غفرت لي فغفر الله له أقول: وأخرج الصدوق مثله في معاني الأخبار بإسناده إلى أبي سعيد المدائني يرفعه اليه، وأخرج في الخصال عن المفضل بن عمر عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام قال: سألته عن قول الله تعالى ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ١٢٤] ما هذه الكلمات؟ قال: هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه وهو أنه قال: يا رب أسألك بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلّا تبت علي فتاب الله عليه إنه هو التواب الرحيم، وفي ملحقات الإحقاق ٣: ٧٨ عن المولى معين الكاشفي في معارج النبوة ركن ٣=

وتوبة العبد إلى الله، المقبولة، محفوفة بتوبتين من الله عليه: توبة أولى ليتوب: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾[(١)] وثانية هي قبول توبته حيث التوبة هي علم وحال وعمل، وكل ذلك بحاجة إلى توفيق من الله، ولا يوفق إلّا من أراده وحاول له، ثم لا يقبلها إلّا إذا أتى بها على وجهها، وتلقي الكلمات هو تعليم له كيف يتوب بتوفيق منه، وتلقّن لها علماً وحالاً وعملاً ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾.

فهذا التلقي يحمل إلقاءً من الله تعليماً وتوفيقاً للحال والعمل، وتقبلاً من آدم إذ تحولت حاله وعمله ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾!

فالعلم اليقين بالخطأ وبمقام الرب نور، يؤجج نار الندم في القلب، فيبعث اللسان والأعضاء إلى التلافي، وهذا المثلث هو التوبة الصالحة، وأهمه قاعدته المتوسطة بين العلم والعمل وهي الندامة وكما يروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الندم توبة».

ولكي ينجو الإنسان من فخاخ الشيطان فعليه أن يكون دائب التوبة حتى يرجع في هذه المعركة الدائبة بالخسار على الشيطان وقد سأل رجلٌ علياً أمير المؤمنين عليه السلام: عن الرجل يذنب ثم يستغفر ثم يذنب ثم يستغفر فقال أمير المؤمنين عليه السلام يستغفر أبداً حتى يكون الشيطان هو الخاسر فيقول: لا طاقة لي معه وقال: كلما قدرت أن تطرحه في ورطة وتتخلص منها فافعل[(٢)].

= ص ٩ عن الصادق عليه السلام في حديث أن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه: يا محمود ويا علي الأعلى ويا فاطم ويا محسن ويا منك الإحسان بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين أن تغفر لي وتقبل توبتي ورواه مثله القندوزي البلخي في ينابيع المودة ص ٩٧.

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٨.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٣: ٢٢ في المسألة الثامنة.

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

٩ - ثم وما هي الهدى التي وعُدها هذه الخليفة؟

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.. ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[1].

هذه الهدى الآتية لخليفة الأرض إلى الأرض لا ريب هي فوق هدى العقل سواء - كانت هدىً تهدي العقل في أخطائه أو تهديه في تكامله، أم تحمل أحكاماً ليس للعقل فيها حكم لا جملة ولا تفصيلاً، وهذا المثلث من الهدى تجمع الشرائع كلها، فهي المقصودة للمكلفين منذ آدم إلى يوم الدين، إلّا أن آدم ومن دونه إلى نوح لم يبعثوا بشريعة أو شرائع من القسم الثالث إطلاقاً فإنها لأولي العزم من الرسل حيث العزم لهم يعني فيما يعني استقلال الشريعة الناسخة لما قبلها إن كانت، والحاكمة على من بعدها إلى ولي عزم آخر، وليست إلّا لأولي العزم من الرسل الخمسة الذين دارت عليهم الرّحى[2].

وقد توحي ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾[3] - توحي أن الناس ظلوا في فترة من الزمن ضلّالاً عن هكذا شرعة إلهية تحمل كتاب وحي

(١) سورة طه، الآيتان: ١٢٣ - ١٢٤.
(٢) راجع ج ٢٦ ص ٧٣ - ٧٨ في آية «أولو العزم».
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

برسالة، فليكن آدم رسولاً بلا كتاب بشرعة غيرها، كالتي تهدي العقل فقط عن أخطائه، أمّا التي لها فروع لا تحكمها العقل لا جملة وتفصيلاً فلا، وعلّها ليست بالتي تكمّلها أيضاً، وإنما الزاوية الأولى من مثلث الوحي الرسالة، وهي أدنى درجات الرسالة.

ولا شك أن أوّل ما أتت من هدي لخليفة الأرض كانت بواسطة آدم صفي الله الذي اصطفاه واجتباه بعد ما عصى وتاب عليه وهدى ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾[(١)] ولحدّ الآن ما بعث رسولاً، وإنما نبي اهتدى ثم ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾[(٢)] فابتعث بهذه الهدى[(٣)].

ومن ثم ضابطة عامة لمن ضل أو اهتدى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[(٤)] - ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: عائشاً في مربع النور والسرور: لا يضل - ولا يشقى: حتى في الحياة الدنيا، أن تصبح حياته حياة الجنة، فلا يحزن على ما فاته منها ولا يخاف أن يشقى ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾[(٥)]!

وأما ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾[(٦)]: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[(٧)] - ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[(٨)] في الأولى وفي

---

(١) سورة طه، الآيتان: ١٢١ - ١٢٢.
(٢) سورة طه، الآية: ١٢٣.
(٣) الدر المنثور ١: ٥١ عن أبي ذر قلت يا رسول الله ﷺ: من أول الأنبياء؟ قال: آدم، قلت: نبي كان؟ قال: نعم مكلّم، قلت ثم من؟ قال: نوح وبينهما عشرة آباء.
(٤) سورة طه، الآية: ١٢٣.
(٥) سورة طه، الآية: ١١٧.
(٦) سورة طه، الآية: ١٢٤.
(٧) سورة البقرة، الآية: ٣٩.
(٨) سورة طه، الآية: ١٢٤.

الأخرى ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾[١] إذاً فهو يشقى في الحياة كلها.

فليست توبة آدم بالتي تزيل عنه شقاء الحياة وضلالها وخوفها وحزنها بل وعليه أن يتبع هدى الله في حياته الدنيا حتى لا يخاف ولا يحزن ولا يضل ولا يشقى.

فقد تخطّى هذه الخليفة المعصية إلى التوبة وإلى الهدى، فعصيانه أهبطه إلى الأرض الشقاء والعناء، وتوبته أصلحته لحياة راضية خالية عن مربع العناء، وهُداه أدخلته إلى جنة الحياة وهو في الدنيا، فتألّفت حياته الأرضية بحياة سماوية علينية إذا تعلق بوحي السماء، وهي أرضية سجينية إذا تحلل عن وحي السماء: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾.

ومن ثم ينتقل المهتدون إلى حياة سماوية خالصة أسمى من الأولى وأنمى، والضالون إلى حياة أرضية أتعس وأنكى!

رجعة ثانية إلى مثلث الآيات في القصة باستدراكات ونكات:

١ - نتأكد من ترداد الأكل من الشجرة في آياتها أنها ليست شجرة العلم أو الحسد أو المحبة أو المعرفة وأمثالها، من التي لا تؤكل وإنما تتلقى معرفة وعلماً، مهما حملت هذه الشجرة روح الشقاء والضلال.

٢ - إخراجهما من الجنة قد ينسب إلى الشيطان كما هنا ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ وفي الأعراف ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾[٢] وفي طه ﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾[٣].

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.
(٣) سورة طه، الآية: ١١٧.

ثم ينسب الإهباط والأمر بالهبوط إلى الله: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ﴾ كما هنا ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ﴾[1] في الأعراف و﴿قَالَ ٱهْبِطَا﴾[2] في طه.

والجمع أن سبب الخروج والهبوط هو إبليس بما أزلهما دون أن يهبطهما هو بنفسه، ثم الله أهبطهما جزاء بما كسبا أن استزلا بما أزلهما.

٣ - هنا أمران جماعيان بالهبوط يتوسطهما تلقي كلمات التوبة، أترى أن آدم عصى الأمر الأوّل حتى تاب، ثم أمر ثانياً بالهبوط؟ فكان عليه - إذاً - أن يتوب عن عصيانه الثاني إن خالف الأمر الأوّل؟

هناك عصيان ثم بداية التوبة في الأعراف قبل الأمر بالهبوط: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا... قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا... قَالَ ٱهْبِطُواْ﴾[3] ثم هنا تلقٍّ لكلمات التوبة بين الأمرين بالهبوط: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ﴾.. فتلقى.. ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ﴾ مما يدل أن الكلمات المتلقاة هي نهاية التوبة لا بدايتها: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ﴾.

فقد اشتغل آدم منذ الخطيئة في الجنة بالتوبة قبل الأمر الأوّل وبعده حتى تاب الله عليه، وعلّ الأول ما كان فورياً دون مهلة وكما في طه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا... ﴿١٢٣﴾﴾[4] مما يوحي أن أمرهما الخاص بالهبوط بعد ما أمر إبليس حين أزلهما، وبعد ما تاب عليه ربه وهدى، وكمال التوبة كان بتلقي الكلمات بعد الأمر الأوّل الجماعي بالهبوط هنا، وكأنه يقول أنتما بعد قليل وتحقيق التوبة هابطان مع الشيطان، إذاً فلا عصيان ثانياً لآدم وزوجه، وإنما إبليس هو الذي عصى ربه لحد الآن مرتين - مرة إذا استكبر عن السجود

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٤.
(٢) سورة طه، الآية: ١٢٣.
(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ٢٣ - ٢٤.
(٤) سورة طه، الآيات: ١٢١ - ١٢٣.

لآدم ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾(١) وأخـرى إذا أمـر مـع آدم وزوجه إذ أزلهما، إذ كان أمره غير أمرهما، حيث هما كانت لهما مهلة تحقيق التوبة دونه، أو أن التأكيد لأجل التكرار حيث ظنا أن توبتهما نسخت الأمر بالهبوط فأعاده الله تدليلاً على أن الهبوط لزام العصيان ولو بعد التوبة، ولأنه خلق خليفة في الأرض لا في السماء!.

ومهما يكن من شيء فالأمر الأخير بجماعية الهبوط يحمل تحقيقه تكويناً بجانب ما يحمل إيجابه تشريعاً، مهما كان آدم وزوجه مطيعان والشيطان عاصياً!.

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾: من الجنة بما يشقى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾(٢).

وقد خرجا من بعض ما فيه ﴿وَلَا تَعْرَىٰ﴾ وهما بعد فيها، حيث نزع عنهما لباسهما ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾(٣) ولكن لم يسمح لهما، حيث ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ دون «خصفا» كما وأن الخروج مما فيها يقتضيه، إذ لا يخص بالخروج عنها، وإنما ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ ومنه لباس الجنة ورقاً وسواه، فقد بقيا عريانين حتى أهبطا، وقد تابا عريانين منكسرين، وإنه أحرى بحالة التوبة وأجدى.

٥ - ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا﴾(٤) تـوحـي أن لولا وسوسة الشيطان بذوق الشجرة لم تبدو لهما سوءاتهما أبداً، إذ كان لباس الجنة لهما لزاماً، كما ألبساه منذ خلقا وأدخلاها، فظهور السوأة كان

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣.
(٢) سورة طه، الآيتان: ١١٨ - ١١٩.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٢.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٠.

مقصوداً للشيطان نكاية بآدم وزوجه، أنكما تحملان سوءات في أبدانكما، وأخرى في أرواحكما حيث عصيتما ربكما فلست أنا العاصي فقط وأنتما مطيعان! فهذا عصيان بعصيان وأي فرق بين عصيان وعصيان؟ فطالما أنا عصيت ربي إن لم أسجد لك، فأنت عصيت ربك فيما أنعم عليك من الجنة، أم ماذا من أهداف أضاليل.

فالشيطان بخيله ورجله يحاول دوماً بخطواته أن يضم إلى حزبه من عباد الرحمن لكي لا يبقى وحده مرذولاً مدحوراً.

ومن ثم كان لظهور السوأة هذا أثره في آدم وزوجه، أن يأخذا حذرهما في الحياة الأرضية، ويتأكدا من ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾[1].

فعلى الإنسان أن يلتزم لباس التقوى الذي يستر على العورات والسوءات كلّها: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾[2].

وما لم تظهر السوءات لا يندفع أصحابها لسترها أو علاجها، فقد كانت بلية الجنة لآدم وزوجه درساً للأجيال كلها: كيف عليهم أن يعيشوا معركة الحياة الأرضية، ولكي يرجعوا إلى الجنة على ضوء الصالحات في معتركات الحياة، حيث الجنة دون كدح وعمل ليست بالتي ترضي الضمير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾[3].

٦ - لماذا ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ دون «فتشقيا» في ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ

(١) سورة طه، الآية: ١١٧.
(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ٢٦ - ٢٧.
(٣) سورة الانشقاق، الآية: ٦.

فَتَشۡقَىٰٓ﴾[١]؟ كما و﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴿١٢٠﴾﴾[٢] رغم أنهما معاً منهيان وقد حذّرا معاً عن غرور الشيطان، وأكلا معاً منها فهما في هذا المسرح على سواء ولماذا يختص آدم بالحظر عن عقبات هذا العصيان، وهما معاً منهيان: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا﴾، كذلك وظالمان عند العصيان ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾[٣] فهل يا ترى أن الظلم العصيان منهما يخص بخلفياته - فقط - آدم دون زوجه و﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾[٤].

أقول: هما متشاركان في الظلم والعصيان والخروج مما كانا فيه والهبوط عن الجنة: ﴿فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ﴾ ولكنما العبء في الحياة الأرضية وشقائها وجوعها وعراها وظمئها وضحاها، إنها كلها تتوارد على الذكران قبل الإناث وأكثر، حيث هن يعشن على هامش أتعابهم، فعليهم مطاردة هذه الشقاء وحمل هذه الأعباء لا لأنفسهم فحسب، وإنما لأزواجهم وأمهاتهم وبناتهم أيضاً كما يتحملون لأنفسهم، بل وقد يفضلونهن عليهم حيث ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾[٥] و﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[٦].

ففي الحياة الأرضية للرجال ضعف وأضعاف ما للنساء من أعباء وشقاء.

٧ - ولماذا ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ... فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ دون «تلقيا.. فتاب عليهما» وهما معاً عاصيان تائبان ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾[٧]؟

(١) سورة طه، الآية: ١١٧.
(٢) سورة طه، الآيات: ١١٨ - ١٢٠.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.
(٥) سورة الروم، الآية: ٢١.
(٦) سورة النساء، الآية: ٣٤.
(٧) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.

ذلك لأن آدم هو الأصل وهي الفرع، طوي عن ذكرها هنا حيث التلقّي وحي وهي محرومة عنه، وإنما تتلقى منه بعد ما تلقى، ثم هي التائبة على هامشه، وكما أن عبء الحياة الدنيا عليه دونها ﴿فَتَشۡقَىٰٓ﴾!

٨ - كيف التلاؤم في ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ بين «إن» الشرطية الدالة على الشك والترديد، وبين «ن» التأكيد التي تؤكد مدخولها؟

في الحق أن ﴿إِنَّ﴾ لا تعني بنفسها ترديداً، وإنما شرطاً يلائمه كما يلائم التحقيق وهنا التحقيق مستفاد من نون التأكيد والشرط يفيد مفاده، فـ«إن» يأت مني هدى وهو «ما يأتينكم» - ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾.

٩ - وترى كيف ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾[(١)] وشقاء الحياة الدنيا شاملة لعائشيها، بل هي للمؤمن أشقى وأنكى، كما أن خوفه وحزنه فيها واقعان على ما يرى من ظلامات وتخلفات عن شريعة الله؟ فمهما ﴿لَّا يَضِلُّ﴾ ولكنه يخاف ويحزن ويشقى.

ولكنما الشقاء في الحياة الدنيا، منها مشتركة بين المؤمن والكافر، لأنها لزام الحياة الدنيا، ولكنها للمؤمن مجبورة بما تستقبله من راحة الحياة الأخرى، ثم وشقاء فيها تخص المتخلفين عن شرعة الله: التي تخفف كثيراً من أتعابها، ولو طبِّقت تماماً لأصبحت الحياة الدنيا الشقاء رحمة كلها كما الجنة سواء، فالمؤمن في هاتين الشقاءين برحمة وراحة نسبية في الأولى وحقيقية في الثانية: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ وأما الكافر: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾[(٢)]

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٣.

(٢) سورة طه، الآية: ١٢٤.

فضنك المعيشة في الحياة الدنيا هو لزامُ الكافر قدر كفره وراحتها - رغم أنها دنيا - هي لزام المؤمن قدر إيمانه، فليس الإيمان بالذي يعمّر - فقط - الحياة الأخرى، بل إنه يجمع تعمير الحياة الدنيا إلى الأخرى، كما الكفر هو ضنك فيهما.

وأما ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فهو مما يستقبلهم في الأخرى فإنهم آمنون فيها، وأما ما يخوفهم أهل الدنيا في نفس أو مال أم ماذا، فإنها ليست بالتي تخوفهم ما داموا في مسيرهم إلى الجنة المأوى.

ثم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى، مما قدموه في سبيل الله أو فات عنهم من زخرفات الحياة وزهراتها، فما قدموه يقدمهم إلى الحسنى فلماذا يحزنون؟ وما فات عنهم يخفف عنهم ثقلهم فلماذا يحزنون: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[1].

وأما الكافر فهو يعيش دوماً بين حزن لما فاته وخوف عما يستقبله ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[2]!.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3] ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[4] ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[5] ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[6].

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٣.
(٢) سورة طه، الآية: ١٢٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١١٢.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٣٥.
(٥) سورة يونس، الآية: ٦٢.
(٦) سورة الأحقاف، الآية: ١٣.

فأتباع هدى الله، بإسلام الوجه لله، وبالإصلاح وتقوى الله، ممن قالوا ربنا الله ثم استقاموا من أولياء الله، هؤلاء الأكارم: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾!

على هامش القصة:

هنا آيات توراتية مختلقة، وروايات أمثالها تسربت وترسبت في روايات إسلامية تشوّه وجه القصة إلى خلاف العقل والعدل، نضربها عرض الحائط حفاظاً على كرامة الوحي وذوداً عن ساحة الربوبية والرسالة، ومن التوراة:

(تكوين ٢: ١٦ - ١٨) و(٣: ١ - ٢٦): وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها شيئاً لأنك يوم تأكل منها تموت موتاً -.

فقالت الحية (يعني إبليس) للمرأة (حواء) أحقاً قال الله: لا تأكل من كل شجر الجنة؟ فقال المرأة: نأكل منها إلّا التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا. فقالت الحية: لن تموتا بل الله عالم أنه حينذاك تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر. فأكلها آدم مع زوجه فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان. فخاط أوراق طين وصنعا لأنفسهما مآزر وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط الجنة فنادى الإله أين أنت؟ فقال آدم: سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت، فقال: كيف علمت أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة؟ فقال: المرأة ابتلتني، فقال: وأنت لماذا؟ فقالت: الحية غرتني... فقال للحية... وقال للمرأة: أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولاداً... وقال الرب الإله له: هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر والآن يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة ويأكل ويحيى إلى الأبد فأخرجه من جنة عدن...»!

وافضيحتاه من هذه الآيات المقحمات في التوراة فأكثرها خرافات هراءات خارجة عن حدّ التصليح إلى مطلق التزييف، حيث تجهّل الرب وتعجِّزه وتعدِّده وتمثّله بعبيده وتغلّب عليه كيدهم، وكل من له أدنى معرفة بالإلهيات يزيّف هذه العبارات المجنونة المتناقضة، دون حاجة إلى إجابات!

ثم انظر إلى الذكر الحكيم والقرآن العظيم كيف يهيمن على ما بين يديه من كتاب، فيزيف زيف ما أقحم فيها، ويصدّق صدق ما تبقّى والله من وراء القصد.

﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ في القرآن هم «بني يسرائل - أو يسرائيل» في التوراة العبراني فـ: «يسرا» - هو «عبد» و«ئل» أو «ئيل» هو «الله»: عبد الله، وهو يعقوب بن إسحاق رأس السلسلة الإسرائيلية، وأين إسرائيل القرآن من إسرائيل التوراة، إذ تفسره بمن صارع الله فصرعه فأخذ بركة النبوة منه حتى خلّصه![١].

تُذكر إسرائيل (٤٣) مرة في سائر القرآن في ١٨ سورة: ١١ مكياً (٢٣) آية وفي ٧ مدنيات (٢٠) آية.

(١) راجع كتابنا «المقارنات العلمية والعقائدية بين الكتب السماوية».

فبنو إسرائيل هم أكثر الأقوام ذكراً وقصصاً في العهدين: المكي والمدني - رغم أن القرآن المكي لم يعش وسطاً يهودياً في مكة وإنما هو المدني.

لذلك لا نجد خطاباً لهم بين المكية الـ: **٢٣** - إلّا مرة واحدة: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ﴾(١) ولكنها أيضاً لا تخاطب الموجودين إذ لم يكونوا في مكة، وإنما هي حكاية حال ماضية: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾(٢) . . . ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ﴾(٣) . . ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾.

ومما يلاحظ أن طريقة عرضهم في العهد المكي يختلف عن المدني، فلا يعني العرض المتواصل إلّا تثبيت القلة المؤمنة في مكة بعرض تجارب من الدعوة وموكب الإيمان الواصل منذ أول الخليقة، وتوجيه الكتلة المسلّمة بما يناسب ظروفها في مكة، اعتباراً من وسط الأمة الإسرائيلية التي هي أولى الأمتين العظيمتين الحاملتين الشرعة الأصيلة الإلهية المترامية الأطراف: هما شريعة التوراة والقرآن، ولتعتبر الأمة المسلمة عما مضت من حوادث وكوارث وعراقيل في سبيل الدعوة والداعية.

لا نجد في العهد المكي تنديداً ببني إسرائيل إلّا قضاءً تحكي عن ماضيهم: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾(٤) إيقاظاً للمسلمين ليأخذوا عنهم حذرهم في العهد المدني وعلى طول الخط، ثم وفي «٢٢» آية أخرى ليس إلّا عرضٌ لـ: كيف أرسل موسى بالبينات، وواجه فرعون وملأه، ونجى بني إسرائيل الأذلّين وجعلهم أعزة، وأورثهم

(١) سورة طه، الآية: ٨٠.
(٢) سورة طه، الآية: ٧٧.
(٣) سورة طه، الآية: ٩٠.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٤.

كتاب الدعوة، وليثبت المسلمون ويصمدوا وهم قلة أذلة! وجاه المشركين الكثرة الأعزة! ويعلموا أن الله هو ناصرهم و: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(١) ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢)!.

ثم في العهد المدني تأخذ الآيات في تأنيبهم وتأديبهم، مذكرة الجماعة المسلمة بكيدهم وميدهم، وأنهم أضل الأقوام وحتى من الذين أشركوا: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾(٣).

فلا نجد أمة قبل الإسلام أكثر نعمة منهم، وأخطر على المسلمين نقمة، فرغم أن الله فضلهم على العالمين، ونجاهم من عدوّهم فرعون، وابتعث فيهم نبيين، نراهم ألدّ أعداء الإسلام والمسلمين، وأشدهم ضغائن على رسول الإسلام، رغم ذكراه ﷺ المتكررة في التوراة!.

هنا في نيف ومائة آية وفي سائر القرآن أمثالها تذكر النعم التي حباهم الله إياها، والكفران والنكران الذي واجهوه وجاهها.

فهنا - وبعد عرض خلافة الإنسان وقصة الشيطان ومصيرهما - يبتدئ من هذا المقطع بمواجهة بني إسرائيل، الذين واجهوا الدعوة الإسلامية بشراسة نكراء، حيث قاوموها وكادوا لها بألوانها منذ بزوغها وحتى الآن، معركة شعواء تشنّها اليهود القوميون العنصريون على الرسالة الإسلامية منذ ذلك التاريخ البعيد، ضاربة إلى أعماق التاريخ في كلّ الأجواء والأرجاء وحتى اللحظة الحاضرة.

معركة لا تتغير جذورها عبر الأجيال مهما تغيرت شكلياً، رغم أنهم في

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.
(٢) سورة المنافقون، الآية: ٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٩٦.

تشردهم عبر القرون ما وجدوا من المسلمين إلّا صدوراً حنونة، أو قلة أذىً مهما هم آذوهم كثيراً، فكان من المترقب أن يسبقوا غيرهم في الإيمان بهذه الرسالة الجديدة، ولكن كانوا أوّل كافر به وشروا بآيات الله ثمناً قليلاً.

هنا - وبعد استنفاد كافة وسائل الدعوة معهم - يذكرهم بما منّ عليهم، ويهددهم بمخلّفات تمرُّدهم دنيا وعُقبى، ويصارح بمدى جهلهم وتجاهلهم القِيمَ، وتصلُّبهم على الفوقية العنصرية.

يبدأ بنداء حنون تذكرهم فيها بما أنعم عليهم، وتأمرهم بالوفاء بعهد الله والرهبة من الله، والإيمان بما أنزل الله، وتنهاهم عما حرم الله علّهم يهتدون.

فليست قصة بني إسرائيل وأضرابهم في قصصهم أحاديث تتكرر طيّات القرآن لغرض قصّ التاريخ، وإنما تذكيراً لأصحابها وأضرابها، وتحذيراً أو تبشيراً للوسط الإسلامي في كافة الأجواء والأرجاء.

وما أحوج الأمة المسلمة إلى درس قصص الأمم الغابرة فإنها الأمة الأخيرة التي تضرب إلى نهاية الكون، فعليها - إذن - أن تتملّى من هذه التوجيهات دراسات متنوعة بعيون متفتحة لتخوض معتركات الحياة مع أعدائها التقليديين، وكيف ترد على المكائد اللئيمة التي توجَّه إليها بأخفى الوسائل وأمكر الطرائق.

فهذه جولة جوّالة مع بني إسرائيل - وهم أعرق الأمم طوال التاريخ الرسالي - نعيشها في تاريخنا المجيد، ولكي نحيد من تخلفاتها، ونستفيد من: كيف ابتدأت الرسالة الموسوية وواجهت عدوّها الفرعوني اللدود، فكل حال ابن ماضيه وفي الإسلام المزيد!.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾:

﴿بَنِيٓ﴾ جمع «ابن»: الولد الذكر، إلّا إذا أضيف فيعمّه والأنثى كما هنا، وفي إضافتهم إلى إسرائيل إيحاء بعبودية معمّقة في يعقوب جدّهم، فإسرائيل هو عبد الله، وإيحاء ثان، لشرف هذه النسبة وكرامتها فليرجعوا إليها - وهم أحرى - فالحسنة من بيت النبوة أحسن وأجدى، كما السيئة منها أنكى وأردى، فليحذروا السوء وهم بنو أنبياء!.

وهذا الخطاب الحنون يضم ذكرى النعمة الإلهية الخاصة لهم، ومن ثم الأمر بالوفاء بعهد الله حتى يوفي بعهدهم، ثم ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾.

وترى ما هي هذه النعمة القمة الذكرى، وما هما العهدان، والرهبة التي تخلِّف النعمة والعهد؟.

توحي ﴿نِعۡمَتِيَ﴾ بوحدة النعمة، أو أنها على كثرتها من نوع واحد، وأنها نعمة خاصة ربانية تفوق النعم المادية التي تعم المنعمين أيًّا كانوا وأيّان، فهل هي تفضيلهم على العالمين، وهي قرينة معطوفة عليها؟: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(١).

أم هي النجاة من آل فرعون: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾(٢).

وما النجاة من فرعون إلّا نعمة سلبية تعبِّد الطريق لظهور الرسالة الإلهية التي هي النعمة القمة!

أم هي هي الرسالة المتوطِّدة فيهم منذ إسرائيل إلى عيسى عليه السلام وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، طيّات قرون رسالية مشرقة تترى، تتوسطها شريعة

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٤٧، ١٢٢.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٦.

التوراة، مبتدأة بجذورها من إسرائيل، ومكتملة بموسى ﷺ ومهيمنة بكتابات هامشية للتوراة من الرسل الإسرائيليين إلى المسيح ﷺ حيث الإنجيل دعوة توراتية في شريعة الناموس، مهما تضمنت توجيهات أخلاقية تربو على التوراة؟: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]؟.

لا نجد نعمة لهم أنعم من هذه النعمة القمة: الجمع بين النبوة والملك، نعمة واحدة في اتجاهها، متعددة في بنودها وحدودها، حيث تنحو منحى تحقيق الرسالة وتطبيقها.

وترى أنها تختلف عن تفضيلهم على العالمين إذ قرنت بها وعطفت هي عليها، ولا تفضيل فضيل إلّا على ضوء فضيلة الرسالة الإلهية!

أقول: إن تفضيلهم على العالمين نعمة تعمّ الرسالة والملوكية، وأنهم أوتوا ما لم يؤت أحد من العالمين، وما سواها من نعم في سلبية النقم وإيجابية الرحمات التي عبّدت الطريق للرسالة الإسرائيلية.

فهذه نعم لتعددها، وهي نعمة لوحدة جذورها واتجاهاتها، ولا نجد أمة منذ آدم حتى المسيح جمعت لها ما جمعت لبني إسرائيل من نعمة، وهم المعنيون من ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: عالمي تاريخهم حاضراً وغابراً، دون الأمة الإسلامية السامية المفضّلة على العالمين في مثلث الزمان، في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، وهذه الأمة المجيدة التي حباها الله الخلافة والرسالية الخالدة، إذ سلبها عن بني إسرائيل.

أترى إذ أنعم الله على السابقين من بني إسرائيل، فكيف يمتنُّ بها على الحاضرين وقد أخذت عنهم نعمة الرسالة وحوِّلت إلى نبيٍّ إسماعيلي؟

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٠.

أقول: لأن نعمة الرسالة المحمدية أكثر وأوفر من الرسالة الإسرائيلية، فهي لهم نعمة بعد نعمة، فليقبلوا إلى هذه الرسالة شكراً لما أنعم عليهم من الرسالات السابقة المبشّرة بها، فذكر هذه النعمة السابقة السابغة يدفعهم للتنعُّم باللّاحقة، لأنها نعمة تحمل البشارة بهذه النعمة!

ثم ترى ما هو عهد الله عليهم حيث يناط بعهدهم عليه؟ عهد وجاه عهد، ووفاء وجاه وفاء؟

أهو العهد الأوّل المعقود بين فطرة الإنسان وبين الله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ... ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[1] أن يوحّده ويعبده وحده لا شريك له؟ عهدٌ مشدود إلى الفطرة، لا يحجبه أو يفصله إلّا حجابات الانحراف والغواية العامدة؟

أم هو العهد المعقود على آدم وذريته إذ أهبطه وزوجه إلى الأرض: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهما عهدان يعمان نوع الإنسان دون اختصاص ببني إسرائيل، وهما أمّ العهود التي تؤخذ على مختلف الأمم مهما اختلفت صيغها، حيث تنحو منحى أصلي الفطرة والشريعة: عهد ذاتي وآخر خارجي يتجاوبان في تحقيق أوامر الله..

أو هو العهد المأخوذ على النبيين؟ والمخاطبون هنا ليسوا النبيين، وإنما بنو إسرائيل!

أو هو العهد المأخوذ على أهل الكتاب وبنو إسرائيل هم القمة بينهم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[2] ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.

بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾[١] ﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ﴾[٢] ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[٣] . . مواثيق عليهم تلو بعض، تنحو منحى تصديق النبيين، ولا سيما النبي الإسماعيلي الذي نقموا منه وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾[٤] ﴿. . . ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[٥].

هذا هو العهد البارز المعروف عندهم، المأخوذ عليهم وعلى النبيين أجمعين: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[٦] ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا

(١) سورة المائدة، الآية: ١٢.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٩٣.
(٤) سورة البقرة، الآيتان: ١٤٦، ١٤٧.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٢٠.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾(١) ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ . . . فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾(٢).

فـ ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾ إيماناً بهذا الرسول النبي الأمي ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾: لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات.. الرحمة المكتوبة للذين آمنوا: الفلاح..: فلاحاً في الرحمة ورحمة في الفلاح بعد تكفير السيئات.

وقد يعني هذا العهد مجموعة العهود العامة والخاصة المأخوذة عليهم كمكلفين - موحدين - أهل الكتاب - بني إسرائيل، والقدر المسلم عهد الرسالة الإسلامية كما يبرز هو فقط بعد هذه الآية دون فصل: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ. . .﴾! ولا تنافيه وحدة العهد ﴿عَهْدِى﴾ حيث الكل واحدة في الاتجاه مهما اختلفت في صيغها وشكلياتها، على أن عهد الرسالة الإسلامية هو العهود كلها، حيث يجمعها - كأكملها - كلها، وسوف تمر عليك البشارات الكتابية بحق الرسول محمد ﷺ بطيّات آياتها.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾ الذي عاهدته عليكم، فإن وفيتم ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ الذي عاهدته لكم: ﴿. . . لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ . . . فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ . . .﴾(٣) وذلك بعد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ . . .﴾(٤)!

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧، ٨.
(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٦، ١٥٧.
(٣) سورة المائدة، الآيتان: ١٢، ١٣.
(٤) سورة المائدة، الآية: ١٢.

وطالما الخطاب الظاهر هنا لبني إسرائيل وفي إطارات خاصة ولكنه كضابطة عامة تعم كافة العهود المأخوذة على الأمم والأفراد، المقابلة لما أخذه الله على نفسه جزاء لهم، فلا وفاء من الله لعهودهم إلّا بعد أن يوفوا له عهوده.

فليست عهود الله ووعوده فوضى تلعب بها الأهواء والآمال، وإنما الأعمال هي التي تحدّد حدود تحقيق الوعود في كافة المجالات، فلئن سئلنا عن قول الله ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾(١) أنّا ندعو فلا يستجاب لنا؟ قيل: لأنكم لا تفون بعهده، وأن الله يقول ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ «و الله لو وفيتم لله لوفى الله لكم»(٢).

وعهده هنا هو الالتزام بطاعته، دون الشيطان: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦١﴾(٣) فعلى غرار وفائنا يكون وفاؤه جزاء وفاقاً، دون فوضى يأملها البطالون ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(٤)!

فالله وفيٌّ يحب الأوفياء ويكون عند طلباتهم إن كانت صالحة تصلحهم أو لا تضرهم، ولا يحب الناقضين اللّعناء مهما كانت ادعاءاتهم الهاوية الخواء.

وكل وفاء تتطلب وفاءً مثلها وفي إطارها، إن في توحيد الله، أو تصديق أنبيائه أو أوصيائهم(٥) أو في تطبيق أحكام الله أم ماذا؟

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.
(٢) نور الثقلين ١: ٧٣. عن تفسير القمي بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام قال له رجل: جعلت فداك إن الله يقول:..
(٣) سورة يس، الآيتان: ٦٠، ٦١.
(٤) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٥) نور الثقلين ١: ٧٣ عن أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ [البقرة: ٤٠] قال: بولاية أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿أوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠] «أوف لكم بالجنة» =

فكما ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(١)] مهما كان عهد الإمامة في النبيين حيث موقعها في ابتلاء إبراهيم، ولكنها في وجهة أخرى تعم كافة العهود وكل الظالمين، فالذين يظلمون وينتقصون عهود الله، لم يكن لينالهم عهودهم من الله، قاعدة عامة تعيش حياة التكليف ككل، وكذلك و﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ تعم في تأويله وعموم لفظة كافة العهود، مهما خص خطابه بني إسرائيل، فإنما العبرة في الخطابات القرآنية عموم الألفاظ دون خصوص الموارد.

= أقول: وهذا من باب الجري والتطبيق لا التفسير، حيث الآية تعني أولاً بني إسرائيل، ومن ثم عامة المكلفين في عامة التكاليف، والولاية هي على هامش النبوة فعهدها هي عهدها.
وفيه أيضاً عنه عليه السلام يا خيثمة! نحن عهد الله فمن وفى بعهدنا فقد وفى بعهد الله ومن خفرها فقد خفر ذمة الله وعهده. وفيه عن معاني الأخبار بإسناده إلى ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أنزل الله عز وجل ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] والله لقد خرج آدم من الدنيا وقد عاهد قومه على الوفاء لولده شيث فما وفي له، ولقد خرج نوح من الدنيا وعاهد قومه على الوفاء لوصيه سام فما وفت أمته، ولقد خرج إبراهيم من الدنيا وعاهد قومه على الوفاء لوصيه إسماعيل فما وفت أمته، ولقد خرج موسى من الدنيا وعاهد قومه على الوفاء لوصيه يوشع بن نون فما وفت أمته، ولقد رفع عيسى ابن مريم إلى السماء وقد عاهد قومه على الوفاء لوصيه شمعون بن حمون الصفا فما وفت أمته، وإني مفارقكم عن قريب وخارج من بين أظهركم ولقد عهدت إلى أمتي في علي بن أبي طالب، وإنها (الأمة) لراكبة سنن من قبلها من الأمم في مخالفة وصيي وعصيانه، ألّا وإني مجدد عليكم عهدي في علي ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠] – أيها الناس! إن علياً إمامكم من بعدي وخليفتي عليكم وهو وصيي ووزيري وأخي وناصري وزوج ابنتي وأبو ولدي وصاحب شفاعتي وحوضي، من عصى علياً فقد عصاني ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع علياً فقد أطاعني ومن أطاعني فقد أطاع الله عز وجل، أيها الناس! من ردّ على علي في قول أو فعل فقد رد عليّ، فمن ردّ عليّ فقد رد على الله فوق عرشه، أيها الناس! من اختار منكم على عليّ إماماً فقد اختار عليّ نبياً، ومن اختار عليّ نبياً فقد اختار على الله عز وجل رباً، أيها الناس! إن علياً سيد الوصيين وقائد الغرّ المحجلين ومولى المؤمنين، وليه وليي ووليي ولي الله وعدوّه عدوّي وعدوّي عدوّ الله عز وجل، أيها الناس! أوفوا بعهد الله في علي يوف لكم بالجنة يوم القيامة.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾: - ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[1] فوفاؤه تعالى بعهده لهم منوطٌ بعد ما مضى بأن يرهبوه لا سواه، كما وأن التوراة فِي نُسْخَتِهَا ﴿هُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾[2] رغباً ورهباً مستجابة شريطة المصالح الواقعية: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[3].

والرهبة مخافة مع تحرُّز واضطراب، وهكذا يجب أن يخاف الله من عدله وظلمنا، وفضله وجهلنا، لا من ظلمه فإن الله ليس بظلام للعبيد!

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ حصر الرهبة في الله، أن يخاف الله - فقط - دون سواه - فـ «من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء»[4].

وترى ما هو موقف الفاء والنون في: ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾؟.. علّ الفاء عاطفة لمدخولها على محذوف من شكله - إذ لا شاهد لغيره - كـ «إياي ارهبون فارهبون» إيحاء إلى استمرارية الرهبة، تعقيباً زمنياً، وتكاملها رتيباً: أن يعيش الإنسان رهبة من الله لا سواه، ويتخطاها إلى أقوى فأرقى.. وهكذا يجوز اجتماع عاطفين في جملة واحدة، حيث الواو لعطف المحذوف على المذكور، والفاء هنا لعطف المذكور على محذوف من جنسها، وما أحسنه جمعاً في عطف وعطفاً في جمع!.

والنون ليس نون الجمع لمكان كسرها والأمر فليحذف نون الجمع جزماً، بل هي نون الوحدة، الدالة بكسرها على يائها: «فارهبوني».

(١) سورة النحل، الآية: ٥١.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٤.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.
(٤) عيون أخبار الرضا عن الإمام الرضا عليه السلام.

إذاً فهنا حصرٌ بتقديم المفعول: ﴿وَإِيَّٰيَ﴾ وتأكيد أن له بتكرار المفعول «ني» والفعل: «ارهبون فارهبون» فهي أكثر من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1].

وفيه إيماءٌ إلى ما كان البعض من الأحبار يرهبون من بعض رهبة النكسة الروحية الإسرائيلية، ومن الفراعنة رهبة الفرعنة، ومن الأثرياء رهبة الفقر، فهم كانوا في ثالوث الرهبة من غير الله، فليتركوه إلى مثلث الرهبة من الله!

فذكر نعمة الله والوفاء بعهد الله وحصر الرهبة من الله، أنها تتبنّى الإنسان - أيًّا كان - وفيًّا نقياً زاهداً تقياً يعيش مرضاة الله، فيؤمن بالله ولا يكفر، ولا يلبس الحق بالباطل ويقيم الصلاة ويؤدي الزكاة ويركع مع الراكعين....:

﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾:

أمران يتوسطهما نهيان، أمرٌ بالإيمان بما أنزل الله أولاً وبتقواه أخيراً، ونهي عن أن يكونوا أوّل كافر بما أنزل، وأن يشتروا بآياتنا ثمناً قليلاً: سياج رباعي لا قبل له ولا سيما لمن ذكر نعمة الله، ووفى بعهد الله، ورهب الله! فالنهيان سياجان لتحكيم الأمر الأوّل، والأمر الأخير سياج للثلاثة: تقوى الله في الإيمان به وترك ما نهاه.

وهل إن ﴿بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ يخص القرآن، فإنه النازل من سماء الوحي، أم هو الرسول محمد ﷺ فإنه أيضاً نازل برسالته: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

﴿ٱلنُّورَۚ ⦗١١⦘﴾[(١)] حيث النزول هنا وهناك ليس من السماء، فإن الله ليس ساكن السماء وماكنها، وإنما من مقام علٍ، فكما القرآن نازل إلى أراضي القلوب من سموّ الربوبية وسماتها، كذلك الرسول نازل برسالته ووحيه، سواء حيث هما من علٍ إلى دانٍ.

وقد تتحمل الآية كلا النازلين، قرآن محمد ومحمد القرآن، مهما كان القرآن الوحي أصلاً، ومحمد ﷺ حامله فرعاً، حيث الدليل الأصل على رسالته هو القرآن، كما هو وحيه الأصيل.

فالقرآن يصدق ما معهم من كتب الوحي وأنبيائه، ومحمد ﷺ يصدق ما معهم من أنبيائه وكتب الوحي، فمحمد هو القرآن كما القرآن هو محمد مهما اختلفا في مظهرين![(٢)].

هنا ﴿بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾ وفي أخرى ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[(٣)] يعمّان الرسول والقرآن، وأما ﴿ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا﴾[(٤)] فإنها خاصة بالقرآن لمكان التنزيل: التدريج، ولا تدرّج لأصل الرسالة، ولكنما القرآن مُنْزَلٌ: لنزوله جملة واحدة ليلة القدر، ومنزّل أيضاً لنزوله متدرجاً نجوماً طوال الرسالة.

وترى ماذا يعني ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾؟ ومعهم خليط من وحي الأرض والسماء! فهل القرآن يصدقه كلّه: ﴿لِّمَا مَعَكُمۡ﴾؟ أم بعضه: الذي لم يحرّف بعد فـ«لبعض ما معكم» والنص ﴿لِّمَا﴾ لا «بعض ما»؟!

هناك آيات تصرح أن اليهود والنصارى حرفوا قسماً وأقساماً من آيات

---

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ١٠، ١١.
(٢) ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ [يس: ٦٩] هذه الآية من يس كما تأتي تجعل الرسول ذكراً وقرآنا مبيناً إذ لا مرجع لـ (هو) إلّا هو ولم يسبق ذكر من القرآن.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٩٠.
(٤) سورة النساء، الآية: ٤٧.

الـوحـي: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ... فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾(١) فكيف يصدق القرآن ما يكذبه من آيات توراتية أو إنجيلية دخيلة؟.

إذاً فليس القصد كلّ ما معهم، فهل هو - إذاً - ما معهم من آيات الـوحـي لا سـواهـا: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾(٢) فالمصدّق هو كتاب الله، لا كل كتاب ولا كل ما معهم؟ وإنما بعض ما معهم؟.

وليس في تصديق البعض لما معهم تحريضٌ على الإيمان به، فإن كلَّ لاحق - لا محالة - يصدق البعض من سابقه، إذ لا يمكن تكذيبه ككلٍّ وإن كان كلُّه من وحي الأرض!. بل ولا يستطيع أي كاذب محتال أن يجمع أكاذيب لا صدق فيها، فإنما يخلط كذباً بصدق، ويظهر كلًّا بمظهر الآخر بغية الإضلال: «فلو أن الحق خلص لم يكن للباطل حجة ولو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معاً فهناك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى» بل وحتى إذا حاولوا أن يجمعوا كذباً خالصاً لا يستطيعون!.

فترى إذاً لا يقصد من «ما معهم لا كله لمكان التحريف، ولا بعضه إذ لا يفيد فما هو المصدَّق إذاً؟.

أقول: إنه البشارات الموجودة في التوراة كما في آيات: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(٣) فقد كانوا من قبل

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٩.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

أن يأتي محمد بالقرآن يستفتحون على المشركين أنه يأتي بأقوى شريعة إلهية تقضي عليكم ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾.

فـ «ما معكم» هنا وفي ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾[(١)] وفي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾[(٢)]. إنها - فقط - البشارات المودوعة في كتب السماء، ثم وفيما يعني الأعم منها وسائر آيات الوحي لا نجد «ما معهم» أو «معكم» بل ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[(٣)] و﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[(٤)] ولا يعني بين يدي الرسول كرسول إلّا ما أنزل قبله على من سبقه من الرسل، وقد يشير إلى ما معهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[(٥)] ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[(٦)].

وقد جمعنا في مولف خاص ما معهم من بشارات بحق الرسول الأعظم محمد ﷺ[(٧)] نستعرضها في مجالاتها حيث تشير إليها الآيات، وهنا مجالٌ لاستعراض مواصفات القرآن في كتب السماء.

ف ﴿بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ له وجهتان: عامة تشمل عموم القرآن، وخاصة تخص ببشارات للرسول ﷺ فالقرآن ونبيه مبشّر بهما على سواء في كتب السماء.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٩١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٩٧.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.
(٧) رسول الإسلام في الكتب السماوية وفيه ٥٩ من بشارات الوحي فراجع.

فمن العامة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾[(١)]: ذلك القرآن هو الكتاب الذي بشر به من قبل: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾[(٢)].

وإليكم نموذجاً من هذه التي كانت في التوراة ولعبت بها أيدي التحريف والتجديف - مواصفات للقرآن كما في الأصل العبراني من كتاب اشعياء - ٢٨: ٩ - ١٤.

«إتْ مِيْ يُورِهْ دِعاهْ وِإتْ مِي يابِيْن شِمُوعاهْ غِكمولِي مِحالابْ عِتْيِمِّي مِشّادايم (٩) كِي صَوْلا صاوْ صَولا صاوْ قَولا قاوْ قَولاقاو زِعير شام زِعير شام (١٠) كِي بِلَعَجِي شافاه وبِلا شُون أحِرِتْ يِدَبَّرْ إلْ هاعامْ هَذَّه (١١) أشِر آمرْ إلِيهِم زِئُت هَمِّنُوحاه هانيحو لعايِف وزِئُت هَمِّرْجَعاه وِلا آبُوء شِمُوعْ (١٢) وهاياه لاهِمْ دِبَرْ يهُواهْ صَوْلا صاوْ صَوْلا صاوْ قَوْلا قاوْ قَوْلا قاوْ زِعِير شام زِعِير شام لِمَعَنْ يلخُو وِخاشْلُو آحُورْ ونْشبارُ وِنوقِشو وِنِلْكادُوا (١٣) لاخِنْ شِمْعُو دِبَرْ يِهُواهْ أنِشيْ لاصُون مِشْلِيْ هَاعَامْ هَذّهْ أشِرْ بيرو شالام (١٤):».

«لمن تُرى يعلم العلم ولمن يفقّه في الخطاب للمفطومين عن اللبن للمفصولين عن الثدي (٩) لأنه أمرٌ على أمر، أمرٌ على أمر، فرضٌ على فرض فرض على فرض هنا قليل وهناك قليل (١٠) لأنه بلهجة لكناءَ وبلسان غير لسانهم يكلم هذا الشعب (١١) الذين قال لهم هذه هي الراحة فأريحوا الرازح وهذه هي الرفاهية فأبوا أن يسمعوا (١٢) لذلك سيكون كلام الرب لهم أمراً على أمرٍ، أمراً على أمرٍ فرضاً على فرض فرضاً على فرض هنا قليلاً وهناك قليلاً لكي يذهبوا ويسقطوا إلى الوراء فيحطَّموا ويصطادوا

(١) سورة البقرة، الآية: ٢.
(٢) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٣ - ١٩٧.

فيؤخذوا (١٣) لذلك اسمعوا كلام الرب يا رجال الهزء! ولاة الشعب الذي في أورشليم (١٤)».

إنها بشارات لطيفة للقرآن ونبيه، تصريحاً بلغته «بلسان غير لسانهم» أن نبياً غير عبراني يكلمهم بغير لغتهم، بقرآن نازل عليه نجوماً: «أمراً على أمر فرضاً فرض هنا قليلاً وهناك قليلاً» قائلاً لشعب إسرائيل: «هذه الراحة أريحوا الرازح: التعبان، وهذا هو السكون» ولكن...

فمن يصدّق - إذاً - بهذا النبي وبقرآنه، فقد صدق بسائر كتب السماء المبشّرة بهما، ومن يكذب فقد كذب بها أجمع، فالمسلم مسلم وموسوي ومسيحي حيث صدقهما في إسلامه، والكافر بالقرآن كافر بموسى والمسيح ومن بينهما، الذين بشروا به!

ف ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾!

وترى النهي يخص أوّلية الكفر به فلو كفروا به آخراً أو بعد آخرين فلا نهي؟!

كلّا - إنه نهي عن مطلق الكفر به أولاً وآخراً، وذكر الأوّل هنا إيماءُ تنديد، أنهم رغم ما كان عليهم الإيمان به قبل الآخرين، لأنهم كانوا ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[1] دون الآخرين ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾[2] فكانوا أوّل كافر به - هنا ينهون عما كفروا خلاف المترقب منهم نهياً عن واقع هو أفضح منكر فعلوه، كالنهي عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة: ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾[3]. إذ كانوا كذلك يفعلون، ف: لا تكونوا أوّل كافر بمحمد والقرآن، وبأنّ وصفه وكتابه في كتبكم مذكورة!.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٠.

فيا لهذا الكفر الأوّل من ضلال ذاتي وإضلال للآخرين، فإنهم يستدلون بكفر الأوّلين فلا يؤمنون، أن لو كان خيراً فليكونوا هم أوّل المؤمنين إذ كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم! وأهل البيت أدرى بما في البيت.

فقد منعوا هنا أن يكونوا قدوة في الكفر، فحجة للنفوس الضعيفة، رغم ما عليهم أن يكونوا أوّل المؤمنين، فقدوة للآخرين.

ثم الأوّلية المنهية هنا تعم الزمنية والرتبية، وقد جمعوا بينهما، فكانوا أوّل كافر به منذ أوّل المواجهة من العهد المدني، قبل أن يكفر به غيرهم من مشركين وكتابيين هناك، وكانوا كذلك أوّل كافر به في ألدّه وأشده، مهما كانت الأوّلية الزمنية في العهد المكي للمشركين حيث لم يكن هناك كتابيون، فهم أولاء كانوا الأوّلين والآخرين في الكفر المكي، وبنو إسرائيل هم الأوّلون زمناً في العهد المدني، ورتبة في المكي أيضاً وفي كلّ العهود، حيث لم يُعهد كفر أكفر من كفرهم وحتى الآن!.

ف ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ﴾ عليه وزره ووزر من كفر به إلى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أوزارهم، كما أن أوّل من آمن به له أجره وأجر من آمن به إلى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أجورهم، وكما ثبت عن النبي ﷺ: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أجورهم شيء ومن سنّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أوزارهم شيء».

﴿... وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾:

إنها آيات بيّنات في كتابات الرسل الإسرائيليين تحمل بشارات بالقرآن ونبيِّه اشتروا بها ثمناً قليلاً أن حرفوها بزيادة أو نقصان أو تحوير وتغيير، في التوراة والإنجيل وما بينهما من كتاب، كي لا يبقى أثر من محمد وقرآنه فيها، مغبة ثمن قليل وكلُّ ثمنٍ بجنب آيات الله قليل!: من أثمان مادية

يأخذونها من الأثرياء المستغلين، ومن معنوية يكتسبونها: بقاءً ومزيداً على مناصبهم الروحية الإسرائيلية، ومكانة عند الفراعنة والقياصرة، هؤلاء الذين يرون شريعة القرآن خطراً على كيانهم، ومكانتهم فيما بينهم من الربانيين والأحبار - أم ماذا!.

فهذه الأثمان كلها قليلة وجاه آيات الله، دون أن يعني ﴿قَلِيلًا﴾ هنا مقابل الكثرة إذ لا كثرة في أيّ الأثمان في هذه التجارة البائرة الخاسرة، حيث تبوء خواءً في الدنيا والآخرة!

هنا المثمن المباعُ هي آيات الله، والثمن ما يكسبونه بتحريف آيات الله، والثمن لا يشترى وإنما المثمن هو المباع والمشترى، فما هو التوجيه لكون الثمن هنا هو المشترى؟.

علّه أن الثمن هو المرغوب فيه دائماً مهما كان نقداً أم سواه، فالذي يُقدم ببيع ما عنده بما ليس عنده، ليس إلّا لرغبته فيما ليس عنده، مهما كان ما عنده مرغوباً فيه أو مرغوباً عنه.

فهؤلاء المحرفون آيات البشارات كانوا راغبين عنها إذ يرون فيها انقضاء النبوة الإسرائيلية، وهم يزعمونهم: شعب الله المختار! فإذ يجدون ثمناً عما لا يحبون فهم إلى هذه التجارة يجنحون، فاشتراء ثمن ببيع آيات الله يوحي بأنهم عنها إليه راغبون.

فليس الثمن والمثمن إلّا بمقياس الرغبة، حيث المرغوب فيه ثمن والمرغوب عنه أو المفضل عليه مثمن، ففي تبادل سلعتين تعتبر كل واحدة ثمناً ومثمناً باعتبارين، دون فرق بين المتاع والنقد، فقد يكون النقد أيضاً مثمناً كما يكون ثمناً.

وهنا - إذ كانت الرغبة - كل الرغبة - فيما يعتاضون به آيات الله المرغوب عنها أصبح العوض ثمناً يشترى والآيات مثمناً يُشرى.

ولأن ما رغبوا فيه قليلٌ بجنب آيات الله - أيّاً كان - فالنهي يستأصل هذه التجارة بكل أثمانها أنها قليلة!.

وقد يكون المثمن مرغوباً عنه ولا يكون الثمن مرغوباً فيه ولكنه أفضل من الثمن عنده، فهنا يشرى المثمن ولا يشتري الثمن وكما في يوسف عند إخوته: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾[(١)] دون واشتروا به ثمناً بخساً.

إنهم اشتروا بآيات البشارة - وهي عهد الله - ثمناً قليلاً: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[(٢)] خشية من الناس وتقاة: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ - ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[(٣)] خلافاً للميثاق الذي أخذ عليهم ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[(٤)].

تجارة خاسرة إسرائيلية إن اشتروا بآيات البشارات ثمناً قليلاً، رهبة من السلطات الزمنية، خشية من الناس وتقاة وحفاظاً على كياناتهم أحباراً ورهباناً، واستدراراً لما يُدرُّ عليهم من أموال[(٥)] فاشتروا هذه الأثمان القليلة بعهد الله وميثاقه الذي واثقهم به والنبيين.

فآيات البشارات كانت تباع حفاظاً على السلطات الإسرائيلية، وآيات

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٠.
(٢) سورة النحل، الآية: ٩٥.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٤.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.
(٥) نور الثقلين ١: ٧٣ مجمع البيان: روي عن أبي جعفر عليه السلام في هذه الآية قال: كان حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف وآخرون من اليهود لهم مأكلة على اليهود في كل سنة فكرهوا بطلانها بأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فحرفوا لذلك آيات من التوراة فيها صفته وذكره، فذلك الثمن الذي أريد في الآية.

العقوبات على الأغنياء والكبراء تباع حتى يأخذوا هم رواتبهم ولا تقع العقوبات على الأغنياء، وآيات الجزاء على الظلامات والفرعنات تباع حتى لا تمس من كرامة الفراعنة والقياصرة.. وهكذا كانت شنشنة الإسرائيليين القديمة وحتى الآن وأنهم كما يصرحون يرون: «إن الغاية تبرر الوسيلة» فيبرّرون التحريفات بغية الغايات.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

نهيان في استفهام إنكار وتنديد: عن لبس الحق بالباطل، وعن كتمان الحق: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1] فالحق المكتوم بغير لباس أو لبس الباطل لا يُلبس بالباطل، وإنما هو الحق الظاهر غير المكتوم يلبس بالباطل[2].

فكما أن لبس الحق الظاهر بالباطل محرم، كذلك كتمان الحق، فلا بدّ للحق أن يظهر بصورته وصيغته حتى يتبعه أهلوه، وللباطل أن يظهر كذلك حتى يجتنبه مخالفوه، فلا تخلطوا الحق بالباطل فتعمى مسائله وتشكل معارفه.

وهم في هذا المجال من التحريف والتجديف كانوا ولا يزالون يزاولون كتمان الحق إن استطاعوا أو تلبيسه بالباطل وتخليطه إذا ظهر، فقد حذفوا بشارات عن كتابات النبيين، وكتموا أخرى عن بُسطائهم، أو حرفوها بتلبيسها بالباطل، فيما كانت ظاهرة، أم علّها إذا ظهرت لا تدل على ما تدل، والقرآن يفضحهم في مواضيع شتى نتحدث عنها في طياتها.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧١.

(٢) فـ ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ [البقرة: ٤٢] هنا مجزوم بالعطف على ﴿وَلَا تَلْبِسُوا﴾ [البقرة: ٤٢] فتكرر لاء النهي والمعنى: ولا تكتموا الحق، لا أن تكون الواو حالية وتكتموا منصوباً بـ «ان» المقدرة، حيث الحق المكتوم لا يلبس بالباطل إلّا بعد ظهوره أو إظهاره.

و﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ﴾ قد تكون من اللُبس: التغطئة والتعمية خلاف الإيضاح، أو من اللَّبس الستر، الذي هو أيضاً من اللّبس، فقد كانوا يلبسون الحق بالباطل: ﴿لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ﴾(١).

تغطية للبشائر الواضحة بما يُعمي عليها من باطل التحوير والتغيير، أو ما يسترها عن الدلالة بتأويل: تغيير اللفظ أو تأويل المعنى، وهما باطلان يُلبس بهما الحق، ولكنما الحق وهو: الثابت عند الفحص - له دولة، طالما الباطل - وهو الزائل عند الفحص - له جولة.

تعال معنا إلى بشارات العهدين: عتيق التوراة وجديد الإنجيل، ترى عجباً من ذلك اللُّبس واللَّبس والكتمان الشامل، تجد تجديفاتهم وتحريفاتهم، بعد الفحص عن الآيات التي تحمل بشارات، وقد أفردنا بحثاً عنها في: «رسول الإسلام في الكتب السماوية» وفي التالي عرض لبعض نماذجها:

عمدوا إلى «محمد» في التوراة فحرفوه إلى غير محمد كما في: (هوشع ٩: ٥ - ٩) من قوله تعالى حسب النص العبراني:

«كي هِنِّيه هالِخُو ميشود ميصِرييم تِقَبصم موفْ تِقَبِرِم «محمّد» لِكسَفام قيموش ييراشِم حُوحَ باهاليهم (٦) بائوا يِمّي هَفِقوداه بائوا يِمِّي هَشَّلُوم يِدعو ييسرائل إويل هنابِئ مَشوكاع إيشْ هارُوحَ عَلْ رَبْ عَوُنِحا وِرَبّاه مسطماه (٧)».

ها إنهم يرتحلون لأجل الخراب، فمصر تجمعهم وموف تدفنهم و«محمد» لفضتهم والقرّاص يرثهم والعوسج يستولي على أخبيتهم (٦) تأتي أيام التمييز. تأتي أيام الجزاء سيعلم إسرائيل أن النبي السفيه ورجل الروح مجنون لكثرة إثمك وشدة الحنق».

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٣٧.

فـ «محمد لفضتهم» تصريحة بينة باسمه المبارك وأنه سوف يأخذ من فضتهم: أموالهم - جزية، وأن إسرائيل سيعلم أن هذا النبي - لكثرة إثمك وشدة الحنق - سوف يسفَّه ويجنّن وهو رجل الروح القدسي الرسالي. . .

ولكنهم حنقاً عليه وحمقاً منهم وإثماً به دخلوا في مربع من التحريف: «والقراص يرث فضتهم الشهية» - (٢) «يرث القريص نفائس فضتهم» - (٣) «الأمكنة المرغوبة لفضتهم» (٤) «بيت الأمل لفضتهم»! ترجمة للاسم العلم: «محمد» بوصف: الشهية - نفائس - الأمكنة المرغوبة - بيت الأمل ترجمات متضادة مع بعض، مضادة للأصل معنوياً وأدبياً.

فالأصل العبراني يقول: «موف تقبرم = موف تقبرهم - محمّد لكسفام = محمّد لفضتهم - قيموش يبراشم = القريص يرثهم! - حوح باهاليهم = يكون العوسج في منازلهم»!

وهذه الترجمات الأربع حذفت حروفاً أو أضافت أخرى، وقدمت كلمات وأخرت أخرى، حتى لبست حق البشارة بباطل لا يمتّ بصلة لبشارة.

فالترجمة الثانية جعلت «محمد» المفرد - جمعاً «محمديم» مضافاً - بحذف اللّام - إلى كسفام: «محمد يم كسفام»: نفائس فضتهم، والأصل «محمد لكسفام» وأسقطت ميم الجمع عن «يبراشيم» فأصبحت الجملة: «قيموش يبراش محمد يم كسفام» فترجمت بـ : يرث القريص نفائس فضتهم، وهم في عجالة التحريف نسوا أن يضيفوا ياء الجمع إلى محمد ويحذفوا اللام من «لكسفام» وميم الجمع من «يبراشم» فأصبحت الترجمة غلطة على غلطات!

وكذلك بقية الترجمات المفصلة بأخطائها في كتابنا: «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

فإذ قد نرى أنهم يعمدون إلى «محمد الرسول» في هذا النص ليحيدوه إلى غيره فماذا - إذاً بالنسبة لما لا يحمل اسمه الخاص!.

فويلهم إذ يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون حقه من باطله!

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾:

هل أمروا هؤلاء بالصلاة والزكاة حسب شريعة التوراة؟ وقد أُمروا قبله أن يؤمنوا بشريعة القرآن ولها صلاة وزكاة غير ما لها!

أم أمروا بهما حسب الإسلام وهم بعد لم يسلموا فلا يمكن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة إسلامياً قبل الإسلام، ولو أتي بهما كأعمال وأقوال فأين إذاً ركن النية المنوطة بقصد القربة؟.

في الحق إن الآية مما تدل على تكليف الكفار بالفروع كما هم مكلفون بالأصول، فيعذبون بتركها كترك الأصول ويُسألون: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾[(١)]، حيث يردف ترك الصلاة والزكاة - قدماً - على الخوض والتكذيب!

وأما أنهم لا يستطيعون الإتيان بهكذا فروع مشروطة بنية القربة والإسلام وهي مستحيلة قبل الإسلام؟ فهذا امتناع بالاختيار ولا ينافي الاختيار، حيث أمروا قبله بالإسلام ثم بفروعه، فإن أسلموا أمكن لهم الإتيان بهكذا فروع، وإن لم يسلموا تركوا الواجبين بما اختار والكفر!

فالصلاة الصلاة، الزكاة الزكاة أيها المسلمون، النصارى واليهود، أيها

(١) سورة المدثر، الآيات: ٤٢ - ٤٧.

الإنسان أياً كان: «لأن الصلاة الإقرار بالربوبية، وهو صلاح عام، لأن فيه خلع الأنداد والقيام بين يدي الجبار بالذل والاستكانة. والخضوع والاعتراف وطلب الإقالة من سالف الزمان، ووضع الجبهة على الأرض كل يوم وليلة، ويكون العبد ذاكراً لله تعالى غير ناس، ويكون خاشعاً وجلاً متذللاً طالباً راغباً في الزيادة للدين والدنيا، مع ما فيه من الانزجار عن الفساد، وصار ذلك عليه في كل يوم وليلة، لئلا ينسى العبد مدبره وخالقه فيبطر ويطغى، وليكون في ذكر خالقه والقيام بين يدي ربه زجراً له عن المعاصي، وحاجزاً ومانعاً عن أنواع الفساد»[١].

فليس الله في عز ربوبيته بحاجة إلى ذل عبوديتنا، إلّا ما يرجع إلينا من مصالح عقيدية - أخلاقية - فردية وجماعية، من إقام الصلاة، لولاها علها لم تجب! أو إذا وجبت فلقوام القيم النفسية امّا هيه.

و«علة الزكاة من أجل قوت الفقراء وتحصين أموال الأغنياء، لأن الله عزوجل كلف أهل الصحة القيام بشأن أهل الزمانة والبلوى كما قال الله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[٢] في أموالكم إخراج الزكاة وفي أنفسكم توطين النفس على الصبر مع ما في ذلك من أداء شكر نعم الله عزوجل ، والطمع في الزيادة، مع ما في ذلك من الزيادة والرأفة والرحمة لأهل الضعف، والعطف على أهل المسكنة، والحث لهم على المواساة وتقوية الفقراء، والمعرفة لهم على أمر الدين، وهو عظة لأهل الغنى وعبرة لهم ليستدلوا على فقراء الآخرة بهم، وما لهم من الحث في ذلك على الشكر لله عزوجل ما خوّلهم وأعطاهم، والدعاء والتضرع والخوف من أن يصيروا

(١) نور الثقلين ١: ٧٤ عن عيون الأخبار في العلل التي ذكرها الفضل بن شاذان عن الرضا عليه السلام فإن قال: فلِمَ أمروا بالصلاة؟ قيل: لأن....

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٦.

مثلهم في أمور كثيرة، في أداء الزكاة والصدقات وصلة الأرحام واصطناع المعروف»[(١)].

وهل الصلاة فرادى أم وفي فرض ثان جماعات؟ فرضاً على فرض؟.

﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ توحي بفرض ثان، فالركوع لوحدك فرض، وركوعك مع الراكعين فرض على فرض، فالركوع هنا يعني الصلاة، والمعية تعني جماعة الصلاة، معية الزمان والمكان والكيان والأركان، لا فحسب معية في أصل الإتيان بها، فإنها حاصلة بأصل الصلاة وقد أمر بها قبل آن![(٢)].

ولماذا عبر عن الصلاة هنا بالركوع دون السجود وهو أفضل؟ علّه لأنه أوّل ما يشاهد من حالة الصلاة ولا سيما في الجماعات، ولذلك تسمى الركعة ركعة دون «سجدة»! وأن السجود يعم الصلاة وغيرها كعبادة مطلقة، والركوع هيئة خاصة بالصلاة، لذلك ترى هذه المعية في الركوع فقط دون السجود حتى فيما يذكران معاً: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[(٣)] دون «واسجدي مع الساجدين» حيث هو أعمّ من الصلاة وسواها، طالما يذكران على سواء فيما لا تُعنى جماعة الصلاة: ﴿أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[(٤)] ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾[(٥)] ولأن

(١) نور الثقلين ١: ٧٤ عن من لا يحضره الفقيه وكتب الرضا علي بن موسى عليه السلام إلى محمد بن سنان فيما كتب إليه من جواب مسائله أن علة الزكاة من أجل...

(٢) ملحقات الاحقاق ج ١٤: ٢٧٦ أخرج العلامة أخطب خوارزم في المناقب ص ١٨٩ ط تبريز قال - سند متصل إلى ابن عباس - في قوله تعالى: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] نزلت في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام خاصة وهو أوّل من صلى وركع ثم ذكر عدة طرق أخرى عنه مثله.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٤٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

(٥) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

السجود أفضل من الركوع تراه مقدماً عليه حتى في ركوع جماعة الصلاة: ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[١].

ثم ولم يختص الركوع بين أركان الصلاة بذكره إلّا في هذه الآية تدليلاً على عنايتها بالجماعة دون ذكر ركن أو أركان، والركوع هو الخاص بالصلاة من بين أركانها، فتكبيرة الإحرام تعم هذه الصلاة وما لا ركوع فيها ولا سجود كصلاة الأموات، والحمد وسورة بعدها تقرآن في كافة المجالات، وأذكار الركوع والسجود، وحالة التشهد والسلام، وسبحانيات الأخريين، لا تخص شيء منها بالصلاة، اللهم إلّا الركوع وهو أبرز حالة ولا سيما في الجماعات!.

وهذه الآية مما تدل على وجوب الجماعة في الصلاة، وسوف نوافيكم بإشباع البحث في آية صلاة الخوف إن شاء الله تعالى.

وبما أنهم أمروا بالصلاة بعد الإيمان، يعرف أن الصلاة هي أوّل ظاهرة من مظاهر الإيمان العبادة، فهي قمة العبادات وعمود الدين.

ثم أمروا بالزكاة بعد الصلاة تدليلاً على أنها أفضل وأوجب العبادات المالية الجماعية، ثم ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ إيحاء أن الصلاة التي هي صلة فردية بالله يجب أن يؤتى في جماعات المصلين، فأصبح هذا الدين جماعياً في كافة الجهات وحتى في الصلاة.

وعلّ المعية هنا فيما عنت، انضمام بني إسرائيل إلى صفوف المصلين المسلمين دون استقلال لهم في صلاتهم إن أسلموا، استغلالاً لقوميتهم، حيث الإسلام ينسى ما كان، ويتبنى الحياة جديدة نظيفة عن كافة الأدران، إضافة إلى ما يتعلمون من فرائض الصلاة حين يركعون مع الراكعين.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٣.

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٤٤﴾:

استفهام إنكار بتقريع حار، يوجه إلى بني إسرائيل عجالة في هذه المواجهة المندّدة، وإلى كل من يفعل كما يفعلون: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ وهو كل خير من قال أو فعال أو حال ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ نسيان تجاهل أم جهلاً عن تناسٍ ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ في تطبيق البر الذي به تأمرون، ولا سيما وأنتم في تركه تجاهرون حال ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ عقلاً لموازين البر والأمر به عن الكتاب، وعقلاً في الدعوة إلى داعية الكتاب.

فقد ينهى الإنسان عما هو فاعله، أم يأمر بما هو تاركه غافلاً قاصراً وفي جهل مركب قاهر فهو معذور، أم علماً بفرضه فعلاً أو تركاً ولكنه معذور يبيّن عذرُه أو يبيّن فهو معذور، وأما أن ينسى نفسه فيما ينهى أو يأمر عارفاً عاقلاً عن الكتاب وفي أمره، متعمداً في تناسي الهزء واللّامبالاة، فذلك قطعاً غير معذور، فإنه خلاف عامد للكتاب وعقل الكتاب وعقل الأمر، كيف ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟

فهنا الآية لا تندد - فقط - بترك البر، بل ويثقل النهي عن الأمر به وأنت تاركه، فهو الذي يأتي بويلات عقائدية وأخلاقية وعملية فيمن يؤمرون.

إن معتَرِف العصيان في هذا الميدان يخيّل إليه نفي العصيان، وإلّا فكيف ينهى عالم الكتاب ويأمر وهو نفسه في نسيان! أم هو العالم يلعب بأمر الكتاب - إذاً - فلا أصل للكتاب الذي يلعب به حملته[(١)]! فهنالك شروط عدة لمن يأمر أو ينهى[(٢)] وليس بذلك الفوضى!

(١) المصدر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: إنما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من كانت فيه ثلاث خصال: عامل بما يأمر به تارك لما ينهى عنه عادل فيما يأمر عادل فيما ينهى رفيق فيما يأمر رفيق فيما ينهى (١١: ٤٠٣ ح ١٠ الوسائل).

(٢) في أصول الكافي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له عن الدعاء إلى =

فمن الشروط المتأصلة في جواز الأمر والنهي - الواجبين بشروطهما - أن لا ينسى الآمر الناهي نفسه فيما يأمر أو ينهى، وهناك لأقل تقدير آيات ثلاث تدلنا بوضوح على هذا الشرط الأصيل، هذه أولاها، ثم ما ينقل عن العبد الصالح شعيب عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾[1] حيث تعد مخالفته إلى ما ينهى عنه في عداد الإفساد وكما الأولى تعده خلاف العقل.

والتعدية هنا بـ «إلى» مضمَّنة نفي الميل إلى ما ينهى، لا - فقط - نفياً لاقترافه، بل واقترابه والميل إليه!

فلا يحق أو يجوز لناهٍ ينهى عن خطيئة إلّا بعد ما هو ناهٍ نفسه قبله حتى عن الميل إليه، فضلاً عن اقترافه أو اقترابه، فإن ثالوث الميل قلبياً

= الله والجهاد في سبيل الله أهو لقوم لا يحل إلّا لهم ولا يقوم به إلّا من كان منهم، أو هو مباح لكلّ من وحّد الله عزّ وجلّ وآمن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن كان كذا فله أن يدعو إلى الله عزّ وجلّ والى طاعته وله أن يجاهد في سبيله؟ فقال: ذلك لقوم لا يحل إلّا لهم. ، ولا يقوم بذلك إلّا من كان منهم، قلت من أولئك؟ قال: من قام بشرائط الله تعالى في القتال والجهاد على المجاهدين فهو مأذون له في الدعاء إلى الله تعالى ومن لم يكن قائماً بشرائط الله تعالى في القتال والجهاد على المجاهدين فليس بمأذون له في الجهاد ولا الدعاء إلى الله حتى يحكم في نفسه بما أخذ الله عليه من شرائط الجهاد - إلى أن قال - ومن كان على خلاف ذلك فهو ظالم وليس من المظلومين وليس بمأذون له في القتال ولا بالنهي عن المنكر والأمر بالمعروف لأنه ليس أهلاً من ذلك ولا مأذوناً في الدعاء إلى الله - إلى أن قال - ولا يأمر بالمعروف من قد أمر أن يؤمر به ولا ينهى عن المنكر من قد أمر أن ينهى عنه، ثم قال عليه السلام ثم ذكر من أذن له في الدعاء إليه بعده وبعد رسوله في كتابه فقال: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ﴾ [آل عمران: ١٠٤] - الآية - ثم أخبر عن هذه الأمة ومن هي وأنها من ذرية إبراهيم وإسماعيل من سكان الحرم ممن لم يعبدوا غير الله قط، الذين وجبت لهم الدعوة دعوة إبراهيم وإسماعيل من أهل المسجد الذين أخبر عنهم في كتابه أنه أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً - الحديث.

(١) سورة هود، الآية: ٨٨.

والاقتراب أو الاقتراف عملياً هو من الإفساد، وكيف لي بذلك النهي وأنا رسول؟ فـ ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ ما بقيت لي نفس أو نَفَس!

ثم وثالثه تثقل على آمره وناهيه المقت الكبير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾[1].

فصحيح أن فاعل المعروف غير الآمر به، وتارك المنكر غير الناهي عنه مع توفر شروط الأمر والنهي، أنه ممقوت عند الله، وكذلك الذي - فقط - يترك المعروف ويفعل المنكر، ولكنما المقت الكبير والإفساد الكبير وخلاف العقل إنما هو على من يجمع بين الأمر قولياً وتركه عملياً، فإنه بذلك يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف بذلك الجمع المفسد المزري الضاري.

فهنا الآيات، وعلى ضوئها الروايات تأتي بحملة قارصة كبيرة على هؤلاء المفسدين اللاعبين بالدين، الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، أو يخالفون الناس إلى ما ينهونهم عنه، ويقولون ما لا يفعلون، فـ «لا يأمر بالمعروف من قد أمر أن يؤمر به ولا ينهى عن المنكر من قد أمر أن ينهى عنه»[2] حيث القصد من الأمر والنهي هو الإصلاح العقلاني للمجتمع، خلقاً لجوِّ الصلاح والطمأنينة ليعيشوا على رغد أمن وراحة، إضافة إلى ما فيه من نبعة فياضة للخير من الآمرين والناهين فكل إناء إنما يرشح بما فيه، والمسلم المليء من الخير يرشح به بعمله ولسانه، والنزيه عن الشرير يرشح كذلك نهياً عنه، واجبان: ذاتي يتبنّى إصلاح الفرد، وجماعي يتبنّى إصلاح المجتمع، ابتداءً من الذاتي وانتهاءً إلى الجماعي.

---

(١) سورة الصف، الآيتان: ٢، ٣. راجع الفرقان (٢٨: ٢٩٨ - ٣٠١) تجد تفصيلاً لتفسير آية المقت.

(٢) هذا من الحديث المفصل الماضي عن أبي عبد الله عليه السلام قلت له عن الدعاء إلى الجهاد..

نرى خطباء من أمة الإسلام يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم على حدّ ما يروى عن الرسول ﷺ «تقرض شفاههم بمقاريض من نار»[(١)] «يجاء بأحدهم يوم القيامة فيلقى فى النار فتذلق به أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار»[(٢)] فـ«مثل العالم الذي يعلّم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه»[(٣)] ولـمّا يقال لأحدهم: يا ويله بم لقيت هذا إنما اهتدينا بك؟ قال: كنت أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه[(٤)]».

فليكفّ الذي لا يعمل عن أن يأمر، أو ليعمل ثم يأمر وكما يروى عن الرسول ﷺ: «من دعا الناس إلى قول أو عمل ولم يعمل هو به لم يزل في سخط الله حتى يكف أو يعمل ما قال ودعا إليه..»[(٥)] فكفه عن الأمر بما ترك يكف عنه سخط الله - مهما كان هو تاركاً كسائر التاركين - كما أن عمله بما قال يكف عنه سخط الله، حيث المعني من السخط في هذا المجال هو المقت الكبير، فلو ترك الأمر بشيء وهو تاركه، كف عنه المقت الكبير، مهما بقي عليه مقت صغير.

---

(١) الدر المنثور ١: ٦٤ - أخرجه جماعة عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: رأيت ليلة أسري بي رجالاً تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت رجعت فقلت: لجبريل من هؤلاء؟ قال: «خطباء من أمتك كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب - فلا يعقلون».

(٢) الدر المنثور ١: ٦٤ - أخرجه أحمد والبخاري ومسلم عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: يجاء برجل يوم القيامة فيلقى في النار... فيقولون: يا فلان! ما لك ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه.

(٣) الدر المنثور ١: ٦٥ - أخرجه الطبراني والخطيب في الاقتضاء والأصبهاني في الترغيب بسند جيد عن جندب بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: ...

(٤) المصدر عن جابر عن النبي ﷺ قال: اطلع قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فقالوا: بم دخلتم النار وإنما دخلنا الجنة بتعليمكم؟ قالوا: إنا كنا نأمركم ولا نفعل.

(٥) الدر المنثور ١: ٦٥ - أخرجه الطبراني عن أبي عمر قال قال رسول الله ﷺ: ..

ف «من لم ينسلخ من هواجسه، ولم يتخلص من آفات نفسه وشهواتها، ولم يهزم الشيطان، ولم يدخل في كنف الله تعالى وتوحيده وأمان عصمته، لا يصلح له الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنه إذا لم يكن بهذه الصفة فكلما أظهر أمراً يكون حجة عليه، ولا ينتفع الناس به.. ويقال له يا خائن! أتطالب خلقي بما خنت به نفسك وأرخيت عنه عنانك؟!»[(١)].

أجل وإنه «كالذابح نفسه»[(٢)] كما يذبح غيره، مهما كان يهديه إن لم يعرف نفاقه! فهو من «أعظم الناس حسرة يوم القيامة»[(٣)] «وأشدهم عذاباً»[(٤)].

ومن أجهل وأمقت وأفسد وأضلّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما تترك المعروف جهاراً، أو تفعل المنكر جهاراً، ثم تأمر بما تترك وتنهى عما تفعل، ولماذا؟!.

ألأنك تحب الله فتطالب حق الله من خلقه، فلماذا تخونه أنت مجاهراً مستهتراً حرمات الله أمام خلقه، خلافاً للعقل الذي يرشدك إلى خلافه، فإما عملاً بما تأمر أو تركاً للأمر، فلماذا تأمر بما تجاهر في تركه، أو تنهى عما تجاهر في فعله؟.

أو إصلاحاً للناس؟ وليس إلّا إفساداً لهم وتشجيعاً للناس في الجهار بترك شريعة الناس.

(١) نور الثقلين ١: ٧٥ عن مصباح الشريعة عن الإمام الصادق عليه السلام.
(٢) تفسير البرهان ١: ٩٣ - العياشي عن يعقوب بن شعيب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، قال: فوضع يده على حلقه، قال: كالذابح نفسه.
(٣) نور الثقلين ١: ٧٥ - عن أصول الكافي بإسناده إلى خيثمة قال قال لي أبو جعفر عليه السلام: أبلغ شيعتنا أن أعظم الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم خالفه إلى غيره.
(٤) نور الثقلين ١: ٧٥ عن أصول الكافي بإسناده إلى قتيبة الأعشى عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من وصف عدلاً وعمل بغيره.

فما لم تأمر أنت التارك، أو لم تنه أنت الفاعل، فالناس أمثالك يظلون كما هم أما إذا تخالفهم إلى ما تنهاهم عنه أو تأمرهم به، فأنت تفسدهم أكثر مما كانوا، وتفسد نفسك أكثر مما كنت!.

أما نفسك فإنها حجة ظاهرة عليك: لم تقول ما لا تعمل وأنت تعلم؟.

وأما هم، فقد يزدادهم جرأة في هتكهم حرمات الله، ووهنهم في عقيدة الإيمان، إن كانت، أو فسقاً على فسق، إذ يرون أنك مستهزئ بشريعة الله، وإلّا فماذا يدفعك للأمر بما أنت تاركه، أو النهي عما أنت فاعله؟. فهو - إذاً - يستجر اللعنة والنكبة إلى الآمر الناهي ومن يأمرهم وينهاهم - فـ«لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له والناهين عن المنكر العاملين به»(١) «فانهوا عن المنكر وتناهوا عنه فإنما أمرتم بالنهي بعد التناهي»(٢).

هذه المظاهر المنافقة - ولا سيّما ممن يتظاهر بخلافها - إنها الآفة التي تصيب النفوس بالشك والريبة، لا في الدعاة وحدهم، بل وفي الدعوات ذواتها أيضاً، لا سيما إذا كانت الدعاة من رجال الدين، حيث العرف الأكثري الساذج من الناس تعتبرهم تجسيداً للدين، فنفاقهم في أقوالهم وأفعالهم يحسب نفاقاً في الدين نفسه فهي التي تبلبل قلوب الناس وأفكارهم، حيث يسمعون قولاً جميلاً ويرون معه فعلاً أو تركاً قبيحاً، فتمتلكهم الحيرة بين هذا وذاك، فلا يعودون يثقون بالدين بعدما فقدوا ثقتهم برجال الدين.

فالكلمة الرنانة الطنانة البراقة، الخاوية عن واقع معناها، إنها تأخذ

---

(١) وسائل الشيعة ج ١١ ص ٤٢٠ ح ٩ محمد بن الحسين الرضي في نهج البلاغة عن علي عليه السلام.
(٢) المصدر ح ٨ عنه عليه السلام.

موقعها في مسامع السامعين، ولكنها تصل هامدة إلى قلوبهم، مجتثة بقية الإيمان لو كانت أو تزيد في رينها وفسقها إن لم تكن.

في حين أن الكلمة التي تخرج من القلب، المفسّرة بالعمل قبل الإفصاح بها، إنها ترجمة حية عن جمال الواقع، فتصل إلى شغاف القلوب وضّاءة فعّالة، مهما لم يكن لها طنين أو بريق: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾[١] فالكلام إذا خرج من القلب دخل في القلب وإذا خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان.

وما أجمله جمعاً بلاغة الكلام وفصاحته، مع التفسير الحيّ له من صاحب الكلام في فعل أو حال، وأجمل منه الابتداء بالفعل ثم القول وكما يروى: «مروا الناس بالمعروف وانهوهم عن المنكر بغير ألسنتكم».

هنا القرآن يوجّه بني إسرائيل حين يواجههم ويوجّه الناس أجمعين إلى ضرورة الموافقة بين القول والعمل وضراوة المنافقة بينهما، بخطاب تنديد وتهديد: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ كما هناك يواجه المؤمنين بنفس النمط ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[٢] وهنالك ينقل عن العبد الصالح شعيب ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾[٣] ومعها عشرات من الروايات، التي تبرز شرط العمل كأبرز شرط للسماح بالأمر والنهي صلاحاً ذاتياً وإصلاحاً للمجتمع[٤].

(١) سورة النساء، الآية: ٦٣.
(٢) سورة الصف، الآية: ٢.
(٣) سورة هود، الآية: ٨٨.
(٤) الدر المنثور ١ : ٦٥ - أخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر عن ابن عباس أنه جاءه رجل فقال: يا بن عباس! إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، قال: أوبلغت ذلك؟ قال: أرجو، قال: فإن لم تخش أن تفتضح بثلاثة أحرف في كتاب الله فافعل، قال: وما هن؟ قال: قوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، =

﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾: حيث كانوا قبل ظهور الإسلام يأمرون المشركين بالإيمان بمحمد الرسول الآتي وكانوا يستفتحون عليهم ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾[1] وثم إذ ظهر الإسلام كان البعض من أحبارهم يأمرون أقاربهم من المسلمين بالثبات على إيمانهم وهم به كافرون، أو كانوا يأمرون فقراءهم ويكتمون الحق عن أغنيائهم مخافة انقطاع رواتبهم أو عطياتهم، وكانوا يأمرون الناس باتباع التوراة وهم يخالفونه في تكذيب محمد ﷺ، ويأمرون الناس بطاعة الله وهم يعصونه في محمد ﷺ!

وهذه الشيمة الشنيعة مخالفة للكتاب ﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾ ومخالفة للعقل ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

تخالف كتاب الله الآمر بتصديق الرسول الآتي محمد ﷺ والناهي بصورة عامة - عن الأمر بشيء مع نسيان نفسك فيه، وتخالف العقل حيث يستقبح النفاق، ولا سيما هذا النفاق الذي يظهر في الأمر والنهي بمظهر الإصلاح الوفاق، وإن هو إلّا إفساداً: ثالوث المخالفة للحق، يحمله أنكم ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾!

فلو أنهم كذبوا محمداً في صيغة واحدة قبل أن يأتي ولمّا، لم يكن بذلك الخطير المضلّل لضعفاء النفوس، حيث تكذيبهم - وهم أهل كتاب - بعد تصديقهم، يؤكّد لمن سواهم أن محمداً لم يأت ذكره في الكتاب: .

ف ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾: تقريع بعقولهم المعقولة المشدودة بأهوائهم - في

= أحكمت هذه الآية؟ قال: لا، قال: فالحرف الثاني؟ قال: قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢-٣] - أحكمت هذه الآية؟ قال: لا - قال: فالحرف الثالث؟ قال: قول العبد الصالح شعيب ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ [هود: ٨٨] - أحكمت هذه الآية؟ قال: لا - قال: فابدأ بنفسك.

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

ثالوث اللّاعقل من أمرهم، فالمقصود من الأمر والنهي إرشاد الغير إلى ما يصلحه واجتناب ما يفسده، وإرشاد النفس والإحسان إليها أولى من الغير، وتقديم الغير خلاف العقل وأن من يعظ الناس ولا يتعظ يرغّب الناس إلى العصيان أكثر مما كان، سناداً إلى أنه لو كان صادقاً وصالحاً لما تركه إلى غيره، وهذا يناقض غرض الأمر والنهي وهو الإصلاح، وأن على الآمر الناهي - إذ يهدف الإصلاح - أن يحاول في تأثير أكثر فيما يزاول، فإذ يقرنه بما يشجّع إلى العصيان، كان قد جمع بين المتضادين ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟

وهل يشترط في جواز الأمر والنهي كون الآمر الناهي فاعلاً لكل برٍّ مستطاع له وتاركاً لكل شرٍّ كذلك سراً وعلانية، أن يكون عدلاً في واقع أفعاله وتروكه لا في ظاهر حاله فحسب؟

قد يظن إطلاق التنديد له في آيتنا ﴿أَتَأْمُرُونَ﴾ ولكنها لا تعني إلّا ما «تأمرون. . وتنسونه» وأما المعروف الذي لم تأمروا به وأنتم تاركوه فلا تشمله ﴿تَأْمُرُونَ﴾. وكذلك التنديد في آية النهي: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ﴾[1] المنع عن النهي بخصوص ما لم يتناه عنه، وآية المقت لا تشمل نصاً غير القول المنافق للفعل، أمراً أو نهياً.

ثم لو اختص السماح بالأمر والنهي بهذا المضيق في العدالة المطلقة لم تكن في هؤلاء العدول الكفاية في هذه المكافحة، لأنهم قلة والفاسقين كثرة، وواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو المكافحة الكافية، فقد يكون «حسبك أن تأمرهم بما تأمر به نفسك وتنهاهم عما تنهى نفسك»[2] كما النهي في «لا يأمر بالمعروف من قد أمر أن يؤمر به ولا ينهى

(١) سورة هود، الآية: ٨٨.

(٢) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]. . جلس رجل من المسلمين يبكي وقال: أنا عجزت عن نفسي كلفت أهلي، =

عن المنكر من قد أمر أن ينهى عنه»[١] يخص التارك لخصوص ما أمر به والناهي عن خصوص ما اقترفه، وكما يخصه «من دعى الناس إلى قول أو عمل ولم يعمل هو به لم يزل في سخط الله حتى يكف أو يعمل ما قال ودعى إليه» ومعها أحاديث عدة.

كما وأن مورد آية البر لا يتجاوزه، ولا إطلاق لها تخصها بالعدالة المطلقة - فـ ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ في ذلك البر.. لا وفي بر لم تأمروا به! وأقل ما هنا أن البر المأمور به هو القدر المتيقن دون سواه.

وهل التارك لمعروف خفية يأمر به، أو الفاعل لمنكر خفية ينهى عنه؟ قد يقال: نعم، إذ يصلح المجتمع ولا يفسد حيث لا يعلمون كيف هو في سرّه؟ مهما كان كالذابح نفسه، فإن المتجاهر يذبح نفسه وغيره فعليه اللّعن والمقت الكبير حيث يضر ولا ينفع، وغير المتجاهر إنما يذبح نفسه وينجي غيره، فأمره ونهيه واجبان من الناحية الجماعية ومحرمان من الناحية الشخصية، فإن ترك الواجب وترك الأمر به فإثمان، وإن أمر به فإثم واحد لتركه، ومقت ما لأمره مع تركه رغم أنه واجب، واجب أن يأمر بعد ما يأتمر، فإذ لم يأتمر سراً فليأمر.

أو يقال: إن أمر التارك ونهي المقترف لا يجبان ولا يحرمان، كما قد يستوحى من بعض ما مرّ من أحاديث، ولكنما المستفاد من إطلاقاتها كتصاريح ولا سيما الآيات، أن أمره ونهيه محرمان ما دام لم يأتمر أو لم

= فقال رسول الله ﷺ حسبك... (وسائل الشيعة ج ١١ ص ٤١٧ عن الكافي).
وفي الوسائل ص ٤٢٠ ح ١٠ - في الإرشاد عن رسول الله ﷺ قيل له: لا نأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ولا ننهى عن المنكر حتى ننتهي عنه كله؟ فقال ﷺ: لا بل مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله وانهوا عن المنكر وان لم تنتهوا عنه كله.

(١) الدر المنثور ١: ٦٥ - أخرجه الطبراني عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: ..

ينته وإن كانا هنا أخف مقتاً ممن يجاهر بترك المعروف وفعل المنكر، وهما واجبان بوجوب الائتمار والانتهاء.

فالإتيان بالمعروف وترك المنكر، واجبان شخصياً، وواجبان جماعياً، مهما كان الأوّل على الأعيان والثاني كفائياً، فمن يترك واجباً ويفعل منكراً فيما لم يقم بالأمر والنهي من فيه الكفاية فتركه للواجب تركان، وفعله المنكر محظوران، مهما كان في ظرف الكفاية تركاً أو محظوراً واحداً.

فالتارك الآمر بما ترك هو كتارك الأمر بما ترك وأضل سبيلاً، كما الفاعل لما ينهى، فإنه رغم ما أمر ونهى، لم يأمر ولم ينه كما أُمر، وهكذا يصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سياجاً سلباً وإيجاباً على الجماعة المؤمنة، أن يحاولوا دوماً في إصلاح أنفسهم وإصلاح مجتمعهم، لكي ينمو ويزدهر في كافة الأجواء والأرجاء.

ولا عجب أن يجتمع الأمر والنهي في الأمر والنهي، حيث النهي عنهما فعلي، والأمر بهما شأني يفرض على المكلفين الائتمار والانتهاء ثم الأمر والنهي.

وإن تعجب فعجب قول جمعٍ من الفقهاء كيف لم يشترطوا في وجوبهما الفعلي ائتمار الآمر وانتهاء الناهي، وعساكر الآيات وفي ظلالها الروايات تمنع عن فعلية الأمر إلّا للمؤتمر، وعن فعلية النهي إلّا للمنتهي؟! حيث تحثّ على الأمر بعد الايتمار، وعلى النهي بعد الانتهاء.

وسوف نأتي على قول فصل في حدود وشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجالاتها الأنسب طيات آياتها إن شاء الله تعالى.

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

هنا - وبعد أوامر ثمانية ونواهٍ أربعة متداخلة، وتنديد ببني إسرائيل -

يأمرهم الله بغية تحقيق الائتمار والانتهاء، والتحليق على عوائقهما، أن يستعينوا الله بالصبر والصلاة، بجناحي السلب والإيجاب.

والصبر هو الصبرُ الاستقامة في الهزاهز، والصمود عن نزوات الشهوات واللذائذ، فرضاً أم سواه، دون اختصاص بصبر الصوم[(١)] وإن كان هو من أفضل الصبر لبعده عن الرياء، ونفيه أو حصره للشهوات، وهو سياج شامل لسائر الصبر بسائر مجالاته وجلواته، كصبر على المصيبة وصبر على الطاعة وصبر عن المعصية[(٢)].

إنه الصبر الجميل المتدرع درع الله الحصين في كل بأساء وضراء وحين البأس كطاقة صامدة سلبية تسلب عن الإنسان كل انتكاسة إيمانية في داخله أو خارجه، ويعبّد له الطريق لخوض المعارك الإيجابية في سبيل الله، فإنه شاق طويل، مليء بالأشلاء والدماء، بالعقبات والعقوبات، والصبر هو الزاد الذي لا بدّ منه لمواجهة المشاكل «وهو للمؤمن أمير جنوده»[(٣)] في كافة المعارك، بل «الصبر نصف الإيمان»[(٤)] بل «هو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد إذا

(١) إذ لو كان هو المعني فقط لأتي بلفظه الخاص «الصوم» لا ما يشمله وغيره، فالأحاديث المفسرة له بالصوم من باب الجري وبيان الصداق الأجلى، كما يرويه في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية: يعني بالصبر الصوم وقال: إذا نزلت بالرجل النازلة والشدة فليصم فإن الله عزّ وجلّ يقول: واستعينوا بالصبر والصلاة، ورواه مثله في الفقيه عنه عليه السلام.

(٢) الدر المنثور ١ : ٦٦ - أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الصبر وأبو الشيخ في الثواب والديلمي في مسند الفردوس عن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٣) الدر المنثور ١ : ٦٦ - أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن ابن عباس قال: كنت ذات يوم رديف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ألا أعلمك خصالاً ينفعك الله بهن؟ قلت: بلى - قال: عليك بالعلم فإن العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قيّمه والرفق أبوه واللين أخوه والصبر أمير جنوده».

(٤) الدر المنثور ١ : ٦٦ أخرج البيهقي عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله».

قطع الرأس نتن باقي الجسد ولا إيمان لمن لا صبر له»(١) و«لصبر أحدكم ساعة في بعض مواطن الإسلام خير من عبادته خالياً أربعين سنة»(٢).

دون الصبر التخاذل والتكاسل والمسايرة الممايرة، صبراً على الظلم والضيم صبر الهزيمة الخواء عن استقامة الإيمان والصمود!.

كما الصلاة هي الصّلات، فإنها عمود الدين وعماد اليقين، مهما شملت كافة الصّلات الإيجابية بالله، إلّا أن الصلاة هي القمة فيها، وكما كان يستعين بها الرسول ﷺ (٣) عند الغُمّة، حيث القلب يستمد منها قوة وتحس الروح فيها صلة، والنفس زاداً أنفس من عَرَض الحياة الدنيا وأعمال الآخرة، فهي إذاً مدد حين تنقطع المدد، وصلة ورصيد حين تنقطع الصلة وينفد الرصيد، ومزيد ومزيد للرعيل الأعلى كالرسول ﷺ وهو الوثيق الصلة بالله، دائب الرصيد إلى الله.

هنا يتقدم الصبر على الصلاة - على فضلها - لأنه سلب وهي إيجاب: إزالة لما لا ينبغي ثم تحصيلاً لما ينبغي، فإنه تخلية وهي تحلية، فهو تهيئَة وهي تعبئة.

وهذان الجناحان هما لزام كل سالك سبيل الله، دون اختصاص بمن

(١) الدر المنثور ١: ٦٦ - أخرج ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان والبيهقي عن علي عليه السلام قال: . .

(٢) الدر المنثور ١: ٦٧ - أخرجه البيهقي عن عسعس أن رسول الله ﷺ فقد رجلاً فسأل عنه فجاء فقال: يا رسول الله ﷺ اني أردت أن آتي هذا الجبل فأخلو فيه وأتعبد فقال رسول الله ﷺ: . . .

وفيه عنه ﷺ قال: المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم.

(٣) الدر المنثور ١: ٦٧ - أخرج أحمد وأبو داود وابن جرير عن حذيفة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أحزنه أمر فرغ إلى الصلاة.

وفيه أخرج أحمد والنسائي وابن حبان عن صهيب عن النبي ﷺ قال: كانوا - يعني الأنبياء - يفرغون إذا فزعوا إلى الصلاة.

خوطبوا من بني إسرائيل وكما في سائر القرآن، حيث يعم كافة الأشباه والنظائر، وكما اختصت آية أخرى بالمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ توجيهاً دائباً مستمر الإيحاء من هنا وهناك، دون رسوب فيمن خوطبوا في عجالة النزول.

فالصبر الذي لا يستعان به، والصلاة التي لا يستعان بها، هما خاويان عن الصبر والصلاة، وهما لغير الخاشعين: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾.

ترى ما هي الكبيرة هنا إلّا على الخاشعين؟ أهي الصلاة المستعان بها ونعماً هي فإنها ثقيلة شاقة إلّا على الخاشعين؟ أم الصلاة أية صلاة فكذلك الأمر، وإن كانت أخف حِملاً وثقلاً؟ أم هي الاستعانة بالصبر والصلاة مهما اختلفا حِملاً في الاستعانة بهما؟ أو هي هما وما قبلهما من فعل الواجبات وترك المحرمات، مهما اختلفت هي أيضاً في حملها؟.

لكلّ وجه على اختلاف درجاتها ومرجحاتها لفظياً أو معنوياً، والجمع أوجه فإن الصلاة - فقط - كبيرة إلّا على الخاشعين، فضلاً عن المستعان بها، والاستعانة بها، ثم والصبر، والمستعان به منه، والاستعانة به، ثم وما تقدمهما من فعل الواجبات وترك المحرمات، وإن كانت الصلاة المستعان بها، غير الكبيرة الثقلية، تكفي حَملاً لِحمل الصبر وما قبل الصبر ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾.

ومن هم الخاشعون؟: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾!.

الخشوع من حالات القلب: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1] والخضوع للجوارح، ويجمعهما خنوع التعظيم والعبودية لله، فمن خشع قلبه لله خضعت جوارحه لله، وقد تخضع الجوارح والقلب فارغ.

(١) سورة الحديد، الآية: ١٦.

فالخشوع لله يتبنّى الإيمان السليم أن يخنع الخاشع بكله لله، مهما اختلفت مراتبه، فكيف يفسر بـ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ والظن في مجال المعرفة مقدوح لا ممدوح؟: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ﴾(1) ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾(2).

والحل أن الظن قد يقابل العلم كما هنا فهو ظن العقل ولا يكفي في الإيمان، بل وعلم العقل إنما يفيد إذا دخل القلب وتحول اعتقاداً راجحاً ثم اليقين.

وقد يقابل اليقين فهو ظن القلب الذي يساور العلم، وهو أحياناً أقوى من علم العقل حيث الظانون في قلوبهم كلهم مؤمنون بالله خاشعون لله رغم العالمين بعقولهم إذ قد يجحدون: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾(3).

وآية الخاشعين الظانين تعني ظن القلب وجاه اليقين، لا ظن العقل وجاه العلم كما ويدل عليه الخشوع وهو حالة للقلب لا سواه، وتماثلها آيات أخرى تمدح هكذا ظن: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾(4) ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾(5) ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾(6) أو تندد بمن لا يظن: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾(7).

(1) سورة النجم، الآية: ٢٨.
(2) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.
(3) سورة النمل، الآية: ١٤
(4) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.
(5) سورة الحاقة، الآيتان: ٢٠، ٢١.
(6) سورة الجن، الآية: ١٢.
(7) سورة المطففين، الآيتان: ٤، ٥.

فغير فصيح ولا صحيح أن يعبّر عن العلم بالظن(١) والقرآن كتاب عربي مبين، والظن هو الظن في موقفه والعلم هو العلم، طالما كان ظن القلب علماً ومن أقواه، كما وعلم العقل ظن في القلب أو من أضعفه، ومن المايز بين العلم واليقين وظنهما، أن العلم وظنه يحصلان ببرهان عقلي أو حسي دون حاجة إلى مراس في صالح، واحتراس عن أي طالح، ولكنما اليقين أو ظنه لا يحصلان بعد العلم العقلي إلّا بالأعمال الصالحة وترك الطالحة، حيث اليقين هو سكون الفهم واطمئنان القلب مع ثبات الحكم، والعلم ثبات للحكم وقد يكون القلب جاحداً أو مضطرباً، لذلك ترى أن لليقين مراتب وليست للعلم مراتب.

وترى أليس يقين القلب من علمه وعينه وحقه أحق أن يكون تفسيراً للخشوع من ظنه؟ فلماذا جيء هنا بظنه، وكأن الخاشعين الموقنين في مثلثة الدرجات ليسوا من الخاشعين؟!.

ذلك لأن الآية تعني جموع الخاشعين بدرجاتهم، المبتدئة بظنه - بدرجاته - ثم يقينه بعلمه: ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ وعينه: ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ وحقه: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ طالما اليقين في مثلّثه أيضاً درجات فوق بعض ودون أن تقف لحدٍّ في مجالات المعرفة والزلفى، كما المعروف: الله - ليس له حدٌّ محدود.

فكما أن ظن القلب ويقينه درجات فالخاشعون به أيضاً درجات،

(١) وهكذا تفسّر الأحاديث التي تفسر الظن هنا بالعلم أو اليقين كما رواه في التوحيد عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في الآية: يعني أنهم يوقنون أنهم يبعثون ويحشرون ويحاسبون ويجزون بالثواب والعقاب والظن هاهنا اليقين (نور الثقلين ١ : ٧٦). فلا يعني أن لغة الظن هنا تعني اليقين، بل إن الظن منهم يقين وكما يروى في البرهان ١ : ٩٥ - عن علي أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ : «يقول: يوقنون أنهم مبعوثون والظن منهم يقين» إذ لا يصح أن تعني لغة الظن من بعض الظن ومن بعض اليقين، اللهم إلّا باختلاف موطنه كظن القلب الذي هو علم ويقين.

يجمعها أن الصلاة أم ماذا؟ ليست عليهم كبيرة ثقيلة، فإنهم لبخوعهم أمام الله وخشوعهم لله يجنحون إلى عبادة الله وطاعته، بل ليس لهم في الحياة ألذّ من الصلاة، وكما يروى عن أوّل العابدين: «وقرة عيني الصلاة»: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[1].

هؤلاء هم الخاشعون ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ فما هو لقاء الرب؟ وما هو الرجوع إلى الرب؟ دعامتان للخاشعين بعد الصلاة وهي عمود الدين؟

قرينة قرن اللقاء بالرجوع تدلنا على أن ليس اللقاء هو الرجوع مطابقاً حتى يفسر برجوع الموت أو الحساب أو ما بعد الحساب، المختصة باللقاء منذ الموت، بل هو لقاء الرب ايّاً كان وأيّان، في حياة الدنيا العمل ولا حساب، أو الأخرى الحساب ولا عمل، ومن أسباب لقاء الرب يوم الدنيا هو العمل الصالح النابع عن الإيمان: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[2] ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3] كدحاً وسعياً وعناء في إزالة الحجب وترك الهوى حتى يلقاه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[4] لقاء معرفياً ورضواناً من الله وهي الحياة الطيبة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً...﴾[5]. وأما اللقاء القرب قيومياً وعلمياً فهو حاصل بين الله وما سواه دون كدح، فإنه لزام ربوبيته ومربوبيتها، كما وأن اللقاء المعرفة

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.
(٢) سورة الكهف، الآية: ١١٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢٣.
(٤) سورة الانشقاق، الآية: ٦.
(٥) سورة النحل، الآية: ٩٧.

الضرورية بالموت ثم الحشر يعم الجميع، مهما اختص لقاء الرحمة والثواب بالذين آمنوا وعملوا الصالحات.

فـ ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ هم العالمون بالله العارفون الله فهم ملاقوه هنا بما خشعوا، كما يلاقونه في الأخرى لقاء مزيد المعرفة والثواب، والرحمة والرضوان، فخشوعهم يدفعهم هنا إلى لقائه - ولقاؤهم يدفعهم إلى تحضيرهم للقائه منذ الموت، وعلمهم بلقائه بعد الموت يدفعهم إلى مزيد ومزيد من خشوعهم ولقائهم يوم الدنيا.

﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ بعدَ لُقيا الدنيا المعرفية بالصالحات، وبعدَ لُقيا الحساب المؤقت في البرزخ، ولُقيا الحساب النهائي يوم القيامة، وتكملات للقاء المعرفة والرضوان، فمن ثمّ الرجوع إلى الله، إلى عالم من الراحة والأمان، تحت ظلال الإيمان ورحمة الرب المنان.

فليست - فقط - الحياة الأخرى في القيامة الكبرى هو مجال الرجوع إلى الله مهما كان من درجات الرجوع: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1] حيث يتأخر الرجوع الأصل الأخير عن الحياة الأخيرة بعد الحياة البرزخية.

وقد يعني من الرجوع هنا منذ الموت إلى ما بعد الحياة الأخرى: رجوعان إلى الله يتقدمان الآخر، مثلث من اللقاء الرجوع والرجوع اللقاء، بعد لُقيا الحياة الدنيا المعرفية دون رجوع: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ﴾[2].

فهنا لقاء بلا رجوع كما هنا، ولقاء رجوع في مثلث الموت والحشر واللقاء الرجوع الأخير بعد الحياة الحشر.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨.
(٢) سورة النور، الآية: ٦٤.

ولماذا الرجوع ولم نكن قبلُ في هذه الثلاث، فإنه الموت الأول، ثم الحياة البرزخية لأوّل مرة والحياة الأخرى ورجوعها كذلك؟

الجواب: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[1] حيث كنا عنده دون تكليف واختيار، إذ كنا أجنة في بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً، وما قبله أو بعده قبل التكليف والاختيار، ثم خُوِّلنا إلى حال الاختيار - نعمل ما نشاء - اختباراً، ثم نرجع إليه منذ الموت كما كنا إلى عالم الرب دون تدخّل فيه لأحد ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[2].

فهنا صبر وصلات أخرى بالله، خاشعين لله، ومن ثمّ لقاء الله والرجوع إلى الله فـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

آيات ثلاث تفضّل بني إسرائيل على العالمين وتحذرهم عن الجزاء يوم الدين ثانيهما في السورة نفسها: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾[3] وثالثتها في الجاثية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾[4].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.
(٢) سورة غافر، الآية: ١٦.
(٣) سورة البقرة، الآيتان: ١٢٢، ١٢٣.
(٤) سورة الجاثية، الآيتان: ١٦، ١٧.

وإنها تحدد موقف هذا التفضيل مبدئياً أنه ليس فوضى جزاف، وإنما جعلت فيهم النبوة ونجاهم الله من آل فرعون مغبَّة أن يؤمنوا، فقد فضِّلوا هكذا لكي يحملوا الرسالة، رسلاً كما حملوها، ثم أمة فمنهم من حملها ومنهم دون ذلك، فلما بغوا وطغوا فلم يحملوها أمة بدلت الفضيلة رذيلة حيث بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار.

كما أن هذه الفضيلة - في موقفها - تتحدد بالعالمين زمنهم، أو ومنذ بزوغ الرسالات حتى الرسالة الموسوية، ومن ثم العيسوية وما بينهما، دون أن تعدوها إلى ما بعدها: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١) حيث هي تتلو في الجاثية آية بغيهم بعد تفضيلهم.

إذاً فهي فضيلة محددة وقتياً وفي إطار الإيمان، وأما بعد الرسالة الإسلامية، وأما بعد كفرهم وتكذيبهم بآيات الله، وأنهم كانوا أوّل كافر بها إذ جاءت، إنهم بعد هذا وذاك أصبحوا من أرذل الأمم، مهما كان المؤمنون منهم أفضل الأمم قبل الإسلام.

فإنما الإيمان وعمل الصالحات فقط هما المنجيان يوم الجزاء، دون الانتسابات الجوفاء والهويات والأمنيات الفارغة: الهباء، فـ ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾(٢).

فالحساب شخصي، والتبعة فردية، و﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾(٣) - ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(٤) فـــ ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٨.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٣.
(٣) سورة المدثر، الآية: ٣٨.
(٤) سورة النجم، الآية: ٣٩.

شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾[(١)] ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾[(٢)] ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[(٣)] ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾[(٤)] . . .

مبدأ إسلامي عظيم هو التبعة الفردية القائمة على المساعي وحتى في إطارات الشفاعات، مما يستجيش اليقظة الدائمة في الضمائر، في حالة عوانٍ بين الخوف الرجاء.

وطالما الخطاب هنا لبني إسرائيل ولكنه يشمل كل نفس حيث النص: لا تجزي نفس عن نفس، لا إسرائيلي عن إسرائيلي!

فمربع السلب يسلب عن كلِّ نفس أي جزاء وأية شفاعة أو عدل أو نصرة ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[(٥)]: الله دينه.

١ - ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا . . .﴾[(٦)].

فالجزاء هي الكفاية والغنى كما المجازاة هي المكافاة، فالجزاء يوم الجزاء إنما هي لكل نفس عن نفسها دون سواها، ولو كان الجازي هو الرسول فضلاً عن سواه من والد أو ما ولد أم من ذا؟ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[(٧)] لا يغني ﴿مَوْلًى﴾ حتى لو كان نبياً ﴿عَن مَّوْلًى﴾ حتى زوجته وولده كما في نوح لابنه وزوجته، وفي لوط لزوجته: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[(٨)].

---

(١) سورة طه، الآية: ١٠٩.
(٢) سورة مريم، الآية: ٨٧.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٨٦.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.
(٦) سورة لقمان، الآية: ٣٣.
(٧) سورة الدخان، الآية: ٤١.
(٨) سورة التحريم، الآية: ١٠.

وذلك خلاف ما كانت اليهود والنصارى يزعمونه أن أنبياءهم أو آباءهم الأنبياء سوف يجزون عنهم ويغنون، أو لأنهم أبناء الله وأحباءه فلا يعذّبون، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[(١)].

كما وأن هناك هرطقات كنسية تهرف بما لا تعرف أو تتجاهل قائلة: «إن المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا» (رسالة بولس إلى غلاطية صح: ٣).. أن تحمّل جميع لعنات شريعة الناموس بصلبه.. أنه جازى كلَّ ملعون بلعنه صلباً وكذلك ذوقه حرّ النار، فأمته - إذاً - أحرار، بعيدون عن النار، رغم تصريح التوراة: «ملعون من لا يقيم كلمات هذا الناموس ليعمل بها ويقول جميع الشعب آمين» (تثنية ٢٧: ٢٦) وهكذا الإنجيل: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى أصغر في ملكوت السماوات» (إنجيل متى ٥: ١٧ - ١٩) ومن طريف الإعجاز أن بولس ناقض شريعة الناموس وافق اسمه إثمه حيث يعني الصغير![(٢)].

٢ - ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾: كضابطة عامة ألّا يقبل شفاعة للمجرمين من شافع، أو منهم أن يستشفعوا، حيث المرجع لضمير المؤنث في ﴿مِنْهَا﴾ أعم من نفس شافعة أو مشفع لها: ﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ﴾[(٣)] ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[(٤)].

(١) سورة المائدة، الآية: ١٨.
(٢) راجع «عقائدنا» ص ١٦٥ - ١٧٠ حيث فصلنا فيه الكلام..
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.
(٤) سورة المدثر، الآية: ٤٨.

٣ - ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾: والعدل هنا والعدل هو المثل، أو الفدية المماثلة[١] فليس لأي نفس مثل تملكه حتى تؤتيه بديلاً، ولو كان فـ ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾.

٤ - ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: هؤلاء المحرومون من الجزاء الكفاية والعدل والشفاعة ليس لهم أي ناصر ولا عاذر من دون الله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[٢].

قول فصل حول الشفاعة:

الشفاعة هي من الشفع قبال الوتر، فالعاصي بنفسه يستحق العقاب فيضم إلى نفسه وجيهاً عند صاحب الأمر فيستعين به في الغفران، إذا لم تحصل له وسيلة أخرى[٣] وكانت الشفاعة في إطار التشريع، أو أن سبباً من الأسباب ينضم إلى الموجود الناقص فتتم السببية بهذه الشفاعة التكوينية إذا كانت في إطار التكوين كمعجزات الرسل، فإنها أفعال لله لا سواه، تجري على أيدي أنبياء الله تدليلاً على أنهم يحملون رسالة من الله، فلا يكفي أن يخلق المسيح من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه ليكون طيراً إلّا بإذن الله وهذه شفاعة تكوينية للتدليل على الرسالة الإلهية.

وتأتي الشفاعة بمختلف صيغها ومسوغاتها أم الإحالة لها أو التي تفرضها في (٣١) موضعاً من الذكر الحكيم:

ومن آيات الشفاعة ما تنحو منحى التكوينية أو أنها الهدف الرئيسي

(١) الدر المنثور ١: ٦٨ - أخرج ابن جرير عن عمر بن قيس الملائي عن رجل من بني أُمية من أهل الشام أحسن الثناء عليه قال: قيل يا رسول الله ﷺ ما العدل؟ قال: العدل الفدية.
(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨ - ٨٩.
(٣) كالتوبة ورجاحة الحسنات واجتناب كبائر السيئات، حيث الشفاعة هي في المرحلة الرابعة.

فيها: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ . . . مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ . . .﴾[(١)] فإنها الشفاعة في الخلق والإيجاد، فلا وسيط فيه تغييراً وتطويراً بعد الخلق الأوّل إلّا بإذنه، فإنه الوحيد في شؤون الخالقية[(٢)].

ثم هناك آيات كثيرة أخرى بين ناكرة نافية للشفاعة في التشريع مثل التي مضت وأضرابها حيث تنفي الشفاعة يوم الدين وتنكرها من كلّ نفس لكلّ نفس: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ من نفس شافعة أن تشفع أو مشفَّع لها إن تُشفَّع، وإن كانت الآية تبدأ بخطاب بني إسرائيل، فإن هذه من مقررات يوم الدين، لهم ولمن سواهم على سواء، وآيات نفي الشفاعة لا تنفي مطلق الشفاعة وإنما المنفي فيها هو الشفاعة المطلقة.

وهنا آيات أخرى تثبت الشفاعة بعض الإثبات، لله وبإذن الله ويجمعها: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[(٣)] فله أن يشفع برحمته، أو يأذنْ لمن يشفع فيمن يشفع بشروط.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣.

(٢) الشفاعة منها تكوينية ومنها تشريعية، ومن الثانية أن تشفع نفس متقاضية حكماً من ربه بعطف من الله ولطفه كما فعل الرسول ﷺ في تحويل القبلة، أو أن تشفع حكمة ومصلحة فيما يروم، وعلى أية حال فلا شفاعة في التشريع كأصل لغير الله فإنه الشارع لا سواه، ثم لا إذن ولا توكيل ولا تخويل في تشريع لسواه!

ومن الأولى أن يشفع نفسه برحمة من الله حتى يوحي أو يلهم ويعلم، أو يشفع فعله بإرادة الله حتى يجعل له آية كما في المسيح عليه السلام، أو يشفع استغفاره باستغفار المذنبين حتى يغفر الله لهم كما في الرسول محمد ﷺ، أو يشفع نفسه بوجاهتها برحمة الله وهكذا الأمر، أو يشفعها بشخص المذنب أو بهما - وفي كل ذلك ليس الله بحاجة إلى شفع، فقد يشفع دون شفيع كما في التوبة أو رجاحة الحسنات أم ترك كبائر السيئات في باب المعاصي، أم يشرع دون شفع كما في سائر الأحكام التشريعية، فما شفع الشافع إلّا تكريماً له، وتقريباً للمشفع له أن يتربى تربية بغية أن يشفع له.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٤..

فلا شفاعة إلّا بإذنه، دون وكالة وتخويل: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾(١) ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾(٢) إذن للشافع أن يشفع وللمشفّع له أن يشفَّع له، شفع الإذن وإذن الشفع، وليس الإذن فوضى جزاف، وإنما على شروط فيهما، جميعاً أو فرادى، ومنها الرضى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾(٣): يرضى الشافع ديناً ويرضى له قولاً: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾(٤) ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾(٥) ويرضى المشفع له ديناً: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾(٦) من ارتضى الله دينه وهو «من ساءته سيئة وسرته حسنته»(٧) أن يعيش ديناً مهما يفلت منه فالت ويفوت عنه فائت، ويرضى له قولاً في اعتذاره.

ومنها الحفاظ على عهد الرحمان واتخاذه: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾(٨) لا المتقون إلّا من اتخذ عند الرحمن عهد الشفاعة وإذنها ولا المجرمون إلّا من اتخذ عند الرحمن عهد العبودية. ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٢٣.
(٣) سورة النجم، الآية: ٢٦.
(٤) سورة طه، الآية: ١٠٩.
(٥) سورة النبأ، الآية: ٣٨.
(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.
(٧) كما يروى عن الإمام الرضا عليه السلام (تفسير البرهان عن أمالي الصدوق) وفي الكافي عن حفص المؤمن عن أبي عبد الله عليه السلام في رسالته إلى أصحابه قال: واعلموا أنه ليس يغني عنكم من الله أحد من خلقه لا ملك ولا نبي مرسل ولا من دون ذلك، من سرّه أن ينفعه شفاعة الشافعين عند الله فليطلب إلى الله أن يرضى عنه.
(٨) سورة مريم، الآيات: ٨٥ - ٨٧.

إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾[(١)] أن يعيش حياته تطبيقاً لعهد العبودية إلّا أن يفلت فالت من اللمم أم ماذا؟

ومنها الشهادة بالحق وهم يعلمون: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[(٢)] فلا شفاعة ممن يدعون من دون الله ولا لهم، اللهم إلّا لأهل الله شافعين ومشفعين أن يشهدوا بالحق عالمين، فيشهد الشافع أن فلاناً كانت حياته إيمانية ويشهد المشفع بأعماله ما يصدّق الشافع[(٣)].

فمن عاش حياة الإيمان ومات على إيمان، وبقيت له سيئات من كبائر لم تكفّر ولم تغفر، فهو الذي يشفع له يوم القيامة، حيث التوبة شافعة يوم الدنيا لأي ذنب، وإن كان شركاً، والصغائر مكفّرة بترك الكبائر: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[(٤)] ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ . . . ﴿٣٢﴾﴾[(٥)].

وبرجاحة الحسنات الكبرى مثل الصلاة، فإنهن يذهبن السيئات: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[(٦)].

(١) سورة يس، الآية: ٦٠.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨٦.
(٣) في الخصال عن علي عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ثلاثة يشفعون إلى الله عزّ وجلّ فيشفّعون: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء.
العلماء هنا هم أوصياء الأنبياء والشهداء هم شهداء الأعمال من الأولياء.
(٤) سورة النساء، الآية: ٣١.
(٥) سورة النجم، الآيتان: ٣١، ٣٢.
(٦) سورة هود، الآية: ١١٤.

ومن الحسنات ما يبدل السيئات حسنات: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾[(١)].

ولا شفاعة إلّا في القيامة لمن رضي الله له قولاً وديناً واتخذ عند الرحمن عهداً ومات على إيمان، بعد ما كفّرت سيئاته بترك الكبائر أو بدلت حسنات، أو أذهبت حسناته سيئات، ثم مات وعليه كبائر لم تكفر بما يجازى في البرزخ فاستحق العذاب يوم القيامة، فهنالك الشفاعة على شروطها لمن يأذن الله ويرضى، كما يروى عن رسول الهدى ﷺ: «إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[(٢)].

إذن فليست الشفاعة بالتي تشجّع على الانهماك في المعاصي دون مبالاة، وإنما هي سياج صارم على نزوات المسلم في حياته الإيمانية، ألّا يقنط من رحمة الله فيترك سائر الحسنات لأنه ترك واحدة، أو يخوض في السيئات لأنه اقترف واحدة لولا الشفاعة بتوبة أو رجاحة للحسنات، أو ترك للكبائر، أو شفاعة يوم القيامة.

فإنما الشفاعة الفوضى ودون شروط هي التي تشجّع على اللّامبالاة، وتناقض تشريع الأحكام، كالتي عند المسيحيين من الفداء الصليبي، كما أن نفي الشفاعة إطلاقاً يخلِّف قنوطاً من رحمة الله، حيث الكثرة الكثيرة من

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.

(٢) تفسير البرهان ٣ عن أمالي الصدوق عن الإمام الرضا عن أمير المؤمنين عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ من لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي ومن لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي ثم قال: إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي فأما المحسنون فما عليهم من سبيل فقيل للرضا عليه السلام: يا بن رسول الله ﷺ فما معنى قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الانبياء: ٢٨] قال: من ارتضى الله دينه وهو من ساءته سيئته وحسنته ورواه «انما شفاعتي» الفريقان بطرق عدة، فمن ليس من أمة الإسلام لا تناله الشفاعة ومن ليست له كبيرة ليس بحاجة إلى شفاعة حيث كفرت صغائره بكبائر المنهيات.

الناس يبتلون أحياناً بمنكرات، فلولا الشفاعة لخاضوا المحرمات، إذ يرون أنفسهم من أهل النار، دون مناص ولا فرار!

والحالة العوان بين الخوف والرجاء هي التي تصلح الإنسان، بين تحذر من المعاصي ورجاءٍ للغفران، بعد العلم أن كسب السيئات دون جبران يُنهي بالإنسان إلى النار: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

وإذا كان من الشروط الأصيلة للشفاعة أن يكون المشفَّع له مرضياً عند الله قولاً في اعتذار وإيماناً وفعلاً، فليحاول المؤمن كلّ جهده أن يعيش حياة الإيمان بتحقيق العهد الذي اتخذ عند الرحمن، لكي تنفعه شفاعة الشافعين، دون حياة اللّامبالاة اللّاإيمان، اتكالاً على الإقرار باللسان وادعاء الإيمان، دون أن يقوم بشرائط الإيمان، راجياً أن يشفع له الشافعون ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾[2] كما نراه من كثيرين يغترون بما يزخرفه لهم قراء التعازي أنه تكفيكم البكاء ثم الله يغفر لكم عدد النجوم وقطر السماء! خلافاً لما ترسمه لنا آيات من القرآن.

فلا نصدق إفراط المفرطين في الشفاعة هكذا ولا تفريط المفرِّطين في نكرانها وإنما هي عوان بين ذلك، تصلح الأمة وتجعلها دوماً بين الخوف والرجاء، ثم الأحاديث لا تصدّق منها إلّا ما يصدقها كتاب الله، مهما كثرت رواتها وعلت عُلّاتها، أو ضعفت وكثرت عِلّاتها، حيث الأصل هو كتاب الله لا سواه.

ومن الثابت كتاباً وسنة أن الرسول ﷺ هو أفضل الشافعين: ﴿عَسَىٰٓ أَن

(١) سورة البقرة، الآية: ٨١.
(٢) سورة النور، الآية: ٣٩.

يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾(١) فإنه بَعثُ الشفاعة يوم الدين، لا بعث الرسالة يوم الدنيا حيث كان مبعوثاً يوحى إليه، واستفاضت الأحاديث أن المقام المحمود هو الشفاعة، وليست هي غروراً «فهل يشفع إلّا لمن وجبت عليه النار»(٢).

وكيف تكون الشفاعة لأهل الكبائر ومن وجبت عليه النار ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى «ومن ارتكب الكبيرة لا يكون مرتضى»؟؟ -.

الجواب «ما من مؤمن يرتكب ذنباً إلّا ساءه ذلك وندم عليه وكفى بالندم توبة ومن سرته حسنته وساءته سيئة فهو مؤمن فمن لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن ولم تجب له الشفاعة وكان ظالماً و﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ . . . ﴾(٣).

فجملة القول أنه لا يشفع إلّا لمن ارتضى الله دينه، الذي يتخوف عن

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.

(٢) تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ [سبأ: ٢٣] عن أبي العباس المكبر قال: دخل مولى لامرأة علي بن الحسين يقال له: أبو أيمن فقال: يا أبا جعفر تغرون الناس وتقولون: شفاعة محمد شفاعة محمد! فغضب أبو جعفر عليه السلام حتى تربّد وجهه ثم قال: ويحك يا أبا أيمن أغرّك أن عف بطنك وفرجك؟ أما لو قد رأيت أفزاع القيامة لقد احتجت إلى شفاعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويلك فهل يشفع إلّا لمن وجبت له النار؟. . .

(٣) سورة غافر، الآية: ١٨. رواه في التوحيد عن الكاظم عن أبيه عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي فأما المحسنون فما عليهم من سبيل، قيل يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم! وكيف. يكون مؤمناً من لا يندم على ذنب يرتكبه؟ فقال: ما من أحد يرتكب كبيرة من المعاصي وهو يعلم أنه سيعاقب عليه إلّا ندم على ما ارتكب ومتى ندم كان تائباً مستحقاً للشفاعة ومتى لم يندم عليها كان مصراً والمصر لا يغفر له لأنه غير مؤمن بعقوبة ما ارتكب ولو كان مؤمناً بالعقوبة لندم وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لا كبيرة مع الإستغفار ولا صغيرة مع الإصرار وأما قول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] فإنهم لا يشفعون إلّا لمن ارتضى الله دينه والدين الإقرار بالجزاء على الحسنات والسيئات، فمن ارتضى دينه ندم على ما ارتكبه من الذنوب لمعرفته بعاقبة في القيامة».

المعصية ويندم عندها، ويرغب في الطاعة ويفرح عندها، حيث يعيش حياة الإيمان مهما اعتراه من عارض العصيان.

وأما المنهمكون في الشهوات، الذين يهرعون إليها مسرعين، وإذا ما فاتتهم ذعروا مغضبين، ثم إذا حمّلوا على واجبات تحمّلوها نادمين، فهؤلاء ليسوا من المؤمنين ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾(١) بل «وما لهم من شافعين».

وكذلك الذين لا يندمون، فهم يمارسون الشهوات ما يفسح لهم مجال، تسويفاً للندم ورجاء للغفران، وإن كانوا يؤمنون بالحساب والعقاب، فإن دينهم هذا خطأ غير مرضي معرفياً، كما أن أولئك أخطأوا عقيدياً، وإن كانا يختلفان دَرَكاً باختلاف اللّامعرفة واللّإيمان.

فسواء عليك في حرمان الشفاعة أنك من الكافرين، أو لست من النادمين في مآسيك ومعاصيك رغم سمة من الإيمان، لمكان وصمة العصيان اللزام، أو تسوِّف الندم وتمارس العصيان، فدينك ليس مرضياً مهما اختلفت هذه الدركات، على أن تراكم المعاصي ترين على قلبك وتسلب عنك نور الإيمان: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾(٢) ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(٣) فتموت على غير إيمان خارجاً عن أمة الإسلام.

فالمؤمن لا يخلد في النار شرط أن يلاقي ربَّه بالدين الحق والإيمان المرضي، ولكنما الإيمان من حيث بقائه على خطر عظيم من جهة الإدمان في العصيان، فليكن الأصل في حياة المؤمن الالتزام بشرائط الإيمان قدر

(١) سورة المدثر، الآية: ٤٨.
(٢) سورة المطففين، الآية: ١٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٨١.

الإمكان، ثم إذا فلت فالت فهنالك الندم والتوبة، ورجاحة الحسنات على السيئات، وترك الكبائر، ثم أخيراً الشفاعة يوم القيامة بعدما كلّت أو قلّت مكفراتها من ذي قبل، ولا شفاعة قبل الآخرة ولا في البرزخ وكما يروى عن الصادق عليه السلام وفقاً للقرآن: «ولكن والله أتخوف عليكم في البرزخ..»[١] وقد تكون في الدنيا باستغفار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أم ذويه؟: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[٢] وكما الملائكة يستغفرون: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾[٣].

ثم الشفاعة هي في حقوق الله إلّا الشرك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٤] دون حقوق الناس اللّهم إلّا أن يرضي الله مظلوماً يوم الحساب: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[٥].

(١) سفينة البحار ١: ٧١ عن الكافي عن عمر بن يزيد قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إني سمعتك وأنت تقول: كل شيعتنا في الجنة على ما كان فيهم؟ قال: صدقتك كلهم والله في الجنة، قال: قلت جعلت فداك إن الذنوب كثيرة كبائر فقال: أما في القيامة فكلكم في الجنة بشفاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو وصي النبي عليه السلام ولكن والله أتخوف عليكم في البرزخ. قلت: وما البرزخ؟ قال: القبر حين موته إلى يوم القيامة.

(٢) سورة النساء، الآية: ٦٤.

(٣) سورة غافر، الآيتان: ٧، ٨.

(٤) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٥) سورة غافر، الآية: ١٨.

حصيلة البحث حول الشفاعة:

هنالك شروط مشتركة بين الشافعين والمشفوع لهم: «مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا واتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً».

وللشافعين ﴿شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1] وللمشفعين ﴿لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[2] الله دينه.

شروط خمسة بينهما تقتضي قبول الشفاعة قضية آياتها.

ثم لا شفاعة في الدنيا ولا في البرزخ، إلّا ما تشفع التوبة ورفاقها من مكفرات دون الصالحين، فلو كانت في الدنيا لم يبق مجال للأخرى، ولو كانت في البرزخ لم يبق مجال للقيامة، وآيات الشفاعة كلها تنحو منحى القيامة، ويا النسبة للذنوب التي لم تكفر بمكفرات الدنيا والبرزخ، كما ورواياتها في ظلالها طبقاً عن طبق!

إذاً فلا شفاعة إلّا في كبائر السيئات وترك كبائر الحسنات حيث الصغائر منها مكفرة بترك الكبائر، اللهم لمن جمع بينهما سلباً أو إيجاباً فلا مكفر لصغائره فتصبح صغائره كبائر قد يشفع فيها بشروطها.

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٦.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

فهرس الجزء الأول

الموضوع — الصفحة

سورة الفاتحة
مكية - وآياتها سبع

سورة البقرة
«مدنية - وآياتها مائتان وست وثمانون»